تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

المجلد الثاني

والكاظمين الغيظ

الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة

تفسير
مقتنيات الدرر

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير مقتنيات الدرر

تأليف

السيد مير علي الحائري الطهراني

المجلد الثاني

تحقيق

السيد محمد وحيد الطبسي الحائري

مراجعة وتدقيق

محمد تقي الهاشمي

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي

الحائري الطهراني، السيد ميرعلي (١٢٧٠ ـ ١٣٥٣ هـ)
تفسير مقتنيات الدرر و ملتقطات الثمر
العنوان والمؤلف: تفسير مقتنيات الدرر / تاليف السيد ميرعلي الحائري الطهراني
تحقيق: محمدوحيد الطبسي الحائري / مراجعة وتدقيق: محمدتقي الهاشمي /
تصحيح: حسين طه نيا
الناشر: قم. دارالكتاب الإسلامي، ٢٠١٢م ـ ١٣٩١ هـ . ش
المجموعة: (١ ـ ١٢ مجلد) لغة الكتابة: اللغة العربية
الموضوع: تفاسير شيعية ـ القرن ١٤ هـ
تسلسل: ١٣٨٨ ٧م ٢٣ح ٩٨/ BP
تسلسل ديويى: ٢٩٧/١٧٩
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية: ١٨٢٧٥٨٦

با مشاركت و حمايت معاونت امور فرهنگى
وزارت فرهنگ و ارشاد اسلامى چاپ و منتشر گرديد

الكتاب .... تفسير مقتنيات الدرر (ج ٢)
المؤلف......................... السيد مير علي الحائري الطهراني
الناشر .... مؤسسة دارالكتاب الإسلامي
الطبعة......................... الأولى ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م
المطبعة .... ستاره
عدد المطبوع.................. (٢٠٠٠) دوره
الترقيم الدولي للمجموعة .... ٩ ـ ٢٧٦ ـ ٤٦٥ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
الترقيم الدولي (ج ٢) .... ٣ ـ ٢٧٨ ـ ٤٦٥ـ ٩٦٤ـ ٩٧٨
السعر.............................٩٠٠/٠٠٠ ريال

قم ـ ميدان المعلم ـ شارع سمية ـ رقم ٢٢ ـ رقم المبنى ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ ـ ٧٧٣٠٩٩٤ فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

تتمة

سورة البقرة

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوٓا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ
اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ
أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ
حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي
الْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ الشَّيْطَٰنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾

أي وبعض الناس الّذين يتّخذون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ و«دون» في الأصل ظرف مكان لكن يستعمل مجازاً بمعنى «غير» مثل هذه الآية ﴿أَندَادًا﴾ لله بحسب ظنونهم الفاسدة يجعلونها أمثالاً لله حيث كانوا يرجون من عندها النفع والضرروقصدوها بالمسائل وقرّبوا لها القرابين فإرجاع الضمير للعقلاء في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ على زعمهم الفاسد في شأنها من وصفهم بما لا يوصف به إلّا العقلاء ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أي يسوّون بين الله وبين الأنداد في الطاعة والتعظيم.

ولفظ المحبّة مأخوذ من الحبّ بالفتح كحبّة الحنطة والشعير، شبّه حبّة القلب أي سويداء القلب بالحبّ المعروف، ثمّ استعير اسم الحبّ لها واشتقّ

من الحبّ المستعار للقلب «الحب» بمعنى ميل القلب لأنّه رسخ فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من حبّ الكفرة للأنداد ففضّل محبّة المؤمنين لأنّه لا ينفع محبّتهم بخلاف محبّة الأنداد لأنّها لأغراض فاسدة موهومة كما أنّهم كانوا يعبدون الصنم زماناً، فإذا رأوا صنما آخر يعجبهم أخذوه وتركوا الأوّل حتّى قيل: إنّ باهلة عملت لها إلهاً من خبيس فأكلوه عام المجاعة.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ أي لو يعلم هؤلاء الّذين أشركوا باتّخاذ الأنداد ووضعها موضع المعبود ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ المعدّ لهم يوم القيامة وعاينوه ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ وجواب «لو» محذوف، والتقدير: لوقعوا في الندامة والحسرة على عبادة الأنداد فيما لا يكاد يوصف.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ لمّا ذكر الّذين اتّخذوا الأنداد ذكر سوء أحوالهم في المعاد. والعامل في الظرف في قوله: «إذ تبرّأ» قوله: «شديد العذاب». إذ تبرّأ الّذين اتّبعوا وهم القادة والرؤساء من الإنس المضلّين أو المراد الشياطين الموسوسة المضلّة للإنس من الّذين اتّبعوا أي من السفلة والتابعين ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي رأى التابع والمتبوع حين دخول النار ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ وزال عنهم كلّ سبب يمكن أن يتعلّق به مثل العهود الّتي كانت بينهم يتوادّون عليها، والأرحام الّتي كانوا يتعاطفون بها، والوصلات الّتي كانوا يتقوّون بها على اختلافها من المنزلة والشرف والقرابة والمودّة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ يعني الشياطين قالوا: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ بسبب عودة إلى دار الدنيا وحال التكليف لنا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ من متبوعينا ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ اليوم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإبراء الفظيع[1] ونزول العذاب عليهم ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ ندمات شديدة فإنّ الحسرة شدّة

١ـ الفضيع: شديد الشناعة.

تألّم القلب من الندم والكمد بحيث يبقى النادم كالحسير من الدوابّ وهو الّذي انقطعت قوّته فصار بحيث لا ينتفع به.

وحاصل المعنى أنّ أعمالهم تنقلب عليهم حسرات مستولية لأنّ ما عملوه من الخيرات محبوطة بالكفر فيتحسّرون لم صنعوها، وترفع لهم الجنّة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها فيقال لهم: تلك مساكنكم لو أطعتم الله.

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ روي: أنّه يساق أهل النار إلى النار لم يبق منهم عضو إلّا لزمه عذاب، إمّا حيّة تنهشه أو ملك يضربه فإذا ضربه الملك هوي في النار مقدار أربعين يوماً لا يبلغ قرارها، ثمّ يرفعه اللهب ويضربه الملك فيهوي فإذا بدا رأسه ضربه ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فإذا عطش أحدهم طلب الشراب فيؤتى بالحميم فإذا دنى من وجهه سقط وجهه ثمّ يدخل في فيه فتسقط أضراسه ثمّ يدخل بطنه فيقطع أمعائه، وينضج جلده وهكذا يعذّبون في النار لا يموتون فيها ولا يخرجون.

نزلت الآية في قوم حرّموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس أي من بعض ما فيها من أصناف المأكولات لأنّ كلّ ما فيها لا يؤكل ﴿حَلَٰلًا﴾ حال من الموصول أي حال كونه حلالاً وهو ما انحلّ عنه عقد الحظر ﴿طَيِّبًا﴾ طاهراً من الشبهات يستطيبه الشرع وتستطيبه الشهوة المستقيمة ويستلذّه الطبع.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ «الخطوة» بالفتح المرّة من نقل القدم وبالضمّ بعد ما بين قدمي الماشي يقال: أتبع خطواته ووطئ على عقبه إذا اقتدى به واستنّ بسنّته[1] أي لا تقتدوا بآثاره وطرقه في اتّباع الهوى ووساوسه فتحرّموا الحلال وتحلّلوا الحرام ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليل للنهي أي ظاهر و«مبين» بمعنى اللازم من «أبان» بمعنى «بان» لكنّ الواحديّ جعله بمعنى

١ـ مجمع البحرين،ج ١، ص ٦٦٧؛ أيضاً جوامع الجامع، ج ١، ص ١٧٣.

المتعدّي لأنّه قد أبان عداوته لكم بإبائه السجود لأبيكم آدم وأخرجه من الجنّة.

إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوٓءِ وَالْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم﴾ ويوسوس لكم شبه تسلّطه عليكم بأمر مطاع ﴿بِالسُّوٓءِ﴾ لأنّ كلّ ما يأمركم به ساءكم في العاقبة فيطلق على جميع المعاصي ﴿وَالْفَحْشَآءِ﴾ من عطف الخاصّ على العامّ أي أقبح أنواع المعاصي فالزنى فاحشة وكلّ فعلة قبيحة مجاوزة القدرة من كلّ شيء وأعظمها مساءة.

﴿وَأَن تَقُولُوا﴾ ويأمركم أن تفتروا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بأنه حرّم هذا وحلّل هذا ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قيل: هو دعواهم له الإشراك.

فإن قيل: كيف يأمرنا ونحن لا نراه ولا نسمع منه؟ فأمره لنا أنّ اللعين يحدّث النفس بالأفكار الرديئة الّتي تميل إليه النفوس والطمع ويدخل بذكر الإنسان وخاطره ذلك الميل ويعين النفس الأمّارة ويرغّبها فيه.[1]

ووسوسة اللعين على مراتب:

الأولى مرتبة الكفر والشرك ومعاداة الرسول وإنكار ما أنزل الله في كتابه واستكراه أوامره فإذا ظفر بذلك برد أنينه واستراح وهذا أوّل ما يريده من العبد، المرتبة **الثانية** البدعة وهي أحبّ إليه من الفسوق والمعاصي لأنّ المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها لأنّ صاحبها يظنّها حقيقة صحيحة فلا يتوب منها فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة **الثالثة** وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة **الرابعة** وهي الصغائر الّتي إذا اجتمعت صارت كبيرة، والصغائر ربّما أهلكت صاحبها كما قال عليه السلام:

١ـ انظر: التبيان، ج ٢، ص ٧٤؛ ورواه الطبرسي في تفسيره، ج ١، ص ٤٦٩.

«**إيّاكم ومحقّرات الذنوب**»[١] فإنّ مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض فجاء كلّ واحد بعود حطب حتّى أوقدوا ناراً عظيمة وطبخوا وشبعوا.

فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة **الخامسة** وهي اشتغاله بالمباحات الّتي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عقابها فوات الثواب الّذي فات عليه باشتغاله بها.

فإن عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة **السادسة** وهي أن يشغله بالعمل المفضول عمّا هو أفضل منه لينزع عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل فيجرّه من الفاضل إلى المفضول ومن الأفضل إلى الفاضل ليتمكّن من أن يجرّه من الفاضل إلى الشرور، وربّما يجرّه من الفاضل السهل إلى الأفضل الأشقّ ،كمائة ركعة بالنسبة إلى ركعتين ليصير ازدياد المشقّة سبباً لحصول النفرة عن الطاعة بالكلّيّة.

وإنّما خلق الله إبليس ليتميّز الخبيث من الطيّب وخلق الله الأنبياء ليقتدي بهم السعداء فإبليس دلّال وسمسار على النار وبضاعته الدنيا.

قال بعض المفسّرين: الحلال الطيّب ما لا سؤال فيه يوم القيامة وهو ما لا بدّ فيه، قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**إنّ الله يهب لابن آدم ما لا بدّ منه ثوب يواري به عورته، خبز يردّ به جوعته، وبيت كعشّ الطير**» فقيل: يا رسول الله فكيف الملح؟ فقال: «**الملح ممّا يحاسب به**».

وفي «التأويلات النجميّة»: الحلال ما أباح الله أكله والطيّب ما لم يكن مشوباً بشبهة حقوق الخلق ولا بسرف حظوظ النفس ولهذا قال صلى الله عليه وآله: «**إنّ الله طيّب ولا يقبل إلّا الطيّب**»[٢]، يعني غير مشوب بعيب أو شبهة. وأكل الحلال الطيّب يورث القيام بطاعة الله والاجتناب عن خطوات الشيطان فالعمل

١ـ وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣١٣؛ وبحار الأنوار، ج ١، ص ١٤٧.

٢ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ١٩٤. أيضاً عوالي اللئالي، ج ٢، ص ٧٠.

الصالح نتيجة اللقمة الطيّبة وبالعكس.

وفي كسب الحلال فوائد كثيرة وهو سنّة الأنبياء: منها اشتغال المكتسب بالكسب عن البطالة واللهو. ومنها: كسر النفس عن الطغيان.

قال الشاعر:

إنّ الفـراغ والشـباب والجـدة   مفسـدة للمـرء أيّ مفسـدة

و منها: أنّ الكسب واسطة الأمان من الفقر ولا يتحرّك الرجل للكسب لأجل نفقته وعياله إلّا قال له حافظاه: (بارك الله لك في حركاتك وجعل نفقاتك ذخراً لك في الجنّة وتؤمّن عليهما ملائكة السماوات والأرض).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾

نزلت في مشركي العرب وكفّار قريش أمروا باتّباع القرآن فجنحوا للتقليد ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ في كتابه واعملوا بتحليل ما أحلّ الله وتحريم ما حرّم الله ﴿قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا﴾ وجدنا ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ من اتّخاذ الأنداد وتحريم الطيّبات فقال الله سبحانه ردّاً عليهم بهمزة الاستفهام والإنكار والتعجيب مع واو الحال بعدها: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ فاقتضت الهمزة صدر الكلام والواو بعدها، وبين الهمزة والواو جملة مقدّرة. والمعنى: أيتّبعونهم ولو كان آباؤهم لا يفهمون شيئا ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ للصواب والحقّ، أي هذا الأمر والرأي منهم منكر مستبعد قبيح لأنّ الجاهل لا يتّبع، والحقّ أحقّ أن يتّبع.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

«المثل» قول سائر يدلّ على أنّ سبيل الثاني سبيل الأوّل ويؤتى به لهذا

الأمر أي ومثل الواعظ الّذي يعظ هؤلاء الكفّار والداعي لهم إلى الإيمان كمثل الناعق في دعائه المنعوق به من البهائم الّتي لا تفهم يقال: نعق الراعي بالغنم إذا صاح بها زجراً ونعق الغراب إذا صوّت من غير أن يمدّ عنقه ويحرّكه فإذا مدّ عنقه وحرّكه ثمّ صاح يقال: نعب.[1]

والمراد أنّ المنعوق به يسمع الصوت ولا يفهم المعنى كذلك هؤلاء الكفّار لا يحصل من دعائك لهم إلى الإيمان إلّا السماع دون تفهّم المعنى لأنّهم ينصرفون عمدا عن تأمّله فيكونون بمنزلة من لم يعقله ولم يفهمه هذا أحد الأقوال في معنى الآية وهو قول ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن أبي جعفر.

والقول الثاني أن يكون المعنى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ومثلك يا محمّد ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ فحذف المثل الثاني اكتفاء بالأوّل كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾[2] قال أبو ذؤيب:

دعاني إليها القلب إنّي لأمرها   مطيع فما أدري أرشد طلابهـا؟

أراد: أرشد أم غي؟ فاكتفى بذكر الرشد لوضوح الأمر.

وثالث الأقوال ؛ أنّ المعنى مثل الّذين كفروا في دعائهم الأصنام كمثل الراعي في دعائه الأنعام ؛ فكما أنّ من دعى البهائم يعدّ جاهلاً فداعي الجماد والحجارة أشدّ جهلا منه لأنّ البهائم تسمع الدعاء وإن لم يفهم معناه والأصنام لا يحصل لها السماع ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ أي صوتاً من الناعق وزجراً مجرّداً من غير فهم شيء آخر، والفرق بين الدعاء والنداء أنّ الدعاء للقريب والنداء للبعيد.

﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾ أي هم صمّ كأنّهم يتصاممون عن سماع الحقّ وهم بمنزلة الخرس في أن لم يستجيبوا لما دعوا إليه وهم ﴿عُمْىٌ﴾ من حيث إعراضهم

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٧٠.

٢ـ سورة النحل: ٨١.

عن الدلائل كأنّهم لم يشاهدوها.

ثمّ إنّه تعالى لمّا شبّههم بفاقدي هذه القوى الثلاث فرّع على هذا التشبيه قوله: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يكتسبون الحقّ ممّا جبلوا عليه من العقل الغريزيّ ولهذا قيل: من فقد حسّاً فقد فقد علماً[١]، وليس المراد نفي أصل العقل؛ لأنّ نفيه رأساً لا يصلح طريقاً للذمّ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

ظاهر الآية الأمر والمراد منه الإباحة؛ لأنّ تناول المشتهى لا يدخل في التعبّد. وقيل: إنّه أمر على حقيقة وهو الأمر بالأكل الحلال وقت الحاجة دفعاً للضرر عن النفس وردّه القاضي وقال: هذا ممّا يعرض في بعض الأوقات والآية عامّة غير مقصورة عليه فيحمل على الإباحة، أي: كلوا من مستلذّات الرزق وما تستطيبونه منه.

وفيه دلالة على النهي عن أكل الخبائث لأنّه قيل: كلوا من الطيّب دون الخبيث كما أنّه لو قيل: كلوا من الحلال لكان دالّا على حظر الحرام.

قال الطبرسيّ: وهذا صحيح فيما له ضدّ قبيح مفهوم فأمّا غير ذلك فلا يدلّ على قبح ضدّه لأنّ قول القائل: «كل من مال زيد» لا يدلّ على أنّه أراد تحريم ما عداه لأنّه قد يكون الغرض البيان لهذا المورد خاصّة وما عداه موقوف على بيان آخر وليس كذلك ما ضدّه قبيح.[٢]

﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ الّذي أحلّها لكم وهذا الأمر ليس أمر إباحة لأنّ الإنعام يقتضي الشكر ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين بالله ومخصّصين

١ـ شرح رسالة الحقوق، ص ٧٩.

٢ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٧٤. ورواه الطوسي في تفسيره، ج ٢، ص ٨١.

الله بالعبادة «فاشكروا له» باللسان وبسائر الجوارح قال النبي ﷺ: «**يقول الله: إني والإنس والجنّ لفي نبأ عظيم أخلق ويعبد غيري وأرزق ويشكر غيري**».(١)

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٧٣)﴾

لمّا ذكر سبحانه إباحة الطيّبات عقّبه بتحريم المحرّمات فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وقرئ مشدّدة في جميع القرآن والأجود التخفيف «و الميتة» ما يموت من الحيوان بغير ذكاة ممّا يذبح، والسمك والجراد مستثنيان بدليل منفصل ﴿وَالدَّمَ﴾ الجاري ﴿وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ﴾ والخنزير كلّه حرام وإنّما خصّ لحمه بالذكر لأنّه معظم ما ينتفع به فهو الأصل وما عداه تبع له، وقد انعقد الإجماع على حرمة جميع أجزائه.

﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي وحرّم ما رفع به الصوت عند ذبحه للصنم ومعنى «الإهلال» في الأصل رفع الصوت وكانوا إذا ذبحوا لآلهتهم يرفعون أصواتهم بذكر الأصنام ويقولون باسم اللات والعزّى فقيل لكلّ ذابح وإن لم يجهر بالتسمية: مهلّ، حتّى قيل: لو ذبح مسلم ذبيحة وقصد بها التقرّب إلى غير الله صار مرتدّاً وذبيحته ميتة.

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ و أحوج وألجئ جوعا إلى أكل شيء ممّا حرّم الله بأن لا يجد غيرها ويخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ منصوب على الحاليّة أي إذا وجد هذا المضطرّ الميتة حال كونه لم يكن متعدّ على مضطرّ آخر بأن حصل ذلك المضطرّ الآخر من الميتة مثلاً قدر ما يسدّ رمقه وجوعته فأخذ منه وظلمه وتفرّد بأكله وهلك الآخر جوعاً،

١ـ كنزالدقائق، ج ١١، ص ٤٠٣

وهذا حرام لأنّ موت الآخر جوعاً ليس أولى من موته جوعاً، ولا عاد أي غير متعدّ ومتجاوز لما حدّ له فيه إلى حدّ الشبع عند الأكل بالضرورة بأن يأكل قدر ما يحصّل به سدّ الرمق والجوعة ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ في تناوله عند الضرورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما أكل في حال الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ﴾ بترخيصه ذلك.

ولم يذكر في هذه الآية سائر المحرّمات ؛ لأنّها ليست لحصر المحرّمات بل هذه الآية سيقت لنهيهم عن استحلال ما حرّم الله وهم كانوا يستحلّون هذه الأشياء فكانوا يأكلون الميتة ويقولون: تأكلون ما أمتّم ولا تأكلون ما أماته الله، على قياسهم الفاسد وكذا يأكلون الدم ولحم الخنزير وذبح الأصنام وليس المراد قصر الحرمة.

وقيل في معنى: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾: أي غير باغ على إمام المسلمين، وغير عاد بالمعصية طريق المحقّين وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله.(١)

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾

نزلت الآية في أحبار اليهود فإنّهم كانوا يرجون أن يكون النبيّ المبعوث في التوراة منهم فلمّا بعث الله نبيّنا محمّداً ﷺ من غيرهم غيّروا نعته حتّى إذا نظروا السفلة يجدونه مخالفاً لصفة محمّد ﷺ فلا يتّبعونه فلا تزول رئاستهم.

﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ﴾ بدل المنزل المكتوم عوضاً قليلا من الدنيا وهو المأكل كانوا يصيبونها من سفلتهم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أمّا في الآخرة فظاهر لأنّهم لا

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٧٦؛ أيضاً وسائل الشيعة ج ٢٤، ص ٢١٧.

يأكلون يوم القيامة إلّا عين النار عقوبة لهم على أكل الرشوة في الدنيا وأمّا في الدنيا فبأكل سببها من قبيل إطلاق اسم المسبّب على السبب ومعنى ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ ملء بطونهم يقال: (فلان أكل في بطنه)[١] فلمّا لم يقل: يأكلون في بعض بطونهم علم امتلاؤها.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بطريق الرحمة غضباً ونفي الكلام لازم للغضب، وعادة الملوك أنّهم يعرضون عن المغضوب عليهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يطهّرهم بالمغفرة من دنس الذنوب يوم يطهّر المؤمنين من ذنوبهم بالمغفرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع.

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾

﴿أُولَٰئِكَ﴾ إشارة إلى من تقدّم من المشترين الّذين ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ واستبدلوا الإيمان بالكفر فصاروا بمنزلة من يشتري السلعة بالثمن. والمراد بالضلالة كتمان أمرهﷺ مع علمهم به، وبالهدى إظهاره، أو المراد بالضلالة العذاب وبالهدى الثواب. والحاصل أنّهم استبدلوا النار بالجنّة.

وقوله: ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ تأكيد لما تقدّم لأنّهم لمّا عرفوا ما أعدّ الله لمن عصاه من العذاب ولمن أطاعه من الثواب ثمّ أقاموا على ما هم عليه من المعصية فكانوا اشتروا ما يوجب العذاب والنار.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي ما أجرأهم على النار أو ما أعملهم بأعمال أهل النار! وهو المرويّ عن الصادقعليه السلام وقيل: المعنى ما أبقاهم على النار كما يقال: ما أصبر فلانا على الحبس[٢]، وظاهر الكلام التعجّب والتعجّب

١ـ الصافي ج ١، ص ٢١٣. أيضاً كنزالدقائق ج ١، ص ٤٠٨.

٢ـ التبيان، ج ٢، ص ٩١. ومجمع البيان، ج ١، ص ٤٨٠.

لا يجوز على الله لأنّ التعجّب إنّما يكون ممّا لا يعرف سببه فالغرض من البيان أنّ الكفّار حلّوا محلّ من يتعجّب منه فهو تعجيب لنا منهم، ويجوز أن يحمل الكلام على الاستفهام يعني أيّ شيء أصبرهم على النار كما قال ابن عبّاس فيكون المعنى: أيّ شيء أجرأهم على النار وأعملهم بأعمال أهل النار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ (١٧٦)

أي ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب بالنار بسبب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي جنس الكتاب حال كونه ملتبسا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فلا جرم من يرفضه بالتكذيب والكتمان يبتلى بمثل هذا العذاب الدائم ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في جنس الكتاب الإلهيّ بأن آمنوا ببعضها وكفروا ببعضها أو المراد من الكتاب التوراة. واللام للعهد أو القرآن بأن قالوا: إنّه شعر أو سحر ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي خلاف بعيد عن الصواب ومستوجب لأشدّ العذاب.

وفي هذه الآيات وعيد عظيم لكلّ من يكتم أحكام الله أو يحرّفه لغرض فاسد فليحذر العلماء أن يكتموا الحقّ عن الملوك والأمراء وأرباب الدنيا خوفاً من اتّضاع مرتبتهم وطوح نظرهم إلى إحسانهم ورواتبهم فيكونوا حينئذ مداهنين في الدين.

قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر»**.[1] قال عليه السلام: **«إذا ظهرت البدع فليظهر العالم علمه وإلّا فعليه لعنة الله»**.[2] قال الحسن عليه السلام: **«إنّ الزبانية إلى فسقة حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان»**[3] فيقولون: ربّنا ما بالنا

١ـ انظر: الكافي، ج ٥، ص ٦٠؛ والخصال، ص ٦، والتهذيب، ج ٦، ص ١٧٨.

٢ـ الكافي، ج ١، ص ٥٤. وراجع: علل الشرائع، ج ١، ص ٢٣٦.

٣ـ الجامع الصغير، ج ٢، ص ٣٣.

يتقدّمون إلينا فيقول الله: ليس من يعلم كمن لا يعلم وذلك لأنّهم اشتروا الدنيا بالدين.

حكي أنّ رجلاً قال لأبي مدين: ما يريد منّي الشيطان فقال الشيخ أبو مدين: إنّه جاء قبلك وشكى منك وقال: إعلم يا شيخ أنّ الله ملّكني الدنيا فمن نازعني في ملكي لا أتسلّى عنه بدون إيمانه.

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

﴿ٱلْبِرَّ﴾ كلّ فعل مرضيّ يفضي بصاحبه إلى الجنّة ﴿أَن تُوَلُّوا۟﴾ أي أن تصرفوا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ يا أهل الكتابين في الصلاة ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ أي ليس كلّ البرّ، وليس البرّ كلّه منحصراً في التوجّه إلى مقابلهما. وذلك أنّ اليهود والنصارى أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حوّل رسول الله ﷺ إلى الكعبة وزعم كلّ واحد من الفريقين أنّ البرّ هو التوجّه إلى قبلته فردّ سبحانه عليهم بأنّه ليس البرّ ما أنتم عليه فإنّه منسوخ خارج من البرّ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ المعهود الّذي ينبغي أن يهتمّ بشأنه برّ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وحذف المضاف والسبب في التقدير أنّ اسم «لكن» من أسماء المعاني وخبرها من أسماء الأعيان فامتنع الحمل لذلك وإنّما قدّم الإيمان بالله في الذكر لأنّه أصل ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي بالبعث الّذي فيه جزاء الأعمال لا كما يزعمون من أنّهم لا تمسّهم النار إلّا أيّاماً معدودة وأنّ آباءهم الأنبياء ويشفعون لهم فأصل البرّ هو التوجّه إلى المبدء والمعاد اللّذين هما المشرق والمغرب في الحقيقة فهذان الأمران داعيان إلى الانقياد بجميع ما أمر الله به

ونهى عنه خوفا وطمعا ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ كلّهم بأنّهم عباد الله ليسوا بذكور ولا إناث ولا بشر ولا أولاد الله متوسّطون بينه وبين أنبيائه بإلقاء الوحي وإنزال الكتب وأمناء الله وسفراؤه. وذلك لأنّ اليهود أخلّوا بذلك حيث أظهروا عداوة جبرئيل ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي بجنس الكتاب الإلهيّ الّذي من أفراده القرآن حيث إنّهم لم يقبلوه وردّوه ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جميعاً بأنّهم المبعوثون إلى خلقه من غير تفرقة بين أحد منهم، واليهود أخلّوا بذلك حيث قتلوا الأنبياء وطعنوا في نبوّة خاتم النبيّين فهذه أمور يجب على كلّ مكلّف أن يعتقد بها.

﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي وأعطى الصدقة على حالة يحبّ المال قال ابن مسعود: هو أن تعطيه وأنت صحيح تأمل العيش وتخشى الفقر ولا تمهل حتّى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا. وقيل: الضمير في ﴿حُبِّهِۦ﴾ راجع إلى الله أي يعطون المال على محبّة الله وخالصاً لوجهه.[1] قال المرتضى قدّس سرّه: هذا الوجه أوجه ﴿ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ مفعول أوّل لآتى، أراد قرابة رسول‌الله‌ﷺ كما في قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[2] وهو المرويّ عن أبي جعفروأبي عبد الله. وقيل: المراد القرابة من أهل بيت المتصدّق وكلّ فقير وقدّم «ذوي القربى» لأنّهم أحقّ بالصدقة لقولهﷺ: **«صدقتك على المسلمين صدقة وعلى ذي رحمك اثنتان لأنّها صدقة وصلة لرحمك»** وقالﷺ: **«أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح»**[3] ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ الفقراء منهم وهو الّذي لا والد له وهو صغير ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾ والمسكين ضربان: من يكفّ عن السؤال وهو المراد هنا ومن ينبسط ويسأل وهو قوله: ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٨٦.

٢ـ سورة الشورى: ٢٣.

٣ـ الكافي، ج ٤، ص ١٠، ورواه الصدوق في ثواب الأعمال، ص ١٤٢.

الّذين يسألون ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي المسافر البعيد عن ماله وسمّي به لملازمته له كما تقول للّصّ القاطع:ابن الطريق ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الّذين ألجأتهم الحاجة إلى السؤال وفي الحديث: للسّائل حقّ ولو جاء على ظهر فرسه ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي وفي تخليص الرقاب بمعاونة المكاتبين وقيل:المراد بهم الأسارى.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة عطف على الموصول ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المفروضة على أنّ المراد بما مرّ من إيتاء المال التنفّل بالصدقة وقدّم في البيان على الفريضة مبالغة في الحثّ عليه أو الأوّل لبيان المصارف والثاني لبيان وجوب الأداء.

﴿وَٱلۡمُوفُونَ﴾ عطف على الموصول ﴿بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ والّذين إذا عاهدوا عهداً أوفوا به كالعهود الّذي بينهم وبين الله والنذور والعقود الّتي بينهم وبين الناس وكلاهما يلزم الوفاء به.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ يريد بالبأساء الفقر، وبالضراء العلّة والمرض ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ يريد وقت الحرب وجهاد العدوّ أي صابرين حين الشدّة في القتال خاصّة قال أمير المؤمنينعليه السلام: **«كنّا إذا احمرّ البأس اتّقينا برسول اللهصلى الله عليه وآله فلم يكن أحد منّا أقرب إلى العدوّ منه».**[1]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي صدقوا الله والتزموه علماً وعملا ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ أي اتّقوا بفعل هذه الخصال.

واتّفقت الإماميّة واستدلّت على أنّ المعنيّ بهذه الآية، أمير المؤمنينعليه السلام، لأنّه لا خلاف بين الأمّة أنّهعليه السلام كان جامعاً لهذه الخصال فهو مراد بها قطعاً ولا قطع على كون غيره جامعاً لها.

قال الزّجّاج والفرّاء: إنّها مخصوصة بالأنبياء المعصومين، لأنّ هذه الأمور

١ـ نهج البلاغة، ج ٤، ص ٦١.

لا يؤدّيها بكلّيتها إلّا الأنبياء.[١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

لمّا بيّن سبحانه أنّ البرّ لا يتمّ إلّا بالإيمان والتمسّك بالشرائع، بيّن الشرائع وبدأ بالدماء لأنّه الأهمّ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ أي فرض ووجب وقيل: كتب عليكم في أمّ الكتاب وهو اللوح المحفوظ على جهة الفرض[٢]، وأصل الكتاب الخطّ الدالّ على معنى فسمّي به ما دلّ على الفرض. قال الشّاعر[٣]:

كتب القتل والقتال علينا ... و على الغانيات جرّ الذيول[٤]

والقصاص والمقاصّة والمبادلة نظائر يقال: قصّ أثره أي تلاه شيئاً بعد شيء ومنه القصاص لأنّه يتلو أصل الجناية ويتبعه وهو أن يفعل بالثاني مثل ما فعله هو بالأوّل مع مراعاة المماثلة[٥] فإن لم تحصل المماثلة ولم يتمكّن منها فلا يقع القصاص وأمّا من يتولّى القصاص فهو إمام المسلمين ومن يجري مجراه فيجب عليه استيفاء القصاص عند مطالبة الوليّ لأنّه حقّ الآدميّ ويجب على القاتل تسليم النفس.

﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ و«في» للسبب أي بسبب قتل القتلى كما في

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٨٨.
٢ـ التبيان، ج ٢، ص ١٠٠.
٣ـ هو عمر بن أبي ربيعة، أوعبدالله بن الزبيرالأسدي.
٤ـ ديوان عمر، والبيان، والتبيين ج ٢، ص ٢٣٦؛ وأيضاً الكامل لابن الأثير، ج ٢، ص ١٥٤.
٥ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٨٨.

قوله ﷺ: **«إنّ امرأة دخلت النار في هرّة حبستها»**[١] أي بسبب حبسها إيّاها وهذا الحكم يتوجّه إلى القاتل عمداً وأمّا في الخطاء المحض وشبه العمد فلا يقع القصاص بل يجب الدية.

فإن قيل: كيف كتب عليكم القصاص في القتلى والأولياء مخيّرون بين القصاص والعفو وأخذ الدية؟

فالجواب: أنّ الوجوب لا ينافي التخيّر أي قد فرض عليكم التمسّك بما حدّ لكم وترك مجاوزته إلى ما لم يجعل لكم.[٢]

﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ مبتدأ وخبر، أي الحرّ مأخوذ ومقتول بمثله قال الصادق عليه السلام: **«لا يقتل الحرّ بعبد لكن يضرب الحرّ بضرب شديد ويغرم دية العبد»**[٣] وهذا أيضا مذهب الشافعيّ ومالك وهذا الشعر منسوب إليه:

خـذوا بـدمي ذاك الغـزال فإنّـه ... رماني بسـهمي مقلتيه على عمـد
و لا تقتلـوه إنّنـي أنـا عبـده ... و في مذهبي لا يقتل الحرّ بالعبد

وكذلك لا يقتل المؤمن بالكافر، ولكن عند الثوريّ وأبي حنيفه يقتل الحرّ بالعبد واستدلّا بعموم قوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾[٤] قالا: إنّ شريعة من قبلنا إذا قصّت علينا في القرآن من غير دلالة على نسخها فالعمل بها واجب، ولكن إذا صحّ أنّ الصادق عليه السلام قال: **«لا يقتل»** فغيره كاذب.

﴿وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ فإن قتل رجل امرأة وأراد أولياء المقتول القصاص،

١ـ مجمع البحرين، ج ٣، ص ٤٤٠.

٢ـ وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٩١؛ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٨٩؛أيضاً فقه القرآن، ج ٢، ص ٣٩٦.

٣ـ وسائل الشيعة، ج ٢٩، ص ٨٦، ح ٣٥٢١٩.

٤ـ سورة المائدة: ٤٨.

أدّوا نصف دية الرجل، القاتل إلى أهل الرجل وهذا هو حقيقة المساواة فإنّ نفس المرأة لا تساوي نفس الرجل بل هي على النصف منها فيجب إذا أخذت النفس الكاملة بالنفس الناقصة أن يردّ فضل ما بينهما وكذلك رواه الطبريّ في تفسيره عن عليّ عليه السلام: **«و يجوز قتل العبد بالحرّ والأنثى بالذكر إجماعا»**.[١]

ونزلت هذه الآية في حيّين من العرب لأحدهما طول[٢] على الآخر وكانوا يتزوّجون نساء بغير مهور وأقسموا: لنقتلنّ الحرّ منكم بالعبد منّا، وبالمرأة منّا الرجل منكم، وبالرجل منّا الرجلين منكم، وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراحات أولئك حتّى جاء الإسلام فأنزل الله هذه الآية.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾ «من» موصولة أو شرطيّة والضميران راجعان إلى «من» أي شيء من العفو قليل، ومعنى العفو الترك وعفت الدار: تركت حتّى درست ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾ أي الجاني والقاتل إذا عفي له من أخيه الّذي هو وليّ الدم وذكر بلفظ الاخوّة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من اخوّة الإسلام فدلّت الآية على أنّ اخوّة الإسلام بينهما لم تنقطع وأنّ القاتل لم يخرج عن الإيمان بقتله ﴿شَيْءٌ﴾ وهو العفو من القصاص دون الدية وقوله: ﴿شَيْءٌ﴾ يدلّ على أنّ بعض الأولياء إذا عفى يسقط القود والقصاص لأنّ شيئا من الدم قد بطل بعفو البعض، والله تعالى قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾ وهذا قول أكثر المفسّرين بأنّ العفو المراد في الآية أنّ وليّ الدم يعفو عن القصاص ويقبل الدية، ولم يذكر سبحانه العافي لكنّه معلوم أنّ المراد به من له القصاص والمطالبة.

قال الطبرسيّ: وأمّا الّذي له العفو عن القصاص فكلّ من يرث الدية إلّا

١ـ راجع: جامع البيان، ابن جرير الطبري، ج ٢، ص ١٤٤؛ ح ٢١١٩، أيضاً التبيان، ج ٢، ص ١٠٣.

٢ـ السلطة وبسط اليد.

الزوج والزوجة عندنا وأمّا غير أصحابنا من العلماء فلا يستثنوهما.[١]

قوله: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ خبر مبتدأ محذوف تقديره: وإذا حصل شيء من العفو وبطل القصاص فالأمر على وليّ المقتول بأن يطلب الدية بالمعروف ولا يظلم الجاني بالزيادة ولا يعنّفه ولا يشدّد عليه إن كان معسرا ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ هذه وصيّة للجاني بأن لا يماطل أولياء الدم ولا يبخس حقوقهم بل يشكرهم على عفوهم ويؤدّي حقوقهم إليهم.

﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ إشارة إلى الحكم المذكور من العفو والدية. تيسير وتوسعة لكم ورحمة منه حيث لم يجزم بالعفو وأخذ الدية بل خيّركم بين الثلاث: القصاص والدية والعفو مطلقا وذلك لأنّ في شرع موسى عليه السلام القصاص فقط وهو العدل المحض وفي دين عيسى عليه السلام العفو وهو الفضل فحسب وفي شرعنا القصاص للتشفّي والدية للترفّه والعفو للتكرّم.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ التخفيف وتجاوز ما شرّع له بأن قتل غير القاتل أو قتل القاتل بعد العفو وأخذ الدية فقد كان الوليّ في الجاهليّة يؤمن القاتل بقبول الدية ثمّ يظفر به فيقتله ﴿فَلَهُ﴾ باعتدائه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ موجع.

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

بيان لوجه الحكمة في القصاص فقال: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيّها الناس في إيجاب القصاص ﴿حَيَاةٌ﴾ لأنّ من همّ بالقتل فذكر القصاص ارتدع فكان ذلك سبباً للحياة وقيل: معناه: لكم في القصاص حياة لأنّه لا يقتل إلّا القاتل دون غيره بخلاف ما كان يفعله أهل الجاهليّة الّذين كانوا يتغابون بالطوائل ونظيره من كلام العرب: «القتل أنفى للقتل» إلّا أنّ ما في القرآن أكثر فائدة وأوجز في العبارة وأبعد من التكلّف بتكرير اللفظ وأحسن تأليفا بالحروف المتلاءمة:

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٩٠.

أمّا تكثير الفائدة فلأنّ فيه جميع ما في قولهم: القتل أنفى للقتل وزيادة معان منها إبانة العدل لذكره القصاص لأنّ القصاص عدل محض لكنّ القتل مطلقا ليس بعدل ومنها إبانة الغرض المطلوب والمرغوب فيه وهو الحياة.

وأمّا الإيجاز في العبارة فإنّ الّذي هو نظير القتل أنفى للقتل قوله تعالى: ﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ وهو عشرة أحرف وذلك أربعة عشر حرفاً.

وأمّا بعده من الكلفة فهو أنّ في قولهم: القتل أنفى للقتل تكريراً.

وأمّا الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فإنّه مدرك بالحسّ وموجود باللفظ فإنّ الخروج من الفاء إلى اللام في التلفّظ أعدل من الخروج من الألف إلى الهمزة لبعد الهمزة إلى اللام وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل في التلفّظ من الخروج من الألف إلى اللام.

فباجتماع هذه الأمور الّتي ذكرناها كان أحسن منه وأبلغ فتبيّن بين أعلى الطبقة من الكلام وأدناها مع أنّ قولهم: القتل أنفى للقتل أفصح كلام عندهم.

﴿يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ أي يا ذوي العقول والّذين يعرفون العواقب ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لكي تتّقون القتل بالخوف من القصاص، أو لكي تجتنبوا المعاصي.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾

ثمّ بيّن شريعة اخرى وهو الوصيّة فقال: فرض ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ﴾ أسباب الموت وظهرت أماراته وآثاره من العلل والأمراض، إذ لا اقتدار على الوصيّة عند حضور نفس الموت، أي هذا الحكم مكتوب عليكم في الأزل ﴿إِن تَرَكَ﴾ واحد منكم مالاً قليلاً أو كثيراً وقيل: المراد من «الخير» المال الكثير لا القليل قيل: من ألف درهم إلى خمسمائة درهم وقال ابن عبّاس: إلى

ثمانمائة درهم وروي عن أمير المؤمنين أنّه دخل على مولى له في مرضه وله سبع مائة درهم أو ستّمائة فقال: ألا اوصي؟ فقال‌عليه‌السلام: **«لا إنّ الله سبحانه قال ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ وليس لك كثير مال»** وهذا هو المأخوذ به عندنا الإماميّة لأنّ قوله‌عليه‌السلام حجّة.[1]

﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أي الوصيّة لوالديه وقرابته ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ ممّن يرث وممّن لا يرث من الأقرباء بالشيء الّذي يعرف أهل التميز أنّه لا جور ولا حيف فيه ويحتمل أنّ المراد من «المعروف» قدر ما يوصى به لأنّ من يملك المال الكثير إذا أوصى بدرهم فلم يوص بالمعروف ويحتمل أن يكون أمرهم سبحانه بالطريقة الجميلة في الموصى لهم وتركا للطريقة السيّئة فليس من المعروف أن يوصى للغنيّ ويترك الفقير ويوصى للقريب ويترك الأقرب كما كان يفعله أهل الجاهليّة وذلك لأنّ أهل الجاهليّة كانوا يوصون بمالهم للبعيد رياء وسمعة وطلباً للفخر والشرف ويتركون أقاربهم الفقراء، فشرّع الله في هذه الآية ما كان يصرف إلى الأبعدين وإلى الوالدين والأقربين فعمل بها حتّى نسختها آية المواريث في سورة النساء، فالآن لا يجب على أحد أن يوصي لأحد قريب ولا بعيد ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي حقّ هذه الوصيّة حقّا على المتّقين من المخالفة.

واختلف في هذه الآية فقيل: إنّها منسوخة في الوارث ثابتة في غير الوارث.

قال الطبرسيّ: وقيل: إنّها غير منسوخة أصلاً وهو الصحيح عند المحقّقين من أصحابنا لأنّ من قال: إنّها منسوخة بآية المواريث فقوله باطل بأنّ النسخ بين الخبرين إنّما يكون إذا تنافى العمل بموجبهما ولا تنافي بين

١ـ مجمع البيان ج ١، ص ٤١٣؛ وراجع: التبيان، ج ٢، ص ١٠٩؛ وتفسير القرآن، عبدالرزاق الصنعاني متوفى: ٢١١ هـ، ج ١، ص ٦٨.

آية المواريث وآية الوصيّة فكيف تكون هذه ناسخة بتلك مع فقد التنافي؟ ومن قال: إنّها منسوخة بقوله ﷺ: **«لا وصيّة لوارث»** فقد أخطأ لأنّ الخبر لو سلّم من كلّ قدح لكان يقتضي الظنّ ولا يجوز أن ينسخ كتاب الله بما يقتضي الظنّ، ولو سلّمنا الخبر مع ما ورد من الطعن على رواته لخصّصنا عموم الآية وحملناها على أنّه لا وصيّة لوارث بما يزيد على الثلث[1] كما في «الكافي» و«العيّاشي» عن الباقر عليه السلام، أنّه سئل عن الوصيّة للوارث، فقال: **«يجوز»** ثمّ تلا هذه الآية.[2] ثمّ نسخ الوجوب لا ينافي بقاء الجواز. العيّاشيّ عن الصادق عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«من لم يوص عند موته لذوي قرابته ممّن لا يورث فقد ختم عمله بالمعصية».**[3]

فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾

ثمّ أوعد على تغيير الوصيّة أي بدل الوصيّة، وذكر الضمير باعتبار الإيصاء كقوله: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[4] أي وعظ ﴿بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾ من الموصي من الأوصياء أو الأولياء أو الشهود ﴿فَإِنَّمَآ﴾ إثم التبديل على من يبدّل الوصيّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ بالإيصاء وتغييره ﴿عَلِيمٞ﴾ بما يفعله الوصيّ وغيره.

فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾

«الخوف» في الآية المراد منه العلم فهو من إطلاق اسم اللازم على الملزوم فإنّه إذا علم ﴿خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا﴾ ميلا عن الحقّ بالخطاء في

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٤٩٤.

٢ـ تفسيرالعياشي، ج ١، ص ٧٦، ح ١٦٤؛ أيضاً الكافي ج ٧، ص ٩٠.

٣ـ تفسيرالعياشي، ج ١، ص ٧٦، ح ١٦٦.

٤ـ سورة البقرة: ٢٧٥.

الوصيّة يعني أنّ الموصى إليه إن خشي أو علم ظلماً من الموصي فيما أوصى به إليه فيما لا يرضى الله به. القميّ عن الصادق عليه السلام قال: «**إذا أوصى الرجل بوصيّة فلا يحلّ للوصيّ أن يغيّر وصيّته بل يمضيها على ما أوصى إلّا أن يوصي بغير ما أمر الله فيعصي في الوصيّة وجائز له أن يردّها إلى الحقّ مثل رجل يكون له ورثة فيجعل المال كلّه لبعض ورثته ويحرم بعضها فللوصيّ أن يردّ الوصيّة إلى الحقّ وهو المراد بالجنف والإثم مثل أن يأمر مثلاً بعمارة بيوت النار واتّخاذ المسكر فيحلّ للوصيّ أن لا يعمل بشيء من ذلك**».(١)

﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الظاهر أنّ المراد بالمصلح هو الوصيّ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ أي بين الموصى لهم، وأجراه على طريق الشرع ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ﴾ ولا وزر على المغيّر في هذا التبديل لأنّه تبديل باطل إلى حقّ بخلاف الأوّل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ غفور عن المعاصي لمن تاب، رحيم للمحسنين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾

أي فرض عليكم صيام شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾(٢) بعد قوله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ والصيام في الشريعة هو الإمساك نهاراً عن المفطرات المعهودة وهذا صوم العوامّ، وأمّا صوم الخواصّ فالإمساك عن المنهيّات دائماً كما قيل: من أراد السلامة فليصم الدهر كلّه وليكن إفطاره الموت، وأمّا صوم أخصّ الخواصّ فالإمساك عمّا سوى الله.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الأمم من لدن آدم، وكان الصوم على آدم أيّام البيض وكان على قوم موسى صوم عاشوراء ﴿لَعَلَّكُمۡ

١ـ تفسير القمي، ج ١، ص ٦٥؛ وراجع: وسائل الشيعة، ج ١٩، ص ٣٥٠.

٢ـ سورة البقرة: ١٨٥.

تَتَّقُونَ ﴾ المعاصي وذلك لأنّ الصوم من موجبات التقوى فإنّ الصوم يكسّر الشهوة الّتي هي مبدء المعاصي وإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج، وتسكين الشهوة يحصل بالصيام والقيام.

أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ﴾ أي موقّتات قليلات فإنّ القليل من المال يعدّ عدّاً، وانتصاب «أيّاما» على الظرفيّة بتقدير «صوموا» دلّ الكلام عليه.

واختلف في هذه الأيّام قيل: إنّها غير شهر رمضان ، وكانت ثلاثة أيّام من كلّ شهر ثمّ نسخ. وقيل: ثلاثة أيّام من كلّ شهر وصوم يوم عاشوراء ثمّ قيل: إنّه كان تطوّعاً وقيل: كان واجباً ولكن على التقادير نسخ بصوم رمضان.[1]

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ مرضا يضرّه الصوم أو على سفر أي راكب سفر وقاطع مسافة، وهو ظرف عطف على قوله ﴿مَّرِيضًا﴾ وهو وإن كان ظرفاً فهو بمعنى الاسم أي مسافراً فالّذي ينوب مناب صومه عدّة من أيّام أخر، فعدّة من العدّ بمعنى المعدود ومنه يقال للجماعة المعدود من الناس: عدّة، وحاصل الآية أنّ فرض الصوم في الأيّام المعدودات يلزم الأصحّاء وأمّا من كان مريضاً أو مسافراً فله تأخير الصوم عن هذه الأيّام إلى أيّام أخر.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ واختلف في المراد فقال بعض المفسّرين: إنّ المعنى أنّ الأصحّاء الّذين يتمكّنون من الصوم مخيّرون بين أمرين بين أن

١ـ تفسير مجمع البيان ج ٢، ص ٩.

يصوموا وبين أن يفدوا وكان ذلك في بدء الإسلام ولم يكونوا متعوّدين بالصوم فخيّرهم سبحانه لئلّا يشقّ عليهم ثمّ نسخ التخيير ونزلت العزيمة بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾.

﴿فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾ أي إعطاء فدية وهي إطعام مسكين وهي نصف صاع على قول أهل العراق من كلّ يوم، وعند الشافعيّ مدّ من كلّ يوم وهو ملء الكفّين وامتدادها ولذا سمّي بالمدّ أي ممدودتين ومبسوطتين. وعند الإماميّة إن كان قادرا فمدّان، وإلّا فمدّ واحد. وقيل: إنّ هذه الرخصة كانت للحوامل والمراضع والشيخ الفاني، ثمّ نسخ من الآية الحامل والمرضع وبقي الشيخ الكبير على الحكم. وثالث الأقوال: أنّ باب الإفعال من معانيه السلب، كما تقول: أكرمته أي سلبت عنه الكرامة، فالمعنى: فعلى الّذين هم مسلوبين الطاقة من مرض أو عطاش أو كبر فعليهم بدل كلّ يوم مدّ. وعلى هذا المعنى فلا نسخ في الآية، وروى عليّ بن إبراهيم بإسناده عن الصادق عليه السلام: **«أنّ المراد من قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾[1] أي من مرض في رمضان فأفطر ثمّ صحّ فلم يقض ما فاته حتّى جاء رمضان آخر فعليه أن يقضي ويتصدّق لكلّ يوم مدّاً من طعام».**[2]

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ﴾ أي من تطوّع بزيادة الإطعام بأن يعطي المسكين الواحد أكثر من قدر الكفاية حتّى يزيده من نصف صاع فهو عمل برّ وخير له وقيل: أن يزيد على مسكين واحد، مثل أن يطعم مكان كلّ يوم مسكينين مثلاً.

﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي وصومكم خير لكم من الإفطار والفدية

١ـ سورة البقرة: ١٨٤.

٢ـ تفسيرالقمي، ج ١، ص ٦٦.

وهذا الجواز كان قبل النسخ، فأمّا بعد النسخ فلا يجوز أن يقال: الصوم خير من الفدية لأنّ الإفطار لا يجوز أصلاً، ومحكومون بالصوم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّ الصوم خير من الفدية وافترض الصوم بعد خمس عشرة سنة من النبوّة بعد الهجرة بثلاث سنين.

قيل: أوّل ما فرض الصوم على الأغنياء لأجل الفقراء في زمن الملك طهمورث ثالث ملوك بني آدم، وقع القحط في زمانه فأمر الأغنياء بطعام واحد بعد الغروب وبإمساكهم بالنهار إيثاراً على الفقراء وشفقة لهم بطعام النهار وتواضعاً لله.

والصوم سبب للولوج في ملكوت السماوات وواسطة الخروج عن رحم مضائق الجسمانيّات، المعبّر عنه بالنشأة الثانية كما أشير إليه بقول عيسى عليه السلام حيث قال: **«لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرّتين».**[1] **«ومجاهدة الصوم رابطة مشاهدة الصفاء»** وإليه يشير الحديث القدسيّ: **«الصوم لي وأنا أجزي به»**[2]، يعني: أنا جزاؤه لا حوري ولا قصوري.

وقال سبحانه في مخاطبة عيسى عليه السلام: **«تجوّع تراني»**. وإنّما يكون الله جزاء صومه إذا أمسك قلبه ولسانه وروحه وسرّه عمّا سواه، وأهل التأويل أوّلوا «صوموا للرؤية وأفطروا للرؤية» أي رؤية جلال الحقّ.

فينبغي أن يكون صوم العبد ظاهراً وباطنا أي أعضاؤه الظاهرة والباطنة، فصوم الأعضاء مثل اللسان عن الكذب والفحش والغيبة والنميمة واللغويّات وأمثالها، والعين عن النظر في الغفلة والريبة، وصوم السمع عن استماع الملاهي والمناهي وقس الباقي، وصوم النفس عن الآمال والتمنّي والشهوات،

١ـ اثنا عشر رسالة والمحقق الداماد، ج ٨، ص ٩٢.

٢ـ من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٧٥؛ تهذيب الأحكام، ج ٤، ص ١٥٢.

وصوم القلب عن حبّ الدنيا، وصوم الروح عن نعيم الآخرة ولذّاتها، وصوم السرّ عن رؤية وجود غير الله. وهذه المقامات تختلف على درجات المعرفة فمن كمال لطفه تعالى أن جعل صومكم في أيّام قلائل معدودات وثمرات صومكم إذا صمتم حسبما شرح في أيّام غير متناهية.

وأعلم أنّ الخلق في توجّههم إلى ما هو قبلتهم طائفتان: إحداهما العوامّ الّذين قصّروا نظرهم على العاجل من الدنيا والشهوات ومقتهم الرسول بقوله: **«ما ذئبان ضاريان في زريبة غنم بأكثر فساداً من حبّ المال والشرف في دين المرء المسلم»**[1]. وآخرون الخواصّ وهم الّذين علموا أنّ كلّ شيء فوقه شيء آخر، فهم من الأقلّين وتحقّقوا أنّ الدنيا من بعض مخلوقات الله وأعظم أمورها الأجوفان: المطعم والمنكح وقد شاركهم في ذلك كلّ البهائم والدوابّ، فأعرضوا عنها وتعرّضوا لمرتبة سنيّة واشتغلوا بما يبقى وهو الإطاعة، وقسم من هذا القسم الخواصّ صاروا أخصّ حيث كشف لهم معنى ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ وتحقّق عندهم حقيقة لا إله إلّا الله وأنّ كلّ من توجّه إلى ما سواه فهو غير خال من الشرك الخفيّ فجعلوا جميع الموجودات عندهم قسمين: الله وما سواه واتّخذوا ذلك كفّتي ميزان وقلبهم لسان الميزان فكلّما رأوا قلوبهم مائلة إلى الكفّة الشريفة حكموا بثقل كفّة الحسنات وكلّما رأوها مائلة إلى الكفّة الخسيسة حكموا بثقل كفّة السيّئات وهذا شغلهم وسلوكهم إلى أن وصلوا إلى المرتبة العليا، وهذا معنى الوصول إلى الحقّ لا كما توهّمه الطبقة الصوفيّة في مزخرفاتهم فتيقّظ من نومة الغفلة في يومك لغدك قبل أن يخرج الأمر من يدك.

١ـ مجمع الزوائد، ج ١٠، ص ٢٥٠ وراجع: بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٤٤؛ وكنزالعمال، ج ٣، ص ٢٢٢.

شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ الشهر معروف وجمعه في القلّة أشهر وفي الكثرة شهور. شهرت الحديث أظهرته وشهرت السيف: انتضيته والمراد الظهور بسبب الهلال، وإنّما سمّي برمضان لأنّ العرب سمّوا الشهور بمناسبة الأزمنة الّتي وقعت الشهور فيها، فوافق رمضان أيّام رمض الحرّ وشدّته وقيل: سمّي رمضان لأنّه يرمض الذنوب ويحرقها كما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **«من صام رمضان إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه»**.[1]

وارتفاع «شهر» على أنّه خبر مبتدأ محذوف يدلّ عليه أيّاما والتقدير: هي شهر رمضان، أو بدل من الصيام أي: كتب عليكم شهر رمضان، أو مرفوع على الابتداء ويكون خبره: ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ وقيل: ﴿رَمَضَانَ﴾ اسم من اسماء الله، أي: شهر الله.

وعن النبيّ ﷺ: **«نزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان وأنزلت التوراة لستّ مضين منه والإنجيل لثلاث عشرة والقرآن لأربع وعشرين»**.[2]

والقرآن من القرء، وهو الجمع لأنّه مجمع علم الأوّلين والآخرين.

﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ أي أنزل حال كونه هداية للناس إلى سواء الصراط ﴿وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ﴾ وحال كونه آيات واضحات بما يهدي

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٢؛ وأيضاًعوالي اللئالي، ج ٢، ص ٨١.

٢ـ جامع البيان، ابن جرير الطبري، ج ٢، ص ١٩٦؛ التفسيرالثعالبي، ج ١، ص ٣٨١.

إلى الحقّ ويفرّق بين الحقّ والباطل والهدى على قسمين: ما يكون بيّنا جليّا وما لا يكون، فذكر الجنس أولاً ثمّ أردفه بأشرف نوعيه ويالغ فيه بنفس الهداية.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ﴾ الفاء للتفريع حضر موضع الاقامة من المصر أو القرية كائناً ذلك الحاضر في الشهر ﴿فَلۡيَصُمۡهُ﴾ أي فليصم فيه بحذف الجارّ.

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**خطب رسول الله للناس في آخر جمعة من شعبان فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أيها الناس إنّه قد أظلّكم شهر فيه ليلة خير من ألف شهر وهو شهر رمضان، فرض الله صيامه وجعل قيام ليلة فيه بتطوّع صلاة كمن تطوّع بصلاة سبعين ليلة فيما سواه من الشهور، وجعل لمن تطوّع فيه بخصلة من خصال الخير والبرّ كأجر من أدّى فريضة من فرائض الله فيما سواه، ومن أدّى فيه فريضة من فرائض الله كان كمن أدّى سبعين فريضة فيما سواه من الشهور وهو شهر الصبر وإنّ الصبر ثوابه الجنّة وهو شهر المواساة وهو شهر يزيد الله فيه من رزق المؤمنين، ومن أفطر فيه مؤمناً صائماً كان له بذلك عند الله عتق رقبة ومغفرة لذنوبه فيما مضى**».

فقيل له: يا رسول الله ليس كلّنا نقدر على أن نفطر صائماً؟ قال: «**فإنّ الله كريم يعطي هذا الثواب من لا يقدر منكم إلّا على مذقة من لبن يفطر بها صائما أو شربة من ماء عذب أو تميرات لا يقدر على أكثر من ذلك، ومن خفّف عن مملوكه خفّف الله عليه حسابه وهو شهر أوّله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره إجابة والعتق من النار، ولا غنى بكم فيه عن أربع خصال: خصلتين ترضون الله بهما وخصلتين لا غنى بكم عنهما، فأمّا اللتان ترضون الله بهما فشهادة أن لا إله إلّا الله وأنّي رسول الله وأمّا اللتان لا غنى بكم عنهما فتسألون الله فيه: حوائجكم والجنّة وتسألون فيه العافية وتتعوّذون به من النار**».(١)

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ وإن كان مقيما حاضرا فيه ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ﴾

١ـ الكافي، ج ٤، ص ٦٦، ح ٤؛ ومن لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٩٥.

أي في سفر وإن كان صحيحا وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فعليه صيام أيّام أخر.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ حيث أوجب الفطر بالسفر والمرض ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ أي مشقّة بالصوم في السفر والمرض لغاية رأفته. قال الترمذيّ: اليسر اسم الجنّة والعسر اسم جهنّم، والتأويل: يريد الله بصومكم إدخالكم الجنّة ولا يريد بكم إدخال النار.

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ وإنّما أمرناكم بتكميل العدّة بصوم أيّام رمضان لأنّه مع الطاقة وعدم العذر يسهل عليكم، والمريض والمسافر يتعسّر عليهما ذلك فيكملان العدّة من وقت آخر وعليكم عدّ ما أفطرتم لتكملوا عدد قضاء ما أفطرتم.

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ وتعظّموه حامدين ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ إلى طريق الخروج عن عهدة التكليف ووفّقكم بتعليم هذه المثوبات والفيوضات ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لكي تشكروا الله على هذه النعمة باللسان والبدن والقلب.

وفي الحديث: **«من حافظ على ثلاث فهو وليّ الله حقّا ومن ضيّعهنّ فهو عدوّ الله حقّا الصلاة والصوم والغسل من الجنابة».**[1] وفي بعض الخبر: **«الجنان يشتقن إلى أربعة نفر: صائمي رمضان وتالي القرآن وحافظي اللسان ومطعمي الجيران وإنّ الله يغفر للعبد المؤمن عند إفطاره ما مشت إليه رجلاه وما قبضت عليه يداه وما نظرت إليه عيناه وما سمعته أذناه وما نطق به لسانه وما حدث به قلبه».**

أقول: إن صحّ الحديث فذلك بعد التوبة والصوم المستجمع للشرائط الّتي ذكرناه قبيل هذا. وفي الحديث: **«إذا كان يوم القيامة وبعث من في القبور، أوحى الله إلى رضوان أنّي أخرجت الصائمين من قبورهم جائمين عاطشين في الدنيا، فاستقبلهم بشهواتهم من الجنان فيصيح رضوان: أيّها الغلمان والولدان عليكم بأطباق من**

١ـ تفسير الثعالبي، ج ١٠، ص ١٨٠.

نور فيجتمع أكثر من عدد الرمل وقطرات الأمطار وكواكب السماء وأوراق الأشجار بالفاكهة والأشربة اللذيذة والأطعمة الشهيّة فيطعم من لقي منهم ويقول: كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيّام الخالية».

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «رأيت ليلة المعراج عند سدرة المنتهى ملكاً لم أر مثله طولاً وعرضاً، طوله مسيرة ألف ألف سنة وله سبعون ألف رأس، في كلّ رأس سبعون ألف وجه، في كلّ وجه سبعون ألف لسان وعلى كلّ رأس ألف ذؤابة من نور وعلى كلّ ذؤابة ألف ألف لؤلؤة معلّقة بقدرة الله وفي جوف كلّ لؤلؤة بحر من نور وفي ذلك البحر حيتان، طول كلّ حوت مقدار مائتي عام، مكتوب على ظهرهنّ: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، وذلك الملك واضع إحدى يديه على رأسه والأخرى على ظهره وهو في حظيرة القدس، فإذا سبّح اهتزّ العرش بحسن صوته، فسألت عنه جبرئيل، فقال: هذا ملك خلقه الله قبل آدم بألفي عام، فقلت أين كان هذا إلى هذه الغاية؟ فقال عليه السلام: إنّ لله مرجاً في الجنّة عن يمين العرش فكان هذا الملك فيه، فأمره الله في ذلك المكان أن يسبّح ويكون لك ولأمّتك ثوابه بسبب صوم شهر رمضان فرأيت صندوقين بين يديه، على كلّ صندوق ألف قفل من نور، وسألت جبرئيل عن الصندوقين فقال: سل منه، فسألته، فقال: إنّ فيهما براءة الصائمين من أمّتك من عذاب النار طوبى لك ولأمّتك».

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

سأل سائل من النبيّ صلى الله عليه وآله: أقريب ربّنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فنزلت الآية[1] فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ فقل ﴿إِنِّي قَرِيبٌ﴾ يدلّ بهذا

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٨، بحار الأنوار، ج ٨٧، ص ٥٣.

على أنّه سبحانه لا مكان له، إذ لو كان له مكان لم يكن قريباً من كلّ من يناجيه وقيل معناه أنّي سريع الإجابة إلى دعاء الداعي لأنّ السريع والقريب متقاربان ولكن شرط الإجابة المشيّة وموافقة القضاء لأنّ هذه الآية مطلقة والمطلق محمول على المقيّد والمقيّد قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾[1] فيكون المعنى: أجيب دعوة الداع إذا دعاني إن شئت ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ الإجابة والاستجابة يطلقان بمعنى واحد، قال الشاعر:

وداع دعانا من يجيب إلى النـداء فلم يستجبه عند ذاك مجيـب

أي لم يجب، ومعنى الآية: فليجيبوا إذا دعوتهم للإيمان والطاعة، قال المبرّد والسرّاج: معناه: فليذعنوا للحقّ بطلب موافقة ما أمرتهم به ونهيتهم عنه، وحاصل المعنى: فليجيبوني وليطيعوني. وقيل معناه: فليدعوني. قال النبيّ ﷺ: «**أعجز الناس من عجز من الدعاء وأبخل الناس من بخل بالسلام**»[2] ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ أي وليتصدّقوا فإنّي قادر على إعطائهم ما سألوه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ إلى الحقّويهتدون إليه والداعي يجب أن يسأل ما فيه صلاح له في دينه فالله سبحانه يجيبه إذا اقتضت المصلحة إجابته أو يؤخّر الإجابة إن كانت المصلحة في التأخير.

فإن قيل: إنّ ما يقتضيه المصلحة لا بدّ وأن يفعله فما معنى الدعاء وإجابته؟

فالجواب: أنّ الدعاء عبادة في نفسها يعبد الله بها لما فيه من إظهار الخضوع والانقياد إليه ولا يمتنع أن يكون وقوع ما سأله إنّما صار مصلحة بعد الدعاء ولا يكون مصلحة قبل الدعاء.

١ـ سورة الأنعام: ٤١.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٤؛ والأمالي، الشيخ المفيد، ص ٣١٧؛ والأمالي الشيخ الطوسي، ص ٨٩.

روي عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ العبد ليدعو الله وهو سبحانه يحبّ العبد، فيقول: يا جبرئيل لا تقض لعبدي هذا حاجته وأخّرها فإنّي أحبّ لا أزال أسمع صوته وأنّ العبد ليدعو الله وهو سبحانه يبغضه فيقول لجبرئيل: اقض لعبدي هذا حاجته وعجّلها فإنّي أكره أن أسمع صوته»**.[1]

وقيل لإبراهيم بن أدهم: (ما بالنا ندعو الله فلا يستجيب لنا فقال: لأنّكم عرفتم الله فلم تطيعوه وعرفتم الرسول ولم تتّبعوا سنّته وعرفتم القرآن فلم تعملوا بما فيه وأكلتم نعمة الله فلم تؤدّوا شكرها وعرفتم الجنّة فلم تطلبوها وعرفتم النار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدّوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا بهم وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس)[2].

قال الخضر عليه السلام لموسى (و اسمه إلياس بن ملكان وقيل: اسمه يلياء واختلفوا فيه، قيل: إنّه نبيّ، محتجّين بقوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ وبأنّه أعلم من موسى) وبالجملة ممّا نقل من وصاياه لموسى لمّا أراد أن يفارقه: **«يا موسى اجعل همّك في معادك ولا تخض فيما لا يعنيك ولا تترك الخوف في أمنك ولا تيأس من الأمن في خوفك، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعيّر أحد الخاطئين بعد الندم وابك على خطيئتك، يا موسى لا تطلب العلم لتحدّث به واطلب العلم لتعمل به، وإيّاك والغضب إلّا في الله ولا ترض على أحد إلّا في الله، ولا تحبّ لدنيا ولا تبغض لدنيا فإنّ ذلك يخرج من الايمان ويدخل في الكفر»**[3].

أقول: وأحكم الأجوبة في هذا الباب أنّه شرط لهذه الإجابة لعبده إجابة

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٩.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ مجمع البحرين، ج ١، ص ٦٦٠؛ تفسير الثعالبي، ج ٣، ص ٥٣٩.

العبد إيّاه فيما دعاه إليه لقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ فإذا لم يجب العبد ربّه بالإطاعة لا يجيب المولى دعوته كما قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[1] وقد قيل: إنّ الدعاء مفتاح باب السماء وأسبابه لقمة الحلال، حكي أنّه كان بالكوفة أناس يستجاب دعاؤهم كلّما دخل عليهم وال كانوا يدعون عليه فيهلك فلمّا ولّي الحجّاج الكوفة من ابن مروان دعاهم إلى مأدبته فلمّا أكلوا قال: أمنت من دعائهم فليدعوا عليّ ما شاؤوا. لكن مع ذلك كلّه فليكن العبد حريصاً على التضرّع والدعاء، ويسعى في دفع موانع الاستجابة ويهيّئ موجباتها كالخلوص والأزمنة والأمكنة.

قال ﷺ: **«قوام الدنيا بأربعة أشياء: بعلم العلماء وعدل الأمراء وسخاوة الأغنياء ودعوة الفقراء»**.[2]

وينبغي أن يسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى والأدعية المأثورة ويتوسّل إلى الله بالأنبياء والأئمّة المعصومين، وللدعاء أماكن يظنّ فيها الإجابة مثل عند رؤية الكعبة وفي مسجد النبيّ ﷺ والأقصى والكوفة والقبة الحسينيّة عليه السلام وبين ذكر الجلالتين من سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[3] وفي الطواف وفي البيت وعند زمزم وعند شرب مائه وعلى الصفا والمروة وفي السعي وخلف المقام والمزدلفة ومنى وعند الجمرات وعند قبور الأنبياء.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا

١ـ سورة البقرة: ٤٠.

٢ـ انظر: تحف العقول، ص ٢٢٢ وبحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٦.

٣ـ سورة الأنعام: ١٢٤.

عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

بيّن سبحانه وقت الصيام وما يتعلّق به من الأحكام فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ أي أبيح لكم في ليلة يوم الصوم ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ أصل الرفث قول الفحش والتكلّم بالقبيح، ثمّ جعل ذلك اسماً لما يتكلّم به عند النساء من معاني الإفضاء، ثمّ جعل كناية عن الجماع قال ابن عبّاس: «الرفث» كلمة جامعة لكلّ ما يريده الرجل من المرأة كالغمز والتقبيل.

﴿إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ وكان الرجل في ابتداء الإسلام إذا أمسى في رمضان حلّ له الأكل والشرب والجماع إلى أن يصلّي العشاء الأخيرة أو يرقد، فإذا صلّاها أو رقد ولم يفطر حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى القابلة، ثمّ إنّ بعض الأصحاب واقع أهله بعد صلاة الأخيرة فلمّا اغتسل أخذ يبكي ويلوم نفسه، وأتى النبيﷺ وقال: «**إنّي أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخاطئة فنزلت الآية**».[1]

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ وعبّر باللباس وجعل كلّ من الرجل والمرأة لباساً للآخر لتجرّدهما عند النوم واشتمال كلّ منهما على الآخر ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾ في الأزل ﴿أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ تخونونها بتعريضها للعقاب بمباشرة النساء في ليالي الصوم وقد ائتمن الله العباد على ما أمرهم ونهاهم، فالتكليف أمانة، فإذا عصوه في السرّ فقد خانوا وقد قال الله: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾[2] ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ عطف على «علم»

١ـ انظر: زبدة البيان، ص ١٦٩؛ وجامع البيان، ج ٢، ص ٢٢٥.

٢ـ سورة الأنفال: ٢٧

أي قبل توبتكم ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ أي محى أثره عنكم ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ﴾ لمّا نسخ التحريم ﴿بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ والمباشرة إلزاق البشرة بالبشرة، كنّي بها عن الجماع الّذي يستلزمها.

﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ واطلبوا ما قدّره الله لكم من الولد وهو أن يجامع الرجل أهله رجاء أن يرزقه ولداً يعبده، وقيل معناه: اطلبوا ما كتب الله لكم من الأمور الّتي بيّنه في كتابه، فإنّ الله يحبّ أن يؤخذ برخصه، كما يحبّ أن يؤخذ بعزيمته.

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ إباحة للأكل والشرب ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ويتميّز ﴿لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ أي النهار من الليل، فأوّل النهار طلوع الفجر الثاني وقيل: بياض الفجر من سواد الليل، وإنّما شبّه وعبّر بالخيط لأنّ القدر الّذي يحرّم الإفطار من البياض يشبه الخيط وهو أوّل ما يبدو ومن بياض النهار كالخيط الممدود دقيقا، ثمّ ينتشر، وإنّما قال سبحانه: ﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ لأنه إذا ظهر الخيط الأبيض فذلك الخيط الأبيض معه بقيّة من ظلمة الليل، ويكون طرفه الملاصق له كأنّه خيط أسود في جنب خيط أبيض ونور الصبح ينشقّ في خلال ظلمة الليل، فشبّها بخيطين أبيض وأسود ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ للتبيّن لأنّه بيّن الخيط الأبيض الّذي هو الفجر.

وروي أنّ عديّ بن حاتم قال للنبيّ ﷺ: إنّي وضعت خيطين من شعر أبيض وأسود، فكنت أنظر فيهما فلا يتبيّن لي فضحك رسول الله ﷺ حتّى بدت نواجذه (بالذال المعجمة وهي أقصى الأضراس الأربعة) ثمّ قال: **«يا ابن حاتم إنّما ذلك بياض النهار وسواد الليل فابتدء الصوم من هذا الوقت»**.[1]

﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ﴾ أي أديموا الإمساك في جميع أجزاء النهار ﴿إِلَى

١ــ فقه القرآن، ج ١، ص ٢٠٣؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢٣.

﴿ٱلَّيْلِ﴾ أي ينتهي النهار إلى وقت دخول الليل وعلامة دخوله سقوط الحمرة من جانب المشرق وإقبال السواد منه.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ قيل: أراد من المباشرة الجماع. وقيل: أراد الجماع وكلّ ما دونه من قبلة وغيرها وهو مذهبنا الإماميّة أي والحال أنتم معتكفون في المساجد، قال الطبرسيّ: والاعتكاف لا يصحّ عندنا إلّا في أحد المساجد الأربعة: المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وآله ومسجد الكوفة ومسجد البصرة، وعند غيرنا يجوز في سائر المساجد إلّا أنّ مالكا قال: إنّه يختصّ بالجامع قال الطبرسيّ: ولا يصحّ الاعتكاف عندنا إلّا بصوم وأيضا عندنا لا يكون إلّا في ثلاثة أيّام.(١)

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة في الآية ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي فلا تأتوها وهو أبلغ من قوله: فلا تعتدوها لأنّه نهي عن قربها فضلا عن تجاوزها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: بيانا مثل هذا البيان الوافي ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ ونصوص أحكامه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يحترزوا المعاصي. وفي الآية دلالة على أنّ الله تعالى أراد التقوى عن جميع الناس.

وفي الدعاء: «**أعوذ بك من الذنوب الّتي تهتك العصم**»(٢)، قال الصادق عليه السلام: «**هي شرب الخمر واللعب بالقمار وفعل ما يضحك الناس من اللهو والمزاح وذكر عيوب الناس ومجالسة أهل الريب**».(٣)

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٣.

٢ـ تهذيب الأحكام، الشيخ الطوسي، ج ٣، ص ٩٦؛ أيضاً من لايحضره الفقيه، ج ٢، ص ١٠٢.

٣ـ انظر: وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٢٨٢؛ وج ١١، ص ٥٢٠ ؛ ومعاني الأخبار، ص ٢٧٠.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي لا يأكل بعضكم مال بعض بالغصب والظلم والوجوه الّتي لا تحلّ. وقيل: المراد ما يؤخذ باللهو واللعب، مثل ما يؤخذ بالقمار والملاهي. وروي عن أبي جعفر عليه السلام: **«أنّه يعني بالباطل اليمين الكاذبة تقتطع به الأموال».**[1] وروي عن الصادق عليه السلام قال: **«كانت قريش يقامر الرجل في أهله وماله فنهاهم الله».**[2]

والآية تشتمل الجميع مثل: الرشى وحلوان الكاهن والمغنّي والنائحة والخبلة ووجوه الحرام بينهم كون الأكل بينهم وقوع التداول والتناول، وليس المراد نفس الأكل بل شاع في العرف أنواع التصرّفات في الإنفاق بالأكل، ولأنّ معظم المقصود من المال الأكل وحاصل المعنى: أن لا تأكلوها بالسبب الباطل.

﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ وتلقوا الأموال إلى القضاة، عطف على المنهيّ عنه فيكون مجزوما بـ(لا) الناهية المذكورة بواسطة العاطف، قيل: إنّه الودائع وما لا يقوم عليه بيّنة، فتراجعون فيها إلى الحكّام، فتحلفون كاذبين وتأكلون الوديعة. وقيل: إنّه مال اليتيم في يد الأوصياء وأنّهم يدفعونه إلى الحكّام إذا طولبوا به ليقطعوا بعضه وتقوم لهم في الظاهر حجّة. وقيل: ما يؤخذ بشهادة الزور، والأولى الجميع.

﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ﴾: وذلك الأكل بسبب وسيلة التحاكم إليهم وتجعلون هذه الوسيلة سبباً لأن تأكلوا بعض أموال الناس بالباطل،وبالفعل الّذي يوجب الإثم أو أن يحكم الحاكم بالظاهر وكان الأمر في الواقع بخلافه.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّ ذلك الفريق من المال ليس بحقّ لكم، أو أن

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٥؛ والصافي، ج ١، ص ٢٢٦.

٢ـ مجمع البيان، ج٢، ص٢٥؛ ووسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١١٩.

تراجعوا إلى حكّام مبطلين يأخذون منكم الرشى ويحكمون لكم ما ليس لكم وأنتم تأخذونه وتأكلون ذلك المال.

قال أبو عبد الله عليه السلام: «**علم الله أنّه سيكون في هذه الأمّة حكّام يحكمون بخلاف الحقّ، فنهى سبحانه المؤمنين أن يتحاكموا إليهم وهم يعلمون أنّهم لا يحكمون بالحقّ**».[١] في «عقاب الأعمال» عن الصادق عليه السلام قال: قال علي عليه السلام: «**إنّ في جهنّم رحى تطحن العلماء الفجرة والقرّاء الفسقة والجبابرة الظلمة والوزراء الخونة والعرفاء الكذبة والعلماء والقضاة الّذين خالف عملهم قولهم يمضغون ألسنتهم يوم القيامة**»[٢] قال النبي صلى الله عليه وآله: «**أبغضكم إليّ الثرثارون...**»[٣] أي كثير الكلام من غير حاجة. قال صلى الله عليه وآله: «**الّذين يجورون في الحكم يحشرون يوم القيامة عمياً**».[٤]

قال النبي صلى الله عليه وآله «**يحشر أصناف من أمّتي أشتاتاً، ميّزهم الله وبدّل صورهم، فبعضهم بصورة القردة وبعضهم بصورة الخنازير وبعضهم منكّسون أرجلهم فوق رؤوسهم يسحبون عليها وبعضهم عمي وبعضهم صمّ بكم وبعضهم يمضغون ألسنتهم فهي مدلات على صدورهم، يسيل القيح من أفواههم، وبعضهم مقطّعة أيديهم وأرجلهم وبعضهم مصلّبون على جذوع من نار وبعضهم أشدّ نتناً من الجيف وبعضهم ملبّسون ثياباً سابغة**[٥] **من قطران لازقة بجلودهم، فأمّا الّذين بصورة القردة: القتّات، والخنازير: أهل السحت، والمنكّسون: أكلة الربا، والعمي: الجائرون في الحكم، والصمّ والبكم: المعجبون بأعمالهم، والماضغون ألسنتهم: العلماء الّذين خالف عملهم قولهم، والّذين قطعت أيديهم وأرجلهم: الّذين يؤذون الجيران، وأمّا المصلّبون: السعاة بالناس إلى**

١ـ التبيان، ج ٢،ص ١٣٨؛ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٥.

٢ـ ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص ٢٥٤.

٣ـ بحار الأنوار، ج ١، ص ١٢٧؛ ومستدرک الوسائل، ج ٩، ص ٣٤.

٤ـ انظر: تفسير غريب القرآن،للطريحي، ص ١٥٩.

٥ـ أي: دروعاً واسعة

السلطان، والّذين أشدّ نتناً من الجيف: الّذين يتّبعون الشهوات ويمنعون حقّ الله في أموالهم والّذين يلبسون ثياباً من نار: فأهل الكبر والخيلاء والفخر».[1]

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

﴿ٱلْأَهِلَّةِ﴾ جمع هلال واشتقاقه من استهلّ الصبيّ أو بكى وصاح حين يولد، والهلال حين يرى يهلّ الناس ويرفعون أصواتهم بذكره ولذلك يسمّى الهلال هلالا.

روي أنّ معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم الأنصاريّ قالا: يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثمّ يزيد حتّى يمتلئ ثمّ لا يزال ينقص حتّى يعود كما بدأ أوّلا؟ فأنزل الله الآية[2]: ﴿قُلْ هِىَ﴾ أي الأهلّة ﴿مَوَٰقِيتُ﴾ جمع ميقات من الوقت والفرق بين الوقت وبين المدّة والزمان أنّ المدّة المطلقة امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها والزمان مدّة مقسومة إلى الماضي والحال والمستقبل، والوقت الزمان المفروض لأمر ﴿لِلنَّاسِ﴾ أي لما يتعلّق بهم من أمور معاملاتهم ومصالحهم ﴿وَٱلْحَجِّ﴾ وأموره المتعلّقة بأوقات مخصوصة ودبّر هذا التدبير سبحانه في تغيّر القمر بهذه الكيفيّة لأنّه علّق به مواقيت أمورهم فتعرف المواقيت بهذه الاختلافات لحاجة الناس إلى ذلك.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ لمّا بيّن سبحانه أنّ الأهلّة مواقيت للنّاس والحجّ وكان عادتهم أي الأنصار إذا أحرم الرجل منهم بالحجّ والعمرة لم يدخل حائطاً ولا داراً من بابه فإن كان من أهل المدر نقب نقباً في

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ١٠، ص ٢٤٣. وبحار الانوار، ج ١٠٨، ص ٩٨.

٢ـ انظر: عوالي اللئالي، ج ٢، ص ٨٣. وبحار الأنوار، ج ٥٥، ص ١١٨.

ظهر بيته يدخل منه ويخرج أو يتّخذ سلّما فيصعد منه وإن كان من أهل الوبر خرج من ظهر الخيمة والفسطاط ولا يدخل ولا يخرج من الباب حتّى يحلّ من إحرامه فعطف سبحانه على ما قبله بأنّه كما أنّ أموركم مقدّرة بأوقات الأهلّة فليكن أفعالكم في الحجّ على الاستقامة بما أمركم الله به فقال: وليس البرّ هذا الأمر. وقيل في الآية معنى آخر وهو أنّ المراد ليس البرّ أن تأتوا الأمور من غير جهاتهاوينبغي أن تأتوا الأمور من جهاتها أيّ الأمور كانت وهو المرويّ عن أبي جعفرعليه السلام[1].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ مرّ معناه، قال أبو جعفرعليه السلام: **«آل محمدصلى الله عليه وآله أبواب الله وسبيله والدعاة إلى الجنة والقادة إليها والأدلّاء عليها إلى يوم القيامة»**[2] قال النبيصلى الله عليه وآله: **«أنا مدينة العلم وعليّ بابها ولا يؤتى المدينة إلّا من بابها»**[3] ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في تغيير أحكامه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تظفروا بالبرّ والهدى فمدخل الوصول والورود إلى رضى الله باب التقوى.

وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

هذه الآية أوّل آية نزلت في القتال بالمدينة فلمّا نزلت كانصلى الله عليه وآله يقاتل من قاتله ويكفّ عمّن يكفّ عنه[4]، قال ابن عبّاس وجماعة: إنّ هذه الآية بعد الحديبية وذلك أنّ بعد ما وقع صلح الحديبية وكان العام المقبل يجهّز النبيّ وأصحابه إلى مكّة خافوا أن لا تفي قريش على معاهدتهم وأن يصدّوهم عن

١ـ تفسير نور الثقلين، ج ١،ص ١٧٨؛ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٧.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٨؛ انظر: توحيد الصدوق، ص ٣٠٧.

٤ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٩؛ بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ٣٢٠.

البيت كما صدّوهم عام الأوّل ويقاتلوهم، وكره النبيّ ﷺ قتالهم في الشهر الحرام فأنزل الله هذه الآية وبيّن أمر الجهاد[١] فقال مخاطبا للمؤمنين: ﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ مع الكفّار ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي دين الله ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ من الكفّار ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ ولا تجاوزوا من قتال من هو أهل القتال أو لا تعتدوا بقتال من لا يبدؤكم بقتال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾.

واختلف في الآية هل هي منسوخة أم لا، قيل: منسوخة، قال ابن عبّاس ومجاهد: غير منسوخة بل هي خاصّة في الناس والذراري. وقيل: الآية أمر بقتال أهل مكّة.[٢]

﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾﴾

بيّن كيفيّة القتال مع الكافرين فقال: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ في الحلّ أو الحرم وفي الشهر الحرام وغيره لأنّهم هتكوا الحرمة أوّلا وبدءوكم فجازوهم بمثله. وأصل الثقف الحذق في إدراك الشيء علماً وعملا ﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾ أي أخرجوهم من مكّة كما أخرجوكم منها لأنّهم أخرجوا المسلين منها أوّلاً فأخرج ﷺ منها ثانياً من لم يؤمن به منهم يوم الفتح ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِ﴾ أي شركهم بالله وبرسوله أعظم من القتل في الشهر الحرام وسمّي الكفر فتنة لأنّه يؤدّي إلى الهلاك كما أنّ الفتنة تؤدّي إلى الهلاك.

﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ﴾ ويبدؤكم بالقتال ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾ وبدءوكم ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٨؛ والتبيان، ج ٣، ص ٥٣.
٢ـ مجمع البيان، ج٢، ص ٣١.

جزاء الكافرين يفعل بهم ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن القتال وكذا عن الكفر فإنّ الانتهاء عن مجرّد القتال لا توجب استحقاق المغفرة فضلاً عن استحقاق الرحمة ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما قد سلف فتدارك ما قد سلف.

قال الطبرسيّ: وفي الآية دلالة على أنّه يقبل توبة القاتل عمداً لأنّه تعالى يقبل توبة المشرك والشرك أعظم من القتل.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

بيّن سبحانه فائدة وجوب القتال فقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي شرك عن ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام[1] «و الدين» بمعنى الطاعة وبمعنى الإسلام وبمعنى العادة، والشريعة يجب أن يجري فيها على عادة مستمرّة ﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ عن الكفر وصار الدين دين الإسلام ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي لا عقوبة عليهم وإنّما العقوبة على المقيمين على الكفر فسمّي القتل عدواناً من حيث كان عقوبة على العدوان والظلم.

وهذه الآية ناسخة للأولى الّتي تضمّنت النهي عن القتال في المسجد الحرام حتّى يبدؤوا بالقتال فيه لأنّ فيها إيجاب قتالهم على كلّ حال حتّى يدخلوا في الإسلام. وقيل: المراد من هذه الآية أنّهم إذا ابتدءوا بالقتال في الحرم يجب مقاتلتهم حتّى يزول الكفر. والأوّل أولى.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾

«الحرام» هو القبيح الممنوع من فعله و«الحلال» المطلق المأذون فيه،

١ـ راجع: الكافي، ج ٨، ص ٢٠١.

وإنّما سمّي بالشهر الحرام لأنّه كان عندهم يحرم القتال في هذه الأشهر الأربع وهي ثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجّة ومحرّم وشهر فرد وهو رجب حتّى لو أنّ رجلاً لقى قاتل أبيه وأخيه لم يتعرّض له بسوء.

قوله: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ يقابل ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ في هتك الحرمة لأنّ المشركين صدّوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين عام الحديبيّة في ذي القعدة سنة ستّ من الهجرة وقد وقع بين القوم ترامي بسهام وحجارة واتّفق أيضا عام المقبل خروج النبيّ وأصحابه لعمرة القضاء، فيه سنة سبع من الهجرة وكرهوا أن يقاتلوهم لحرمته فنزلت الآية هذا الشهر الحرام بذلك الشهر وهتكه بهتكه فلا تبالوا به إن وقع أمر.

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ أي من هتك حرمة أيّ حرمة كانت فلا يجوز استحلالها إلّا على المقاصّة والمجازاة فإنّ مراعات الحرمات إنّما تجب في حقّ من يراعيها وأمّا هتكها فإنّه يقتصّ منه. وعلى قوله أنّ المراد «من الحرمات» تكون قصاص بالمراغمة بدخول البيت فجمع «الحرمات» باعتبار حرمة الشهر وحرمة البلد وحرمة الإحرام.

قال الحسن: إنّ مشركي العرب قالوا لرسول الله: أنهيت عن قتالنا في الشهر الحرام، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم»، وإنّما أراد المشركون أن يقاتلوه في الشهر الحرام إذ كان هو صلى الله عليه وآله وسلم ممنوعاً عن القتال فأنزل الله الآية.[1] وحاصل المعنى أنّهم لمّا هتكوا حرمة شهركم بالصدّ عام الحديبيّة وقصدهم التعرّض للقتال معكم فافعلوا بهم مثله وادخلوا عليهم عنوة فإن قتلوكم فاقتلوهم.

﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وتجاوز عن حدّه ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي بعقوبة مماثلة لجناية اعتدائه على سبيل المقاصّة وهو اعتداء ما دون فيه لا على سبيل الابتداء فإنّه ظلم حرام ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ إذا انتصرتم بمن

١ـ فقه القرآن، ج ١، ص ٢٣٦؛ وأيضاً رواه التبيان، ج ٢، ص ١٥٠.

ظلمكم فلا تظلموهم بأخذ أكثر من حقّكم ولا تعتدوا إلى ما لم يرخّص لكم.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ والمراد من «المعيّة» القرب المعنويّ أي يصلح شؤونهم بالنصر والتمكين والمثوبات.

وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ ۛ وَأَحۡسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

أمر سبحانه في الآية السابقة بالجهاد وفي هذه الآية ببذل المال في سبيله ليظهر من يدّعي محبّة الله وإنّهما معيار المحبّة الإلهيّة لأنّ أحدهما بذل الوجود والآخر حبّ المال فامتحن الله عباده بهذين قطعا لدعوى المدّعين وهذا هو السرّ في الجهاد والزكاة فقال: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي اصرفوا من أموالكم في وجوه مصالح الدين وفي الطريق المؤدّي إلى ثواب الله ورحمته من إقامة الحجّ أو جهاد الكفّار وتقوية الضعفاء أو رعاية أهل الدين ﴿وَلَا تُلۡقُواْ﴾ ولا تطرحوا أنفسكم إلى الهلاك والمراد من «الأيدي» الأنفس فإنّ اليد لازم للنفس وأكثر الأعمال يظهر بمباشرة اليد فكأنّها هي العمدة، والباء زائدة في المفعول به وفي الأغلب مثل هذه المورد يؤتى بها. قال الشاعر:

و لقد ملأت على نصيب جلده ... بمساءة إنّ الصديق يعاتب

و قيل: ليست الباء زائدة لأنّ معنى الآية لا تهلكوا أنفسكم بأيديكم فكيف تكون زائدة.

قيل في معناه: وجوه أحدها: لا تهلكوا أنفسكم بأيديكم بترك الإنفاق في سبيل الله فيغلب عليكم العدوّ عن ابن عبّاس وجماعة من المفسّرين. والوجه الآخر أي: لا تركبوا المعاصي باليأس عن المغفرة عن البراء بن عازب وعبيدة السلمانيّ. والوجه الآخر في معنى الآية: لا تقتحموا الحرب من غير نكاية العدوّ ولا قدرة لكم على دفاعهم. والوجه الرابع: ولا تسرفوا في الإنفاق

الّذي يوجب هلاك النفس. ويقرب منه ما روي عن أبي عبد الله لو أنّ رجلا أنفق ما في يده في سبيل الله ما كان أحسن ولا رفق لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[1] ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي تفضّلوا على الفقراء.

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

بيّن سبحانه فرض الحجّ والعمرة على العباد بعد بيانه فريضة الجهاد فقال: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾ أي أتمّوهما بحدودهما ومناسكهما ففرض على من استطاع وتمكّن والمعنى أقيموهما إلى آخر ما فيهما من الأحكام ﴿لِلَّهِ﴾ أي اقصدوا بهما التقرّب إلى الله، والعمرة واجبة عندنا مثل الحجّ وعند الشافعيّ أيضاً واجبة خلافاً لأبي حنيفة فإنّها عنده سنّة.

وأركان أفعال الحجّ: النيّة والإحرام والوقوف بالمشعر وطواف الزيارة والسعي بين الصفا والمروة وأمّا الفرائض الّتي ليست بأركان: التلبية وركعتا الطواف له وطواف النساء وركعتا الطواف له، وأمّا المسنونات فمذكورة في كتب الفقه.

وأركان العمرة: النيّة والإحرام وطواف الزيارة والسعي وأمّا ما ليس بركن من فرائضها فالتلبية وركعتا الطواف له وطواف النساء وركعتا الطواف له. وأمّا المتمتّع بالحجّ هو أن يعمر في أشهر الحجّ ثمّ يحلّ وتمتّع بالإحلال بأن يفعل ما يفعل

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٥.

المحلّ ثمّ يحرم بالحجّ من غير رجوع إلى الميقات فهو إحلال بين إحرامين. ويجب حجّ التمتّع على من هو ناء عن مكّة بستّ عشر فرسخا، وحجّ القران والإفراد يجب على من هو من أهل مكّة أو مكانه يكون أقلّ من المسافة المذكورة مثل أن يكون مكانه عشرة فراسخ إلى مكّة مثلاً مسافة.

قال صاحب تفسير «روح البيان»: وأمّا صورة القران أن يحرم بالحجّ والعمرة معاً بأن ينويهما بقلبه ويأتي بمناسك الحجّ أو يحرم بالعمرة ثمّ يدخل عليها الحجّ قبل أن يفتتح الطواف فيصير قارنا، وأمّا صورة الإفراد أن يحرم بالحجّ مفرداً ثمّ بعد الفراغ منه يعتمر من الحلّ أي الّذي بين المواقيت وبين الحرم.[1]

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ أي: منعتم وصددتم عن الوصول إلى البيت من خوف أو مرض أو عدوّ فامتنعتم لذلك عن ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن أئمّتنا. وقيل: معناه إن منعكم قاهر عابس فعليكم ما سهل وتيسّر من الهدي إذا أردتم الإحلال.

«و الهدي» ما يهدى إلى البيت تقرّباً إلى الله أيسره شاة وواسطة بقرة وأعلاه بدنة ويسمّى هدياً لأنّه جار مجرى الهديّة الّتي يهديها العبد إلى ربّه.

وحاصل المعنى أنّ المحرم إذا أحصر ومنع وأراد أن يتحلّل، يحلّل بذبح هدي تيسّر عليه في أيّ موضع أحصر، على قول مالك، واستدلّ بأنّ النبيّ ﷺ نحر هديه بالحديبيّة وأمر أصحابه كذلك، وليست الحديبيّة من الحرم. وقيل: إنّ محلّ الهدي الحرم فإذا ذبح به يوم النحر أحلّ. لكن على مذهبنا الإماميّة أنّ المحصر إذا كان بالمرض فلا بدّ وأن يذبح بالحرم وإذا أحصر بالعدوّ فأينما أحصر، ثمّ إن كان الإحرام بالحجّ فمحلّه منى يوم النحر وإن كان الإحرام بالعمرة محلّه مكّة.

١ـ انظر: تذكرة الفقهاء، ج ٧، ص ٢١٠.

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ أي لا تتحلّوا من إحرامكم حتّى ينحر ويذبح هديكم في محلّه ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ أي من مرض منكم مرضاً محتاج فيه إلى الحلق أو تأذّى بهوامّ رأسه أبيح له الحلق بشرط الفدية. نزلت في رجل يقال له كعب بن عجرة قد قمّل رأسه ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ فحلق لذلك العذر فعليه بدل وجزاء يقوم مقام ذلك ﴿مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ المرويّ عن أئمّتنا أنّ الصيام ثلاثة أيّام والصدقة على ستّة مساكين وروي على عشرة مساكين «و النسك» شاة وهو مخيّر فيها.

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: استمتع وأدّى الفرض اللازم من العمرة، والتمتّع بالعمرة إلى الحجّ هو أن ينشئ الإحرام في أشهر الحرم ثمّ يدخل إلى مكّة فيطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ويقصّر ويحلّ من إحرامه ثمّ ينشئ إحراماً آخر للحجّ من المسجد الحرام ويخرج إلى عرفات ثمّ يفيض إلى المشعر ويأتي بأفعال الحجّ على ما هو مذكور في كتب الفقه، وفي بعض ذلك خلاف في الجملة بين الفقهاء ليس هاهنا موضع ذكره، والهدي واجب على المتمتّع بلا خلاف لظاهر التنزيل لكنّ الخلاف في أنّه نسك أو جبران وعندنا أنّه نسك.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ دماً وما تمكّن منه ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ وهذه الثلاثة يوم قبل التروية ويوم التروية ويوم عرفة وإن صام في أوّل العشر جاز رخصة وإن صام يوم التروية ويوم عرفة قضى يوماً آخر بعد انقضاء أيّام التشريق وإن فاته صوم يوم التروية أيضاً صام الأيّام الثلاثة بعد أيّام التشريق متتابعات ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: وسبعة أيّام إذا رجعتم إلى بلدكم وأهاليكم. وقيل: إذا رجعتم من منى فصوموا في الطريق عن مجاهد، والأوّل هو الصحيح عندنا.

﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ أي: هذه العشرة إذا وقعت بدلاً من الهدي استكملت ثوابه وهذا المعنى هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام(١). وقيل: المراد من قوله: ﴿كَامِلَةٌ﴾ لازالة الإبهام لئلا يتوهّم أنّ الواو في الآية بمعنى «أو» فيكون كأنّه قال: فصيام ثلاثة أيّام في الحجّ أو سبعة أيّام إذا رجعتم لأنّه إذا استعمل «أو» بمعنى الواو جاز أن يستعمل الواو بمعنى «أو» كما قال: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾(٢) قالوا: الواو هاهنا بمعنى «أو» فذكر ذلك لارتفاع اللبس. وقيل: إنّه إنّما قال: ﴿كَامِلَةٌ﴾ للتوكيد.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: هذا الحكم المذكور من التمتّع بالعمرة إلى الحجّ حسبما شرح ليس لأهل مكّة ومن يجري مجراهم وإنّما هو لمن لم يكن من حاضري مكّة وأطرافها وهو من يكون بينه وبينها أكثر من اثني عشر ميلاً من كلّ جانب عندنا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما يأمركم به وينهاكم عنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾

قرئ ﴿رَفَثَ﴾ و﴿فُسُوقَ﴾ و﴿جِدَالَ﴾ بالفتح. وقرأ أبو جعفر عليه السلام بالرفع والتنوين.(٣)

﴿الْحَجُّ﴾ بحذف المضاف أي: وقت الحجّ لأنّ الحجّ فعل والفعل لا يكون أشهراً أي لا حجّ إلّا في هذه الأشهر فوقته معيّنة لا يجوز فيها التغيير

١ـ انظر: التبيان، ج ٢، ص ١٦٠.

٢ـ سورة النساء: ٣.

٣ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٢.

والتبديل بالتقديم والتأخير اللذين كان يفعلهما النساة الّذين أنزل فيهم ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾.(١)

وأشهر الحجّ ووقته شوّال وذو القعدة وعشر من ذي الحجّة ولا يصحّ الإحرام بالحجّ إلّا فيها وعندنا لا يصحّ أيضاً الإحرام بالعمرة الّتي يتمتّع بها إلى الحجّ إلّا فيها والاثنين قد يقع عليه لفظ الجمع وأيضاً يضاف الفعل إلى الوقت وإن وقع في بعضه تقول: صلّوا يوم الجمعة، والصلاة واقعة في بعضه.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أي أحرم فيهنّ وشرع ودخل فيهنّ بالحجّ أو بالعمرة الّتي يتمتّع بها إلى الحجّ مثل التلبية أو تقليد الهدي مثلاً أو أمراً من أموره ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ كنّي عن الرفث بالجماع، وقيل: المراد الجماع وما دونه كالقبلة والغمز والتعرّض لمثل هذه الأمور بمداعبة أو مواعدة ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ المراد الكذب وقيل: جميع معاصي الله وقيل: التنابز بالألقاب ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ أي: لجاج وخصومة ومراء لا يكون إذا دخل المحرم في آداب الحجّ والعمرة المتمتّعه بها إلى الحجّ. والكلام وإن كان بصورة النفي والإخبار إلّا أنّ المراد منه النهي والإنشاء لأنّ إيقاعها خبراً على ظاهرها يستلزم الخلف في خبر الله لأنّها يقع في خلال الحجّ، وإنّما خرج الكلام على صورة الإخبار للمبالغة في وجوب الانتهاء عنه كأنّ المكلّف مذعن بأنّها منهيّاً عنها فاجتنب عنها.

وإنّما أمر باجتناب الفسوق والجدال في الحجّ وهو واجب الاجتناب في كلّ حال لأنّه مع الحجّ أقبح وأشنع كلبس الحرير في الصلاة والتطريب في قراءة القرآن.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ كناية عن إثابته عليه وحثّ على فعل الخير. ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: اجعلوا زادكم لمعادكم

١ـ سورة التوبة: ٣٧.

اتّقاء القبائح لا ما يتّخذ من الطعام وذلك لأنّ زاد الدنيا يخلصك من احتياج الدنيا وعذاب منقطع وزاد الآخرة ينجّيك من عذاب دائم، وقيل في معنى الآية: وجه آخر: وهو أنّ أهل اليمن كانوا لا يتزوّدون ويخرجون إلى الحجّ بغير زاد ويقولون: نحن متوكّلون ونحن نحجّ البيت أفلا يطعمنا فيكونون كلّا على الناس وإذا قدموا مكّة سألوا الناس وربّما يفضي بهم الحال إلى التطاول والنهب والغصب فأمر الله تزوّدوا ما تبتلغون به وتكفّون به وجوهكم من الكعك والزيت والسويق والتمر ونحوها واتّقوا الاستطعام وإبرام الناس والتثقيل عليهم ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ من السؤال والنهب.

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ فإنّ اقتضاء اللبّ والعقل خشية الله وعدم عصيانه.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾

«الجناح» الحرج في الدين وهو الميل عن الطريق المستقيم أي ليس عليكم إثم ولا بأس في أن تقصدوا وتطلبوا رزقاً وربحاً بالتجارة في الحجّ وكانوا يتأثّمون بالتجارة في الحجّ فنزلت أنّه لا إثم في هذا الأمر بشرط أن لا تكون التجارة منافية للإخلاص لقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾.(١)

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ الهمزة في أفضتم للتعدية والمفعول محذوف أي دفعتم أنفسكم منها ودفعتم من عرفات إلى المزدلفة بالاجتماع والكثرة، والإفاضة لا تكون إلّا عن تفرّق عن كثرة.

و«عرفات» اسم للمكان المعروف بحسب الوقوف بها في الحجّ

١ـ سورة البينة: ٥.

وسمّيت بها لأنّ آدم وحوّاء اجتمعا فيها فتعارفا بعد أن كانا افترقا. وقيل: سمّيت بعرفات لارتفاعها وعلوّها ومنه عرف الديك. وقيل: في وجه التسمية بعرفة لأنّ إبراهيم لمّا رأى في المنام أنه أمر بذبح ولده فأصبح يروّي يومه أجمع ويفكّر أهو أمر من الله أم لا؟ فسمّي يوم التروية ثمّ رأى في الليلة الثانية فلمّا أصبح عرف أنّه من الله فسمّي عرفة. وقيل: إنّ جبرئيل قال لآدم: هناك اعترف بذنبك واعرف مناسكك فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾[1] الآية فلذلك سمّيت عرفة، والمشعر الحرام هو المزدلفة سمّيت مشعرا لأنّه معلم للحجّ والصلاة والمبيت به.

«و الشعائر» العلامات من الشعار وهو العلامة وإنّما سمّي المشعر مزدلفة لأنّ جبرئيل قال لإبراهيم بعرفات: «**ازدلف إلى المشعر الحرام**».[2]

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ وفي هذا دلالة على أنّ الوقوف بالمشعر فريضة لأنّ ظاهر الأمر على الوجوب وقد أوجب الله الذكر فيه ولا يجوز أن يوجب الذكر فيه إلّا وقد أوجب الكون فيه وحاصل الكلام: إذا أفضتم من عرفات فكونوا بالمشعر واذكروا الله فيه بالتلبية والتهليل والتسبيح والتحميد والثناء والدعوات، ووصفه بالحرام لحرمته فلا يفعل فيه ما نهي عنه.

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ كما علّمكم كيف تذكرونه على وجه التضرّع والخيفة والطمع. والمقصود من الكاف التقييد لا التشبيه أي اذكروه على الوجه الّذي هداكم إليه ولا تعدلوا عمّا هديتم إليه كما تقول: افعل كما علّمتك. وليس هذا تكراراً لقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ لأنّ الأوّل لبيان محلّ الذكر والوقوف وتعليم النسك لذلك المحلّ.

١ـ سورة الأعراف: ٢٣.

٢ـ من لايحضره الفقيه، ج ٢، ١٩٦؛ وأيضاً وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٢٣٧.

﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ﴾ و«إن» مخفّفة واللام هي المفارقة، من قبل هدايته إيّاكم وقيل: أي من قبل محمّد ﷺ فتكون الهاء كناية عن غير مذكور ﴿لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ عن الدين والشريعة فهداكم إليه.

ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

قيل: إنّ المراد به الإفاضة من عرفات وإنّه أمر لقريش وحلفائها وهم الخمس لأنّهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفة ولا يفيضون منها ويقولون: نحن أهل حرم الله فلا نخرج منه وكانوا يقفون بالمزدلفة ويفيضون منها فأمر الله بالوقوف بالعرفة والإفاضة منها كما يفيض الناس والمراد بالناس سائر العرب وهو المرويّ عن الباقر عليه السلام وجماعة مثل: ابن عبّاس وعطا، وأنّه تعالى أمر لجميع الحاجّ أن يفيضوا من حيث أفاض إبراهيم ولمّا كان إبراهيم قدوة وإماماً للناس كان بمنزلة الأمّة، فسمّاه الله ناساً وحده. والقول الثاني في معنى الآية أنّ المراد به: الإفاضة من المزدلفة إلى منى يوم النحر قبل طلوع الشمس للرمي والنحر وقيل أقوال أخر في معنى الناس قالوا: المراد آدم وقيل: المراد أهل اليمن وقيل: العلماء الّذين يعلّمون الناس.(١)

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ واطلبوا المغفرة منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير المغفرة والرحمة وينبغي أن يجتهد الحاجّ بعد رجوعه إلى وطنه وبعد أن نظفت صحيفة عمله من الذنوب بالغفران أن لا يدرن ثوبه بوسخ المعاصي.

في تفسير روح البيان: وفي الحديث «**إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلّا**

١ـ انظر: بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٩٥؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٤٨؛ وراجع نور الثقلين، ج ١، ص ١٩٦.

الوقوف بعرفات».[١] وفي الحديث: **«أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظنّ أنّ الله لا يغفر له».**[٢]

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾

أي: إذا أدّيتم وفرغتم من أداء أفعال الحجّ وأتممتم عباداتكم الّتي أمرتم بها ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ واختلف في «الذكر» على قولين أحدهما أنّ المراد التكبير المختصّ بأيّام منى لأنّه الذكر المرغّب فيه المندوب في هذه الأيّام والآخر أنّ المراد مطلق الأدعية مثل: ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ وذلك لأنّهم كانوا في الجاهليّة إذا قضوا مناسكهم وقفوا بين المسجد والجبل وهو قزح اسم جبل بالمشعر ويذكرون مفاخر آبائهم ومحاسن أيّامهم القديمة فأمرهم الله أن يذكروه مكان ذكرهم آباءهم في هذا الموضع. ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ ويزيدون على ذلك بأن يذكروا نعم الله ويعدّوا آلاءه ويشكروا نعماءه لأنّه تعالى هو المنعم حقيقة بتلك المآثر وقيل: معناه فاستغيثوا بالله والتجئوا إليه كما يفزع الصبيّ إلى أبيه في جميع أوقاته وأموره ويلهج بذكره فيقول: يا أبت والأوّل أصحّ.

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ بيّن سبحانه، أنّ الناس في تلك المواطن أصناف فمنهم من يسأل نعيم الآخرة لأنّه غير مؤمن بالبعث والنشور وماله في الآخرة من نصيب.

١ـ الحدائق الناضرة، ج ١٤، ص ١٦؛ وأيضاً رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٢٤.

٢ـ عوالي اللئالي، ج ٤، ص ٣٣؛أيضاً وسائل الشيعة. ج ١٠، ص ٢٢.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾

ومن الناس، أي: المؤمنين يطلبون نعيم الدنيا والآخرة وروي عن الصادقعليه السلام أنّها: «**السعة في الرزق والمعاش وحسن الخلق في الدنيا ورضوان الله والجنة في الآخرة**». وقيل: العلم والعبادة في الدنيا والجنّة في الآخرة. وقيل: هي المال في الدنيا والجنّة في الآخرة. وقيل: هي المرأة الصالحة في الدنيا وفي الآخرة الجنّة. قال النبيّصلى الله عليه وآله: «**من أوتي قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على أمر دنياه وآخرته فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقي عذاب النار**» ويطلبون الوقاية عن عذاب جهنّم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

إشارة إلى الفريق الثاني وهم الداعون بالحسنيين لهم حظّ عظيم من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة أو من أجل ما كسبوا بسبب أعمالهم فيكون «من» ابتدائيّة ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ و«الحساب» يراد به الجزاء على الأعمال فإنّ الحساب سبب الأخذ والإعطاء وإطلاق اسم السبب على المسبّب شايع أي يحاسب العباد على كثرة أعمالهم في لمحة واحدة لعدم احتياجه إلى نظر وفكر فليحذر الإنسان من الإخلال بطاعة من هذا شأن قدرته ويوشك أن تقوم القيامة ويحاسب بعمله.

قال النبيّصلى الله عليه وآله: «**أغبط أوليائي عندي مؤمن خفيف المؤونة ذو حظّ من الصلاة، أحسن عبادة ربّه وأطاعه في البرّ، وكان غامضا في الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك** ثمّ نقر بيده فقال: **هكذا عجلت منيّته قلّت بواكيه وقلّ تراثه**».

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾

هذا أمر من الله للمكلّفين أن يذكروه في أيّام معدودات وهي أيّام التشريق ثلاثة أيّام بعد النحر. والأيّام المعلومات عشر ذي الحجّة، عن ابن عبّاس وأكثر أهل التفسير وهو المرويّ عن أئمّتنا لكنّ الفرّاء قال بالعكس. والذكر المأمور به في الآية هو أن يقول: عقيب خمس عشر صلاة: «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله، والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أولانا، والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام» وأوّل التكبير عندنا عقيب الظهر من يوم النحر وآخره عقيب صلاة الفجر من اليوم الرابع من النحر، هذا لمن كان بمنى، ومن كان بغير منى من الأمصار يكبّر عقيب عشر صلاة أوّلها صلاة، الظهر من يوم النحر أيضا هذا هو المرويّ عن الصادقعليه السلام، وفي ذلك اختلاف بين الفقهاء. ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي استعجل وطلب الخروج من منى في تمام يومين بعد يوم النحر، وفي الآية بيان الرخصة في جواز النفر في اليوم الثاني من أيّام التشريق والأفضل أن يقيم إلى النفر الأخير وهو الثالث من التشريق وإذا نفر في الأوّل نفر بعد الزوال إلى غروب الشمس فإن غربت فليس له أن ينفر إلى اليوم الثالث ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنّ معناه لا إثم عليه بعد إعمال هذه الأعمال لأنّ سيّئاته صارت مكفّرة بما كان من حجّه المبرور وهو قول ابن مسعود.

والثاني: أنّ معناه لا إثم عليه في التعجيل والتأخير وإنّما نفى الإثم لئلّا يتوهّم أنّ في التعجيل إثما.

﴿لِمَنِ اتَّقَى﴾ فيه قولان **أحدهما** أنّ الحجّ يقع مبروراً يكفّر السيّئات إذا

اتّقى ما نهى الله عنه، والآخر ما رواه أصحابنا أن قوله: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ متعلّق بالتعجيل في يومين وتقديره: فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه لمن اتّقى الصيد والمناهي إلى انقضاء النفر الأخير وما بقي من إحرامه، ومن لم يتّق المناهي فلا يجوز له النفر في الأول، وقد روي أيضا عن أبي عبد اللهعليه السلام في قوله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: من مات في هذين اليومين فقد كفّر عنه كلّ ذنب، ومن تأخّر أجله فلا إثم عليه إذا اتّقى الكبائر ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اجتنبوا المعاصي ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وبعد موتكم تجمعون إلى الموضع الّذي يحكم الله فيه بينكم فينبغي أنّكم حال الاشتغال بأعمال الحجّ وبعده تحترزون عن معاصي الله ليعتدّ بأعمالكم فإنّ المعاصي يأكل الحسنات عند الموازنة فإن علم بالحشر والمحاسبة كان ذلك من أقوى الدواعي إلى ملازمة التقوى وكانوا إذا رجعوا من الحجّ يجترءون على الله بالمعاصي فشدّد في تحذيرهم.

قال أبو العالية: يجيء الحاجّ يوم القيامة ولا إثم عليه إذا اتّقى فيما بقي من عمره فلم يرتكب ذنباً بعد ما غفر له في الحجّ لكنّ المذنب المصرّ إذا حجّ فلا يقبل منه لعوده إلى ما كان عليه فعلامة الحجّ المبرور أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة كما حجّ إبراهيم أدهم مع رفيقه الصالح من بلخ ولمّا رجع من حجّه زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة وخرج عن ملكه وماله وأهله وعشيرته وبلاده وقطع العلائق واختار بلاد الغربة وقنع بالأكل من عمل يده إمّا من الحصاد أو من بطارة البساتين، وكيف لا والحرّ الكريم لا ينقض العهد عمل يده إمّا من الحصاد أو من بطارة البساتين، وكيف لا والحرّ الكريم لا ينقض العهد القديم؟ وممّا يجب على الحاجّ اتّقاؤه المحارم وأن يجعل نفقته من كسب الحرام فإنّ الله لا يقبل إلّا الطيّب إذا حججت بمال أصله دنس فما حججت ولكن حجّت العير.

وفي الحديث: «**من حجّ بيت الله من كسب الحلال لم يخط خطوة إلّا كتب الله له بها سبعين حسنة وحطّ عنه سبعين خطيئة ورفع له سبعين درجة**».[١]

وحكي: بعض من حجّ أنّه توفّي في الطريق في رجوعه فدفنه أصحابه ونسوا الفأس في قبره فنبشوه ليأخذوا الفأس فإذا عنقه ويداه قد جمعتا في حلقة الفأس فردّوا عليه التراب ثمّ رجعوا إلى أهله فسألوهم عن حاله فقالوا: صحب رجلاً فأخذ ماله فكان يحجّ منه.

والأولى له أنّه إذا أراد أن يحجّ بعد تصفية أمواله من حقوق الله وحقوق الخلق وإصلاح امور دينه بالتدارك والتوبة أن يستدين للحجّ نفقته ثمّ يقضي دينه من ماله كما كان يفعله بعض أهل التوبة والمعذرة وأصل الكلمة من العذرة وهي النجاسة تقول: عذرت الصبيّ إذا طهرته عن النجاسة ولا يقاوم غير الغضب والغلبة بذل الاعتذار.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾

قيل: نزلت الآية في الأخنس بن شريق[٢] كان يظهر الجميل بالنبيّ والمحبّة له والرغبة في دينه ويبطن خلاف ذلك[٣] والآية تعمّ كلّ منافق ومرائي أي: وبعض الناس تستحسن ظاهر قوله، وتعدّه حسنا مقبولا يقال: أعجبني كذا أي: ظهر لي ظهورا لم أعرف سببه ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بحلاوة كلامه وعذوبة لفظه وفصاحته لا في الآخرة لأنّه في الآخرة يظهر كذبه

١ـ انظر: تهذيب الأحكام، ج ٥، ص ١٩؛ وأيضاً، وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٩٦.

٢ـ التبيان، ج ٢، ص ١٧٨.

٣ـ مجمع البيان، ج٢، ص ٥٥؛ وبحار الأنوار، ج ٩، ص ٦٩.

﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أي يقول الله: شاهد ومطّلع على قلبي من المودّة لك والإسلام ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي أشدّ في العداوة والخصومة للمسلمين على أنّ «الخصام» مصدر كالقتال والجدال وإضافة «الألد» إليه بمعنى «في» واللدد شدّة الخصومة تقول: لدّ يلدّ لدوداً ولدّه يلدّه إذا غلبه في الخصومة. وقيل: «الخصام» جمع الخصم أي أشدّ الخصماء.

﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أي: ملك الأمر وصار واليا وتولّى سلطنة جار و﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾ وأسرع في المشي للفساد وسفك الدماء وقطع الرحم ويعمل المعاصي ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ الزرع والأولاد وقيل: الحرث النساء والنسل الأولاد قال الصادق عليه السلام: **«الحرث في الآية ها هنا الدين والنسل الناس»**[1] وقيل: معنى قوله: ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ ﴾ أي إذا أدبر وانصرف عن حضورك ومجلسك ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ أي لا يحبّ عمل الفساد وأهل الفساد ولا يرتضيه ويغضب على من يعاطاه كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيّتهم أي أتاهم ليلا وأهلك مواشيهم وذرعهم لأنّه كان بينه وبينهم عداوة أو كما يفعله الولاة بالقتل والظلم والإتلاف حتّى يمنع الله بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل. وفي الحديث: **«يجاء بالوالي يوم القيامة فينبذ به على جسر جهنّم فيرتج به الجسر ارتجاجة لا يبقى منه مفصل إلّا زال عن مكانه فإن كان مطيعا لله في عمله مضى وإن كان عاصيا انخرق به الجسر فيهوي به في جهنّم مقدار خمسين عاماً»**.[2]

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ صراحة على بطلان قول المجبرة بأنّ الله يريد القبائح لأنّه نفي عن نفسه محبّة الفساد والمحبّة هي الإرادة لأنّ كلّ ما أحبّ أن يكون فقد أراد أن يكون.

١ـ التخويف من النار، ابن رجب الحنبلي، ص ٨٠.

٢ـ نورالثقلين، ج ١، ص ٢٠٤.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾

بيّن صفة المفسدين والمنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ﴾ خف الله في صنعك السوء واترك ما تباشره في الفساد والنفاق ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ وحملته الأنفة الّتي فيه وحميّته الجاهليّة والعناد على الإثم والذنب الّذي نهي ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبر أي كافيه دخول النار والخلود فيها ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ اللّام موطّئة للقسم أي والله بئس الفراش جهنّم، قال ابن مسعود: إنّ من الذنوب الّتي لا تغفر أن يقال للعبد: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ فيقول: عليك نفسك. وفي نسخة، من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ وهو يقول: عليك نفسك.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

«الشراء» من الأضداد شرى باع وشرى إذا اشترى كقوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ أي باعوه أي ومن الناس من يبيع نفسه ويبذلها في طاعة الله في الجهاد والصلاة والزكاة والحجّ وتوصل بذلك إلى ثواب الله ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ طلبا لرضاه ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ومن جملة رأفته بعباده أنّ ما اشتراه منهم من أنفسهم وأموالهم إنّما هو خالص ملكه وحقّه فيشتري منهم ملكه الخاصّ المحصور بما لا يعدّ ولا يحصى من ثوابه وفضله.

روى السدّيّ عن ابن عبّاس قال: نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب حين خرج النبيّ صلى الله عليه وآله من مكّة إلى الغار ونام عليّ على فراش النبيّ صلى الله عليه وآله ونزلت الآية بين مكّة والمدينة وإنّه عليه السلام لمّا نام على فراشه قام جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرئيل ينادي: «**بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب**

يباهي الله بك الملائكة».[1]

وقال عكرمة: نزلت الآية في أبي ذرّ الغفاريّ، وجندب بن السكن وصهيب بن سنان، لأنّ أهل أبي ذر أخذوا أبا ذر فانفلت منهم فقدم على النبيّ وأمّا صهيب بن سنان الروميّ خرج من مكّة يريد الهجرة إلى النبيّ ﷺ بالمدينة[2] وهو ابن مائة سنة أتبعه نفر من مشركي قريش وقتلوا نفراً كانوا معه وكان معه كنانة فيها سهامه وكان رامياً مصيباً فقال: يا معشر قريش لقد علمتم أنّي من أرماكم رجلا والله لا أضع سهمي إلّا في قلب رجل وأيم الله لا تصلون إليّ حتّى أرمي بكلّ سهم في كنانتي ثمّ أضرب بسيفي ما بقي في يدي ثمّ افعلوا ما شئتم ولن ينفعكم كوني فيكم فإنّي شيخ كبير ولي مال في داري بمكّة فارجعوا وخذوه وخلّوني وما أنا عليه من الإسلام، ففعلوا وسار هو إلى المدينة وقدم على النبيّ ﷺ.

وقيل: إنّ المراد بالآية الرجل الّذي يقتل على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآية تعمّ لكلّ مجاهد في سبيل الله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بألسنتهم على أنّ الخطاب للمنافقين ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ واستسلموا لله ظاهراً وباطنا و«كافّة» حال من ضمير ادخلوا يؤكّد معنى العموم في حيّز الجمع فإنّ قولك: جاء القوم كافّة أي كلّهم. والتاء كافّة وعامّة وقاطبة ليست للتأنيث وإن كانت تدلّ على التأنيث باعتبار الجماعة بل إنّما دخلت لمجرّد كون الكلمة منقولة إلى معنى كلّ وجميع.

١ـ انظر: الغدير، ج ٢، ص ٤٨؛ مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٧.

٢ـ انظر: التبيان، ج ٢، ص ١٨٣.

وقيل: إنّ الخطاب ليس للمنافقين والخطاب لمؤمني أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه لأنّهم كانوا يتمسّكون ببعض شرائع التوراة مثل تعظيم البيت وتحريم لحم الإبل وألبانها وأشياء كانوا يرون الكفّ عن ذلك مباحا في الإسلام وإن كان واجبا في شريعتهم فثبتوا على ذلك مع اعتقادهم حلّها استيحاشا من مفارقة العادة وقالوا: يا رسول الله إنّ التوراة كتاب الله فدعنا نقرأ منها في صلاتنا بالليل فقال ﷺ: **«لا تتمسّكوا بشيء ممّا نسخ ودعوا ما ألفتموه ولا تستوحشوا من النزوع عنه فإنّه لا وحشة مع الحقّ وإنّما هو من تزيين الشيطان»**.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تسلكوا مسالكه ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ظاهر العداوة يريد أن يفسد عليكم بهذه الوساوس إسلامكم.

فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩)

«الزلل» يستعمل في العدول عن الاعتقاد الحقّ والعمل الصائب أي أخطأتم الحقّ علماً أو عملاً من بعد الحجج والشواهد على ما ادّعيتم إلى الدخول فيه هو الحقّ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ غالب في الانتقام ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع من الأحكام وفيما يفعله بكم من العقاب بعد إقامة الحجّة عليكم.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٢١٠)

استفهام في معنى النفي و«نظر» بمعنى انتظر أي ينتظر من يترك الدخول في السلم إلّا إتيان الله على حذف المضاف أي أمر الله وعذابه لأنّه منزّه عن المجيء والذهاب المستلزمين للحركة والسكون أي ينتظر هؤلاء أن يأتيهم ما توعّدهم به على معصيته في ستر وقطع من السحاب «و الغمام»

السحاب الأبيض الرقيق سمّي غماما لأنه يستر و«الظلل» عبارة عن قطع متكاثفة عظيمة متراكمة و﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي ويأتيهم الملائكة فإنّهم وسائط أمره وهم الآتون بأسه. وحاصل المعنى أن قد قامت الحجّة فلم يبق إلّا نزول العذاب.

﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي أتمّ أمر إهلاكهم وهو عطف على «يأتيهم» داخل في حيّز الانتظار وإنّما عبّر بصيغة الماضي دلالة على الحقيقة فكأنّه قد كان ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ امور الخلق وأعمالهم، هو الحاكم بينهم يوم القيامة لا غيره.

وعن النبيّ ﷺ قال: «**إنّ الله أظهر الشكاية من أمّتي وقال: إنّي طردت الشيطان لأجلهم فهم يعصونني ويطيعون الشيطان**» فمن أعظم الطاعات طرد الشيطان وأن يتّهم الإنسان نفسه دائما، كما روي: أنّ رجلا صام أربعين سنة في سالف الزمان ثمّ دعا الحاجة، ومع ذلك لم تجب دعوته، فذمّ نفسه فقال: يا ماوى الشرّ ذلك من شؤمك وشرك فأوحى الله إلى نبيّ ذلك الزمان، قل له: إنّ مقتك لنفسك أحبّ إليّ من صيام أربعين سنة.

سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾

﴿سَلْ﴾ يا محمّد أولاد يعقوب وهم اليهود الّذين كانوا حول المدينة والمراد علماؤهم وهو سؤال تقرير لتأكيد الحجّة عليهم ﴿كَمْ ءَاتَيْنَا﴾ آباءهم وأسلافهم من معجزة ظاهرة على أيدي أنبيائهم كالعصا والبيضاء وإنزال المنّ والسلوى وكم من حجّة واضحة في كتابهم لمحمّد في صدق نبوّته.

وفي الكلام حذف وتقديره فبدّلوا نعمة الله وكفروا بآياته وخالفوه فضلّوا وأضلّوا ومن يبدّل الشكر عليها بالكفران ويصرف أدلّة الله وآياته عن وجوهها بالتأويلات والتحريفات الفاسدة بعد ما وقفوا على تفاصيلها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. وفي الآية دليل على فساد قول المجبّرة حيث إنّه سبحانه

أضاف التبديل إليهم وأوعدهم على التبديل بالعقوبة فلو لم يكن فعلهم لما استحقّوا العقوبة والمراد أنّ حال منافقي قومك وتحريفهم كحال من قبلك من المجرمين.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

نزلت الآية في رؤساء قريش، بسطت لهم الدنيا وكانوا يسخرون من فقراء المؤمنين مثل عبد الله بن مسعود وعمّار وبلال ويقولون: لو كان محمّدﷺ نبيّاً لاتّبعه أشرافنا. وقيل: نزلت في عبد الله بن ابيّ وأصحابه يسخرون من ضعفاء المؤمنين. وقيل: نزلت في رؤساء اليهود سخروا من فقراء المهاجرين. ولا مانع من نزولها في جميعهم فبيّن سبحانه أنّ عدول هؤلاء عن الإيمان إنّما هو لإيثارهم الحياة الدنيا فقال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وفيه قولان: أحدهما أنّ الشيطان زيّنها لهم وقوّى دواعيهم وحسّن لهم فعل القبيح، وأمّا الله لا يجوز أن يكون المزيّن لهم إيّاها لأنّه أمرهم بالزهد فيها وقال: إنّها متاع الغرور، وقال: متاع قليل. والآخر أنّ المزيّن هو الله بأن خلق فيها الأشياء المحبوبة من حيث الخلق والإيجاد وبما خلق لهم من الشهوة وإنّما كان كذلك لأنّ التكليف لا يتمّ إلّا مع الشهوة وما من شيء من القبائح إلّا وهو سبحانه منعه واستناده إلى الله يكون بهذا العنوان إذ لا يكلّف الإنسان إلى شيء تتوق نفسه إليه ويدعى إلى شيء تنفر عنه نفسه ويزجر منه. وذكّر الفعل مع أنّ الحياة مؤنّث لأنّها غير حقيقيّ وهو بمعنى العيش والبقاء ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يستهزئون بالفقراء.[١]

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي الّذين اجتنبوا الكفر فوق الكفّار

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ٢، ص ٦٣.

في الدرجات وتمتّعهم بنعيم الآخرة أكثر من استمتاع هؤلاء في الآخرة وحالهم فوق هؤلاء الكفّار لأنّهم في علّيين وهؤلاء في سجّين كقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾[1] وقيل: المعنى أنّ حال المؤمنين في الاستهزاء بالكفّار والضحك منهم في الآخرة فوق حال هؤلاء في الدنيا مثل قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾[2] لأنّهم في أوج الكرامة وهم في حضيض الذلّ والمهانة فتكون الفوقيّة مجازا. ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لأنّه لا يخاف نفاد ما عنده. حكي أنّ عيسى عليه السلام سافر ومعه يهوديّ فكان مع عيسى عليه السلام ثلاث أقراص فأعطاها اليهوديّ وقال له: احفظها ثمّ بعد ساعة أكل اليهوديّ واحدا منها فقال عيسى عليه السلام: «**هات الأقراص فقدّم القرصين فقال: أين ثالثها**»؟ فقال اليهوديّ: لم تكن أكثر من هذا، فمشيا حتّى شاهد من عيسى عليه السلام عجائب فأقسم عيسى عليه السلام لذلك حتّى يقرّ بالقرص الثالث فلم يقرّ فلحقا بثلاث لبنات من الذهب في الطريق فقال اليهوديّ: يا عيسى عليه السلام اقسم ذلك. فقال عيسى عليه السلام: «**واحدة لي وواحدة لك وواحدة لمن أكل القرص الثالث**»، فقال اليهوديّ: أنا أكلت القرص الثالث. فقال عيسى عليه السلام: «**ابعد عنّي فقد شاهدت قدرة الله ولم تقرّ به والآن قد أقررت بالدنيا**». فترك عيسى عليه السلام اللبنات عند اليهوديّ ومشى وجاء ثلاثة من اللصوص وقتلوا اليهوديّ وأخذوا اللبنات ثمّ بعثوا من جملتهم واحدا ليأتي لهم بالطعام فلمّا غاب عنهما تشاورا في قتله وقالا: إذا رجع قتلناه وأخذنا نصيبه. فذهب الرجل واشترى سمّاً فطرحه في الطعام الّذي اشتراه حتّى يأكل ذلك الطعام صاحباه فيموتا ويأخذ اللبنات الثلاثة، فلمّا قدم عليهما وأتى بالطعام قاما وقتلاه ثمّ أكلا الطعام فماتا

١ـ سورة الفرقان: ٢٤.

٢ـ سورة المطففين: ٣٤.

ثمّ عبر عليهم عيسى عليه السلام فوجد اليهوديّ وهؤلاء الثلاثة مقتولين فتعجّب من ذلك فنزل جبرئيل وأخبره بالقصّة.

ومثل الحياة الدنيا والحرص عليها مثل اللبنات فلا تكن أيّها العاقل يهوديًا ولا لصًا، بل كن عيسى زمانك، فلحلالها حساب ولحرامها عقاب ولمشبوهاتها عتاب، واترك الدنيا وخالف نفسك الخبيثة ترزق بغير حساب.

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

بيّن سبحانه أحوال من تقدّم من الكفّار تسلية للنبي صلى الله عليه وآله. أي ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ﴾ على دين واحد وجماعة واحدة متّفقين في الإيمان واتّباع الحقّ من وقت آدم إلى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلّ قرن ثمانون سنة عند الأكثر[1] ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وقال قوم: إنّهم كانوا على الكفر وهو المرويّ عن ابن عبّاس وجماعة ثمّ اختلفوا في أيّ وقت كانوا كفّارا فقيل: كانوا كفّارا بين آدم ونوح. وقيل: كانوا كفّارا بعد نوح إلى أن بعث الله إبراهيم والنبيّين بعده.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون الناس كلّهم كفّارا والله لا يجوز أن يخلي الأرض من حجّة له على خلقه؟

فالجواب: يجوز أن يكون الحقّ في واحد أو جماعة قليلة لم يمكنهم إظهار الدين خوفا فلم يعتدّ بهم إذ كانت الغلبة للكفّار.

قال الواقديّ والكلبيّ: المؤمنون كانوا أهل السفينة حين غرق الله

١ـ المعروف في اللغة: مائة سنة. وقال الراغب: هوالقوم المقترنون في زمان واحد.

الخلق. قال مجاهد: المعنى كان آدم على الحقّ إماما لذريّته فبعث الله النبيّين.

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال: **«كانوا قبل نوح امّة واحدة على فطرة الله لا مهتدين ولا ضلالا فبعث الله النبيّين»**. فالمعنى على هذا أنّهم متعبّدين بما في عقولهم من غير نبوّة ولا شريعة.[1] ثمّ بعث الله النبيّين بالشرائع لما علم أنّ مصالحهم فيها فأرسل الله النبيّين ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لمن أطاعهم بالجنّة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن عصاهم بالنار ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي أنزل مع كلّ واحد منهم الكتاب وأراد به مع بعضهم لأنّه لم ينزل مع كلّ نبيّ كتاب. وقيل: المراد به الكتب لأنّ الكتاب اسم الجنس فمعناه الجمع بالحقّ والصدق والعدل أو بيان الحقّ.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ الضمير في «يحكم» يرجع إلى الله أي ليحكم الله منزل الكتاب. وقيل: الضمير راجع إلى الكتاب ﴿فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ قبل إنزال الكتاب.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: وما اختلف في الحقّ إلّا الّذين أعطوا العلم به كاليهود فإنّهم كتموا صفة النبيّ بعد ما اعطوا العلم بعلائمه وبصفاته من بعد الأدلّة والحجج الواضحة في التوراة والإنجيل. وقيل: معجزات محمّد صلى الله عليه وآله ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي ظلماً وحسداً وطلباً للرياسة.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ لأنّهم اختصّوا بالاهتداء ومعنى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بعلمه وقيل: أي: بلطفه. فعلى هذا يكون في الكلام محذوف أي فاهتدوا بإذنه ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فيه أقوال:

أحدها: أنّ المراد البيان والدلالة، والصراط المستقيم هو الإسلام وخصّ به المكلّفين دون غيرهم ممّن لا يحتمل التكليف.

وثانيها: أنّ المراد به يهديهم باللطف فيكون خاصّاً بمن علم عن حاله أنّه يصلح به.

١ـ التبيان، ج ٢، ص ١٩٥. ومن ذهب اليد في مجمع البيان، ج ٢، ص ٦٥.

وثالثها: يهديهم إلى طريق الجنّة فيكون مخصوصاً بالمؤمنين لا يضلّ سالكه.(١)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

«أم» منقطعة معناه «بل» والهمزة للإنكار أي بل حسبتم أن تدخلوا الجنّة أي لا ينبغي أن تظنّوا وتحسبوا ذلك ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُم﴾ والحال لم يجئكم ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ وصف الذين مضوا من قبلكم من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين، أي ولم تبتلوا بعد بما ابتلوا به من الأحوال الهائلة الّتي هي في شدة والفظاعة صارت مثلا ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ كأنّه قيل: كيف كان مثلهم وحالهم العجيبة فقيل مسّتهم الفاقة والخوف والضراء أي الآلام والأمراض.

﴿وَزُلْزِلُوا﴾ وأزعجوا إزعاجاً شديداً بما أصابهم من الشدائد.

﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ أي انتهى أمرهم في الشدة إلى حيث اضطرّهم الأمر الدعاء لله لقرب الفرج والنصر. ولا يجوز أن يكون المعنى على جهة الاستبطاء بأن يقولوا: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ لأنّ الرسول يعلم أنّ الله لا يؤخّر وعده، والمراد أنكم ما امتحنتم بمثل ما امتحنوا فتصبروا كما صبروا. وفي الآية تسلية لنبيّه ولأصحابه في ما نالهم من المشركين وأمثالهم.

ثمّ أخبر الله سبحانه أنّه ناصر أوليائه لا محالة فقال: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وقيل إنّ هذا من كلامهم بأنّهم قالوا: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ ثمّ تفكّروا فعلموا أنّ الله منجز وعده فقالوا: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وقيل: إنّه ذكر جملة كلام الرسول والمؤمنين ثمّ فصّل قال المؤمنون: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾ وقال

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٦٦. ورواه المجلسي في البحار، ج ٥، ص ١٧٢.

الرسول ﷺ: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ كقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[١] وهذا المعنى أنسب.[٢]

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾

نزلت في عمرو بن الجموح وكان شيخا كبيرا ذا مال كثير، فقال: يا رسول الله ماذا ننفق من أموالنا وأين نضعها؟ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ﴾ يا محمّد أيّ شيء ينفقون والسؤال عن الانفاق، يتضمّن السؤال عن المنفق عليه ﴿قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ أي: أيّ شيء أنفقتم من أيّ خير كان، والمال يسمّى «خيرا» لأنّ حقّه أن يصرف إلى جهة الخير فصار بذلك كأنّه نفس الخير ﴿فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ بيان المصرف ﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ والمراد «بالوالدين» الأب والأمّ والجدّ والجدّة وإن علوا لأنّهم يدخلون في اسم الوالدين والمراد «بالأقربين» أقارب المعطي «و اليتامى» أي كلّ من لا أب له مع صغره المحتاجين ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المنقطع به.

واختلفوا في هذه النفقة قيل: المراد به نفقة التطوّع. وقيل: هي عامّة في الزكاة المفروضة والتطوّع[٣] وإنّما لم تتعرّض للسائلين والرقاب إمّا اكتفاء بما ذكر في المواقع الأخر وإمّا بناء على دخولهم تحت عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ﴾ فإنّه شامل لكلّ خير واقع في أيّ مصرف كان ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ فيوفّي ثوابه.

١ـ سورة القصص: ٧٣.

٢ـ مجمع البيان، ج٢، ص ٦٩.

٣ـ فقه القرآن، ج ١، ص ٢٤٠.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

في الآية بيان لكون الجهاد مصلحة لمن أمر به، أي فرض عليكم قتال الكفرة والجهاد في سبيل الله مع أعداء الدين وهو فرض على الكفاءة، مثل صلاة الجنازة ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ والحال أنّه شاقّ عليكم طبعا كالصوم في الصيف، وكراهة الطبع لا توجب الذمّ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لأنّ في الغزو إحدى الحسنيين إمّا الظفر والغنيمة وإمّا الشهادة والجنّة.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا﴾ «عسى» كلمة يجرى مجرى لعلّ للترجّي، ومن الامور الّتي تحبّونه مستلذّات النفس والشهوات والقعود عن الغزو ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ لما فيه من فوات الأجر وحصول غلبة الأعداء وضعف الدين وتخريب الديار ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو خير لكم ديناً ودنيا فلذا يأمركم به ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ولذلك تكرهونه، وإنّما كرهوا الأمور الخيريّة لأنّ أبدانهم رهينة لشهواتهم وضعف نيّاتهم بعمل الآخرة فينبغي للعاقل أن يجاهد مع النفس والطبيعة ليرتفع الهوى والشهوات والبدعة ويتمكّن في قلبه حبّ العمل بالكتاب والسنّة.

قال إبراهيم الخوّاص: كنت أسيح في جبل لكام وفيه أشجار الرمّان البريّ فرأيت رمّانة اشتهيتها فقطعتها وشققتها فوجدتها حامضة فتركتها فرأيت رجلا مطروحا قد اجتمع عليه الزنابير فقلت: السّلام عليك. فقال: وعليك السّلام يا إبراهيم فقلت: كيف عرفتني ولم ترني؟ قال: من عرف الله لا يخفى عليه شيء فقلت: أرى لك حالاً مع الله فلو سألته أن يحميك ويقيك الأذى والمرض من هذه الزنابير فقال: وأرى لك حالاً مع الله فلو سألته أن يقيك شهوة الرمّان فلدغ الرمّان يجد الإنسان ألمه في الآخرة ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا.[1]

١ـ انظر: شرح نهج البلاغة، ج ١١، ص ١٣١.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾

سبب النزول: بعث رسول الله ﷺ سريّة من المسلمين وأمّر عليهم عبد الله بن جحش الأسديّ وهو ابن عمّة رسول الله ﷺ وذلك قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر من مقدمه الشريف بالمدينة فانطلقوا حتّى هبطوا نخلة فوجدوا بها عمرو بن الحضرميّ في عير تجارة لقريش في آخر يوم من جمادي الآخرة وكانوا يرون أنّه من جمادي وهو رجب فاختصم المسلمون فقال قائل منهم: هذه عيرة من عدوّ وغنم رزقتموه ولا ندري أمن الشهر الحرام هذا اليوم أم لا؟ وقال قائل منهم: لا نعلم هذا اليوم أمن الشهر الحرام أم لا ولا نرى أن تستحلّوه لطمع أشفيتم عليه؟ فغلب على الأمر الّذي أراد الغنم فشدّوا على ابن الحضرميّ فقتلوه وغنموا عيره فبلغ كفّار قريش فركب وفد كفّار قريش حتّى قدموا على النبيّ ﷺ فقالوا: أتحلّ القتال في الشهر الحرام؟ فأنزل الله الآية.(1)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ يا محمّد السائلون أهل الشرك على جهة التوبيخ والعيب، وقيل: السائلون أهل الإسلام سألوا ذلك ليعلموا كيف الحكم فيه ﴿عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾ أي عن القتال في الشهر الحرام وقتال بدل الاشتمال عن الشهر لأنّ الزمان يشتمل على ما يقع فيه، وإنّهم كانوا ينزعون الأسنّة والنصال

١ـ انظر: تفسير القمي، ج ١، ص ٦١.

عند دخول رجب، ويدعى رجب الأصمّ لأنّه لا يسمع فيه قعقعة السلاح فيه.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿قِتَالٌ فِيهِ﴾ ذنب ﴿كَبِيرٌ﴾ عظيم عند الله «و قتال» مبتدأ خبره «كبير» وجاز الابتداء بالنكرة لأنّها وصفت «بفيه» وعند الأكثر أنّ هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[1] ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ومنع عن الإسلام و«صدّ» مبتدأ قد تخصّص بالعمل فيما بعد ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ بالله وصدّ أيضا عن دخول ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وزيارة بيت الله﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أي أهل المسجد وهو النبيّ والمؤمنون ﴿مِنْهُ﴾ أي من المسجد ﴿أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ وأعظم وزرا يعني إخراجهم المسلمين من مكّة حين ضيّقوا عليهم وهاجروا إلى المدينة.

﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي الفتنة في الدين والكفر أعظم من القتل في الشهر الحرام يعني قتل ابن الحضرميّ أي هذه الأشياء المعدودة أكبر إثما وعقوبة من قتل المسلمين ابن الحضرميّ في الشهر الحرام ولو أنّ القتال في الشهر الحرام حرام لأنّ القتال إثم والكفر أعظم ولأنّهم كانوا شاكّين في اليوم وأوّلوه ولا تأويل للكفّار في الكفر. ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ بيان لاستحكام عداوتهم في الدين، أي لا يزال الكفّار عن قتالكم أيّها المؤمنون ﴿حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ ويصرفوكم عن دينكم الحقّ إلى دينهم الباطل ﴿إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ إشارة إلى تصلّبهم مهما أمكن.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ أي من يفعل ذلك باغوائهم ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ بأن لم يرجع إلى الإسلام ويموت على الكفر ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ الباقون على الارتداد حين الموت ﴿حَبِطَتْ﴾ وتلاشت وبطلت ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الّتي كانوا عملوها في حالة الإسلام حبوطا كلّيا لا تلافي له ﴿فِي الدُّنْيَا﴾

١ـ سورة التوبة: ٥.

وهو وجوب قتله عند الظفر به لارتداده وفوات موالاة المسلمين وزوال النكاح وحرمانه من مواريث المسلمين ونحو ذلك ممّا يجري على المرتدّ وأهله وماله ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ وهو الجنّة لأنّ عبادتهم لم تصحّ لإخلال الوجه فلم يجازوا عليها في الآخرة ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مؤبّدون فيها وحاصل الآية أنّ كلّ واحد من هذه الأمور أعظم من القتال في الشهر الحرام.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾

نزلت في السريّة المذكورة فإنّ الله لمّا فرج عنهم بالآية السابقة ما كانوا فيه من الغمّ الشديد بقتالهم في الشهر الحرام طمعوا فيما عند الله من ثوابه فقالوا: يا رسول الله لا عقاب علينا فيما فعلنا فهل نعطى ثوابا؟ فأنزل الله هذه الآية وكانوا مؤمنين مهاجرين ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ وفارقوا منازلهم ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ وحاربوا المشركين ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء دينه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ وثوابه ولا يحبط أعمالهم كأعمال المرتدّين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٞ﴾ يرحمهم ومن الواجب على المؤمن أن لا ييأس من رحمته وأن لا يأمن من عذابه.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَاۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٞ لَّهُمْ خَيْرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٢٠﴾

نزلت في جماعة من الصحابة أتوا رسول الله فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر[١] فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ﴾ وهي كلّ شراب مسكر مخالط للعقل مغطي عليه، وما أسكر كثيره فقليله خمر وحرام «و الخمر» مصدر خمره أي ستره سمّي به لتغطيتها العقل والتميّز كأنّها نفس الستر كما سمّيت سكراً لأنّها تسكر وتحجر العقل ﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ مصدر ميميّ من يسر كالموعد والمرجع يقال: يسرته إذا قمرته واشتقاقه من اليسر لأنّه أخذ المال بيسير وحصوله لصاحبه بالسهولة ويدخل جميع أقسامه كالنرد والشطرنج حتّى لعب الصبيان بالجوز والكعاب. ﴿قُلْ فِيهِمَآ﴾ أي في تعاطي الخمر والميسر واستعمالهما ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وقرأ كثير بالثاء المثلّثة لما أنّ الأوّل مسلبة للعقول الّتي هي قطب الدين والدنيا مع كون كلّ منهما متلفة للأموال ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ من كسب اللذّة والمغالات بثمن الخمر وتقوية الضعيف والإعانة على بانه وتسلية المحزون وتشجيع الجبان وتسخية البخيل وإنطاق الفتى العيّ وتهييج الهمّة، ومنافع الميسر إصابة المال من غير كدّ ولا تعب وانتفاع الفقراء بلحم الجزور فإنّهم كانوا يفرّقونها على المحتاجين. قال الواقديّ: وربّما قمر الواحد منهم في مجلس مائة بعير فيصيب مالاً عظيماً بلا نصب ولا ثمن ثمّ يعطيه المحتاجين فيكتسب المدح والثناء.

﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ وفي الخمر إيقاع العداوة والبغضاء والصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة وهي تسفّه الحكيم فكيف بغيره ويؤول أمر شاربها أحيانا بحيث يلعب ببوله وعذرته وقيئه كما ذكر ابن أبي الدنيا أنّه مرّ على سكران وهو يبول في يده ويمسح به وجهه كهيئة المتوضّئ ويقول: الحمد لله الّذي جعل الماء طهورا والإسلام نورا. وفي الميسر أنّه إذا ذهب

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ٢، ص ٨١.

ماله من غير عوض ساءه ذلك فعادى صاحبه وربّما قصده بالسوء. قال المفسّرون: تواردت في الخمر أربع آيات نزلت بمكّة: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1] فكان المسلمون يشربونها وهي لهم حلال يومئذ.[2] ثمّ إنّ معاذا وعمر ونفراً من الصحابة قالوا: أفتنا يا رسول الله في الخمر فإنّها مذهبة للعقول فنزلت ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ فشربها قوم وقالوا: نأخذ نفعها ونترك إثمها وتركها آخرون وقالوا: لا حاجة لنا فيما إثمه كبير.

ثمّ إنّ عبد الرحمن بن عوف دعا ناسا منهم فشربوا وسكروا فقام أحدهم للصلاة فقرأ: (قل يا أيُّها الكافِرُون أعبد ما تعبدون) إلى آخر السورة بدون «لا» في لا أعبد فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[3] فقلّ من يشربها وقالوا: لا خير في شيء يحول بيننا وبين الصلاة وشربها قوم في غير حين الصلاة حتّى كان الرجل يشربها بعد صلاة العشاء فيصبح وقد زال عنه السكر ويشرب بعد الصبح فيصحّوا إذا جاء وقت الظهر.

ثمّ اتّخذ عتبان بن مالك ضيافة ودعا رجالا من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقّاص وكان قد شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه وشربوا الخمر حتّى سكروا ثمّ إنّهم تناشدوا الأشعار وانتسبوا وافتخروا فأنشد سعد قصيدة فيها هجاء الأنصار وفخر لقومه، فأخذ رجل لحى البعير فضرب به رأس سعد فشجّ موضحة[4] فانطلق سعد إلى رسول الله ﷺ وشكا إليه الأنصاريّ فنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ﴾ في سورة المائدة، إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فقالت

١ـ سورة النحل: ٦٧.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٢٠، ص ١٨٣.

٣ـ سورة النساء: ٤٣.

٤ـ الموضحة من الشجاج مايوضح فيها عظم الرأس.

الصحابة: انتهينا يا ربّ.

وحرّمت الخمر في السنة الثالثة من الهجرة بعد غزوة الأحزاب بأيّام. قال القفال المروزيّ: والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أنّه تعالى علم أنّ القوم كانوا ألفوا شرب الخمر وكان انتفاعهم بها كثيرا فلو منعهم دفعة واحدة يشقّ عليهم فلا جرم استعمل في التحريم هذا الرفق.

ثمّ لمّا نزل التحريم أريقت الخمر قال ابن عمر: ولقد غودرت أزقة المدينة بعد ذلك حيناً كلّما مطرت استبان فيها لون الخمر وفاحت منها ريحها وحرمت ولم يكن للعرب يومئذ عيش أعجب منها وما حرّم الله عليهم شيئاً أشدّ من الخمر.

وفي «روح البيان»: روي أنّ جبرئيل عليه السلام قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: **«إنّ الله تعالى شكر لجعفر الطيّار أربع خصال كان عليها في الجاهليّة وهو عليها في الإسلام، فسأل النبيّ صلى الله عليه وآله جعفراً عن ذلك فقال: يا رسول الله لو لا أنّ الله اطّلعك عليها لما أخبرتك بها: ما شربت الخمر قطّ، لأنّي رأيتها تزيل العقل وأنا إلى أن أزيد فيه أحوج منّي إلى أن أزيله، وما عبدت صنما قطّ لأنّي رأيته لا يضرّ ولا ينفع، وما زنيت قطّ لغيرتي على أهلي، وما كذبت قطّ لأنّي رأيته دناءة».**

قال عمرو بن الأدهم ـ وهو من أكابر سادة بني تميم ـ لو كان العقل يشترى ما كان شيء أنفس منه فالعجب لمن يشتري الحمق بماله فيدخله في رأسه ويفيء في جيبه ويسلح في ذيله.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: **«لو وقعت قطرة في أرض فبنيت مكانها منارة لم اوذّن عليها ولو وقعت في بحر ثمّ جفّ فنبت فيه الكلاء ورعت الغنم منه لما أكلت من لحومها».**[1]

وأمّا الميسر فهو القمار، والياسر القامر. وكان أصل الميسر في الجزور

١ـ مستدرک الوسائل، ج ٤، ص ٧٥. والكشاف، ج ١، ص ٣٥٩.

في العرب وذلك أنّ أهل الثروة من العرب كانوا يشترون جزورا ويضمنون ثمنه ولا يؤدّونه ليظهر بالقمار أنّه على من يجب فينحرونها ويجزونها عشرة أجزاء ثمّ يسهمون عليها بعشرة قداح يقال للقداح الأزلام والأقلام سبعة منها لها أنصباء: الفذّ وله نصيب واحد والتوأم وله نصيبان والرقيب وله ثلاثة والحلس وله أربعة والنافس وله خمسة والمسبل وله ستّة والمعلّى وله سبعة، وثلاثة منها لا نصيب لها وهي المنيح والسفيح والوغد ثمّ يجعلون القداح في خريطة تسمّى الربابة ويضعونها على يدي عدل عندهم يسمّى المجيل والمفيض ثمّ يحرّكها ويجلجلها ذلك الرجل العدل فيدخل يده فيخرج باسم رجل رجل قدحا قدحا فمن خرج له قدح من ذات الأنصباء أخذ النصيب المعيّن له ومن خرج له قدحا ممّا لا نصيب له وهو الثلاثة لم يأخذ شيئا وغرم ثمن الجزور وكانوا يدفعون تلك الأنصباء للفقراء ولا يأكلون منها أي من سهم الثلاثة المحرومة ويفتخرون بذلك ويذمّون من لا يدخل في هذا الأمر ويسمّونه البرم ومعناه عديم المروّة واللئيم فهذا كان أصل القمار عندهم(١) فالميسر بأقسامه حرام كما أنّ الخمر بأنواعها حرام. في الحديث: **«سيأتي على أمّتي زمان يظهر فيه أقوام يسمّون الخمر بغير اسمها»**.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ سؤال عن كمّيته ومقداره فإنّه لمّا نزل قوله: ﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ﴾ قال عمرو بن الجموح: وسأل عن مقدار الإنفاق فنزل ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: أنفقوا الميسور والسهولة، أي: ما سهل وتيسّر ولم يشقّ عليك إنفاقه فالعفو من المال ما يسهل إنفاقه، والجهد من المال ما يعسر إنفاقه والقدر السهل ما كان فاضلا عن حاجة نفسه وعياله ومن عليه مؤونته ولكن بشرط الاقتصاد، عن ابن عبّاس عن النبيّ قالﷺ: **«إنّ العفو الوسط من**

١ـ سيأتي له ذكر في الجزء الرابع من الكتاب في سورة المائدة: آية ٩٠.

غير إقتار ولا إسراف» وهو المرويّ عن أبي جعفر‌عليه‌السلام[1] وثالث الأقوال: أنّ العفو ما فضل عن قوت السنة، عن الباقر‌عليه‌السلام قال: **«ونسخ ذلك بآية الزكاة»**.[2] والرابع من الأقوال: أنّ العفو أفضل المال وأطيبه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الخطاب للنبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ويدخل فيه الأمّة وإفراد الخطاب مع تعدّد المخاطبين باعتبار القبيل أو الفريق بما هو مفرد اللفظ ومجموع المعنى أي مثل ما بيّن أنّ العفو أصلح من الجهد ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالّة على تفاصيل أموركم لا بيانا أدنى منه بيّنة الفحوى واضحة المدلول ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لكي تدبّروا في امور الدارين فتأخذوا بأصلحها لكم وأسهل في الدنيا وأنفع للعقبى. وفي الآية ترغيب في التصدّق بشرط أن يكون من فضل المال وعفوه وأطيبه وبشرط أن يكون عنده ما يتعيّش به لا أنّه ينفق ثمّ يقعد في بيته محتاجاً.

كما روي: أنّ رجلا أتى النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله ببيضة من ذهب أصابها في بعض المغازي فقال: يا رسول الله خذها منّي صدقة فو الله لقد أصبحت ما أملك غيرها فأعرض عنه النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله فأتاه من جانب الأيمن فقال مثله، فأعرض عنه ثمّ أتاه من جانب الأيسر فأعرض عنه فقال: «هاتها، مغضبا» فأخذها منه فحذفها حذفا لو أصابه لشجّه أو عرّه ثمّ قال‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: **«يجيء أحدكم بماله كلّه يتصدّق به ويجلس يتكفّف الناس، إنّما الصدقة عن ظهر غنى خذها فلا حاجة لنا فيه»**[3].

وفي لفظ العفو إشارة إلى أنّ ما يعطيه المرء في سبيل الله أن يعفو أثره عن قلبه لأنّ أصل العفو المحو والطمس وهذه الطريقة طريقة العوام وأمّا

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٢؛ ووسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٥٥٤.

٢ـ التبيان، ج ٢، ص ٢١٤؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٨٢.

٣ـ مستدرك الوسائل، ج ٧، ص ٢٤٠؛ والكشاف، ج ١، ص ٣٦٠.

الخواصّ فطريقهم الإيثار وهو أن يقدّم غيره على نفسه. ولمّا حثّ النبيّﷺ الناس على الصدقة وكان أبو أمامة الباهليّ جالسا بين يديه وهو يحرّك شفتيه فقال له النبيّﷺ: «**ماذا تقول حيث تحرّك شفتيك؟**» قال: إنّي أرى الناس يتصدّقون وليس معي شيء أتصدّق به فأقول في نفسي: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر. فقالﷺ: «**هؤلاء الكلمات خير لك من مدّ ذهباً تصدّق به على المساكين**».

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ أي عن مخالطتهم وذلك بعد نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ فتركوا مخالطتهم ومؤاكلتهم حتّى لو كان عند رجل يتيم يجعل له بيتاً على حدة وطعاماً على حدة وعزلوا أموال اليتامى عن أموالهم وكان يصنع لليتيم طعام فيفضل منه شيء فيتركونه ولا يأكلونه فيتركونه حتّى يفسد فاشتدّ ذلك عليهم وعلى اليتامى فقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله ما لكلّنا منازل يسكنها اليتامى ولا كلّنا نجد طعاماً وشرابا نفرّدهما لليتيم فنزلت الآية. ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ﴾ أي مداخلتهم على وجه الإخلاص والإصلاح ﴿خَيْرٌ﴾ من مجانبتهم وترك خلطتهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ﴾ و تعاشروهم على وجه ينفعهم ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ فهم إخوانكم في الدين الّذي هو أقوى من العلاقة النسبيّة فحينئذ حقّ الأخ أن يخالط الأخ بالإصلاح والنفع. قال ابن عبّاس: «المخالط» أن تأكل من تمره ولبنه وقصعته وهو يأكل من تمرك ولبنك وقصعتك. وبعض حمل المخالطة على المصاهرة وهو أن يكون اليتيم بنا فيتزوّجه ابنته أو تكون بنتاً فيزوّجها ابنه إيناساً لوحشته وإزالة لوحدته.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ﴾ لمال اليتم ﴿مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ لماله فيجازيه على حسب مداخلته، وفي تقديم «المفسد» مزيد تهديد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إعناتكم وحملكم على المكروه ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾ وحملكم على المشقّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾

غالب في أمره ﴿حَكِيمٌ﴾ يحكم ما يقتضيه الحكمة وتسع له الطاقة وهو دليل على ما يفيده كلمة «لو» من انتفاء مقدّمها أي لكنّه لم يشأ.

واعلم أنّ مخالطة الأيتام ومحبّتهم من أخلاق الكرام وفي الترحّم عليهم فوائد جمّة قال النبيﷺ **«من وضع يده على رأس يتيم ترحّما عليه كانت له بكلّ شعرة تمرّ عليها يده حسنة»**.

قال الله: **«يا موسى كن لليتيم كالأب الرحيم وكن للأرامل كالزوج الشفيق وكن للغريب كالأخ الرفيق أكن لك كذلك»**. قال النبيﷺ: **«ثلاثة في ظلّ عرش الله يوم القيامة امرأة مات عنها زوجها وترك عليها يتامى صغار فخطبت فلم تتزوّج وقالت أقيم على اليتامى حتّى يغنيهم الله أو يموت اليتيم أو هي، ورجل له مال وصنع طعاما فأطاب صنيعه وأحسن نفقته فدعا إليه اليتيم والمساكين،والثالث واصل الرحم فيوسّع له في رزقه ويمتدّ له في أجله ويكون تحت ظلّ عرشه»**.

فليحسن العاقل مخالطة اليتيم وليجتنب كلّ الاجتناب عن إخلال حقّ من حقوقه وأكل حبّة من ماله وعن ظلمه وقهره.

حكي: أنّ رستم بن زال بارز إسفنديار فلم يقدر عليه مع زيادة قوّته وكان إسفنديار يجرحه في كلّ حملة دون رستم وكان بدن إسفنديار كجلد بعض السمك لا يعمل فيه شيء، ثمّ إنّ رستم تشاور مع زال في ذلك فقال له أبوه: إنّك لا تقدر عليه إلّا أن تعمل سهما من تلك الشجرة ذا قفارين وتصيب به عيني إسفنديار ففعل ذلك فرمى فأصاب فغلب عليه بذلك، والسبب في ذلك أنّ إسفنديار كان قد ضرب في شيبته يتيماً بغصن ففقأ به عينه وأبكاه ثمّ إنّ اليتيم أخذ ذلك الغصن وغرسه فلمّا صار شجراً أخذ رستم غصناً من أغصانه ونحت منه سهمه الّذي أصاب به عيني إسفنديار.

وفي قوله: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ إشارة إلى أنّ المرء ينبغي أن

يتعوّد الأكل مع الناس فإنّ شرّ الناس من أكل وحده قال النبيّ ﷺ: **«إنّ من أحبّ الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي»**[١] وفي «المصابيح» أنّ أصحاب النبيّ ﷺ قالوا: يا رسول الله إنّا نأكل ولا نشبع قال: **«لعلّكم تفترقون»** قالوا نعم: قال: **«فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله»**.[٢]

حكي: أنّه قيل لجمين صاحب النوادر: أتغدّيت عند فلان؟ قال: لا ولكن مررت ببابه وهو يتغدّى فقيل له: كيف علمت قال: رأيت غلمانه بأيديهم قسيّ البنادق يرمون الطير في الهواء. وفي الحديث: **«من أضاف مؤمناً فكأنّما أضاف آدم ومن أضاف اثنين فكأنّما أضاف آدم وحوّاء»**.[٣]

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

شأن النزول: نزلت في مرثد بن أبي مرثد الغنويّ بعثه رسول الله إلى مكّة ليخرج منها ناساً من المسلمين وكان قويّا شجاعا فدعته امرأة يقال عناق إلى نفسها فأبى وكان يهواها في الجاهليّة وتهواه فقالت: ألا نخلو فقال: إنّ الإسلام حال بيننا فقالت: هل لك أن تتزوّج بي فقال: حتّى أستأذن رسول الله فلمّا رجع استأذن رسول الله في التزوّج بها فنزلت الآية فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ ولا تتزوّجوا النساء الكافرات ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ أي يصدّقن بالله وهي عامّة عندنا في تحريم مناكحة جميع الكفّار من أهل الكتاب وغيرهم وليست بمنسوخة.

١ـ بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢٩٠؛ مستدرک الوسائل، ج ١٦، ص ٢٣٣.

٢ـ سنن أبي داود، ج ٢، ص ١و٢؛ انظر: سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١٠٩٣.

٣ـ كنزالعمّال، ج ٩، ص ٢٦٩.

واختلف غيرنا فيه فقال بعضهم: لا يقع اسم المشركات على أهل الكتاب وقد فصّل الله بينهما فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾[1] وكذلك ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾[2] وعطف أحدهما على الآخر. وقال بعضهم: الآية متناولة جميع الكفّار والشرك يطلق على الكلّ ومن جحد نبوّة نبيّنا محمّدﷺ فقد أنكر معجزته وأضافه إلى غير الله وهذا هو الشرك بعينه لأنّ المعجزة شهادة من الله له بالنبوّة. ثمّ هؤلاء أيضا اختلفوا فمنهم من قال: إنّ الآية منسوخة في الكتاب بالآية الّتي في المائدة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾[3] ومنهم من قال: إنّها مخصوصة بغير الكتابيّات، عن قتادة وسعيد بن جبير. ومنهم من قال: إنّها على ظاهرها في تحريم نكاح كلّ كافرة كتابيّة كانت أو مشركة، عن ابن عمر وبعض الزيديّة وهو مذهبنا وسيأتي بيان آية المائدة في موضعها إن شاء الله.

﴿وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ﴾ مع ما بها من قلّة الخطر والقدر ﴿خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ﴾ مع مالها من شرف الحرّيّة والمال ورفعة الشأن ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ تلك المشركة بجمالها ومالها ونسبها وبغير ذلك من مبادئ الإعجاب وموجبات الرغبة، والواو للحال والتقدير: خير من مشركة في كلّ حال ولو في هذه الحالة. وقيل: «لو» هنا بمعنى «إن» كذا كلّ موضع وليها الفعل الماضي وكان جوابها مقدّما عليها فيكون المعنى: وإن كانت المشركة تعجبكم وتحبّونها فإنّ المؤمنة خير لكم.

﴿وَلَا تُنْكِحُوا﴾ بضمّ التاء من الإنكاح ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ أي الكفّار أعمّ من

١ـ سورة البينة: ١.

٢ـ سورة البقرة: ١٠٥.

٣ـ سورة المائدة: ٥.

الوثنيّ وغيره أي لا تزوّجوا منهم المؤمنات سواء كنّ حرائر أم إماء ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ ويتركوا ما هم عليه من الكفر ولا يحلّ تزويج المؤمنة من الكافر على اختلاف أنواع الكفر ولا خلاف في هذا الحكم وهذا يؤيّد قول من قال: إنّ قوله: «وَ لا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكاتِ» يتناول جميع الكافرات. ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ ماله أو جماله والفرق بين «و لو أعجبكم» وبين «و إن أعجبكم» أنّ «لو» للماضي و«إن» للمستقبل وكلاهما يصحّ في معنى الآية و«العجب» في الآية بمعنى الميل والاستعظام وليس من التعجّب.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من المشركين والمشركات ﴿يَدْعُونَ﴾ من يقارنهم ويعاشرهم ويعاثرهم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ﴾ وأولياؤه المؤمنون ﴿يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وإلى الاعتقاد الحقّ ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بامره أي يدعو ملتبسا بتوفيقه ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ المشتملة على الأحكام ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لكي يتذكّروا فيفوزوا بما دعوا إليه من الجنّة والغفران وبئست الخصلة ميل الطبع إلى محسّنات أهل الكفر ويؤول هذا الميل إلى الكفر أو محبّة الدنيا والكافر.

قال الزمخشري: لا ترض لمجالستك إلّا أهل مجانستك ويؤيّد هذا المعنى حديث الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف.[١]

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

كانوا في الجاهليّة يتجنّبون مؤاكلة الحائض ومشاربتها ومجالستها فسألوا عن ذلك فنزلت الآية وقيل: كانوا يستجيزون إتيان النساء في أدبارهنّ أيّام الحيض

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٦.

فلمّا سألوا عنه بيّن تحريمه عن مجاهد. قال الطبرسيّ: والأول عندنا أقوى.[1]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ والسائل أبو الدحداح ﴿عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي أحواله ﴿قُلْ﴾ يا محمّد: ﴿هُوَ أَذًى﴾ أي: قذر. وقيل: أي: دم. وقيل: المراد من الأذى مشقّتهنّ لهذه العارضة ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ أي اجتنبوا مجامعتهنّ في الفرج و«المحيض» اسم مكان عن ابن عبّاس وجماعة. ويوافق هذا القول قول من لا يحرّم منها غير موضع الدم فقط. ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ بالجماع أو مادون الإزار على الخلاف فيه ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بالتخفيف حتّى ينقطع الدم عنهنّ ويطهرن من الحيض هذا إذا كان بالتخفيف، وعلى قراءة التشديد فمعناه حتّى يغتسلن.

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: اغتسلن وقيل: توضّأن وقيل غسلن الفرج ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ فجامعوهن وهو إباحة وإن كان صورته صورة الأمر كقوله: «وَ إذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا»[2] ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي من حيث أمركم الله بتجنّبه في حال الحيض وهو الفرج، وقيل: المعنى من قبل الطهر دون الحيض ومعنى الأوّل أليق بالظاهر وقيل: معناه من الجهات الّتي تحلّ فيها أن تقرب المرأة ولا تقربوهنّ من حيث لا يجوز المقاربة مثل أن كنّ صائمات أو محرمات أو معتكفات. قال الفرّاء: ولو أراد الفرج لقال سبحانه: «في حيث أمركم الله» فلمّا قال: ﴿مِنْ حَيْثُ﴾ علمنا أنّه أراد من الجهة الّتي أمركم الله بها.[3] وقيل: المراد من المأتيّ الّذي حلّله لكم وهو القبل وعلى هذا القول فالوطي في دبر المرأة حرام.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ المتنزّهين عن الأقذار والفواحش

١ـ الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٢٠٩؛ وأيضاً الكافي، ج ٢، ص ١٦٨.

٢ـ سورة المائدة: ٢

٣ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٧؛ ومعاني القرآن، ج ١، ص ١٤٣.

كمجامعة الحائض والإتيان في غير المأتيّ بناء على القول في حرمة الدبر من المرأة.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

﴿أَنَّىٰ﴾ في محلّ النصب على الظرفيّة ظرف مكان إذا كان بمعنى حيث أو أين وظرف زمان إذا كان بمعنى متى والعامل فيه ﴿فَأْتُوا۟﴾.

النزول: نزلت ردّاً على اليهود إذ قالوا: إنّ الرجل إذا أتى المرأة من خلفها في قبلها خرج الولد أحول فأكذبهم الله عن ابن عبّاس وجابر. وقيل: أنكرت اليهود إتيان المرأة قائمة وباركة فأنزل الله إباحته.[١]

المعنى: لمّا بيّن الله أحوال النساء في الحيض عقّب ذلك بقوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ وذكر فيه وجوها:

أحدها أنّ معناه مزرع ومحرث لكم عن ابن عبّاس والسدّيّ.

والثاني: أنّ معناه ذوات حرث لكم منهنّ تحرثون الولد واللذّة وهذا في المعنى مثل الأوّل وكنّي عن الجماع بالحرث.

والثالث: كحرث لكم فحذف حرف التشبيه كقولهم: الشعر مسك والوجوه دنانير ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ﴾ أي: موضع حرثكم نساءكم وقد سمّى العرب النساء حرثاً ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: من أين شئتم عن قتادة والربيع. وقيل: المراد كيف شئتم. وقيل: متى شئتم. قال الطبرسيّ: وهذا خطأ عند أهل اللغة لأنّ ﴿أَنَّىٰ﴾ لا يكون إلّا بمعنى من أين كما قال: «**أَنَّى لَكِ هذا**»[٢] ويجوز أن يكون بمعنى كيف.

واستدلّ مالك بقوله: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ على جواز إتيان المرأة في دبرها،

١ـ المصدر السابق، ص ٨٨.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٨٩.

ورواه عن نافع عن ابن عمر وحكاه زيد بن أسلم عن محمّد بن المنكدر، وبه قال بعض أصحابنا وخالف في ذلك جمع من الفقهاء وقالوا: إنّ الحرث لا يكون إلّا بحيث النسل فيجب أن يكون الوطء حيث يكون النسل. ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ الأعمال الصالحة الّتي أمرتم بها ورغّبتم فيها ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: عقاب الله بترك مجاوزة الحدود، وقيل: المراد من معنى التقديم هنا طلب الولد الصالح لقوله: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث: ولد صالح يدعو له وصدقة جارية وعلم ينتفع به بعد موته**».[1]

وقيل: هو التسمية عند الجماع. وقيل: المراد من تقديم الخير هو التزوّج بالعفائف ليكون الولد طاهراً صالحا. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ أي ملاقو ثوابه إن أطعتموه وعقابه إن عصيتموه، وإنّما أضافه إليه على ضرب من المجاز ولا يجوز حمل اللقاء على الرؤية ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالثواب والجنّة.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

روي: أنّ بشير بن نعمان الأنصاريّ كان قد طلّق زوجته الّتي هي أخت عبد الله بن رواحة وأراد أن يتزوّجها بعد ذلك وكان عبد الله قد حلف على أن لا يدخل على بشير ولا يكلّمه ولا يصلح بينه وبين أخته فإذا قيل له في ذلك قال: حلفت بالله أن لا أفعل ولا يحلّ لي إلّا أن أحفظ يميني وأبرأ فيه، فأنزل الله هذه الآية. المعنى: لا تجعلوا ذكر الله والحلف به مانعاً من أنواع الخير كالبرّ والاتّقاء والإصلاح في الأمور الخيريّة فإنّ الحلف بالله لا يمنع ذلك فيكون لفظ الأيمان مجازا مرسلا عن الخيرات المحلوف عليه. سمّي

١ـ مستدرك الوسائل، ج ١٢، ص ٢٣٠.

المحلوف عليه يمينا لتعلّق اليمين، واللام في «لِأَيْمانكُمْ» متعلّق بقوله: ﴿عُرْضَةً﴾ والعرضة فعلة بمعنى المعروض جعل اسما لما يعرض دون الشيء أي يجعل قدّامه بحيث يكون حاجزا وحائلا عن أمر، وحاصل المعنى أن لا تجعلوا الحلف بالله عذرا ومانعا عن إيتاء الخير والبرّ والتقوى والصلاح في امور الناس ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنيّاتكم.

وقيل: في معنى الآية وجه آخر: أي: لا تجعلوا اليمين بالله عدّة مبتذلة في كلّ حقّ وباطل ولا تحلفوا به وإن بررتم، وهو المرويّ عن أئمّتنا نحو ما رواه عثمان بن عيسى عن أبي أيّوب قال: سمعت الصادق عليه السلام يقول: «**لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين فإنّه سبحانه يقول:** ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾».[1]

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (٢٢٥)

ثمّ بيّن أقسام اليمين ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ﴾ واختلفوا في يمين اللغو، قيل: هو ما يجري على عادة اللسان من قول «لا والله» من غير عقد على يمين يقتطع بها مال ولا يظلم فيها أحد عن ابن عبّاس وعائشة والشعبيّ وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام[2]. وقيل: هو أن يحلف وهو يرى أنّه صادق ثمّ تبيّن أنّه كاذب فلا إثم عليه ولا كفّارة.

وقيل: المراد يمين الغضبان لا يؤاخذكم الله بالحنث فيها إلّا أنّ الكفّارة واجبة فيها وبه قال سعيد بن جبير رحمه الله. «و اللغو» ما سقط من الكلام عن درجة الاعتبار من لغا العصافير إذا صوّتت ومنه اشتقاق اللغة لأنّها كلام لا فائدة فيه عند غير أهله.

﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي قصدتم ونويتم لأنّ كسب القلب

١ـ وسائل الشيعة، ج ٢٣، ص ١٩٨، ١٩٩؛ والكافي، ج ٧، ص ٤٣٤.

٢ـ التبيان، ج ٢، ص ٢٢٨. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٩٣.

هو العقد والنيّة، وفي الكلام تقدير أي من أيمانكم ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يمهل العقوبة ولا يعجل بها.

﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)﴾

ثمّ بيّن حكم الإيلاء، والإيلاء الحلف أي ﴿لِلَّذِينَ﴾ يبعدون ﴿مِن نِّسَائِهِمْ﴾ مؤلين أي يكون الحلف على الامتناع من الجماع ويكون القسم بالله تعالى على وجه لا يقع موقع اللغو على وجه الغضب والضرار وهو المرويّ عن عليّ عليه السلام وابن عبّاس والحسن.[1]

وقيل: من غير تفاوت في حالة الغضب والرضاء ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ قال سعيد بن المسيّب: كان ذلك من ضرار أهل الجاهليّة فكان الرجل لا يحبّ امرأته ولا يحبّ أن يتزوّجها غيره فيحلف أن لا يقربها فيتركها لا أيّما ولا ذات بعل، وكانوا يفعلون في ابتداء الإسلام أيضا فأزال الله سبحانه ذلك الضرر عنهنّ وضرب للزوج مدّة يتروّى فيها ويتأمّل فأمهله الله مدّة أربعة أشهر فإن رأى المصلحة في ترك هذه المضارّة فعله وإن رأى المصلحة في المفارقة طلّقها.

أي تنتظر المرأة أربعة أشهر ولا يطالبن الأزواج ﴿فَإِن فَاءُوا﴾ ورجعوا إليهنّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للحالف وعليه الكفّارة وفيئته كتوبته ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بضمائرهم.

القمّيّ عن الصادق عليه السلام: **«"الإيلاء" هو أن يحلف الرجل على امرأته أن لا يجامعها فإن صبرت عليه فلها أن تصبر وإن رفعته إلى الإمام أنظره أربعة أشهر ثمّ**

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٩٦.

يقول له بعد ذلك: إمّا أن ترجع إلى المناكحة وإمّا أن تطلق فإن أبى حبسه أبدا إلى أن يرضى بالحكم».[١]

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

«القروء» جمع قرء وجمعه القليل: أقرء، والكثير: قروء وأقراء وصار بناء الكثير فيه أغلب في الاستعمال مثل ثلاثة شسوع أو لأنّ القروء ولو أنّها ثلاثة إلّا أنّها كثيرة ثلاثة في ثلاثة في الأفراد من النساء فأتى بجمع الكثرة. بيّن سبحانه حكم المطلّقات أي المخلّيات من حبائل الأزواج بالطلاق ويعني المطلّقات المدخول بهنّ من ذوات الحيض غير الحوامل لأنّ في الآية بيان عدّتهنّ.

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ أي ينتظرن بأنفسهنّ انقضاء ثلاثة قروء فلا يتزوّجن في هذه المدّة ولفظه خبر ومعناه أمر «و القرء» من الأضداد وأصل معنى القرء الاجتماع لاجتماع الدم في الرحم فعلى هذا فمعنى القرء الحيض وكذلك يجيء القرء بمعنى الطهر لأنّ في غير أوقات الحيض يجتمع ذلك الدم في سائر البدن والمراد من القرء في الآية الطهر عندنا وروي أيضا عن عليّ عليه السلام: **«أنّ القرء الحيض».**[٢] واستشهد القائلون بأنّ القرء المراد منه الحيض في الآية بقوله صلى الله عليه وآله للمستحاضة[٣]: **«دعي الصلاة أيّام أقرائك».** والصلاة إنّما تترك في أيّام الحيض، واستشهد من ذهب إلى أنّ القرء الطهر بقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي في طهر لم تجامع فيه.

١ـ تفسير القمي، ج ١، ص ٧٣.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٩٩.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ أي: لا يجوز لهنّ أن يخفين ما بهنّ من الحبل والحيض لتبطيل حقّ الزوج من الولد والرجعة، قال الصادق عليه السلام «**قد فوّض إلى النساء ثلاثة أشياء: الحيض والطهر والحبل**».[1]

﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فهذه صفته يعني أنّ الإيمان يمنع من ارتكاب هذه المعصية كقولك: إن كنت مؤمنا فلا تظلم. لا أنّه إذا لم تكن المرأة مؤمنة يحلّ لها الكتمان فإنّ المؤمنة والكافرة في هذا الحكم سواء. ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ وأصل البعل المالك والسيّد سمّي الزوج بعلا لقيامه بأمر زوجته كأنّه مالك لها، والتاء في البعولة زائدة لتأكيد التأنيث فإنّ الجمع باعتبار الجماعة في حكم المؤنّث، وفي تسمية الزوج بعلا مع طلاقها الصريح إشعار بأنّ النكاح بعد قائم والحلّ ثابت، والضمير لبعض أفراد المطلّقات وشامل للمطلّقة بالرجعيّ لا البوائن ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أي في زمان التربّص وأفعل هنا بمعنى الفاعل إذ لا معنى للتفضيل هنا فإنّ غير الأزواج لا حقّ لهم فيهنّ البتّة.

﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي إن أراد الأزواج بالرجعة إصلاحا بينهم وبينهنّ وإحسانا إليهنّ لا بقصد المضارّة كما كانوا يفعلونه أهل الجاهليّة كان الرجل يطلّق امرأته فإذا قرب انقضاء عدّتها راجعها ثمّ يطلّقها ويقصد بذلك تطويل العدّة عليها، لكن هذا الشرط ليس شرط في صحّة الرجعة فإنّ الرجعة صحيحة وإن كان قصد الزوج المضارّة بل المراد الزجر عن قصد الضرار.

﴿وَلَهُنَّ﴾ عليهم من الحقوق ﴿مِثْلُ الَّذِي﴾ لهم ﴿عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي استقرّ لهنّ بالوجه الّذي لا ينكر في الشرع من الاقتصاد فلا يكلّفهنّ ما ليس لهم ولا يعنّف أحد الزوجين صاحبه والمراد من المماثلة بين الحقّين الحقوق

١ـ المصدر السابق نفسه؛ وتفسير القمي، ج ١، ص ٧٤.

المقرّرة في الشرع بينهما من الوجوب مثل أنّ الانفاق واجب على الزوج للزوجة كما أنّ الامتثال من الزوجة للزوج في البضع واجب فالمماثلة في الوجوب لا في كلّ الأمور.

روي أنّ امرأة معاذ قالت: يا رسول الله ما حقّ الزوجة على الزوج، قال صلى الله عليه وآله: **«أن لا يضرب على وجهها ولا يقبحها وأن يطعمها ممّا يأكل ويلبسها ممّا يلبس ولا يهجرها»**.[1] وقال صلى الله عليه وآله في حديث: **«اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله ومن حقّكم عليهنّ أن لا يوطئن فرشكم من تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضربا غير مبرح، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف»**[2] أي المتعارف في العادات المشروعة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أي: فضيلة منها الطاعة ومنها زيادة الميراث والجهاد وامور. وقيل: معناه أنّ المرأة تنال اللذّة من الرجل كما ينال الرجل منها وله الفضل بنفقته وقيامه عليها. وفي كتاب «من لا يحضره الفقيه» عن الباقر عليه السلام قال: **«جاءت امرأة إلى رسول الله فقالت: يا رسول الله ما حقّ الزوج على الزوجة فقال: عليها أن تطيعه ولا تصدّق من بيته إلّا بإذنه ولا تصوم تطوّعا إلّا بإذنه ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب ولا تخرج من بيتها إلّا بإذنه فإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتّى ترجع إلى بيتها فقالت يا رسول الله: من أعظم الناس حقّا على المرأة قال: زوجها، قالت: فمالي من الحقّ عليه أمثل ما له من الحقّ عليّ»**؟ قال: **«لا ولا من كلّ مائة واحدة، فقالت: والّذي بعثك بالحقّ لا يملك رقبتي رجل أبدا»**.[3] وقال: **«لو كنت أمرت أحدا يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»**.[4]

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٠٠.

٢ـ المصدر السابق نفسه.

٣ـ من لا يحضره الفقيه، ج٣، ص ٤٣٨.

٤ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٠١.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ قادر على ما يشاء فاعل ما تدعوا إليه الحكمة. والمطلّقة قبل الدخول والمطلّقة الحاملة نسختا عن هذه الآية بقوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾[1] ﴿وَأُولَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[2]

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

شأن النزول: روى هاشم بن عروة عن أبيه عن عائشة أنّ امرأة أتتها وشكت أنّ زوجها يطلّقها ويسترجعها إضرارا لها بذلك وكان الرجل في الجاهليّة إذا طلّق امرأته ثمّ راجعها قبل أن تنقضي عدّتها كان له ذلك وإن طلّقها ألف مرّة ولم يكن للطلاق عندهم حدّ فذكرت عائشة لرسول الله فنزلت: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ فجعل سبحانه حدّ الطلاق ثلاثا والطلاق الثالث قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[3] «الطلاق» أي: التطليق الرجعيّ المتقدّم ذكره الّذي كان حكمه ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ ويملك الزوج فيه الرجعة مرّتان وأمّا بعد الطلقتين بأن طلّق ثلاثا فلا يثبت للزوج حقّ الرجعة البتّة ولا تحلّ له المرأة إلّا بعد زوج آخر.

﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي فالواجب والحكم بعد هاتين التطليقتين إمساك على وجه المعروف لها جميل شائع في الشريعة لا على وجه الإضرار بهنّ بل بحسن المعاشرة والكلام وإن كان بصورة الخبر إلّا أن معناه الأمر.

١ـ الاحزاب/ ٤٩.

٢ـ سورة الطلاق: ٤.

٣ـ سورة البقرة: ٢٣٠.

﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أي إذا تركها أدّى إليها حقوقها الماليّة ولا يذكرها بسوء بعد المفارقة ولا ينفّر الناس عنها وقيل: قوله: ﴿تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ المراد أنّه الطلقة الثالثة أو المعنى أنّه يترك المعتدّة حين تبيّن انقضاء العدّة من غير إضرار بها وهو المرويّ عن الصادقين عليهما السلام.[1]

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ خطاب للأزواج ﴿أَن تَأْخُذُوا﴾ في حال الطلاق ممّا أعطيتموهنّ من المهر ﴿شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ استثنى الخلع أي: إلّا أن يغلب على ظنّهما أن لا يقيما حدود الله لما بينهما من أسباب التباعد مثل أن يظهر من المرأة النفرة والنشوز والتباعد بغضاً للزوج بأن تكرهه، قال الصادق عليه السلام: **«معل أن تقول المرأة: لا أغتسل لك من جنابة ولا أبر لك قسما ولأدخلنّ على فراشك بغير إذنك، فحينئذ حلّ له أن يأخذ منها ما يأخذ»** وعلى الجملة إذا خاف الرجل أن تعصي الله فيه بارتكاب محظور وإخلال بواجب فيحلّ له أخذ[2] العوض بالطلاق.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ وظننتم أن لا يكون بينهما صلاح في المقام ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ ولا حرج ولا إثم عليهما وفي قوله: ﴿عَلَيْهِمَا﴾ وإن كانت الإباحة للزوج والفدية له فبيّن الإذن لهما في ذلك ليزول الإبهام أنّ هذا الأمر جائز لهما وقيل: المراد به الزوج وإنّما ذكر معه المرأة لاقترانهما مثل قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾[3] وإنّما هو من الملح دون العذب ومثل قوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾[4] مجاز للاتّساع ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ أي: بذلت من المال واختلف في ذلك فعندنا الإماميّة إن كانت الكراهة منها وحدها وخاف منها

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٠٤؛ وانظر: التبيان، ج ٢، ص ٢٤٤.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج ٢، ص ١٠٤.

٣ـ سورة الرحمن: ٢٢.

٤ـ سورة الكهف: ٦١

العصيان جاز أن يأخذ المهر وزيادة عليه، وإن كان البغض والكراهة منهما فدون المهر. وقيل: إنّه يجوز الزيادة والنقصان من غير تفصيل. وقيل: المهر فقط، رووه عن عليّ عليه السلام.[1]

والخلع بالفدية على ثلاثة أوجه: أحدها: أن تكون المرأة عجوزة أو ذميمة فيضارّ بها الرجل لتفتدي نفسها فهذا القسم لا يحلّ للزوج أخذ الفدى كقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾ الآية[2]، والثاني: أن يرى الرجل امرأته على فاحشة فيضارّ بها لتفتدي فهذا جائز وهو معنى قوله: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.[3] والثالث: ﴿أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ فيجوز أخذ الفدية حينئذ.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: أوامره ونواهيه من الطلاق والخلع والرجعة والعدّة ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ ولا تجاوزوها بالمخالفة ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ وتجاوزها ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

واستدلّ أصحابنا الإماميّة بهذه الآية على أنّ الطلاق الثالث بلفظ واحد لا يقع لأنّه قال سبحانه: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ ثمّ ذكر الثالث على الخلاف في أنّ ذكر الطلاق الثالث قوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ أو قوله: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ ومن طلّقها ثلاثا بلفظ واحد لا يقع لأنّه قال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ وهو لم يأت بالمرّتين ولا بالثالثة كما أنّه لو رمى في الجمار بسبع حصيات دفعة واحدة لم تجزء عنه بلا خلاف وأنّ من أعطى الرجل درهمين لم يجز أن يقال: أعطاه مرّتين حتّى يعطيه دفعتين فكذلك الطلاق.

۱ـ مجمع البيان، ج ۲، ص ۱۰۵.

۲ـ سورة النساء: ۲۱.

۳ـ سورة النساء: ۱۹.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

بيّن سبحانه حكم التطليقة الثالثة على ما روي عن أبي جعفرعليه السلام وبه قال السدّيّ والضحّاك.[1]

﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أي هذه المرأة بعد التطليقة الثالثة لا تحلّ لهذا الرجل المطلّق ثلاثا إلّا أن تتزوّج زوجا آخر ويجامعها الزوج الثاني، واختلف في ذلك قيل: العقد علم بالكتاب والوطء بالسنّة. وقيل: بل كلاهما علم بالكتاب لأنّ لفظ النكاح يطلق عليهما ولأنّ العقد مستفاد بقوله: ﴿زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ والنكاح مستفاد بقوله: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ﴾ وإنّما أوجب الله ذلك لعلمه بصعوبة تزوّج المرأة على الرجل حتّى لا يعجّلوا بالطلاق وأن يتثبّتوا.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ الزوج الثاني ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ ويعقدا بينهما عقد النكاح ويعودا إلى الحالة الأولى فذكر النكاح بلفظ التراجع[2] ﴿أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أي رجيا وظنّا وقيل: علما واعتقدا أن يتمكّنا من إقامة حدود الله في النكاح من حسن الصحبة والصلح والمعاشرة المشروعة.

﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى الأحكام المذكورة ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ وأوامره ونواهيه ﴿يُبَيِّنُهَا﴾ بفضله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنّهم المنتفعون ببيان الآيات.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٠٦؛ والتبيان، ج ٢، ص ٢٤٨؛ انظر: بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٢٩؛ وبرهان، ج ١، ص ٢٢١؛ ووسائل الشيعة، ج ٣، أبواب أقسام الطلاق، باب ٤.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٠٧.

ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾

ثمّ بيّن سبحانه ما يفعل بعد الطلاق وهذا خطاب للأزواج ﴿فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ البلوغ هنا بلوغ القرب أي: قاربن انقضاء العدّة لأنّ بعد انقضاء العدّة ليس للزوج الإمساك وهذا كقولك: بلغت البلد إذا قربت منه ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي: راجعوهنّ بالطريق الّذي تستحسنه النفوس شرعاً وعادة، والمراد حسن المعاشرة ﴿أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ أي: خلّوهنّ حتّى تنقضي عدّتهنّ من غير إيذاء ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا﴾ أي: لا تراجعوهنّ بقصد الإضرار حال كونكم مضارّين لهنّ.

فإن قيل: ما الفائدة في ذكر قوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا﴾ بعد قوله: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ لأنّ الأمر بالشيء نهي عن ضدّه فالجواب أنّ الأمر لا يفيد التكرار ولا بدّ على كون امتثال المأمور به مطلوباً دائما فقوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ﴾ دلّ على أنّ الإمساك المذكور مطلوب منه دائما ﴿لِّتَعۡتَدُواْ﴾ أي: لتظلموهنّ بالإلجاء إلى الافتداء. ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ الإمساك المؤدّي إلى الظلم ﴿فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ في ضمن ظلمه لهنّ بتعريضها للعقاب ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ أي: مهزوءا بها بالإعراض عنها والتهاون في العمل بما فيها، والنهي في الآية كناية عن الأمر بضدّه لأنّ المخاطبين مؤمنون ليس من شأنهم الهزء بآيات الله أي: جدّوا في العمل بها. ثمّ أكّد سبحانه ذلك الأمر بذكر نعمة الله بأن يشكروها ويقوموا بحقوقها بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ كائنة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ حيث هداكم إلى ما فيه صلاح عامّتكم وأكمل هذه النعم من النكاح والطلاق والرجوع بأيديكم ولم يضيّق عليكم كما ضيّق على الأوّلين منكم حين أحلّ لهم امرأة واحدة ولم يجوّز لهم بعد موت المرأة نكاح أخرى. ﴿وَمَآ

أنزل عليكم ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يعني العلوم الّتي دلّ بها لكم الشرائع والأحكام وبيّنها لكم في أموركم ﴿يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ وينبّهكم عليه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في عصيانه أو من عقابه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ من أفعالكم وغيرها.

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾

نزلت في معقل بن يسار حين عضل وحبس أخته جملاء أن ترجع إلى الزوج الأوّل وهو عاصم بن عديّ فإنّه كان طلّقها وخرجت من العدّة ثمّ أرادا أن يجتمعا بعقد آخر فمنعها من ذلك فنزلت الآية، عن قتادة والحسن وجماعة. وقيل: نزلت في جابر بن عبد الله عضل بنت عمّ له والوجهان لا يصحّان على مذهبنا لأنّه لا ولاية للأخ وابن العمّ عندنا ولا تأثير بعضلهما فالوجه في ذلك أن تحمل الآية على المطلّقين فكأنّه قال: لا تعضلوهنّ أي لا تحبسوهنّ بالمراجعة عند قرب انقضاء عدّتهنّ لأجل الإضرار لا رغبة فيهنّ فإنّ ذلك لا يسوغ في الدين. ويجوز أن يكون العضل محمولا على الجبر والحيلولة بينهنّ وبين التزويج دون ما يتعلّق بالولاية والحاصل أنّه إذا انقضت عدّتهنّ فلا تمنعوهنّ ظلماً عن الزوج وخلّوا سبيلهنّ. وقيل: الخطاب للأولياء ومنع لهم عن عضلهنّ إذا أردن المطلّقات بعد انقضاء العدّة أن يتزوّجن. و﴿أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ﴾ أي ممّن شئن أن يكونوا أزواجا لهنّ، والزوجيّة باعتبار ما يكون وإن أريد بهم المطلّقون فإطلاق الزوجيّة باعتبار ما كان ﴿إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي الخطّاب والطالبين والنساء بينهم بما لا يكون مستنكرا في الشرع والعادة بالنكاح الصحيح.

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ ـ إشارة إلى ما ذكر ـ يزجر ويخوّف به ﴿مَن كَانَ

﴿مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لأنهم المنتفعون به ولأنهم الأولى بالاتّعاظ به ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ﴾ أي الاتّعاظ والعمل بمقتضاه أنمى وأنفع لكم، من زكا الزرع إذا نما وطهر من أدناس الآثام وأوضار الذنوب والمفضّل عليه محذوف للعلم به أي: من العضل ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه من النفع ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ لقصور علمكم لأنّ المكلّف لا يعلم وجه الصلاح على وجه التفصيل.

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)﴾

لمّا بيّن سبحانه حكم الطلاق بيّن حكم الرضاع والتربية فقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ﴾ الصيغة صيغة الخبر والمراد به الأمر أي ليرضعن أولادهنّ كقوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ إذ لو كان خبراً لكان كذباً لجواز أن يرضعن أكثر من حولين أو أقلّ، والأمر أمر استحباب لا أمر إيجاب أي إنّهنّ أحقّ برضاعهم من غيرهنّ بدليل قوله: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾[1]

ثمّ بيّن مدّة الرضاع ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ أربعة وعشرين شهرا وإنّما ذكر ﴿كَامِلَيْنِ﴾ وإن كانت التثنية تأتي على معنى استيفاء العدّة.[2] والآية لبيان المندوب من الرضاع والمفروض منه: فالمندوب هو أن يجعل الرضاع تمام الحولين والمفروض هو أنّ المرضعة تستحقّ الاجرة في مدّة الحولين ولا

١ـ سورة الطلاق: ٦.

٢ـ كذا في الأصل.

تستحقّ فيما زاد عليه. واختلف في هذا الحال هل هو كلّ مولود أو للبعض فقال ابن عبّاس: ليس لكلّ مولود ولكن لمن ولد لستّة أشهر وإن ولد لسبعة أشهر فثلاثة وعشرون وإن ولد لتسعة أشهر فأحد وعشرون تطلب بذلك تكملة ثلاثين شهراً في الحمل والفصال، وعلى هذا يدلّ ما رواه أصحابنا في هذا الباب لأنّهم رووا أنّ ما نقص عن أحد وعشرين شهراً فهو جور على الصبيّ. والرضاع بعد الحولين لا حكم له عندنا في التحريم وبه قال ابن عبّاس وابن مسعود وأكثر العلماء.[1]

وقوله: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ يدلّ على أنّ الرضاع غير واجب على الأمّ لأنّه علّقه بالإرادة وقال جماعة منهم قتادة: فرض الله على الوالدات أن يرضعن أولادهنّ حولين ثمّ أنزل الرخصة بعد ذلك فقال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ يعني أنّ هذا منتهى الرضاع وليس فيما دون ذلك حدّ محدود وإنّما هو على مقدار صلاح الصبيّ وما يعيش به.

﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ يعني الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ والمراد نفقة الأمّ على الأب مادامت في الرضاعة اللازمة وذلك في المطلّقة على قدر اليسار وإنّما لم يقل: «على الوالد» ليعلم أنّ الأولاد للآباء وينسبون إليهم لا إلى الأمّهات وكذلك أجر الرضاع للأظئار على الآباء ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ والتكليف الإلزام بأمر كأنّه قيل: لم لم تجب مؤونة الأمّهات في الرضاع على أنفسهنّ فأجيب بأنّهن غير قادرات على الكسب لضعف بنيتهنّ فلو أوجب مؤنهنّ على أنفسهنّ لزم تكليف العاجز، وكذا وأوجب تلك المؤن على الأزواج على خلاف المعروف ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا﴾ نهي أصله لا تضارر بكسر الراء الأولى فتكون المرأة هي الفاعلة للضرار فيكون

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١١٣.

المعنى لا تترك الوالدة إرضاع ولدها غيظا على أبيه لأنّ الوالدة أشفق على ولدها من الأجنبيّة، وبفتح الراء الأولى فتكون المرأة هي المفعول لها الضرار فالمعنى لا يفعل الأب الضرار بالأمّ بأن ينتزع الولد منها.

قوله: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ أي لا يأخذه من أمّه طلباً للإضرار بها أو ولا تفعل الأمّ الضرار بالأب بأن تلقي الولد عليه وهو أن يغيظ أحدهما صاحبه بسبب الولد، وإضافة الولد إلى كلّ منها لاستعطافهما إليه ولا ينبغي أن يضرّا به أو يتضارّا بسببه وإنّما قال: ﴿تُضَآرَّ﴾ والفعل من واحد لأنّه لمّا كان معناه المبالغة كان بمنزلة أن يكون الفعل من اثنين كأنّه يقول: لا تضارّ والدة ولدها ولا والد ولده فالباء زائدة.

قال الصادق‰: «﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ﴾ **بأن يترك جماعها خوف الحمل لأجل ولدها المرضع** ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ **أي: لا تمنع نفسها من الأب خوف الحمل فيضرّ ذلك بالأب**».[١] وقيل: المراد من قوله: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ بأن ينتزع الولد منها وتسترضع امرأة غيرها مع إجابتها إلى الرضاع باجرة المثل فعلى هذا يكون معنى «بولدها» بسبب ولدها «ولا مولود له» أي: لا تمتنع هي من الإرضاع إذا أعطيت اجرة مثلها. قال الطبرسيّ: وليس بين هذه الأقوال تناف فالأولى حمل الآية على الجميع.[٢]

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ أي وارث الصبيّ وقيل: المراد وارث الوالد وهو الأقوى ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما كان على الوالد من النفقة والرضاع أو مثل ما كان على الوالد من ترك المضارّة والمفهوم عند أهل التفسير الأمران معاً.

واختلفوا في أنّ النفقة على كلّ وارث أو على بعضهم فقيل: هي على

١ـ انظر: البرهان، ج ١، ص ٢٢٥؛ وزبدة البيان، ص ٥٥٩.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١١٤.

العصبات دون أصحاب الفرائض من الأمّ والإخوة من الأمّ. وقيل: على وارث الصبيّ من الرجال والنساء على قدر النصيب من الميراث. وقيل: على الوارث ممّن كان ذا رحم محرم دون ذي رحم ليس بمحرم كابن العمّ وابن الاخت فيجب على ابن الاخت ولم يجب على ابن العمّ وإن كان وارثه في تلك الحال. وقيل: على الوارث أي الباقي من أبويه وهو الصحيح عندنا وهو أيضا مذهب الشافعيّ لأنّ عنده لا يجبر على نفقة الرضاع إلّا الوالدان فقط. وقد روي في أخبارنا أنّ على الوارث ـ كائنا من كان ـ النفقة.[1]

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا﴾ أي: أراد الوالدان فطام الولد قبل الحولين وهو المرويّ عن أبي عبد الله وقيل: قبل الحولين وبعد الحولين فيكون الفصال صادرا ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا﴾ من الأب والأمّ ﴿وَتَشَاوُرٍ﴾ في شأن الولد واتّفاق من الأبوين لا من أحدهما وإنّما اعتبر اتّفاقهما لما في الأب من الولاية وفي الأمّ من الشفقة وهي أعلم بحال الصبيّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في ذلك بعد استقرار رأيهما وتشاورهما في الصلاح وما هو خير للولد.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ﴾ أيها الآباء ﴿أَن تَسْتَرْضِعُوا﴾ المراضع ﴿أَوْلَادَكُمْ﴾ أي لأولادكم وطلبتم أن تأخذوا ظئراً لإرضاع أولادكم ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ولا إثم في الاسترضاع، وفيه دلالة على أنّ للأب أن يسترضع الولد غير امّهاتهم لامتناع امّهاتهم الرضاع أو لعلّة بهنّ من انقطاع لبن أو غيره ﴿إِذَا سَلَّمْتُم﴾ إلى المراضع ﴿مَّا آتَيْتُم﴾ أي ما أردتم إيتاءه ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه المتعارف المستحسن شرعاً فإنّ المراضع إذا أعطين ما قدّر لهنّ ناجزاً يداً بيد كان ذلك أدخل في إصلاح شؤون الأطفال.

وقيل: المراد من «المعروف» أن يكون الأجر من الحلال لأنّ المرضع إذا

١ـ المصدر السابق، ص ١١٥.

أكلت الحلال كان اللبن أنفع للصبيّ وأقرب إلى صلاحه وأنّ العادة جارية إنّ من ارتضع امرأة يغلب عليه أخلاقها من خير وشرّ وأنّ لبن الحمقاء يسري، وقصّة الشيخ الجوينيّ وابنه أبو المعالي وما يحصل له أحياناً كبوة في المناظرة معروفة.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مراعاة الأحكام المذكورة ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بذلك. في الحديث: «**حبّ الأولاد ستر من النار وكراماتهم جواز على الصراط والأكل معهم براءة من النار**». أقول: بشرط الصلاح أو عدم بروز الفساد منهم لا كبعض النفقات الّتي هي مسبّبة لوقوع الفساد في الدين كنفقات بعض الحمقاء من الآباء لأولادهم في مصارف تعلّم الألسنة الخارجة ويحسبون أنّهم يحسنون صنعا فالمنفق لولده لتعلّم اللسان الخارجة فقد يرمي سهماً لتمزيق القرآن بل الصحف السماويّة قاطبة. والعجب أنّ بعض الحمقاء يقصدون بهذا الإنفاق التبرّع لكنّ العقلاء منهم وهم إخوان الشياطين يقصدون بذلك استيصال الإسلام وقد ظفروا بما قصدواويظهرون النصح والتربية ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[1] فالنفقات المستحسنة ما كانت فيها إطاعة لأوامر الله لا ضارّة لدينه.

وفي الحديث: «**أربع نفقات لا يحاسب العبد بهنّ يوم القيامة: نفقة على أبويه ونفقة على إفطاره ونفقة على سحوره ونفقة على عياله**»﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ ولا يجتمع الهوى وحبّ الله.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)﴾

وقرء في الشواذ «يتوفّون» بفتح الياء.

١ـ سورة آل عمران: ٥٤.

ولمّا بيّن سبحانه عدّة المطلّقات بيّن في هذه الآية عدّة الوفاة فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ ويموتون ويتركون ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي: نساء ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن انقضاء العدّة ويحبسن أنفسهنّ عن التزويج معتدّات ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ أي: وعشر ليال وعشرة أيّام سواء كانت مدخولاً بها أو غير مدخول بها حرّة كانت أو أمة فإن كانت حبلى فعدّتها أبعد الأجلين من وضع الحمل أو مضيّ أربعة أشهر وعشر فأيّهما أطول وأبعد فعدّتها ذلك ووافقنا في مسألة عدّة الأمة الأصمّ من فقهاء الجماعة وخالف الباقون فقالوا: عدّتها شهران وخمسة أيّام وذهب إلى هذا القول قوم من أصحابنا أيضاً والّذي يجب على المعتدّة بعدّة الوفاة اجتنابها عن الزينة والكحل وترك النقلة من المنزل والامتناع من التزوّج لا غير عند البعض لكن عندنا الإماميّة أنّ جميع ذلك واجب.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: آخر العدّة بانقضائها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: خطاب للأولياء. وقيل: لجميع المسلمين لأنّه يلزمهم منعها عن التزوّج في العدّة.

وقيل: المعنى: لا جناح عليكم وعلى النساء ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ من النكاح واستعمال الزينة ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ما يكون جائزاً من الزينة الجائزة والنكاح الحلال على وجه لا ينكره الشرع ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه فلا تعملوا خلاف ما أمرتم به.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

«التعريض» ضدّ التصريح أي: لا حرج ولا ضيق عليكم يا معشر الرجال ﴿فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ المعتدّات بعدّة الوفاة «و التعريض» إفهام

المعنى دون التصريح بالشيء المحتمل له ولغيره ولمّا علم الله أنّ المرأة إذا مات زوجها قد يكون عليها مسحة من الجمال أولها مال يرغب الناس فيها فأذن للراغب أن يعرض ولا يصرّح بالخطبة في العدّة «و الخطبة» بالكسر التماس النكاح وبالضمّ الكلام المشتمل على الوعظ يقال: خطب المرأة أي خاطبها في أمر النكاح وهذا الحكم لهنّ أي المعتدّات بالوفاة وأمّا النساء اللاتي لا تكون منكوحة الغير ولا معتدّة من طلاق رجعيّ فإنّ خطبتهنّ جائزة تصريحا إلّا أن يخطبها رجل فيجاب بالرضى صريحاً فههنا لا يجوز لغيره أن يخطبها وإن لم يوجد صريح الإجابة ولا صريح الرّد ففيه خلاف.

ومثال التعريض مثل أن تقول للبخيل والممسك: ما أقبح البخل! وتقول للمرأة الّتي تطلب نكاحها وهي في العدّة: إنّي أريد النكاح وإنّي أحب امرأة من صفتها كذا كذا فتذكر بعض الصفات الّتي هي عليها.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: أضمرتم وأبرزتم من نكاحهنّ ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ برغبتكم فيهنّ خوفاً منكم أن يسبقكم إليهنّ غيركم فأباح لكم ذلك ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ فيه أقوال: أحدها: أنّ معناه لا تواعدوهنّ في السرّ لأنّها أجنبيّة والمواعدة في السرّ يدعو إلى ما لا يحلّ.

وقيل: معناه الزنا عن الحسن وإبراهيم وقتادة وقالوا: كان الرجل يدخل على المرأة من أجل الزنا وهو معرض للنكاح فنهوا عن ذلك. وثالثها: أنّه العهد على الامتناع من تزويج غيره. ورابعها: هو أن يقول لها: إنّي ناكحك فلا تفوتيني نفسك. وخامسها: أنّ معنى السرّ هو الجماع أي: لا تصفوا أنفسكم بكثرة الجماع. وتجمع هذه الأقوال ما روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «**لا تصرّحوا لهنّ النكاح والتزويج**» قال عليه السلام: «**و من السرّ أن يقول لها: موعدك بيت فلان**».[1]

١ـ وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٤٩٨؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ١٢٠.

﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ يعني التعريض الّذي أباحه الله و«إلّا» في الآية بمعنى لكن لأنّ ما قبله هو المنهيّ عنه وما بعده هو المأذون فيه أي ولكن قولوا قولاً معروفاً ومواعدة غير منكرة. ﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ﴾ العزم عبارة عن عقد القلب على فعل من الأفعال قال الراغب: إنّ دواعي الإنسان إلى الفعل لها مراتب: السانح، ثمّ الخاطر، ثمّ التفكّر، فيه ثمّ الإرادة، ثمّ الهمّة، ثمّ العزم والعقد على إمضائه ﴿عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ أي: على عقدة النكاح والمقصود النهي عن تزوّج المعتدّة في زمان عدّتها إلّا أنّه نهى عن العزم على عقدة النكاح وعزمه للمبالغة في النهي عن النكاح في زمان العدّة فإنّ العزم على الشيء متقدّم عليه والنهي عن مقدّمات الشيء يستلزم النهي عن ذلك الشيء بطريق أولى ولم يرد سبحانه عن العزم على النكاح بعد العدّة أي: لا تحقّقوا ذلك ولا تنشئوه.

﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ أي: تنقضي العدّة وقيل: الكتاب هو القرآن يعني حتى يبلغ ما فرض في القرآن من أجل العدّة وينقضي الأجل المضروب. وقيل: حتّى يبلغ الأجل المكتوب والكتب بمعنى الفرض كما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: فرض والمعاني يؤول إلى معنى واحد.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ من العزم على ما لا يجوز ﴿فَٱحۡذَرُوهُ﴾ بالاجتناب عن العزم ابتداءً وإقلاعاً عنه بعد تحقّقه ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة فلا تستدلّوا بتأخيرها بعدم العقوبة.

لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

أي: لا تبعة عليكم من مهر أو وزر إن طلّقتم النساء المعقودات ﴿مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: ما لم تجامعوهنّ ﴿أَوۡ تَفۡرِضُواْ﴾ أي: إلّا أن تفرضوا ﴿لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ أي: تسمّوا لها مهرا وذلك أنّ المطلّقة غير المدخول بها إن سمّي لها

مهر فلها نصف المسمّي كما في الآية الآتية وإن لم يسمّ لها مهر فليس لها إلّا المتعة كما في هذه الآية والحكمان مرويّان أيضا رواهما العيّاشيّ وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام.(۱)

ورفع الإثم عن الطلاق قبل الدخول لئلّا يتوهّم أحد أنّ الطلاق في هذه الحالة لا يجوز بل يجوز والمفروض صداقها داخلة في دلالة الآية وإن لم يذكر لأنّ التقدير: لا بأس بالطلاق ما لم تمسّوهن ممّن فرضتم لهنّ أولم تفرضوا لأنّ «أو» في قوله: ﴿أَوْ تَفْرِضُوا﴾ تنبئ عن ذلك إذ لو كان على الجمع لكان بالواو.

وأيضاً في الآية خصّ سبحانه الّتي لم يدخل بها بالذكر في رفع الجناح لأنّه يجوز أن يطلّق الرجل الّتي لم يدخل بها أيّ وقت شاء بخلاف المدخول بها فإنّه لا يجوز أن يطلّقها إلّا في طهر لم يجامعها فيه، وقال أهل الجماعة: رفع الجناح في الآية بمعني نفي المهر: أي لا تبعة من مهر بغير الممسوسة وإنّهم لا يشترطون أن يقع الطلاق في طهر غير المواقعة بل متى وقع صحّ عندهم.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي أعطوهنّ من مالكم ما يتمتّعن وينتفعن به واختلفوا في أنّ الأمر بالتمتيع لمن؟ قيل: لمطلق المطلّقات إلّا المختلعة والمبارئة والملاعنة. وقيل: المتعة لكلّ مطلّقة سوى المطلّقة المفروض لها إذا طلّقت قبل الدخول فإنّما لها نصف الصداق ولا متعة لها وهو مذهب الشافعيّ وقد رووه أصحابنا أيضا(۲)، وذلك محمول على الاستحباب.

﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ﴾ أي: الّذي له سعة إمكانه وطاقته والقدر والقدر لغتان أو أنّ الساكن مصدر والمتحرّك اسم كالعدّ والعدد والمدد والمدّ بالتسكين الوسع يقال: هو ينفق على قدره أي: على وسعه، وبالتحريك المقدار ﴿وَعَلَى

۱ـ راجع: تفسيرالعياشي، ج ۱، ص ۱۲٤؛ وراجع: الكافي، ج ٦، ص ۱۰٦.

۲ـ تفسيرالعياشي، ج ۱، ص ۱۲٤؛ وسائل الشيعة، ج ۲۱، ص ۳٥.

﴿ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ أقتر الرجل إذا صار ذا قترة وافتقر والقترة الغبار أي: على الفقير الّذي هو في ضيق بقدر إمكانه من رزق وكسوة وخادم والمتعة معتبرة بحاله لا بحالها قيل: لا تنقص عن خمسة دراهم ولا يزاد على نصف مهر المثل ﴿مَتَٰعًا﴾ اسم لمصدر الفعل المذكور من قبيل ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[1] فيكون متاعا بعوض تمتيعا ملتبسا ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الّذي يستحسنه الشرع والمروءة ﴿حَقًّا﴾ [صفة «متاعا» أي: واجباً على الّذين يحسنون الطاعات، وفي «التهذيب» عن الصادق عليه السلام: «**أنّ متعة المطلّقة فريضة**».[2] هذا كلّه في المطلّقة فأمّا المتوفّى عنها زوجها إذا لم يفرض لها صداق فلها الميراث وعليها العدّة إجماعا.

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

بيّن سبحانه حكم الطلاق قبل المسيس بعد الفرض أي إن طلّقتم أيّها الرجال النساء ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: قبل أن تجامعوهنّ ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: أوجبتم لهنّ صداقاً وعيّنتم مهرا ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي: عليكم نصف ما قدّرتم من المهر المسمّى. ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ يعني الحرائر البالغات غير المولّى عليهنّ لفساد عقولهنّ أي: لا يطالبن الأزواج ويهبن ﴿أَوْ يَعْفُوَا۟﴾ ويترك ويهب ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ قيل: هو الوليّ عن مجاهد وجماعة وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام[3] وهو مذهب الشافعيّ غير أنّ عندنا

١ـ سورة نوح: ١٧.

٢ـ تهذيب الأحكام، ج ٨، ص ١٤١.

٣ـ تفسيرالعياشي، ج ١، ص ١٢٥؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ١٢٥.

الوليّ هو الأب والجدّ مع وجود الأب الأدنى على البكر غير البالغ فأمّا من عداهما فلا ولاية له إلّا بتوليتها إيّاه.[١]

﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ خطاب للزوج والمرأة أو للزوج وحده وإنّما جمع لأنّه خطاب لكلّ زوج والمراد من العفو أن يعطيها الصداق كاملاً النصف الّذي واجب عليه والنصف الساقط العائد إليه بالتنصيف بسبب الطلاق، وتسمية الزياده على الحقّ عفواً لما كان الغالب عندهم أنّ الزوج كان يسوق إليها كلّ المهر عند التزوّج قبل المسيس فإذا طلّقها قبل الدخول فقد استحقّ أن يطالبها بنصف ما ساق إليها فإذا ترك المطالبة فقد عفا عنها.

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: لا تتركوا الفضل والإفضال فيما بينكم بإعطاء الرجل تمام الصداق وترك المرأة نصيبها فحثّهما على الإحسان والإفضال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ولا يضيع ما عملتم من الإحسان «و البصر» في حقّه تعالى علمه وإحاطته المبصرات والمعلومات والحظّ الدينيّ من البصر للعبد أنّه ينظر إلى الآيات وعجائب الملكوت والملك بحيث يكون نظره عبرة، والحظّ الدنيويّ أن يرى المحسوسات.

حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

ومحافظة الصلوات أداؤها لوقتها والمداومة عليها والمراد الصلوات الخمس في كلّ يوم وليلة ثبت عددها بغيرها من الآيات والأحاديث المتواترة وبإشارة في هذه الآية وهو قوله: ﴿ٱلْوُسْطَىٰ﴾ تأنيث الأوسط وهو الشيء بين الشيئين على جهة الاعتدال وهي ما اكتنفه عددان متساويان وأقلّ ذلك خمسة لا يقال: إنّ الثلاث بهذه الصفة لأنّ الثلاث لا يكتنفها عددان فإنّ الّذي قبلها

١ـ وفي بعض الروايات هو الأب والأخ والرجل يوصى إليه والذي يجوز إمرته في مال المرأة، إلا أنّ الفتيات لم تبسط ذا البسط المشاء.

واحد والّذي بعدها واحد وهو ليس بعدد فإنّ العدد ما إذا اجتمع طرفاه صارا ضعفه وليس له طرفان فإنّه ليس قبله شيء.

وخصّ ﴿ٱلْوُسْطَىٰ﴾ بالذكر تفخيماً لشأنها كقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[١] أي: والصلاة الوسطى خاصّة فداوموا عليها. ثمّ اختلفوا في الصلاة الوسطى قيل: إنّها صلاة الظهر عن زيد بن ثابت وابن عمر وأبي سعيد الخدريّ واسامة وعائشة وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[٢] وذكر بعض أئمّة الزيديّة أنّها الجمعة يوم الجمعة والظهر سائر الأيّام ورواه عن عليّ عليه السلام ويدلّ عليه أنّها وسط النهار. وأوّل صلاة فرضت الظهر.[٣]

وقيل: إنّها صلاة العصر عن ابن عبّاس والحسن وروي ذلك عن عليّ عليه السلام وابن مسعود وقتادة والضحّاك وروي مرفوعاً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله قالوا: لأنّها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله: **«بكّروا بالصلاة في يوم الغيم فإنّه من فاتته صلاة العصر حبط عمله».**[٤]

وقيل: إنّها المغرب لأنّها وسط في الطول والقصر من بين الصلوات روى الثعلبيّ بإسناده عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إنّ أفضل الصلوات عند الله المغرب لم يحطّها الله عن مسافر ولا مقيم فتح الله بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلّى المغرب وصلّى بعدها ركعتين بنى الله له قصراً في الجنّة ومن صلّى بعدها أربع ركعات غفر الله له ذنب عشرين أو أربعين سنة».**[٥]

١ـ سورة البقرة: ٩٨.

٢ـ تفسيرالعياشي، ج ١، ص ١٢٧؛ والبرهان، ج ١، ص ٢٣١؛ والبحار، ج ١٥، ص ١١٧.

٣ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٢٧.

٤ـ المصدر السابق نفسه؛ تفسيرالثعالبي، ج ٢، ص ١٩٧.

٥ـ تفسيرالثعالبي، ج ٢، ص ١٩٧.

وقيل: إنّها صلاة العشاء الآخرة لأنها بين صلاتين لا تقصران روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **«من صلّى العشاء الآخرة في جماعة كان كقيام نصف ليلة ومن صلّى الفجر في جماعة كان كقيام ليلة».**(١) وقيل: صلاة العصر قال النبيّ ﷺ: **«الذي تفوته صلاة العصر فكأنّما وتر أهله وماله».**(٢) وقيل: إنّها صلاة الصبح عن معاذ وابن عبّاس وجابر بن عبد الله وعطا وعكرمة ومجاهد والشافعيّ قالوا: لأنّها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار وبين الظلام والضياء وهي صلاة لا تجمع مع غيرها وهي منفردة بين مجتمعتين ويدلّ عليه قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾(٣) وفيه قول آخر: وهو أنّها إحدى الصلاة الخمس ولم يعيّنها وأخفاها في جملة الصلوات الخمس ليحافظوا على جميعها ولم يتركوا واحدة منها كما أخفى ليلة القدر واسمه الأعظم في الأسماء وساعة الإجابة في ساعات الجمعة وأخفى وقت الموت في الأوقات ليكون المكلّف خائفاً من الموت في كلّ الأوقات فيكون آتياً بالتوبة في كلّ الأوقات كما سئل زيد بن ثابت عن الصلاة الوسطى فقال: (حافظ على الصلوات الخمس تصبها) وكذلك سئل الربيع بن خثيم عن صلاة الوسطى قال: (حافظ على الكلّ تكن محافظاً على الوسطى) ثمّ قال للسائل: (ولو علمتها بعينها لكنت محافظاً عليها ومضيّعاً لسائرهنّ).

وقيل في تفسير الآية قول آخر وهو أنّ صلاة الوسطى مجموع صلوات الخمس لأنّها هي الوسطى من الطاعات حيث التفت وتقريره أنّ الإيمان بضع وسبعون درجة أعلاها (شهادة أن لا إله إلّا الله) وأدناها إماطة الأذى عن

١ـ تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ١٢٧. وتفسيرالرازي، ج ٦، ص ١٦٢.

٢ـ المصدر السابق نفسه ؛ والدّر المنثور، ج ١، ص ٢٩٩.

٣ـ سورة الإسراء: ٧٨.

طريق المسلمين مثلا والصلاة المكتوبة دون الإيمان وفوق إماطة الأذى فهي واسطة بين الطرفين. ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ أي: كونوا ذاكرين له في القيام قال ابن عبّاس: معناه داعين والقنوت هو الدعاء في الصلاة في حال القيام وهو المرويّ عن الباقرين عليهما السلام. وقيل: معناه طائعين وقيل: خاشعين نهوا عن العبث والالتفات في الصلاة[1] «و قانتين» حال من فاعل «قوموا» وكانوا إذا قاموا إلى الصلاة هابوا الرحمن أن يمدّوا أبصارهم أو يلتفتوا أو يحدثوا أنفسهم بشيء من امور الدنيا إلّا ناسيا.

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

«الرجال» مثل قيام جمع راجل وتجار جمع تاجر أي: إن كان بكم خوف من عدوّ أو غير ﴿فَرِجَالًا﴾ منصوب على الحال وعامله محذوف تقديره فصلّوا راجلين «و الراجل» هو الكائن على رجله ماشياً كان أو واقفا ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ أي: راكبين على ظهور دوابّكم وعنى سبحانه صلاة الخوف وهي ركعتان في السفر إلّا في المغرب فإنّها ثلاث ركعات ويروى «فرجالا» بضمّ الراء والتخفيف و«رجّال» بالتشديد وضمّ الراء و«رجّلا» وشرح صلاة الخوف مبسوط في كتب الفقه وهي تختلف أيضاً في حال الحرب وفي غير حال الحرب وعن ابن عبّاس أنّ صلاة الخوف ركعة[2] قال الرازيّ: وهو قول متروك والجمهور على خلافه.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ من الخوف وزال ﴿فَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم﴾ أي: صلّوا على الترتيب المبيّن لكم في الأوقات المتعارفة كما علّمكم في امور

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٢٨. وأيضاً فقه القرآن، ج ١، ١١٥.

٢ـ التبيان، ج ٢، ص ٢٧٧.

صلاتكم ودينكم ﴿مَا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ قبل البيان.

وعن كعب الأحبار أنّه قال: قال الله لموسى في مناجاته: «يا موسى أربع ركعات يصلّيها أحمد وامّته وهي صلاة الظهر أعطيهم في أوّل ركعة منها المغفرة وفي الثانية أثقل ميزانهم وفي الثالثة أوكّل بهم الملائكة يسبّحون ويستغفرون لهم لا يبقى ملك في السماء ولا في الأرض إلّا ويستغفر لهم ومن استغفرت له الملائكة لم اعذّبه أبدا وفي الرابعة أفتح لهم أبواب السماء وتنظر إليهم الحور العين. يا موسى أربع ركعات يصلّيها أحمد وامّته وهي صلاة العصر ما يسألون منّي حاجة إلّا قضيت لهم. يا موسى ثلاث ركعات يصلّيها أحمد وامّته وهي صلاة المغرب أفتح لهم أبواب السماء. يا موسى أربع ركعات يصلّيها أحمد وامّته وهي صلاة العشاء خير لهم من الدنيا وما فيها ويخرجون من الدنيا كيوم ولدتهم امهاتهم».

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

أي: يموتون يسمّي المشارف إلى الوفاة متوفّيا تسمية للشيء باسم ما يؤول إليه وقرينة المجاز امتناع الوصيّة بعد الوفاة ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ أي: يتركون نساء من بعدهم ﴿وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ قرئ وصيّة بالنصب أي: لوصوا وصيّة والقراءة على الرفع مبتدأ والظرف خبره وحسن الابتداء بالنكرة لأنّه موضع تخصيص كما في سلام عليكم فليوصوا وصيّة لهنّ أو المعنى وصيّة من الله لأزواجهم أو عليهم وصيّة لهنّ ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ يعني ما ينتفعن به حولاً من النفقة وكان يحب على الّذين يتوفّون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم حولاً بالنفقة والكسوة والسكنى. قيل: نزلت الآية في رجل من أهل الطائف يقال له حكيم بن الحارث هاجر إلى المدينة وله أولاد

ومعه أبواه وامرأة ومات فأنزل الله هذه الآية فأعطى النبيﷺ والديه وأولاده من ميراثه ولم يعط امرأته شيئا وأمرهم أن ينفقوا عليها من تركة زوجها حولا[١] وكان عدّة الوفاة في بدو الإسلام حولا وكان يحرم على الوارث إخراجها من البيت قبل تمام الحول وكان نفقتها واجبة في مال زوجها ما لم تخرج، ولم تكن لها ميراث فإن خرجت من بيت زوجها سقطت نفقتها وكان على الرجل أن يوصي بها فكان الحكم كذلك ثمّ نسخت بآية المواريث بعد ونسخ عدّة الحول بأربعة أشهر وعشر.

﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ أي: لا يخرجن من بيوت الأزواج ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بأنفسهنّ قبل الحول من غير أن يخرجهنّ الورثة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يا معشر الأولياء ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ واختلفوا في رفع الجناح قيل: لا جناح في قطع النفقة والمسكن عنهنّ إن خرجن قبل الحول وبطل الحقّ الّذي لهنّ بالإقامة كان واجبا. وقيل: المعنى لا جناح عليكم في ترك منعهنّ من الخروج لأنّ مقامها سنة في البيت غير واجب لكن قد خيّرها الله في ذلك وقيل: معنى الآية: لا جناح عليكم أن تزوّجن بعد انقضاء العدّة وعلى هذا فالمراد من قوله: ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ التزويج والنكاح. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب على أمره يعاقب من خالفه ﴿حَكِيمٌ﴾ يراعي في أحكامه مصالح عباده.

وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

لمّا بيّن أحوال المعتدّات بيّن ما يجب لهنّ من المتعة واختلف فيه فقال سعيد بن جبير وأبو العالية والزهري: إنّ المراد بهذا المتاع المتعة وأنّ

١ـ راجع: أسباب نزول الآيات، ص ٥٢؛ والدر المنثور، ج ١، ص ٣٠٩.

المتعة حسب ما ذكرت قبل هذا واجبة لكلّ مطلّقة وقال أبو عليّ الجبّائيّ: المراد بها النفقة وهو المتاع المذكور في قوله: ﴿مَّتَـٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ وقال سعيد بن المسيّب: الآية منسوخة بقوله: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ قال الطبرسيّ: وعندنا لا تجب المتعة إلّا للمطلّقة الّتي لم يدخل بها ولم يفرض لها مهر فأمّا المدخول بها فلها مهر مثلها وإن لم يسمّ لها مهر وإن سمّي لها مهر فما سمّي لها وغير المدخول المفروض مهرها لها نصف المهر ولا متعة لها ولا بدّ من تخصيص هذه.

وقال صاحب تفسير «روح البيان»: معنى الآية: وللمطلّقات سواء كنّ مدخولاً بهنّ أم لامتاع أي: مطلق المتعة الشاملة للمستحبّة والواجبة فإن كانت المطلّقة غير مدخولة وغير مفروضة الصداق وجبت المتعة لها وإن كانت غير ذلك يستحبّ لها ولفظ التمتّع المدلول عليه «بمتّعوهن» في الآية السابقة يحمل على الواجب وهذه في المستحبّ فلا منافاة في الآيتين. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: متاع متلبّس بالمعروف شرعاً وعادة ممّا ينبغي على من كان متّقيا.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: كما يبيّن الله لكم الأحكام والآداب الّتي مضت ممّا تحتاجون إلى معرفتها في دينكم بيّن لكم هذه الأحكام فشبّه البيان الّذي يأتي بالبيان الماضي ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تفهموا وتكمل عقولكم فإنّ العقل الغريزيّ يكمل بالعقل المكتسب وبرؤية الآيات.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

لمّا ذكر الله قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ ذكر آية من آياته فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم ينته علمك أيها السامع ﴿إِلَى﴾ خبر هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ نزل سماعهم القصّة منزلة رؤيتهم تنبيهاً على ظهورها

وتحقّقها ومعنى الرؤية هاهنا رؤية القلب وهي بمعنى العلم وكلّ ما وقع في القرآن ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يعاينه النبيﷺ فهو بمعنى العلم وحاصله اعلم ذلك لأنّ همزة الاستفهام إذا دخلت على النفي أو على الاستفهام صار إيجاباً وتقريرا.

والّذين خرجوا قيل: إنّهم قوم من بني إسرائيل فرّوا من الطاعون وقع بأرضهم وقيل: فرّوا من الجهاد وقد كتب عليهم عن الضحّاك ومقاتل واحتجّا بعقيب الآية بقوله: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقيل: هم قوم حزقيل وهو ثالث خلفاء بني إسرائيل بعد موسى وذلك أنّ القيّم بأمر بني إسرائيل بعد موسى يوشع بن نون ثمّ كالب بن يوحنّا ـ أو يوفنّا ـ ثمّ حزقيل وقد كان يقال له: ابن العجوز وذلك أنّ امّه كانت عجوزاً فسألت الله الولد وقد كبرت وعقمت فوهبه الله لها. وقيل: هو ذو الكفل وإنّما سمّي حزقيل ذو الكفل لأنّه كفل سبعين نبيّاً نجاهم من القتل وقال لهم: اذهبوا فإنّي إن قتلت كان خيراً من أن تقتلوا جميعا فلمّا جاء اليهود وسألوا حزقيل عن الأنبياء السبعين قال: لهم ذهبوا ولا أدري أين هم ومنع الله ذا الكفل من أذاهم. ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أجمع أهل التفسير بأنّ المراد «بألوف» كثرة العدد إلّا ابن زيد فإنّه قال: معناه خرجوا مؤتلفي القلوب لم يخرجوا عن تباغض فجعله جمع الآلف مثل قاعد وقعود وشاهد وشهود. واختلف من قال: المراد به العدد الكثير فقيل: ثلاثة آلاف عن عطا. وقيل: ثمانية آلاف. وقيل: عشرة آلاف. وقيل: تسعة وثلاثين ألف. وقيل: أربعين ألف عن ابن عبّاس. وقيل: سبعين ألف والّذي يقضي به الظاهر أنّهم كانوا أكثر من عشرة آلاف لأنّ بناء فعول للكثرة وهو ما زاد على العشرة وما نقص عنها يقال: فيه آلاف يقال: عشرة آلاف ولا يقال: عشرة ألوف.[1] ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي من خوف الموت ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ﴾ قيل

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٢٣.

في معناه قولان: أحدهما: أنّ معناه فأماتهم الله مثل قولهم: قلت برأسي كذا يعني أمرت وأشرت كذا. وقيل معناه: بقول سمعته الملائكة لضرب من العبرة والحكمة ثمّ أحياهم الله بدعاء نبيّهم حزقيل أو شمعون. قيل: إنّ اسم القرية الّتي خرجوا منها هرباً من وبائها دواوردان وقيل: واسط.

قال الكلبيّ وجماعة من أهل التفسير: إنّ ملكاً من ملوك بني إسرائيل أمرهم أن يخرجوا إلى قتال عدوّهم فخرجوا وعسكروا ثمّ كرهوا الموت فاعتذروا وقالوا: إنّ الأرض الّتي يأتيها الوباء فلا نأتيها حتّى ينقطع منها الوباء وكان بها الوباء فأرسل الله عليهم الموت فلمّا رأوا أنّ الموت كثر فيهم أيضا خرجوا من ديارهم فرارا من الموت حتّى نزلوا واديا بين جبلين ناداهم ملك من أسفل الوادي وملك آخر من أعلاه أن موتوا فماتوا جميعا من غير علّة بأمر الله وماتت دوابّهم كموت رجل واحد فلمّا مرّ عليهم حزقيل وجعل يتفكّر فيهم متعجّبا فأوحى الله تعالى: يا حزقيل تريد أن أراك آية وأراك كيف أحي الموتى؟ قال: نعم، فأحياهم الله.

وقيل: إنّهم كانوا قوم حزقيل فأحياهم الله بعد ثمانية أيّام وذلك أنّه لمّا أصابتهم الموتة خرج حزقيل في طلبهم فوجدهم موتى فبكى ثمّ قال: يا ربّ كنت في قوم يحمدونك ويقدّسونك ويسبّحونك فبقيت وحيدا لا قوم لي فأوحى الله إليه قد جعلت حياتهم إليك فقال حزقيل: أحيوا بإذن الله فعاشوا.

قال الباقر عليه السلام: **«ردّهم الله إلى الدنيا فسكنوا الدور وأكلوا الطعام ونكحوا النساء ومكثوا بذلك ما شاء الله ثمّ ماتوا بآجالهم».**[1]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بما أراهم من الآية العظيمة ليلتزموا سبيل الهدى ويجتنبوا طريق الردى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ باقون على الكفران وليسوا بشاكرين.

١ـ تفسيرالعياشي، ج ١، ص ١٣٠؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ١٣٤.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٤٤﴾

اختلف في توجيه الخطاب فقيل: إنّه خطاب للذين جرى ذكرهم على تقدير في الكلام وقيل لهم: قاتلوا في سبيل الله. وقيل: الخطاب لهذه الأمّة وهو معطوف على مقدّر تقديره: فأطيعوا وقاتلوا في سبيل الله لإعلاء دينه متيقّنين أنّ الفرار من الموت غير مخلّص وأنّ القدر واقع فلا تحرموا إحدى النصرين: إمّا الفوز بالثواب وإمّا الموت في سبيل الله. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ يسمع مقالة السابقين إلى الجهاد من ترغيب الغير فيه ومقالة المتخلّفين منه من تنفير الغير، ويعلم أنّ خلف المتخلّف لأيّ جهة وأنّ جهاد المجاهد لأيّ سبب.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾

«القرض» في اللغة القطع وبه سمّي الدين قرضاً لأنّه يقطع جزءاً من المال بالإعطاء على أن يردّ المفترض مثله بدلاً منه ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي﴾ استفهام للتحريض على التصدّق مبتدأ «ذا» إشارة إلى المفترض خبر أي: من هذا. «الّذي» صفة «ذا» أو بدل منه ﴿يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ والمراد من إقراض الله تقديم العمل الّذي يطلب به ثوابه ﴿قَرۡضًا﴾ مصدر ليقرض بمعنى إقراض كقوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾[1] ﴿حَسَنٗا﴾ أي: مقرونا بطيب النفس والإخلاص يكون حلالاً وقيل: القرض حسن المجاهدة والإنفاق في سبيل الله قيل: من أنواع القرض قول الرجل: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر».

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ﴾ ويزيده على أصله حتّى يصير مثلين أو أكثر إلى ما شاء الله﴿أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ﴾ بيان لقطع الأوهام عن مبلغ الحساب أي: لا يعلم

١ـ سورة نوح: ١٧.

قدره إلّا الله الواحد بسبعمائة. قال البيهقيّ: إنّ التضعيفات فضل من الله يدّخرها للعبد فضلاً منه.

﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ يقتر على البعض ﴿وَيَبْصُطُ﴾ يوسّع على بعض أو يقتر تارة ويوسّع اخرى مبنيّ على المصالح فإذا علمتم أنّه تعالى هو القابض والباسط فلا تبخلوا عليه وأقرضوه قال الصادق عليه السلام: **«لمّا نزلت** ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾[1] **قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا ربّ زدني، فنزلت:** ﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[2] **فقال رسول الله: ربّ زدني فأنزل الله:** ﴿مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ **والكثير عند الله لا يحصى».**[3]

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تأكيد للجزاء فرجوعكم إلى الله فيجازيكم بأحسن الجزاء.

قال الكلبيّ في سبب نزول هذه الآية: إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: **«من تصدّق بصدقة فله مثلاها في الجنّة»** فقال أبو الدحداح الأنصاريّ ـ واسمه عمرو ـ: يا رسول الله إنّ لي حديقتين إن تصدّقت بإحداهما فإنّ لي مثليها في الجنّة؟ قال: **«نعم»**، قال: وامّ الدحداح معي قال: **«نعم»** فقال: الصبيّة معي؟ قال صلى الله عليه وآله: **«نعم»**، فتصدّق بأفضل حديقتيه ودفعها إلى رسول الله فنزلت الآية فضاعف الله له صدقته.[4] الحديث.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ

١ـ سورة النحل: ٨٩.

٢ـ سورة الأنعام: ١٦٠.

٣ـ مجمع البيان، ج ٣، ص ١٣٧.

٤ـ مستدرک الوسائل، ج ٧، ص ٢٦٢؛ وجامع احاديث الشيعة، ج ٨، ص ٣٤٧.

﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

ألم ينته علمك إلى جماعة الأشراف من بني إسرائيل؟ ولمّا تقدّم ذكر الجهاد عقّب سبحانه بهذه الآية بقصّة مشهورة في بني إسرائيل تضمّنت شرح ما نالهم من قعودهم عن الجهاد تحذيرا للمسلمين من سلوك طريقة أولئك فيه ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ أي: بعد وفاة موسى ﴿إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ اختلف في ذلك النبيّ قيل: إنّه إشموئيل ـ وهو بالعربيّة إسماعيل ـ عن أكثر المفسّرين وهو المرويّ عن أبي جعفرعليه السلام.[1] وقيل: هو يوشع بن نون بن إفرائيم بن يوسف ابن يعقوبعليه السلام. وقيل: هو شمعون سمّته بذلك لأنّ امّه دعت إلى الله يرزقها غلاما فسمع الله دعاءها فيه وبالعربيّة: سمعون وإنّ السين عندهم الشين، وامّه صفيّة من ولد لاوي بن يعقوب.

﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وسؤالهم لذلك لاستعلاء الجبابرة عليهم وغلبوهم على كثير من ديارهم وسبوا كثيراً من ذراريهم بعد أن كانت الخطايا قد كثرت في بني إسرائيل ونسوا عهد الله وعظمت فيهم الأحداث فبعث الله إليهم إشموئيل نبيّا فقالوا: إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً نقاتل. وأرادوا قتال العمالقة وسألوا من النبيّ أميراً عليهم يقيم أمورهم في جهاد عدوّهم قال أبو عبد اللهعليه السلام: **«كان الملك في ذلك الزمان هو الّذي يسير بالجنود، والنبيّ يقيم وينبئه بالوحي من عند ربّه».**[2]

فقال النبيّ: لعلّكم إن فرض ﴿عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُوا۟﴾ ولا تفوا بما تقولون ولا تقاتلوا، وإنّما سألهم عن ذلك ليعرف ما عندهم من الهمّة على

١ـ مجمع البيان،ج ٢، ص ١٤٠؛ وبحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤٤٢.

٢ـ العياشي، ج ١، ص ١٣٢؛ وأيضاً رواه المجلسي في البحار، ج ١٣، ص ٤٤٩.

القتال وهذا كأخذ العهد عليهم ومعنى «عسيتم» قاربتم.

﴿قَالُوا﴾ أي: الملأ: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أيّ شيء لنا في ترك القتال؟ أوليس لنا ترك القتال ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا﴾ لفظه عامّ ومعناه خاص أي: اخرج بعضنا ﴿مِن دِيَٰرِنَا﴾ وأهالينا بالسبي والقهر أي: إذا بلغ الأمر هذا المبلغ فلا بدّ من الجهاد ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ في الكلام حذف. فسأل النبيّ الله تعالى أن يبعث لهم ملكا يجاهدون معه أعداءهم فسمع الله دعوته فبعث لهم ملكا وكتب عليهم القتال و﴿تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن القيام به وضيّعوا أمر الله﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ وهم الّذين عبروا النهر، وهذه الآية تهديد لمن يتولّى عن القتال.

وقيل: لمّا كبر إشموئيل أسلموه لتعلّم التوراة في بيت المقدّس وكفّله شيخ من علمائهم وتبنّاه فلمّا بلغ الغلام أتاه جبرئيل وهو نائم بجنب الشيخ وكان الشيخ لا يأتمن عليه فدعاه جبرئيل بلحن الشيخ: يا إشموئيل فقام الغلام مسرعا إلى الشيخ فقال: يا أبتاه دعوتني؟ فكره الشيخ أن يقول: لا، لئلّا ينفزع الغلام فقال: يا بنيّ ارجع فنم، فرجع الغلام فنام ثمّ دعاه الثانية فقال الغلام: دعوتني؟ فقال الشيخ: ارجع فنم فإن دعوتك الثالثة فلا تجبني فلمّا كانت الثالثة ظهر له جبرئيل فقال له: اذهب إلى قومك فبلّغهم رسالة ربّك فإنّ الله قد بعثك فيهم نبيّا فلمّا أتاهم كذّبوه وقالوا له: استعجلت بالنبوّة ولم تأت لك، فإن كنت صادقا فابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله. وكانت الملوك يومئذ مطيعة للأنبياء.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

طالوت وجالوت وداود لا تنصرف لأنها أسماء أعجميّة وفيها السببان: التعريف والعجمة. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ وذلك أنّ إشمونيل لمّا سأل الله أن يبعث لهم ملكا أتي بعصا وقرن فيه دهن القدس وقيل له: إنّ صاحبكم الّذي يكون ملكا طوله طول هذه العصا، وانظر القرن الّذي فيه الدهن فإذا دخل عليك رجل ونشّ الدهن الّذي في القرن فهو ملك بني إسرائيل فدهّن به رأسه وملّكه على بني إسرائيل. قال وهب: ضلّت حمر لوالد طالوت فأرسل أبو طالوت طالوت وغلاما له في طلبها فمرّ طالوت والغلام ببيت إشموئيل فقال الغلام: لو دخلنا على هذا النبيّ فسألنا عن الحمير ليرشدنا ويدعولنا بحاجتنا، فدخلا عليه فبينما هما عنده يذكران له شأن الحمر إذ نشّ أي: تحرّك الدهن الّذي في القرن فقام إشموئيل فقاس طالوت بالعصا فكان على طولها فقال النبيّ لطالوت: قرّب رأسك فقرّبه فدهّنه بدهن القدس وهو دهن مقدّس مطيّب وقال له: أنت ملك بني إسرائيل الّذي أمرني الله أن املّكه عليهم قال: بأيّ آية؟ قال: بآية أنّك ترجع وقد وجد أبوك حمره فكان كذلك وسمّي طالوت لطول قامته.

ثمّ قال إشموئيل لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ فأطيعوه وقاتلوا عدوّكم معه ﴿قَالُوٓاْ﴾ متعجّبين ومنكرين: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ أي: من أين يستأهل ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ﴾ وأولى بالرياسة عليه ﴿مِنْهُ﴾ بالرياسة علينا ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ ولم يعط ثروة فيشرف بالمال فكيف يتملّك علينا وكان طالوت من ولد بنيامين ابن يعقوب عليه السلام.

قيل: إنّ طالوت كان سقّاء. وقيل: كان دبّاغا. وقيل: مكاريا. وسبب هذا الاستبعاد منهم أنّ النبوّة كانت مخصوصة لسبط معيّن من أسباط بني إسرائيل

وهو سبط لاوي بن يعقوب ومنه كان موسى وهارون، وسبط المملكة والسلطنة سبط يهود ابن يعقوب ومنه كان داود وسليمان ولم يكن طالوت من أحد هذين السبطين بل هو من ولد بنيامين بن يعقوب وكانوا قد عملوا ذنباً عظيما ينكحون النساء على ظهر الطريق نهارا فغضب الله عليهم ونزع الملك والثروة وكانوا يسمّونه سبط الإثم وكان طالوت يتحرّف بحرفة دنيئة.

﴿قَالَ﴾ لهم نبيّهم ردّاً عليهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ واختاره فإن لم يكن له نسب ومال فإنّ له حسباً وفضيلة وهو قوله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً﴾ أي: سعة وامتداداً ﴿فِى ٱلْعِلْمِ﴾ المتعلّق بالملك ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ وكان أطول وأقوى من غيره وأقوم على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ لما أنّه المالك ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ يوسّع على الفقير ويغنيه إذا أراد ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يليق بالملك.

قال الزمخشريّ: كم يحدث بين الخبيثين ابن لايعابن والفرث والدم يخرج من بينهما اللبن لأنّ اللبن يخرج من بين السرجين والدم وهما مع كونهما مستقذرين لا يؤثّران في اللبن بشيء من طعمهما. لونهما بل يحدث من بينهما لطيفاً سائغاً للشاربين مع أنّ الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا رائحة ولا طعم، وإذا أكلت البهيمة العلف فاستقرّ في كرشها[1] فكان أسفله فرثاً وأوسطه مادّة اللبن وأعلاه مادّة الدم وجعل الله الكبد مسلّطة على هذه الأصناف الثلاثة فقسّمها فتجري الدم في العروق واللبن في الضروع ويبقى الفرث في الكرش.[2]

فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تأمّل! فيجعل من

١ـ هو لذي الخف والظلف بمنزلة المعدة للإنسان.

٢ـ لم نعثر عليه فيما بأيدينا من المصادر.

الحجر جوهراً ومن الشوك ريحاناً ووردا.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ طلبوا علامة من نبيّهم على كون طالوت ملكاً عليهم فقالوا: ما آية ملكه؟ فقال: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ من التوب وهو الرجوع وسمّي «تابوتا» لأنه ظرف توضع فيه الأشياء وتودع فلا يزال يرجع إليه ما يخرج منه وصاحبه يرجع إليه فيما يحتاج إليه من مودعاته والمراد به صندوق التوراة وكان قد رفعه الله بعد وفاة موسى لمّا عصوا واعتدوا سخط عليهم. فلمّا طلب القوم من نبيّهم آية تدلّ على ملك طالوت، قال لهم: إنّ آية ملكه أن يأتيكم التابوت من السماء والملائكة يحفظونه فأتاهم كما وصف والقوم ينظرون إليه حتّى نزل عند طالوت، وهذا قول ابن عبّاس.

وقال غيره من أرباب الأخبار: إنّ الله تعالى أنزل على آدمعليه السلام تابوتاً أي: صندوقا فيه تماثيل الأنبياء من أولاده وكان التابوت من عود الشمشاد ونحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين فكان عند آدمعليه السلام إلى أن توفّي فتوارثه أولاده واحداً بعد واحد إلى أن وصل إلى يعقوبعليه السلام ثمّ بقي في أيدي بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسىعليه السلام فكان يضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه وكان إذا قاتل قدّمه فكانت تسكن إليه نفوس بني إسرائيل وكان عنده إلى أن توفّي ثمّ تداولته أيدي بني إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا في شيء تحاكموا إليه فيكلّمهم ويحكم بينهم وكانوا إذا حضروا القتال يقدّمونه بين أيديهم ويستفتحون به على عدوّهم وكانت الملائكة تحمله فوق العسكر ثمّ يقاتلون العدوّ فإذا سمعوا في التابوت صحية استيقنوا بالنصر فلمّا عصوا وفسدوا سلّط الله عليهم العمالقة

فغلبوهم على التابوت وسلبوه وجعلوه موضع البول والغائط فلمّا أراد الله أن يملّك طالوت سلّط الله عليهم البلاء حتّى أنّ كلّ من بال عنده ابتلي بالبواسير.

وهلكت من بلادهم خمس مدائن يعني أهلها فعلم الكفّار أنّ ذلك سبب استهانتهم بالتابوت فأخرجوه وجعلوه على عجلة وعقلوها على ثورين فأقبل الثوران يسيران وقد وكّل الله بهما أربعة من الملائكة يسوقونها حتّى أتيا منزل طالوت فلمّا وجدوه عنده أيقنوا بملكه[1] فالإتيان على هذا مجاز لأنه أتي به ولم يأت هو بنفسه فنسب الإتيان إليه توسّعاً كما يقال: ربحت التجارة. وعلى قول ابن عبّاس ـ وهو الوجه الأوّل ـ فالإتيان حقيقة.

﴿فِيهِ﴾ أي: في إتيان التابوت ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ طمأنينة كاملة من الله لكم والضمير «للتابوت».

قال المفسّرون: «السكينة» تطلق على ثلاثة أشياء بالاشتراك اللفظيّ:

أولها: ما أعطي بنو إسرائيل في التابوت كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهي ريح ساكنة طيّبة تخلع قلب العدوّ بصوتها رعباً إذا التقى الصفّان وهي كانت معجزة لأنبيائهم وكرامة لملوكهم.

والثانية: شيء من لطائف صنع الله يلقى على لسان المحدّث الحكمة كما يلقي الملك الوحي على قلوب الأنبياء.

والثالثة: هي الّتي أنزلت على قلب النبيّ صلى الله عليه وآله وقلوب المؤمنين يسكن إليه الخائف ويتسلّى به الحزين ويتمكّن لهم الثبات كما قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]

۱ـ تفسيرأبي السعود، ج ۱، ص ۲٤۱؛ وانظر: تفسير الآلوسي، ج ۲، ص ۱٦۸.

۲ـ سورة الفتح: ۲٦.

أقول: ولعلّ القسم الثالث من سنخ القسم الثاني.[١]

قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ كائنة ﴿مِّمَّا﴾ من بعض ما ﴿تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ وهي رضاض الألواح وعصا موسى من اسّ الجنّة وثيابه ونعلاه وعمامة هارون وخاتم سليمان وقفيز من المنّ أي: الترنجبين النازل عليهم وعن أبي جعفر عليه السلام: **«إنّ التابوت كان الّذي أنزله الله على أمّ موسى فوضعت ابنها فيه وألقته في البحر وكان في بني إسرائيل معظّماً فلمّا حضر لموسى الوفاة وضع فيه الألواح ودرعه وما كان عنده من آثار النبوّة وأودعه عند وصيّه يوشع فلم يزل التابوت عندهم وهم في عزّ وشرف حتّى استخفّوا به وكان الصبيان يلعبون به في الطرقات فانتزع من بين أيديهم إلى أن ردّه على طالوت»**.[٢] وقيل: إنّ السكينة كان لها وجه كوجه الإنسان وكان لها ريح هفهافة[٣] وقال ابن عبّاس: هي صورة من زبرجد أو ياقوت، لها رأس كرأس الهرّ وذنب كذنبه، فإذا صاحت كصياح الهرّ ذهب التابوت نحو العدوّ وهم يمضون معه، فإذا وقف وقفوا ونزل النصر.

﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ حال من «التابوت» أي: حال كونه محمولا للملائكة ولعلّ المراد من حمل الملائكة إيّاه حفظهم وكان ينزل هو بنفسه إلى الأرض أو بسوق الملائكة على رواية المزكورة لأنّ من حفظ شيئاً أو باشره جاز أن يضاف الحمل إليه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ أي: في رجع التابوت إليكم علامة أنّ الله ملّك طالوت عليكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ وقيل: لمّا غلب الأعداء على التابوت أدخلوه بيت الأصنام فأصبحت أصنامهم منكبّة فأخرجوه ووضعوه ناحية من

١ـ راجع تفسير غريب القرآن، ص ٥٤٤.

٢ـ تفسيرالقمي، ج ١، ص ٨٢؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ١٤٤.

٣ـ أي: باردة.

المدينة فأخذهم وجع في أعناقهم وكلّ موضع وضعوه ظهر فيه بلاء وموت ووباء فأشير عليهم أن يخرجوا التابوت من عندهم فأجمع رأيهم أن يحملوه على عجلة ويشدّوها على ثورين ويبعدوه ففعلوا ذلك وأرسلوا الثورين فجاءت الملائكة وساقوا الثورين إلى بني إسرائيل فهذا معنى ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۚ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩)

التقدير: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ نفسه ولمّا اتّحد فاعله ومفعوله شاع محذوف المفعول والمعنى: انفصل عن بلده مصاحباً لبني إسرائيل لقتال العمالقة «و الجنود» جمع جند وهو الجيش الأشدّاء، مأخوذ من الجند وهي الأرض الشديدة الصلبة.

روي: أنّهم لمّا رأوا التابوت لم يشكّوا النصر فتسارعوا إلى الجهاد فقال طالوت: لا يخرج معي شيخ ولا مريض ولا رجل بنى بناء لم يفرغ منه ولا صاحب تجارة مشتغل بها ولا رجل عليه دين ولا رجل تزوّج امرأة ولم يبن بها ولا أبتغي إلّا الشابّ النشيط الفارغ فاجتمع إليه ممّن اختاره ثمانون ألفا وكان الوقت قيظا وسلكوا مفازة[١] فشكوا قلّة الماء وسألوا أن يجري لهم نهرا ﴿قَالَ﴾ طالوت بإخبار من النبيّ إشموئيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ أي يعاملكم معاملة المختبر بما اقترحتموه، وذلك الاختبار ليظهر عند طالوت من كان مخلصاً في نيّته من غيره ليميّزهم من العسكر لأنّ من لا يريد القتال إذا

١ـ القيظ: شدة الحر، والمفازة: الفلاة التي لا ماء بها.

خالط عسكراً يدخل الضعف في العسكر فينهزمون بشؤمه.

﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ﴾ أي: من النهر بتسكين الهاء وتحريكها لغتان وكلّ ثلاثيّ حشوه حرف من حروف الحلق فإنّه يجيء على هذين كقولك: صخر وصخر وبحر وبحر.

قال الشاعر:

كأنّما خلقت كفّاه من حجر فليس بين يديه والندى عمل
يرى التيمّم في برّ وفي بحـر مخافة أن يرى في كفّه بلـل

وفي النهر قيل: إنّه نهر فلسطين. وقيل: نهر بين الأردنّ وفلسطين.[١] وقيل: جرى الله لهم نهراً باقتراحهم ﴿فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ أي: ليس من أهل طاعتي ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾ أي: من لم يذق طعمه وهو يستعمل على الطعام والشراب وهو من الطعم. ﴿وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ﴾ ولم يذقه ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ من حملتي وأشياعي وأهل ديني ﴿إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦ﴾ قرئ «غرفة» بضمّ الغين الشيء القليل الّذي يحصل في الكفّ وبالفتح قرئ وهو الاغتراف مرّة واحدة ومثله «الأُكلة والأَكلة» فإنّ الاكلة بالضمّ أي: الشيء القليل كاللقمة وأشباهها ولكنّ الأَكلة بالفتح أي: مرّة واحدة يقال: فلان يأكل بالنهار أكلة واحدة يعني مرّة، والمعنى الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكروع[٢] استثناء من قوله: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي﴾ و إنّما أخبر في الذكر عن الجملة الثانية لكمال العناية بها أي: إلّا من أخذ الماء مرّة واحدة باليد وهذا إذا كان بفتح الغين، وإذا كان بالضمّ فمعناه إلّا من شرب منه مقدار ملء كفّه قال ابن عبّاس: كانت الغرفة يشرب منها هو ودوابّه وخدمه ويحمل منها وهذا كان

١ـ بحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤٣٦.

٢ـ الكروع والكرع: مد العنق لتناول الماء بالفم.

معجزة لنبيّ ذلك الزمان كما كان النبي ﷺ يروي الخلق الكثير من الماء القليل.

﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فالّذين شربوا القليل كانوا على عدد أهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر بدليل قوله ﷺ لأصحابه يوم بدر: «**أنتم اليوم على عدّة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وكانوا يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا**».[١]

وقيل: إنّ الّذين لم يزيدوا على الاغتراف أربعة آلاف لكنّ المشهور الأوّل وأمّا الّذين شربوا كراعاً[٢] وخالفوا أمر الله فاسودّ شفاههم وغلبهم العطش ولم يرووا وبقوا على شطّ النهر وجبنوا عن لقاء العدوّ، والمؤمنون القليلون عبروا النهر. وقرئ «إلّا قليل» بالرفع ميلاً إلى جانب المعنى لأنّ الكلام في قوّة أن يقال: لم يطيعوه إلّا قليل، فحقّ المستثنى أن يكون مرفوعاً. نعم شرب الماء بغير إذنه تعالى حرام وسفك الدم بإذنه واجب.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ أي: فلمّا جاوز وعبر طالوت والمؤمنون النهر ﴿قَالُوا﴾ أي: بعض من معه من المؤمنين لبعض آخر منهم، وقد صار المؤمنون فرقتين فريقاً يحبّ الحياة ويكره الموت وغلب الخوف عليهم وفريقا كان شجاعا قويّ القلب لا يبالي في طاعة الله الموت.

فالقسم الأوّل هم الّذين قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ لما شاهدوا منهم من الكثرة والقوّة وكانوا مائة ألف مقاتل شاكي السلاح.

والقسم الثاني هم الّذين أجابوهم بقولهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ﴾ الآية، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ﴾ قيل في «يظنّون» معناه يستيقنون والظنّ استعملوه في اليقين. وقيل: إنّ معنى الظنّ في الآية: يحدّثون نفوسهم وهو أصل الظنّ لأنّ حديث النفس بالشيء قد يكون مع الشكّ وقد يكون مع

١ـ انظر: تفسير الثعالبي، ج ٢، ص ٢١٦. وتفسير الرازي، ج ٦، ص ١٩٥.

٢ـ الكروع والكرع: مد العنق لتناول الماء بالفم.

العلم إلّا أنّه قد كثر على ما كان مع الشكّ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ أي: كثير من الفئات القليلة غلبت الفئات الكثيرة و«الفئة» اسم للجماعة من الناس قلّت أو كثرت والجمع: فئون وفئات ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وحكمه وتيسيره فمن نصره لا يذلّ وإن قلّ عدده ولا يعزّ من خذله وإن كثر استعداده ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصرة على العدوّ.

قال الراغب: في القصّة مثال للدنيا وأبنائها، فإنّ من يتناول قدر ما يتبلغ به اكتفى واستغنى وسلّم منها ونجا ومن تناول منها فوق ذلك ازداد عطشا ولهذا قيل: الدنيا كالملح من ازداد منها عطش. وفي الحديث: «**لو أنّ لابن آدم واد بين جبلين من ذهب لابتغى إليهما ثالثا فلا يملأ جوف ابن آدم إلّا التراب**».[1]

وأوحى الله إلى داود: «**يا داود تريد وأريد فإن رضيت بما أريد كفيتك ما تريد وإن لم ترض بما أريد أتعبك ثمّ لا يكون إلّا ما أريد**».[2]

قال النبيّ ﷺ في وصيّته لأبي هريرة: «**يا أبا هريرة كن بطريق أقوام إذا فزع الناس لم يفزعوا وإذا طلب الناس الأمان من النار لم يخافوا**». قال أبو هريرة: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**قوم من امّتي في آخر الزمان يحشرون محشر الأنبياء إذا نظر الناس إليهم ظنّوهم أنبياء ممّا يرون من حالهم حتّى أعرّفهم أنا فأقول: امّتي، فيعرف الخلائق أنّهم ليسوا أنبياء فيمرّون مثل البرق أو الريح يغشى أبصار أهل الجمع من أنوارهم**». فقلت: يا رسول الله مرني بمثل عملهم لعلّي ألحق بهم فقال: «**يا أبا هريرة ركب القوم طريقاً صعباً آثروا الجوع بعد ما أشبعهم الله، والعرى بعد ما كساهم الله، والعطش بعد ما أرواهم الله تركوا ذلك رجاء ما عند الله تركوا الحلال مخافة حسابه فصحبوا الدنيا بأبدانهم ولم يشتغلوا بشيء منها، عجبت الملائكة والأنبياء من طاعتهم لربّهم طوبى لهم وددت أنّ الله جمع**

١ـ مجمع البيان، ج ١، ص ٣٣٨. وانظر: من لايحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤١٨.

٢ـ التوحيد للصدوق، ص ٣٣٧. وتحف العقول، ص ٣٧٤.

بيني وبينهم» ثمّ بكى رسول الله ﷺ شوقاً إليهم. ثمّ قال ﷺ: **«إذا أراد الله بأهل الأرض عذابا فنظر إليهم صرف العذاب عنهم فعليك بطريقهم»**.[1]

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾

﴿وَلَمَّا﴾ ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين وصاروا إلى براز وفضاء من الأرض في موطن الحرب ﴿لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ وشاهدوا من عليهم من العدد والعدّة وأيقنوا أنّهم غير مطيقين لهم عادة ﴿قَالُوا﴾ جميعاً متضرّعين إلى الله: ﴿رَبَّنَآ﴾ في ندائهم اعتراف منهم بالعبوديّة ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا﴾ صبّ علينا، استعارة عن الإكمال والإكثار وإفراغ الإناء إخلاؤه ممّا فيه ﴿صَبْرًا﴾ على مقاساة شدائد الحرب ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مداحض القتال ونزال النزال وعدم التزلزل ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ بقهرهم وهزمهم ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فكسروهم بتأييده وإجابة لدعائهم ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾.

وفي تفسير «روح البيان» أنّ جالوت الجبّار كان رأس العمالقة وملكهم وكان من أولاد عمليق بن عاد وكان من أشدّ الناس وأقواهم وكان يهزم الجيوش وحده وكان له بيضة فيها ثلاثمائة رطل حديد وكان ظلّه ميلاً لطول قامته وكان إيشى أبو داود في جملة من عبر النهر مع طالوت وكان معه سبعة من أبنائه وكان داود أصغرهم سنّا يرعى الغنم فأوحى الله إلى نبيّ العسكر

۱ـ كنز العمال، ج ۳، ص ۷۲۹.

وهو إشموئيل: إنّ داود بن إيشى هو الّذي يقتل جالوت فطلبه من الله فجاء به فقال له النبيّ: لقد جعل الله قتل جالوت على يدك فاخرج معنا لمحاربته فخرج معهم فمرّ داود في الطريق بحجر فناداه: يا داود احملني فإنّي حجر هارون الّذي قتل بي ملك كذا فحمله في مخلاته ثمّ مرّ بحجر آخر فقال له: احملني فإنّي حجر موسى الّذي قتل بي كذا وكذا فحمله في مخلاته ثمّ مرّ بحجر آخر فقال له: احملني فإنّي حجرك الّذي تقتل بي جالوت فوضعه في مخلاته وكان داود من عادته رمي القذافة وكان لا يرمى بقذافته شيئا من الذئب والأسد والنمر إلّا صرعه وأهلكه. فلمّا تصافّ العسكران للقتال برز جالوت وسأل من يخرج إليه فلم يخرج إليه أحد فقال: يا بني إسرائيل لو كنتم على حقّ لبارزني بعضكم فقال داود لإخوته: من يخرج إلى هذا الأقلف؟ فسكتوا فالتمس منه طالوت أن يخرج إليه ووعده أن يزوّجه ابنته ويعطيه نصف ملكه فلمّا توجّه داود نحوه أعطاه طالوت فرساً ودرعاً وسلاحاً فلبس الدرع والسلاح وركب الفرس فسار قريباً ثمّ انصرف إلى الملك فقال من حوله: جبن الغلام فجاء فوقف على الملك فقال: ما شأنك؟ فقال: إنّ الله تعالى إن لم ينصرني لم يغن عنّي السلاح شيئاً فدعني أقاتل كما أريد، قال: نعم، فأخذ داود مخلاته فتقلّدها وأخذ المقلاع ومضى نحو جالوت.

ولمّا نظر جالوت إلى داود قذف في قلبه الرعب فقال: يا فتى ارجع فإنّي أرحمك أن أقتلك قال داود: بل أنا أقتلك قال جالوت: لأقسمنّ لحمك بين سباع الأرض وطير السماء قال داود: بل يقسّم الله لحمك فقال: باسم إله إبراهيم وأخرج حجرا ثمّ أخرج الآخر وقال: باسم إله إسحاق ثمّ أخرج الثالث وقال: باسم إله يعقوب فوضع الأحجار الثلاثة في مقلاعه وصارت كلّها حجراً واحداً ودوّر المقلاع ورمى به فسخّر الله له الريح حتّى أصاب

الحجر أنف البيضة وخالط دماغه وخرج من قفاه وقتل من ورائه ثلاثين رجلا وهزم الله الجيش وخرّ جالوت قتيلا، فأخذ داود يجرّه حتّى ألقاه بين يدي طالوت ففرح المسلمون فرحاً شديداً وانصرفوا إلى المدينة سالمين فزوّجه طالوت ابنته وأجري خاتمه في نصف مملكته.

فمال الناس إلى داود وأحبّوه فحسده ـ على ما قيل ـ طالوت وأراد قتله فتنبّه له داود وهرب منه فسلّط طالوت عليه العيون فلم تقدر عليه وانطلق داود في الجبل مع المتعبّدين فتعبّد فيه دهراً طويلاً فأخذ العلماء والعبّاد ينهون طالوت في شأن داود فجعل طالوت لا ينهاه أحد عن قتل داود إلّا قتله فأكثر في قتل العلماء الناصحين.

ثمّ ندم طالوت على ما فعله من المعاصي والمنكرات وأقبل على البكاء ليلا ونهارا حتى رحمه الناس وكان كلّ ليلة يخرج إلى القبور فيبكي وينادي: رحم الله عبداً يعلم أنّ لي توبة إلّا أخبرني بها فلمّا أكثر التضرّع والإلحاح رقّ له بعض خواصّه فقال له: إن دللتك أيّها الملك لعلّك أن تقتله فقال: لا والله بل أكرمه أتمّ الإكرام وأنقاد إلى حكمه وأخذ مواثيق الملك وعهوده على ذلك فذهب به إلى باب امرأة تعلم اسم الله الأعظم فلمّا لقيها قبّل الأرض بين يديها وسألها هل له من توبة فقالت: لا والله لا أعلم لك توبة ولكن هل تعلم قبر نبيّ قال: نعم فانطلق بها إلى قبر إشموئيل فصلّت ودعت ثمّ نادت صاحب القبر فخرج إشموئيل من القبر ينفض التراب عن رأسه فلمّا نظر إليهم سألهم وقال: ما لكم أقامت القيامة؟ قالت: لا ولكن طالوت يسأل هل له من توبة؟ قال إشموئيل: يا طالوت ما فعلت بعدي؟ قال: ما أدع من الشرّ شيئا إلّا فعلته وجئت لطلب التوبة قال: كم لك من الولد؟ قال: عشرة رجال قال: لا أعلم لك من التوبة إلّا أن تتخلّى من ملكك وتخرج أنت وولدك في سبيل الله ثمّ تقدّم

ولدك حتّى يقتلوا بين يديك ثمّ تقاتل أنت فتقتل آخرهم ثمّ رجع إشموئيل إلى القبر وسقط ميّتا ورجع طالوت ففعل ما أمر به فجاء قاتله إلى داود ليبشّره وقال: قتلت عدوك، فقال داود: ما أنت بالّذي تحيى بعده فضرب عنقه، فكان مدّة ملك طالوت إلى أن قتل أربعين سنة وأتى بنو إسرائيل بداود وأعطوه خزائن طالوت وملّكوه على أنفسهم وملك داود بعد قتل طالوت سبعين سنة.

﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي: ملك بني إسرائيل في مشارق الأرض المقدّسة ومغاربها ولم يجتمعوا قبل داود على ملك ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي النبوّة ولم يجتمع في بني إسرائيل الملك والنبوّة قبله إلّا له بل كان الملك في سبط والنبوّة في سبط آخر[1] وأنزل عليه الزبور أربعمائة وعشرين سورة وهو أوّل من تكلّم «بأمّا بعد» وهو فصل الخطاب الّذي أوتيه داود.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ من صنعة الدروع بالانة الحديد وكان يصنعها ويأكل ثمنها ولا يأكل من بيت المال، وعلّمه منطق الطير وتسبيح وكلام النمل والحكل.[2] والصوت الطيّب وكان إذا قرأ الزبور تدنو الوحوش حتّى يؤخذ بأعناقها وتطلبه الطير وتسكن الريح ويركد الماء الجاري. ولعلّ ركود الماء وسكون الريح من معجزاته بل صوته وسائر الأمور.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: ولو لا صرفه تعالى، المصدر مضاف إلى الله «الناس» مفعول «الدفع» بعضهم الّذين يباشرون الفساد وهو بدل من «الناس» ببعض آخر منهم بردّهم عمّاهم عليه بما قدّر الله حسب ما هو الصلاح مثل القتل المذكور في القصّة المذكورة لفسدت الأرض وبطلت

١ـ راجع: تفسيرأبي السعود، ج ١، ص ٢٤٤. وأيضاًتفسيرالرازي، ج ٦، ص ٢٠١.

٢ـ بالضم كلام وصوت لايفهم.

منافعها وتعطّلت مصالحها من الحرث والنسل.

وقيل: المعنى: ولو لا دفع الله بالمؤمنين والأبرار عن الكفّار والفجّار لهلكت الأرض ومن فيها ولكنّ الله يدفع بالمؤمن عن الكافر وبالصالح عن الفاجر قال النبيّ ﷺ: «**إنّ الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت جيرانه البلاء**»[1] ثمّ قرأ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ ولهذا قيل: الدين والملك توأمان ففي ارتفاع أحدهما ارتفاع الآخر لأنّ الدين أساس والملك حارس وما لا اسّ له فمهدوم وما لا حارس له فضائع والناس قد يكون لا ينقادون للرسل مع ظهور الحجج فاحتيج إلى المجاهدة بالسيف والسنان وسيّاس الخلق الأنبياء ثمّ الملوك ثمّ العلماء العاملين والوعّاظ العالمين. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كافّة.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما سلف في الذكر من تمليك طالوت وتابوت السكينة وانهزام الجبابرة وقتل داود جالوت ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المنزلة من عنده ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ بواسطة جبرئيل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من مفعول «نتلوها» أي: كائنة بالوجه المطابق بالواقع ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: من جملة المرسلين الّذين أرسلوا إلى الأمم لتبليغ رسالاتنا وإجراء أوامرنا وإلّا لما أخبرت بتلك الآيات من غير تعرّف ولا استماع والتأكيد لردّ قول المشركين: لست رسولا.

تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا

١ـ جامع البيان، ج ٢، ص ٨٥٥؛ وتفسيرالثعالبي، ج ٢، ص ٢٢٥.

ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الجماعة الّذين من جملتهم النبيﷺ واللام للاستغراق في «الرُسُل» ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بأن خصّصناه بمنقبة ليست لغيره والأنبياء كلّهم متساوون في النبوّة لأنّ النبوّه شيء واحد والتفاضل باعتبار الدرجات بلغ بعضهم درجة الخلّة كإبراهيم ولم يحصل ذلك لغيره وجمع لداود الملك والنبوّة وطيب النغمة ولم يحصل هذا لغيره وسخّر لسليمان الجنّ والإنس والطير والريح ولم يحصل هذا لأبيه داود على نبيّنا وآله وعليه السلام وخصّ محمّداًﷺ بكونه مبعوثاً إلى الكلّ من الجنّ والإنس ويكون شرعه ناسخاً لجميع الشرائع.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: كلّمه الله من غير واسطة مثل موسى فهو مكالمه وقالت الأشاعرة: إنّ الكلام الّذي سمعه موسى وغيره هو الكلام القديم الأزليّ. وقال غيرهم: سماع ذلك الكلام محال وإنّما المسموع هو الحروف والأصوات وهو الحقّ.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: على درجات قال مجاهد: أراد به محمّداًﷺ فإنّه تعالى فضّله على جميع الأنبياء وأعطاه جميع الآيات الّتي أعطاها من قبله من الأنبياء وبأن خصّه بالقرآن الّذي لم يعطه غيره وهو المعجزة القائمة إلى يوم القيامة. ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والإخبار بما يأكلونه ويدّخرونه في بيوتهم وخلق الطير من الطين والإنجيل وإنّما ذكر إيتاء «البيّنات» مع أنّها غير مختصّ بعيسى تقبيحاً لإفراط اليهود في تحقيره ولإفراط النصارى في تعظيمه حيث أخرجوه عن مرتبة الرسالة.

﴿وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: الروح المطهّرة الّتي نفخها الله فيه فالقدس بمعنى «المقدّس» من قبيل رجل صدق لأنّه لم يخلق من اجتماع نطفتي الذكر والأنثى ولم تضمّه أصلاب الفحول وأرحام الطوامث أو القدس «هو الله» وروحه «جبرئيل» والإضافة للتشريف مثل «بيت الله» وقد أعانه جبرئيل في أوّل أمره بنفخه الروح في كمّ امّها وفي وسط أمره بتعليمه العلوم وحفظه من الأعداء وفي آخر أمره حين أرادت اليهود قتله أعانه ورفعه إلى السماء. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِ﴾ الرسل بأن جعلهم متّفقين على اتّباع الرسل بحيث لم يتمكّنوا من المخالفة ويلجئهم إلى الموافقة ويمنعهم عن الكفر إلّا أنّه سبحانه لم يلجئهم إلى ذلك لأنّ التكليف لا يحسن مع الضرورة والجزاء لا يحسن إلّا مع التخلية والاختيار. ﴿وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ﴾ بحسن اختياره ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ بسوء اختياره. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ عدم اقتتالهم بعد هذه المرّة مع هذا الاختلاف والشقاق اللازم للاقتتال بحسب العادة ﴿مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ وما نبض[1] منهم عرق التطاول والتعاون ومنع وسلب عنهم قدرة القتال لما أنّ الكل تحت ملكوته.

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ما تقتضيه المصلحة قال أبو السعود العلّامة: إنّ الكرار في الآية ليس للتأكيد، كما ظنّ بعضهم بل للتنبيه على اختلافهم ذلك ليس[2] موجبا لعدم مشيّته تعالى لعدم اقتتالهم بل هو سبحانه مختار في ذلك حتّى لو شاء بعد ذلك عدم اقتتالهم ما اقتتلوا ويفصح عن هذا المعنى الاستدراك بقوله: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ من غير أن يوجبه عليه موجب أو يمنعه منه مانع.

١ـ نبض العرق: تحرك.

٢ـ كذا في الأصل.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾

لمّا قدّم بيان القتال والجهاد بالأنفس ذكر في هذه الآية جهاد المال والإنفاق في سبيله بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ المعتزلة احتجّوا بأنّ الرزق لا يكون إلّا حلالاً لأنّه تعالى أمر في هذا الآية بالإنفاق وما كان حراماً لا يجوز أن يؤمر بإنفاقه فهذا يفيد القطع بأنّ الرزق لا يكون حراما.

ثمّ اختلفوا بأنّ هذا الأمر هل مختصّ بالزكاة المفروضة أم يشمل المندوبة ومطلق الصدقات فقال جماعة: مختصّ بالمفروضة لأنّ قوله: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ﴾ وعيد والوعيد لا يتوجّه على ترك المندوب، والأكثرون على أنّه يتناول المفروض والمندوب وأنكروا مفاد الوعيد في الآية قالوا مفاد الآية: أن حصّلوا منافع الآخرة حين كونكم في الدنيا فإنّكم إذا خرجتم من الدنيا لا يمكنكم تحصيلها واكتسابها في الآخرة.

وقرئ لا بيع «بالفتح» والأكثرون بالرفع قالوا: في التقدير جواب «هل فيه بيع أو خلّة أو شفاعة» قال: «ليس فيه بيع».

قوله: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ «من» تبعيضيّة أي: بعض ما رزقناكموه ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ يوم الجزاء ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ﴾ يتدارك التقصير بالاستبدال ﴿وَلَا خُلَّةٞ﴾ ومودّة حتّى يسامحكم أخلّاؤكم ويقال «للصديق» الخليل لأنّ المودّة تتخلّل الأعضاء ويدخل جوفها وخلالها ووسطها والخلّة منقطعة يوم القيامة إلّا بين المتّقين ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ حتّى تتّكلوا على شفعاء تشفّع لكم في حطّ ما في ذممكم والشفاعة المنفيّة هي الّتي يستقلّ فيها الشفيع ويأتي بها من غير إذن لأنّ الدلائل قائمة على ثبوت الشفاعة للمؤمنين بعد أن يؤذن لهم فيها.

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم عملوا بأنفسهم ما استحقّوا الحرمان من

الجنّة والخلود بالنار وظلم نفسه وضرّها بالكفر وبمنع الزكاة حتّى استحقّ العذاب.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ هذا الاسم أعظم الأسماء لأنّه دالّ على الذات الجامعة لصفات الإلهيّة كلّها حتّى لا يشذّ منها شيء وسائر الأسماء لا تدلّ آحادها إلّا على آحاد المعاني من علم أو قدرة أو فعل، ولأنّه أخصّ الأسماء إذ لا يطلقه أحد على غيره لا حقيقة ولا مجازا وسائر الأسماء قد يسمّى بها غيره كالقادر والرحيم وينبغي أن يكون حظّ العبد من هذا الاسم التألّه واستغراق القلب وعدم الالتفات إلى ما سواه ولا يرجو ولا يخاف إلّا إيّاه وكيف لا يكون كذلك وقد فهم من هذا الاسم أنّه الموجود الحقيقيّ الحقّ وغيره فان وهالك إلّا به.

قال رسول الله: «**أصدق بيت قالته العرب قول لبيد**»[١]:

ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل ‏ ‏ ‏ و كـلّ نعـيم لا محالـة زائـل

حتّى أنّ هذه الكلمة خلاف الكلمات، فإنّ كلّ كلمة إذا أسقطت منها حرفا يختلّ بالمعنى وهذه إن حذفت الألف يصير «لله» قال سبحانه: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٢] وإن حذفت اللام الاولى أيضا يبقى «له» قال سبحانه: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[٣] وإن حذفت اللام الثانية أيضا يبقى

١ـ السنن الكبرى، ج ١٠، ص ٢٣٧. والسيرة الحلبية، ج ٢، ص ١١.

٢ـ سورة النساء: ١٧٠.

٣ـ سورة البقرة: ١٠٧.

الهاء وهو ضمير راجع إلى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1] وللأسماء تأثير بليغ خصوصاً للفظ الجلالة لكن بشرط أن يقع الذكر من أهله والأهليّة لا تحصل إلّا بعد تزكية النفس وتبديل الأخلاق. وكلمة «هو» وإن كانت للإشارة المطلقة ومفتقرة في تعيين المراد بها إلى سبق الذكر أو إلى أن يعقّبها ما يفسّرها إلّا أنّ المستغرق الكامل يشير بها إلى الحقّ ولا يفتقر في تلك الإشارة إلى ما يميّز الذات المرادة عن غيرها لأنّ الافتقار إلى المميّز إنّما يحصل حيث وقع الإبهام والمستغرق المتوجّه لا يكون في قلبه وفي نظره غيره ويرى غيره هالكا معدوما وليس المراد من هذا البيان أنّه يرى كلّ شيء هو الله كما زعمه بعض الحمقاء من الّذين سمّوا أنفسهم عرفاء كما قال ﷺ: «ما رأيت شيئا إلّا ورأيت الله معه».[2]

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الجملة خبر للمبتدأ وهو لفظ الجلالة والمعنى: الله هو المستحقّ للعبادة لا غير ﴿ٱلْحَىُّ﴾ خبر ثان وهو في اللغة من له الحياة وصفة يخالف الموت وإذا وصف البارئ بها معناه: الدائم الباقي الّذي لا سبيل عليه للفناء والموصوف بالحياة الأزليّة الأبديّة الفعّال الدرّاك كما شرح هذا المعنى في الأسماء الحسنى، حتّى لا يشذّ عن علمه مدرك ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ مبالغة القائم فإنّه تعالى دائم القيام على كلّ شيء بتدبير أمره في إنشائه وإيجاده.

قال الغزاليّ: إنّ الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محلّ، كالأعراض والأوصاف وإلى ما لا يحتاج إلى محلّ فيقال: إنّه قائم بنفسه كالجواهر إلّا أنّ الجوهر وإن قام بنفسه مستغنياً عن محلّ يقوم به فليس مستغنياً عن امور لا بدّ منها لوجوده وتكون تلك الأمور شرطاً في وجوده وإذا كان كذلك فلا

١ـ سورة الحشر: ٢٢.

٢ـ جامع الاسرار، ص ٧٠١.

يكون قائماً بنفسه لأنّه محتاج إلى غيره في قوام وجوده وإن كان لم يحتجَ إلى محلّ فإن كان في الوجود موجود يكفي ذاته بذاته ولا قوام له بغيره ولا شرط في دوام وجوده وجود غيره فهو القائم بنفسه مطلقاً فإن كان مع ذلك يقوم به كلّ موجود حتّى لا يتصوّر للأشياء وجود ولا دوام وجود إلّا به فهو القيّوم وليس ذلك إلّا الله.

قيل: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ اسم الله الأعظم وكان عيسى عليه السلام إذا أراد أن يحيي الموتى يدعو بهذا الدعاء «يا حيّ يا قيّوم» ويقال: دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: **«لمّا كان يوم بدر جئت أنظر إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ما يصنع فإذا هو ساجد يقول: يا حيّ يا قيوم يردّد مرّات وهو على حاله لا يزيد على ذلك إلى أن فتح الله له».**[1] وقال بعض: الاسم ليس له حدّ محدود ولكن فرّغ قلبك عمّا سواه فإذا كنت كذلك فاذكره بأيّ اسم شئت من أسمائه الحسنى. وهذه الصفة استكملت في محمّد صلى الله عليه وآله ومن عرف حقيقة المحمّديّة عرف الاسم الأعظم.

قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ السنة: ثقلة من النعاس وفتور يعتري المزاج قبل النوم وأوّله، والنوم حالة تعرض للإنسان من استرخاء أعصاب الدماغ من رطوبات الأبخرة المتصاعدة بحيث تقف الحواسّ الظاهرة عن الإحساس وتقديم السنة في الآية مع أنّ قياس المبالغة عكسه على ترتيب الوجود الخارجيّ فإنّ الموجود منها أوّلا هو السنة ثمّ النوم، والمراد بيان انتفاء اعترائهما له سبحانه فإنّ من أخذه نعاس أو نوم كان مؤوف الحياة قاصرا في التدبير، والنوم أخو الموت والموت ضدّ الحياة، وهو الحيّ الحقيقيّ، فلا يلحقه ضدّ الحياة ومنزّه عن صفة النقص.

روي أنّ موسى سأل الملائكة وكان ذلك في نومه: **«أ ينام ربّنا؟ فأوحى**

١ـ انظر: تفسيرالرازي، ج ٧، ص ٣.

الله إليهم أن يوقظوه ثلاثا ولا يتركوه ينام ثمّ قال: خذ بيدك قارورتين مملوءتين فأخذه النوم فزالتا وانكسرتا ثمّ أوحى الله إليه: أنّي أمسك السماوات والأرض بقدرتي فلو أخذني النوم أو النعاس لزالتا» كذا في الكشّاف.(١)

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فكلّ من فيهما وما فيهما ملكه ولا لأحد معه شركة فلا يجوز أن يعبد غيره كما ليس لعبد أحدكم أن يخدم غيره إلّا بإذنه.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ﴿مَن﴾ مبتدأ و﴿ذَا﴾ خبره و﴿ٱلَّذِى﴾ صفة ذا أو بدل منه، ولفظ «من» وإن كان استفهاماً فمعناه النفي ولذلك دخلت إلّا في قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ والمعنى لا أحد يشفع عنده بأمر من الأمور إلّا باستعانة أمره ورخصته وكان المشركون يقولون: أصنامنا شركاء الله وهم شفعاؤنا عنده.

وفي «تأويلات النجميّة»: هذا الاستثناء راجع إلى النبيّ لأنّ الله قد وعد له المقام المحمود وهو الشفاعة فالمعنى: من ذا الّذي يشفع عنده يوم القيامة إلّا عبده محمّدﷺ فإنّه مأذون موعود ويعينه الأنبياء بالشفاعة.

وفي «تفسير روح البيان»: قال رسول اللهﷺ: **«أتاني آت من عند ربّي فخيّرني بين أن يدخل نصف أمّتي الجنّة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة»**(٢) فيأتي الناس إليه فيقولﷺ: **«أنا لها»** وهو المقام المحمود الّذي وعده الله به يوم القيامة فيأتي ويسجد ويحمد الله بمحامد يلهمه إياها في ذلك الوقت لم يكن يعلمها قبل ذلك ثمّ يشفع إلى ربّه أن يفتح الله باب الشفاعة للخلق فيفتح الله تلك الباب فيأذن في الشفاعة للملائكة والرسل والأنبياء والمؤمنين قالﷺ: **«أنا سيّد الناس»** وتأدّبﷺ ولم يقل: سيّد الخلائق مع أنّه ظهر سلطانه على

١ـ انظر: الكشاف، ج ١، شرح ص ٣٨٤.

٢ـ مسند احمد، ج ٤، ص ٤٠٤.

الجميع وذلك أنّ الجبروت الأعظم والقهر الإلهيّ بالنسبة إلى الكفّار والعصاة في ذلك اليوم قد أخرس الجميع فظهر عظم قدره صلى الله عليه وآله حيث أقدم على مناجاة الحقّ فيما سأل من الشفاعة في مثل ذلك الوقت فأجابه الحقّ وأذن له وهو صلى الله عليه وآله أوّل من يشفع في الخلق ثمّ الأنبياء والملائكة والأولياء والمؤمنون ثمّ رحمته الواسعة جلّ جلاله.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ استيناف لبيان إحاطة علمه بأحوال من يستحقّ الشفاعة ومن لا يستحقّها ويعلم ما كان قبلهم من امور الدنيا وما يكون بعدهم من أمر الآخرة أو المراد من قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة لأنّهم يقدمون عليها ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الدنيا لأنّهم خلّفوها وراء ظهورهم، أو ما كان قبل أن يخلقهم وبعد أن خلقهم وعالم بأحوال الشافع والمشفوع له.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ أي: لا يدركون من الملائكة والأنبياء وغيرهم من معلوماته إلّا بما شاءَ أن يعلموه كأخبار الرسل وفسّر العلم بالمعلوم لأنّ علمه تعالى عين ذاته وصفة قائمة بذاته لا يتبعّض ففسّر بالمعلوم ليصحّ دخول التبعيض والاستثناء عليه فلا يظهر على غيبه أحد إلّا من ارتضى من رسول.

وفي «الرسالة الرحمانيّة»: إنّ علم الأولياء عن علم الأنبياء بمنزلة قطرة من سبعة أبحر وعلم الأنبياء من علم محمّد صلى الله عليه وآله بهذه المنزلة وعلم نبيّنا من علم الحقّ بهذه المنزلة. قال الشاعر في القصيدة البرديّة:

و كلّهم من رسول الله ملتمس ... غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم

و واقفون لديه عند حدّهم ... من نقطة العلم أو من شكلة الحكم

حاصله أنّ علوم الكائنات وإن كثرت بالنسبة إلى علم الله بمنزلة نقطة

من نقطت الكتاب نقطا أو شكلة من شكلت الكتاب إذا قيّدته بالإعراب ومشرب النقطة والشكلة بحر روحانيّة محمّد ﷺ.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ «الكرسي» ما يجلس عليه والمراد منه في الآية قيل: علمه تعالى عن ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن الباقرين عليهما السلام.[١] ويقال للعلماء:كراسيّ، وقيل: المراد العرش، وقيل: إنّ المراد منه الملك والسلطان والقدرة فيكون معناه:أحاط قدرته السماوات والأرض وما فيهما وقيل: إنّ الكرسيّ سرير دون العرش وقد روي عن الصادق عليه السلام وقريب منه ما روي عن عطا أنّه قال: **«ما السماوات والأرض عند الكرسيّ إلّا كحلقة في فلاة وما الكرسيّ عند العرش إلّا كحلقة في فلاة».**

وروى الأصبغ بن نباتة أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«إنّ السماوات والأرض وما فيهما من المخلوق في جوف الكرسيّ وله أربعة أملاك يحملونه بإذن الله ملك منهم بصورة الآدميّين وهي أكرم الصور على الله وهو يدعو الله ويتضرّع إليه ويطلب الشفاعة والرزق للآدميّين والملك الثاني: في صورة الثور وهو سيّد البهائم يدعو الله ويتضرّع إليه ويطلب الرزق للبهائم والملك الثالث: في صورة النسر وهو سيّد الطيور ويدعو الله ويتضرّع إليه ويطلب الرزق للطيور والملك الرابع: في صورة الأسد وهو سيّد السباع وهو يدعو الله ويطلب الرزق للسباع قال: ولم تكن في جميع صور الحيوان صورة أحسن من الثور ولا أشدّ انتصاباً منه حتّى اتّخذ الملأ من بني إسرائيل العجل وعبدوه فخفض الملك الّذي في صورة الثور رأسه استحياء من الله أن عبدوا من دون الله بشيء يشبهه وتخوّف أن ينزل به العذاب».**[٢]

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ يقال: آده الشيء يئوده إذا أثقله وأتعبه ولحقه منه

١ـ الاعتقادات، للصدوق، ص ٤٤. والتبيان، ج ٢، ص ٣٠٩.

٢ـ تفسيرالقمي، ج ١، ص ٨٥. مجمع البيان، ج ٢، ص ١٦٠.

مشقّة مأخوذ من الأود وهو العوج. «حفظهما» أي: حفظ السماوات والأرض إذ القليل والكثير والقريب والبعيد عنده سواء وكيف يتعب في خلق الذرة وجميع الخلق خلقه عنده أسهل من خلق الذرة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.[1]

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ المتعالي بذاته عن الأنداد والأشباه العظيم الّذي يستحقر كلّ شيء دونه والمراد من العلوّ علوّ القدر وهو منزّه عن التحيّز وكذا المراد من عظمته هي المهابة والكبرياء لا بحسب الحجم والمقدار. واعلم أنّ الّذين يفسّرون الآية بتأويلهم الفاسد على أنّ هذه الآية وأمثالها مجرّد التمثيل ولا كرسيّ في الحقيقة. وإنّما خاطب الخلق في تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم كما جعل الكعبة بيتاً له يطوف الناس به كما يطوفون بيوت ملوكهم وكذلك ما ذكر في محاسبة العباد يوم القيامة من حضور الملائكة والنبيّين والشهداء ووضع الميزان. وأمثال هذه الآيات أوّلوها وقالوا: المراد من هذه الألفاظ بيان العظمة ولا صورة لها فهذا القول غلط فاسد بل تكذيب للكتاب والسنّة ولا يجوز إبطال الصورة والأعيان مطلقاً مثل الجنّة والنار والعرش والكرسيّ والشمس والقمر وكذلك من الحور والقصور والأنهار والأشجار والثمار ولا يؤوّل شيء منها على مجرّد المعنى بل لا بدّ للمسلم أن يثبت ويعلم لها صوراً ومعان وحقائق ومن سلك غيره سلك مسلك النار، وأوّل باب التأويل في مثل هذه الأمور فتح باب الإلحاد نسأل الله أن يجيرنا من مضلّات الفتن.

والأكثرون على أنّ آية الكرسيّ إلى قوله: ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهذه الآية الكريمة منطوية على مهمّات المسائل المتعلّقة بالذات العليّة والصفات الجليّة

١ـ سورة يس: ٨٢.

فإنّها ناطقة بأنّه موجود متفرّد بالإلهيّة متّصف بالحياة واجب الوجود لذاته موجود لغيره لما أنّ «القيّوم» هو القائم بذاته كما ذكرنا منزّه عن التحيّز والحلول مبرّأ من التغيّر والفتور، لا مناسبة بينه وبين الأشباح ولا يعتريه ما يعتري النفوس والأرواح، مالك الملك ومبدع الأصول والفروع، ذو البطش الشديد، العالم بجميع الأشياء، لا يشغله شأن عن شأن، لا يشقّ عليه شاقّ، متعال عمّا تناله الأوهام، عظيم لا يحاط ولذلك قال ﷺ: **«إنّ أعظم آية في القرآن آية الكرسيّ»**[١] وكذلك لعظم مقتضاها في الأوصاف.

واشتملت آية الكرسيّ على ما لم تشتمل عليه آية في أسماء الله والإشاره إليه وذلك لأنّها مشتملة على سبعة عشر موضعاً فيها اسم الله ظاهراً ومضمراً وهي: الله، هو الحيّ القيّوم وضمير لا تأخذه وله وعنده، وبإذنه، ويعلم، وعلمه، وشاء، وكرسيّه، ويؤوده، وضمير «حفظ» المستتر الّذي هو فاعل المصدر، وهو العليّ العظيم. ويكفي في استحقاق هذه السيادة أنّ فيها «الحيّ القيّوم» وهو الاسم الأعظم كما ورد عن النبيّ ﷺ عند تذاكر الصحابة عن أفضل ما في القرآن فقال لهم أمير المؤمنين ـ وكان حاضرا ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيّد البشر آدم وسيّد العرب محمّد ﷺ ولا فخر وسيّد الفرس سلمان وسيّد الحبشة بلال وسيّد الجبال الطور وسيّد الشجر السدر وسيّد الشهور الأشهر الحرم وسيّد الأيّام يوم الجمعة وسيّد الكلام القرآن وسيّد القرآن البقرة وسيّد البقرة آية الكرسيّ»**.[٢]

وعن أمير المؤمنين قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما قرئت هذه الآية في دار إلّا اهتجرتها الشياطين ثلاثين يوما ولا يدخلها ساحر ولا ساحرة أربعين ليلة يا عليّ**

١ـ انظر: الخصال للصدوق، ص ٥٢٤. ومعاني الأخبار، ص ٣٣٣.

٢ـ الكشاف، ج ١، شرح ص ٣٨٦. ومجمع البيان، ج ٢، ص ١٥٧.

علّمها ولدك وأهلك وجيرانك فما نزلت آية أعظم منها».(١) وعنه عليه السلام قال: «سمعت نبيّكم على أعواد المنبر وهو يقول: من قرأ آية الكرسيّ في دبر كلّ صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنّة إلّا الموت ولا يواظب عليها إلّا صدّيق أو عابد ومن قرأها وهو أخذ في مضجعه أمنه على نفسه وجاره وجار جاره والأبيات حوله».(٢)

وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «من قرأ آية الكرسيّ صرف عنه ألف مكروه من مكاره الدنيا وألف مكروه من مكاره الآخرة أيسر مكروه الدنيا الفقر وأيسر مكروه الآخرة عذاب القبر».(٣) قال عليه السلام: «لكلّ شيء ذروة وذروة القرآن آية الكرسيّ».(٤)

عن محمّد بن ابيّ بن كعب عن أبيه أنّ أباه أخبره أنّه كان له جرن(٥) فيه خضر فكان يتعاهده فوجده ينقص فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابّة تشبه الغلام المحتلم قال: فسلّم فرددت عليها السّلام وقلت: من أنت جنّ أم إنس؟ قالت جنّ، قلت: ناوليني يدك فناولتني يدها فإذا يد كلب فقلت: هكذا خلقة الجنّ؟ قالت: لقد علمت ما فيهم أشدّ منّي، قلت: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: بلغني أنّك رجل تحبّ الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك فقال لها أبيّ:فما الّذي يجيرنا منكم؟ قالت: آية الكرسيّ من قالها حين يصبح أجير منّا حتّى يمسي ومن قالها حين يمسي أجير منّا حتّى يصبح، فلمّا أصبح أتى النبيّ صلى الله عليه وآله فأخبره فقال صلى الله عليه وآله: «صدق الخبيث».(٦)

وحكي أنّ رجلا أتى شجرة فسمع فيها حركة فكلّم فلم يجب فقرأ آية

١ـ تخريج الاحاديث والاثار، ج ١، ص ١٦٠. وتفسيرأبي السعود، ج ١، ص ٢٤٩.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ١٩٦. ومجمع البيان، ج ٢، ص ١٥٧.

٣ـ الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ١٥٩. ووسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٨٩.

٤ـ تفسيرالعياشي، ج ١، ص ١٣٦. ووسائل الشيعة، ج ٨، ص ٢٨٨.

٥ـ بالضم حجر منقور للماء وغيره.

٦ـ كنزالعمال، ج٢، ص ٣٠٣. وتفسير ابن كثير، ج ١، ص ٣١٢.

الكرسيّ فنزل إليه شيطان فقال: إنّ لنا مريضاً فبم نداويه: قال: بالّذي أنزلتني به من الشجرة. وخرج زيد بن ثابت إلى بستان له فسمع فيه جلبة فقال: ما هذا؟ قال: رجل من الجانّ أصابتنا السنة فأردنا أن نصيب من ثماركم أفتطيبونها؟ قال: نعم، فقال له زيد بن ثابت: ألا تخبرني ما الّذي يعيذنا منكم؟ قال: آية الكرسيّ. وبالجملة فقد جرّب المجرّبون أنّ لها تأثيراً عظيماً في طرد الشيطان وعن المصروع وعن مطيعي الشياطين مثل أهل الشهوات والطرب وأهل الظلم إذا قرئت عليهم بصدق، كما (في آكام المرجان في أحكام الجانّ).

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ قيل: نزلت في رجل من الأنصار كان له غلام أسود يقال له «صبيح» وكان يكرهه على الإسلام. وقيل: نزلت في رجل يدعى أبا الحصين وكان له ابنان فتنصّرا وذهبا إلى الشام فأخبر أبو الحصين رسول الله فنزلت الآية وكان هذا قبل أن يؤمر النبيّ ﷺ بقتال أهل الكتاب. قال ابن عبّاس وابن زيد: إنّها منسوخة بآية السيف. وقيل: نزلت في امرأة كانت مقلّة فيرضع أولاد اليهود ولمّا أجليت بنو النضير إذا فيهم أناس من الأنصار فقالوا: يا رسول الله أبناؤنا وإخواننا فنزلت الآية فقال ﷺ: «خيّروا أصحابكم فإن خيّروكم فهم منكم وإن اختاروهم فأجلوهم».(١)

المعنى: قيل: إنّ حكم الآية في أهل الكتاب خاصّة الّذين يؤخذ منهم الجزية.

وقيل: في جميع الكفّار ثمّ نسخ كما تقدّم ذكره أي: لا إجبار في الدين بعد أن تبيّن ووضحت الحجّة لأنّ من حقّ العاقل أن لا يحتاج إلى الإلزام إلى

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٦٢.

أمر ينفعه بل يختار الدين الحقّ بعد وضوحه.

فقد ﴿تَبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ﴾ وهو لفظ جامع لكلّ خير والمراد من الرشد الإيمان الموصل إلى السعادة ﴿مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أي: الكفر والجهل المؤدّي إلى الهلاك الأبديّ وزوال الجهل بالعلم وزوال الغيّ بالرشد.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ و«الطاغوت» كلّ ما عبد من دون الله بما هو مذموم في نفسه ومتمرّد كالإنس والجنّ والشياطين ﴿وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بالتوحيد وتصديق الرسل لأنّ الإيمان بالله إذا كان حقيقة يستلزم الإيمان بشرائعه المعلومة، وتقديم ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله لتقديم التخلية على التحلية ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ وبالغ في التمسّك بالحلقة الوكيدة و﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ تأنيث «الأوثق» مثل «فضلى» تأنيث «الأفضل».

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ وليس لهذه العروة المحكمة والتمسّك بها انقطاع أبدا ولمّا كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وصفها الله﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ استعارة المحسوس للمعقول ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بالعقائد والأعمال.

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: محبّهم وناصرهم أو متولّي أمورهم ومراعي مصالحهم الباقية ـ مثل أن أظهر الجميل وستر القبيح ـ ديناً ودنيا، وأوّل نصرته تعالى ستره على عبده أن جعل مقابح بدنه الّتي مستورة في باطنه مغطّاة بجمال ظاهره فكم بين باطن العبد وظاهره من النظافة والقذارة فانظر ما الّذي أظهره وما الّذي ستره؟ الثاني: أن جعل مستقرّ خواطره المذمومة وإرادته القبيحة سرّ قلبه حتّى لا يطّلع أحد ولو انكشف للخلق ما يخطر بباله ممّا

ينطوي عليه ضميره من الغشّ والخيانة والخبث في النيّات لمقتوه بل قتلوه؛ فانظر كيف ستر عن غيره أسراره. والثالث: مغفرة ذنوبه الّتي كان يستحقّ الافتضاح بها ولعلّ أن يبدّل سيّئاته بالحسنات إذا مات على التوبة.

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الّتي هي من الكفر والمعاصي والشكوك ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الّذي يعمّ الإيمان ونور اليقين، وجمع الظلمات لأنّ فنون الضلالة متعدّدة والكفر ملل وإفراد النور لأنّ الإسلام دين واحد، ويسمّى الكفر ظلمة لالتباس طريقه ويسمّى الإسلام نوراً لوضوح طريقه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وثبتوا على كفرهم ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ أي: الشياطين وسائر المضلّين عن طريق الحقّ من قادة الشرّ والكهنة والأصنام فإذا كانت الأصنام فالمعنى لا يكون على الموالاة الحقيقيّة الّتي معناه المصادقة بل المعنى أنّ عبدتها يتوجّهون إليها وأنّها جمادات والولاية واقعة منهم بالنسبة إليها و«الطاغوت» تذكّر وتؤنّث وتوحّد وتجمّع.

﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ بالوساوس وغيرها بالإغواء والضلالة ﴿مِّنَ النُّورِ﴾ هو الإيمان الفطريّ الّذي جبلوا عليها ﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ من الكفر والانهماك في الشهوات وإسناد الإخراج إلى الطاغوت مجاز لكونها سبباً له. إشارة إلى الموصول وما يتبعه من القبائح والكفر ملازمون النار ماكثون فيها أبدا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

أي: هل انتهت رؤيتك إلى من هذا صفته؟ والبيان بهذا الترتيب ليدلّ على بعد وقوع مثله على التعجّب منه ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ وجادل وخاصم

إبراهيم ﴿فِي رَبِّهِ﴾ في معارضة الربوبيّة، والّذي حاجّ هو نمرود بن كنعان بن سام بن نوح وهو أوّل من وضع التاج على رأسه وتجبّر وادّعى الربوبيّة ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ أي: لأن آتاه الله الملك فهو مفعول لقوله:«حاجّ» ووضع المحاجّة موضع الشكر إذ كان من حقّه أن يشكر في مقابلة إيتاء الملك وقد عكس اللعين، أو المعنى أنّ إيتاء الملك حمله على ذلك وأورثه الكبر والبطر.

قال مجاهد: لم يملك الدنيا بأسرها إلّا أربعة: مسلمان وكافران فالمسلمان: سليمان وذو القرنين إسكندر والكافران: نمرود وبخت نصّر[1] وهو المسمّى بشدّاد بن عاد الّذي بنى إرم في بعض صحاري عدن وإنّما ملّكه الله امتحاناً له ولعباده.

﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ﴾ ظرف «لحاجّ» ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ روي أنّهعليه السلام لمّا كسر الأصنام سجنه ثمّ أخرجه ليحرقه فقال: من ربّك الّذي تدعونا إليه؟ قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾[2] أي: يخلق الحياة والممات في الأجساد، وجواب إبراهيم في غاية الصحّة لأنّه لا سبيل إلى معرفة الله إلّا بمعرفة صفاته وأفعاله الّتي لا يشاركه فيها أحد.

﴿قَالَ﴾ نمرود: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ روي: أنّه دعا برجلين قد حبسهما فقتل أحدهما وأطلق الآخر فقال: أحييت هذا وأمتّ هذا فجعل ترك القتل إحياء وكان هذا تلبيساً منه.

﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ جواب شرط مقدّر، تقديره: إذا ادّعيت الإحياء والإماتة وأتيت بمعارضة مموّهة ولم تعلم معنى الإحياء فالحجّة أنّ الله﴿يَأْتِي

١ـ الخصال، ص ٢٥٥. بحار الأنوار، ج ١٢، ص ٣٦.

٢ـ تفسير الثعالبي، ج ٢، ص ٢٣٩. وتفسير الجلالين، ص ٥٧.

بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ أي: إن كنت قادراً على مقدوراته إنّه تعالى يأتي بها من المشرق ﴿فَأْتِ﴾ أنت ﴿بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وإنّما عدل عن الحجّة الأوّليّة مع أنّ نمرود ما أتى بحجّة صحيحة لأنّ إبراهيم أراد أن يأتي بحجّة لا يتمكّن نمرود من التدليس فيها بشبهة وتكون أوضح فعدل من حجّته الأوّليّة إلى ما هي أوضح لأنّ الأنبياء بعثوا للإيضاح والبيان.

﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي: صار مبهوتاً ومتحيّراً مدهوشا، وفي الآية إشعار بأنّ المحاجّة في دين الحقّ بعد كونه معلوماً حقّا كفر ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الّذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب المخلّد بسبب إعراضهم عن الهداية ولم يقبلوها مع أنّ الأمر في غاية الوضوح فلا يهديهم طريق الجنّة في الآخرة بسبب كفرهم وجحودهم الحقّ في الدنيا.

وفي تفسير ابن عبّاس: أنّ نمرود لمّا عتا عتوّا كبيرا وألقى إبراهيم في النار سلّط الله عليه بعوضة فعضّت شفته فأهوى إليها بيده ليأخذها فطارت في منخره فذهب ليستخرجها فطارت في دماغه فعذّبه الله بها أربعين ليلة ثمّ أهلكه.[١]

وقيل: إنّ نمرود بعد هذه المحاجّة وإلقاء إبراهيم في النار سلّط الله على قومه البعوض فأكلت لحومهم وشربت دماءهم فلم يبق إلّا العظام، ونمرود كما هو ولم يصبه شيء ثمّ بعث الله بعوضة فدخلت في منخره فمكث أربعمائة سنة يضرب رأسه بالمطارق فعذّبه الله أربعمائة سنة كما ملك أربعمائة سنة وهو الّذي بنى صرحاً إلى السماء ببابل ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾[٢] وهو صاحب السهم الملطوخ.

١ـ مجمع البيان، ج ٢. ص ١٦٩، وبحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٨.

٢ـ سورة النحل: ٢٦.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

قوله: «أو» حرف عطف على الكلام الأوّل وهو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وتقديره: أرأيت الّذي حاجّ إبراهيم؟ أو هل رأيت ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ وحاصل المعنى: أنّك ما رأيت مثل الّذي مرّ على قرية وينبغي أن تتعجّب فتعجّب منه، والمارّ هو عزير بن شرخيا والقرية بيت المقدس على الأشهر، واشتقاقها من القرى وهو الجمع.

روي أنّ بني إسرائيل لمّا بالغوا في تعاطي الشرّ والفساد سلّط الله عليهم بخت نصّر البابليّ فسار إليهم في ستّمائة ألف راية حتّى وطئ الشام وخرب بيت المقدس وجعل بني إسرائيل أثلاثاً: ثلثاً منهم قتلهم وثلثاً منهم أقرّهم بالشام وثلثاً منهم سباهم وكانوا مائة ألف غلام يافع وغير يافع فقسّمهم بين الملوك الّذين كانوا معه فأصاب كلّ ملك منهم أربع غلمة وكان عزير من جملتهم، فلمّا نجّاه الله منهم بعد حين مرّ بحماره على بيت المقدس فرآه على أفظع مرأى وأوحش منظر وذلك قوله: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: خالية عن أهلها وساقطة على سقوفها، والعرش السقف وما يستظلّ به أي: على أبنيتها وحيطانها بأن سقطت العروش ثمّ الحيطان سقطت عليها، من

خوت المرأة إذا خلا جوفها عند الولادة.[1]

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: كيف يعمر الله هذه القرية بعد خرابها وكيف يحيي الله أهلها بعد ما ماتوا وأطلق لفظ القرية وأراد أهلها ولم يقل ذلك إنكاراً وارتياباً بل أحبّ أن يريه الله إحياءها مشاهدة ليحصل له العلم ضرورة كما حصل له العلم دلالة وسأل مقصودة بحسن الطلب كقول إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2] ولأنّ العلم الاستدلاليّ ربّما اعتورته الشبهة.

﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي: جعله ميّتا، روي: أنّه لمّا دخل القرية نزل تحت ظلّ شجرة وهو على حمار فربط حماره وطاف في القرية ولم يربها أحدا وقال ما قال، وكانت أشجارها قد أثمرت فتناول من فواكهها التين والعنب وشرب ونام فأماته الله في منامه وهو شابّ وكان معه من التين والعنب وعصير العنب شيء.

﴿ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ أي: أحياه ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتَ﴾ في التفسير أنّه سمع نداء من السماء «كم لبثت» يعني في منامك. وقيل: إنّ القائل ملك. وقيل: إنّ القائل نبيّ. وقيل: بعض المعمّرين من شاهده عند موته وإحيائه و«البعث» من بعثت الناقة إذا أقمتها من مكانها.

﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنّ الله أماته في أوّل النهار وأحياه بعد مائة سنة في آخر النهار فقال: يوما، ثمّ التفت فرأى بقيّة الشمس فقال: أو بعض يوم.

﴿قَالَ﴾ السائل: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ أي: مكثت في مكانك مائة عام ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يغيّره السنون والأعوام

١ـ تفسيرأبي السعود، ج ١، ص ٢٥٢.

٢ـ سورة البقرة: ٢٦٠.

وإنّما قال: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ على الواحد لأنه أراد به جنس الطعام والشراب أو أراد به الشراب لأنّه أراد أقرب المذكورين إليه وكان زاده عصيراً وتيناً وعنباً كما ذكرنا وهذه الثلاثة أسرع الأشياء تغيّراً وفساداً فوجد العصير حلوا والتين والعنب كما جنيتا لم يتغيّرا.[1]

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ كيف تبدّد عظامه وتفرّق أجزاؤه وتمزّقت لتبيّن لك طول لبثك وتطمئنّ نفسك وإنّما قال له ذلك ليستدلّ بذلك على طول مماته ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ فعلنا ذلك لتكون حجّة للناس في البعث.

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ ونرفعها ونحييها فنردّها إلى أماكنها من الجسد ونركب بعضها على بعض ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ ونسترها به كما يستر الجسد باللباس ووحّد «اللحم» وجمع «العظام» لأنّ العظام متعدّدة صورة واللحم متّحد مشاهدة. روي أنّه سمع صوتاً من السماء أيّتها العظام البالية المتفرّقة إنّ الله يأمرك أن ينظمّ بعضك إلى بعض كما كان وتكتسي لحماً وجلداً ثمّ نفخ فيه الروح فإذا هو قائم ينهق.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ إحياء الميّت عيانا ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يستعصي عليه أمر من الأمور.

روي أنّه ركب حماره وأتى محلّته وأنكره الناس وأنكر الناس وأنكر المنازل فانطلق على وهم منه حتّى أتى منزله فإذا هو بعجوزة عمياء مقعدة قد أدركت زمن عزير فقال لها عزير: يا هذه هذا منزل عزير؟ قالت نعم وأين ذكرى عزير؟ وقد فقدناه منذ كذا وكذا فبكت بكاء شديدا، قال: فإنّي عزير، قالت: سبحان الله أنّى يكون ذلك؟ قال: قد أماتني الله مائة عام ثمّ بعثني قالت: إنّ عزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة فادع الله أن يردّ بصري حتّى

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٧٣. أيضاً رواه المجلسي في البحار، ج ١٤، ص ٣٦١.

أراك فدعا ربّه ومسح بين عينيها فصحّتا فأخذ بيدها فقال: قومي بإذن الله فقامت صحيحة كأنّها نشطت من عقال فنظرت إليه فقالت: أشهد أنّك عزير فانطلقت إلى محلّة بني إسرائيل وهم في أنديتهم وكان في المجلس ابن لعزير قد بلغ مائة وثماني عشرة وبنو بنيه شيوخ فنادت هذا عزير قد جاءكم فكذّبوها فقالت: انظروا إليّ فإنّي بدعائه رجعت إلى هذه الحالة فنهض الناس وأقبلوا عليه فقال ابنه: كان لأبي شامة[1] سوداء بين كتفيه مثل الهلال فكشف فإذا هو كذلك.

وقد كان بخت نصّر خرب بيت المقدس وقتل من قرّاء بيت المقدس للتوراة أربعين ألف رجل ولم يكن يومئذ بينهم نسخة من التوراة ولا أحد يعرف التوراة فقرأها عليهم من ظهر قلبه من غير أن يخرم منها حرفا.

فقال رجل من أولاد المسبيّين ممّن ورد بيت المقدس بعد مهلك بخت نصّر: حدّثني أبي عن جدّي أنّه دفن التوراة يوم سبينا في حابة في كرم[2] فإن أريتموني كرم جدّي أخرجتها لكم فذهبوا إلى كرم جدّه ففتّشوه فوجدوها فعارضوها بما أملى عليهم عزير فما اختلفا في حرف واحد، فعند ذلك قالوا: عزير ابن الله، تعالى الله عن ذلك.[3]

وفي الآية ردّ على منكري حشر الأجساد فضلاً من أنّ العقل يحكم بحشرها وأقرّوا بحشر الأرواح وقالوا: الأرواح كان تعلّقها بالأجساد لاستكمالها في عالم المحسوس كالصبيّ يبعث إلى المكتب ليتعلّم الأدب فلمّا حصل مقصوده من التعلّم بقدر استعداده ودخل محفل أهل الفضل

١ـ الشامة: الخال

٢ـ أي: في حوض في بستان عنب.

٣ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٧٤. ورواه المجلسي في البحار، ج ١٤، ص ٣٦٢.

وصاحبهم سنين كثيرة واستفاد منهم أنواع العلوم الّتي لم توجد في المكتب وصار فاضلاً في العلوم فما حاجته بعد أن كبر شأنه إلى أن يرجع في المكتب وحالة صباه؟

قالوا: وكذا الأرواح لمّا خرجت من سجن الأجساد والأشباح واتّصلت المقدّسة واستفادت من الأرواح العلويّة علم الكليّات الّتي لم توجد في عالم الحسّ فما حاجتها إلى أن ترجع إلى سجن الأجساد فكانت بنو إسرائيل تسوّل نفوسهم لهم هذه التسويلات وشياطين الجنّ والإنس يوسوسون لهم بمثل هذه الشبهات.

وهذه قياسات باطلة لأنّ بين المقيس والمقيس عليه فرق وبون بعيد، فالله سبحانه من فضله أمات عزيراً وحماره معه ثمّ أحياهم معاً ليستدلّ به العقلاء على أنّ الله مهما أحيا عزير الروح يحيي ويبعث جسده أيضاً بل جسد حماره.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: **«أنّ عزيراً خرج من أهله وامرأته حامل وله خمسون سنة فأماته الله مائة سنة ثمّ بعثه ورجع إلى أهله وهو ابن خمسين سنة وله ابن وله مائة سنة وكان ذلك من آيات الله».**(١)

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

أي: اذكر وقت قول إبراهيم، واستعلم بإخبارنا إيّاك هذه القصّة، وذكر الوقت يوجب ذكر ما وقع في ذلك الوقت من الحوادث الواقعة وقوله «ربّ»

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٣٢٤. ومجمع البيان، ج ٢، ص ١٧٤.

كلمة استعطاف قدّمت بين الدعاء مبالغة في استدعاء الإجابة عياناً وشرّفه الله بعين اليقين وحقّ اليقين ﴿قَالَ﴾ ربّه: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ والسبب في سؤال إبراهيم هذا الأمر أنّ إبراهيم رأى جيفة تمزّقتها السباع ويأكل منها سباع الطير فسأل الله إبراهيم وقال: **«يا ربّ قد علمت أنّك تجمعها من بطون السباع والطير فأرني كيف تحييها لأعاين ذلك»** وهو المرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام.(١)

وقيل وجه آخر في سبب السؤال: وهو ما روي عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير أنّ الملك بشّر إبراهيم بأنّ الله قد اتّخذه خليلا وأنّه يجيب دعوته ويحيي الموتى بدعائه فسأل ذلك ليطمئنّ قلبه بأنّه قد أجاب دعوته واتّخذه خليلا.

وقيل: إنّ سبب السؤال منازعة نمرود إيّاه في الإحياء إذ قال: «أَنَا أُحْيِي وأُمِيتُ» وأطلق محبوسا وقتل إنسانا فقال إبراهيم: ليس هذا بإحياء وقال: رَبِّ ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ ليعلم نمرود ذلك لأنّ نمرود يوعّده بالقتل إن لم يحي الله الميّت بحيث يشاهده فلذلك قال: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ عن توعّده إيّاي بالقتل بأن لا يقتلني جبّار، عن محمّد بن إسحاق بن يسار.

ورابع الأقوال أنّه عليه السلام: أحبّ أن يعلم ذلك علم عيان بعد أن كان عالماً بالاستدلال لتزول دسائس الشيطان.(٢)

﴿قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ أي: بلى أنا مؤمن ولكن سألت ذلك لأزداد يقينا على يقين ﴿قَالَ﴾ ربّه: إن أردت ذلك ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ طاوساً وديكاً وغراباً وحمامة وقيل: نسراً بدل الحمامة. وإنّما خصّ الطير لأنّه أقرب إلى الإنسان وأجمع لخواصّ الحيوان ﴿فَصُرْهُنَّ﴾ من صاره يصوره وبكسر الصاد من صاره يصيره والمعنى واحد أي: أجمعهنّ وضمّهنّ

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٧٧. وانظر: أسباب نزول الآيات، ص ٥٤.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٧٧.

﴿إِلَيْكَ﴾ لتتأمّلها وتعرف أشكالها مفصّلة حتّى تعلم بعد الإحياء أنّ جزءاً من أجزائها لم ينتقل من موضعه الأوّل أصلا.

روي أنّه امر بأن يذبحها وينتف ريشها ويفرّق أجزاءها ولحومها ويمسك رؤوسها ثمّ أمر بأن يجعل أجزاءها على الجبال وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ﴾ من الجبال الّتي بحضرتك وكانت سبعة أو أربعة فجزّأها أربعة أجزاء فقال تعالى: ضع على كلّ جبل ﴿مِنْهُنَّ﴾ أي: من كلّ الطيور ﴿جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ قل لهنّ: تعالين بإذن الله تعالى ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: ساعيات مسرعات طيرانا أو مشيا ففعل كما أمره فجعل كلّ جزء يطير إلى آخر حتّى صارت جثثاً فانضمّت كلّ جثّة إلى رأسها وعادت كلّ واحدة إلى ما كانت عليه من الهيئة وإبراهيم ينظر ويتعجّب ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ غالب على أمره ذو حكمة بالغة.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾

مثل نفقات الّذين ينفقون في سبيل الله وفي وجوه الخيرات، والمضاف وهو «نفقات» محذوف، لأنّ الّذين ينفقون لا يشبهون الحبّة ولا يشبّه الحيوان بالجماد بل نفقاتهم تشبه الحبّة ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ﴾ لزراع زرعها في أرض عامرة والحبّة واحدة الحبّ وهو ما يزرع للاقتيات وأكثر إطلاقه على البرّ ﴿أَنبَتَتْ﴾ أي: أخرجت. وإسناد الإنبات إلى الحبّة مجاز ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ أي: تتشعّب من الساقات النابتة من تلك الحبّة سبع شعب لكلّ واحدة منها سنبلة ﴿فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾ كما شوهد ذلك في الذرّة والدخن في الأراضي المغلّة بل أكثر من ذلك.

﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ﴾ ويزيد على ذلك ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ بحسب حال المنفق من

إخلاصه وتعبه ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لا يضيق عليه ما يتفضّل به، والآية عامّة في النفقة والإنفاق في جميع أنواع الخير وهو المرويّ عن الصادق عليه السلام[١]. وقيل: هي في الآية خاصّة بالإنفاق في الجهاد فأمّا غيره من الوجوه فإنّما بالواحد عشرة. و[هو] عليم بنيّة المنفق.

في الحديث: **«صدقة المؤمن تدفع عن صاحبها آفات الدنيا وفتنة القبر وعذاب يوم القيامة»**.

وفي الحديث: **«السخاوة شجرة أصلها في الجنة وأغصانها متدلّيات في دار الدنيا فمن تعلّق بغصن منها يسوقه إلى الجنة. والبخل شجرة أصلها في النار وأغصانها متدلّيات في دار الدنيا فمن تعلّق بغصن منها يسوقه إلى النار»**.[٢] وفي الحديث: **«الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»**.[٣]

وينبغي للمؤمن أن يزكّي عمله ونفسه ويخلص نيّته إذا أراد أن يفعل خيرا لأنّ نيّة المؤمن خير من عمله، وفسّر بعض معنى الحديث بأنّ مورده أنّ بعض الصحابة سمع رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه وعد بثواب عظيم على حفر بئر فنوى ذلك الصحابيّ بحفرها فسبق إليه كافر فحفرها قال صلى الله عليه وآله: **«نيّة المؤمن خير من عمله»** أي: من عمل الكافر. وقيل: معناه إنّ النيّة المجرّدة من المؤمن خير من عمله المجرّدة عن النيّة. وقيل: السبب في أنّ النيّة من المؤمن خير من عمله لأنّ النيّة في الغالب لا يشوبها رياء بخلاف العمل. وقيل: غير ذلك في معناه.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٣٣٢. والبرهان، ج ١، ٢٥٢.

٢ـ انظر: دلائل الامامة، ص ٧١. والاختصاص، ص ٢٥٢.

٣ـ كنزالعمّال، ج ٣، ص ١٦٨. وتفسيرالقرطبي، ج ٢، ص ١٥.

أي: الّذين يضعون أموالهم في مواضعها ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا﴾ العائد محذوف أي: ما أنفقوه ولا يمنّون عليهم بما تصدّقوا ﴿وَلَآ أَذًى﴾ وهو أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه مثل أن يقول له: إنّي أعطيتك فما شكرتني، أو يقول له: كم تسأل ألا تستحيي وتجيئني دائماً بالإبرام باعد الله بيني وبينك، وأمثال هذه الكلمات.

﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ثوابهم في الآخرة عند الله مذخور، وتخلية الخبر عن الفاء المفيدة للسببيّة لوضوح معنى السببيّة في سياق الآية ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من العذاب ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لفوت الأجر ونقصانه. وفي الآية دلالة على أنّه يصحّ الوعد بشرط لأنّه وعد بشرط عدم المنّ وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«المنّان بما يعطي لا يكلّمه الله ولا ينظر إليه ولا يزكّيه وله عذاب أليم».**[1]

﴿قَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتۡبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

أي: كلام حسن جميل يردّ به السائل وقيل: دعاء صالح، مثل أن يقول: أغناك الله عن المسألة وأوسع الله عليك الرزق ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾ أي: ستر لما وقع من السائل من الإلحاف في المسألة وصفح عنه. وقيل: معنى «و مغفرة» المراد عفو السائل عن الظلم الّذي ظلم المسؤول بأن سأل في غير وقته أو أساء الأدب في سؤاله ولجّ وألحف أو يدخل الدار بغير إذن المسؤول فالعفو عن ظلمه خير من أن يتصدّق عليه ويؤذيه بخشونة الكلام. قال النبي صلى الله عليه وآله: **«إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته حتّى يفرغ من كلامه ثمّ ردّوا عليه بوقار ولين إمّا ببذل يسير أو ردّ جميل فإنّه قد يأتيكم من ليس بإنس ولا جانّ ينظر كيف صنيعكم**

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٨٢.

فيما خولكم الله».[١]

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عمّا عندكم برزق الفقراء من جهة اخرى ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل أصحاب المنّ والأذى بالعقوبة.

قال الشعبيّ: من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته. وليتحرّز المنفق من الرياء فإنّه يذهب بثواب الإنفاق وقيل: إنّ الرياء في الصدقة يوجب أن ينقلب حيّة فإذا وضع في قبره يؤلم إيلام الحيّة كما أنّ البخل ينقلب بصورة العقرب ويؤذيه في القبر ولو أنّ الدنيا بأسرها لرجل واحد وأنفقها ساعة واحدة في سبيل الله لا يكون إنفاقه بالنسبة إلى ما يعوّض عنه إلّا أقلّ من ذرّة من تراب الأرض أو قطرة من بحار الدنيا.

حكي عن بعض الملوك أنّه حبست الريح في بطنه حتّى قرب إلى الهلاك فقال: كلّ من يزيل عنّي هذا البلاء أعطيته ملكي فسمعه شخص من أهل الله فجاء ومسح يده على بطنه فخرجت منه ريح منتنة وتعافى الملك من ساعته فقال: يا سيّدي اجلس على سرير الملك أنا عزلت نفسي وعليّ شرطي فقال الرجل: لا حاجة لي إلى متاع قيمته ضرطة منتنة ولكن أنت اتّعظ من هذا فالشيء الّذي اغتررت به قيمته هذا.

قال أمير المؤمنين سيّد الأولياء عليه السلام: **«ألا وإنّ دنياكم هذه عندي كعفطة عنز».**[٢]

وعن الحسن قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم على أصحابه فقال: **«هل منكم من يريد أن يذهب الله عنه العمى ويجعله بصيرا ألا إنّه من رغب في الدنيا وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك ومن زهد في الدنيا وقصّر أمله أعطاه الله**

١ـ المصدر السابق، ص ١٨٣.وتفسير الثعالبي، ج ٢، ص ٢٦١.

٢ـ انظر: علل الشرايع، ج ١، ص ١٥٣. وأيضاً معاني الأخبار، ص ٣٦٤.

علماً بغير تعلّم وهدى بغير هداية ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم الملك إلّا بالقتل والتجبّر ولا الغنى إلّا بالبخل ولا المحبّة إلّا باتّباع الهوى ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر للفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البغضاء وهو يقدر على المحبّة وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ لا يريد بذلك إلّا وجه الله أعطاه الله ثواب خمسين صدّيقا».[1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾

قد سبق معنى «المن» و«الأذى» والمراد أن لا تحبطوا أجر صدقاتكم بسبب المنّ والأذى ﴿كَٱلَّذِي﴾ المراد المنافق لأنّ الكافر غير مراء أي: كإبطال المنافق الّذي ينفق لأجل أمر من أمور الدنيا لا لأجل الدين مثل أن يقال: منفق أو يقال له: كريم ﴿وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ ولا يريد بإنفاقه رضى الله ولا ثواب الآخرة ورئاء من رأى نحو قاتل قتالاً. ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ أي: حالته العجيبة ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ حجر صاف أملس وهو واحد وجمع فمن جعله جمعاً فواحده صفوانة ومن جعله واحداً فجمعه صفيّ ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ﴾ أي: شيء يسير منه ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ مطر شديد الوقع كبير القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗا﴾ أملس ليس عليه تراب وغبار ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ كأنّه قيل: فماذا يكون حالهم حينئذ فقيل: ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ ولا ينتفعون بما فعلوا، أي: حال المرائي كحال هذه الزارع على الصفوان، لا يجد

١ـ كنز العمال، ج ٣، ص ٢٠٩.

له ثوابا قطعا، فإن قلت: كيف أتى بلفظ الجمع بعد قوله: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ﴾؟ فالمراد بقوله: «كالّذي» الجنس والفريق الّذي ينفق فالجمع باعتبار المعنى.

وروى ابن عبّاس عن النبي‏ﷺ: **«إذا كان يوم القيامة نادى مناد يسمع الجمع أين الّذين كانوا يعبدون الناس؟ قوموا خذوا أجوركم ممّن عملتم له فإنّي لا أقبل عملاً خالطه شيء من الدنيا وأهلها».**[1]

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إلى الخير والرشاد، وبالجملة تخليص العمل والصدقة عن الرياء أمر صعب جداً ولذا بالغ السلف في إخفاء صدقتهم عن أعين الناس حتّى كان يطلب بعضهم فقيراً أعمى لئلّا يعلم أحد من المتصدّق، وبعضهم كان في ثوب الفقير نائماً وبعضهم يلقي الصدقة في طريق الفقير ليأخذها كما أنّ الملامتيّه كانوا يظهرون أموراً غير مشروعة حتّى يتّهمون فيخلصون من الرياء في العبادة لكن طريق الملامتيّه غير حسن أيضاً والمؤمن ينبغي أن يجاهد في تخليص عمله من الرياء بطريق المشروع حتّى تكون مجاهدته في هذا الأمر سبباً لكثرة ثوابه.

قال النبي‏ﷺ: **«إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»** قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: **«الرياء، يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الّذين كنتم تراؤون لهم فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟»**[2] وفي الحديث: **«إذا كان يوم القيامة ويكون القضاء بينهم وكلّ امّة جاثية فأوّل من يدعى به رجل جمع القرآن ورجل قتل في سبيل الله ورجل كثير المال بذول. فيقول الله للقارئ: ألم اعلّمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا ربّ قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقرأ آناء الليل وأطراف النهار فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة: كذبت، فيقول**

١ـ كنز العمال، ج ٣، ص ٤٨٥. وأيضاً مجمع البيان، ج ٢، ص ١٨٥.

٢ـ منية المريد، ص ٣١٧. وبحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٢٦٦.

الله: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل. ويؤتى بالّذي قتل في سبيل الله فيقول له: في ما ذا قتلت؟ فيقول: يا ربّ أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتّى قتلت فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة: كذبته فيقول الله: أردت أن يقال: فلان جريء شجاع فقد قيل ذلك. ثمّ يؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم اوسّع عليك حتّى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا ربّ قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدّق فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة: كذبت فيقول الله: أردت أن يقال: فلان جواد وقد قيل ذلك». ثمّ قال النبي ﷺ: «أولئك الثلاثة أوّل خلق الله تسعّر بهم النار يوم القيامة».[1]

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

﴿وَمَثَلُ﴾ نفقات ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ﴾ لطلب رضاه ويصرفونها في أعمال البرّ ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وجعلوا أنفسهم ثابتاً على الإيمان والطاعة ليزول بهذا التثبيت عن النفس رذيلة البخل وحبّ المال والإمساك فإنّ النفس وإن كانت مجبولة على حبّ المال واستثقال الطاعات البدنيّة إلّا أنّها ما عوّدتها تتعوّد.

قال صاحب البردة:

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على ... حبّ الرضاع وإن تفطمه ينفطم[2]

فمتى أهملتها فقد تمرّنت واعتادت الكسل والبطالة وحيث كلّفتها وحملتها

١ـ بحار الانوار، ج ٦٩، ص ٣٠٥. وجامع احاديث الشيعة، ج ١، ص ٣٦٨.

٢ـ تفسيرالآلوسي، ج ١، ص ٢٨٤. واعيان الشيعة، ج ٩، ص ٣٠٤.

على مشاقّ العبادات البدنيّة والماليّة تنقاد لك وتتزكّى عن عاداتها الجبليّة.

وقيل: معنى ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يثبّتون أين يضعون صدقاتهم والتثبيت هنا هو التثبّت، لأنّهم إذا ثبتوا أنفسهم فقد تثبّتوا و«من» في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ تبعيضيّة كقولهم: حرك من نشاطه.

فإن قلت: كيف يكون المال بعضاً من النفس حتّى يكون الطاعة ببذله طاعة لبعض النفس وتثبيتاً لها على الثمرة الإيمانيّة؟ فالجواب: أنّ النفس لشدّة تعلّقها بالمال كأنّه بعض منها فالمال شقيق الروح فمن بذل ماله لوجه الله فقد ثبّت بعض نفسه ومن بذل ماله وروحه فقد ثبّتها كلّها ويجوز أن يكون التثبيت بمعناه أي: جعل الشيء محقّقا ثابتا فيكون «من» لابتداء الغاية كقوله: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[1].

﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بستان كائن ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ مكان مرتفع مأمون من فساد الهواء فإنّ أشجار الربى تكون أحسن منظرا وأزكى ثمرا وأمّا الأرض المنخفضة فقلّما تسلم ثمارها لكثافة هوائها بركود الريح.

وقيل: المراد من «الربوة» الأرض الليّنة الجيّدة بحيث إذا نزل المطر عليها ربت ونمت وانتفخت فإنّ الأرض إذا كانت بهذه الصفة يكثر ريعها وتكمل أشجارها، ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[2] والمراد من ربوة ما ذكر ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ ووصل إليها مطر كبير القطر شديد الوقع ﴿فَـَٔاتَتْ﴾ أي: أعطت صاحبها ﴿أُكُلَهَا﴾ غلّتها وثمرتها وهو بضمّتين الشيء المأكول ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ أي: مثلي ما كانت تثمر في سائر الأوقات وحملت في سنة ما يحمل غيرها في

١ـ سورة البقرة: ١٠٩.

٢ـ سورة الحج: ٥.

سنتين ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ أي: المطر الصغير القطر يكفيها لجودتها وكرم منبتها، والطلّ إذا دام عمل عمل الوابل. وجاز الابتداء بالنكرة لوقوعها في جواب الشرط وهو من جملة المسوّغات للابتداء بالنكرة مثل قولهم: إن ذهب العير فعير في الرباط.

وحاصل المعنى تشبيه نفقات المنفقين في سبيله بشروطها زاكية عند الله لا تضيع بحال والتشبيه من قبيل تشبيه المفرّق بأن يشبّه زلفاهم من الله بثمرة البستان وشبّه نفقتهم الكثيرة والقليلة بالقويّ من المطر والضعيف منه من حيث إنّ كلّ واحد منهما سبب للزيادة لأنّ النفقتين تزيدان حسن حالهم كما أنّ المطرين يزيدان ثمر البستان وتختلف الزيادة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من عمل الإخلاص وغيره من يزرع الثوم لم يحصده ريحانا.

وعن أمير المؤمنين عن النبيّ ﷺ: **«أنّ الصدقة إذا خرجت من يد صاحبها قبل أن يدخل في يد السائل تتكلّم بخمس كلمات أوّلها تقول: كنت قليلة فكثّرتني وكنت صغيرة فكبّرتني وكنت عدوّا فأحببتني وكنت فانيا فأبقيتني وكنت محروساً فالآن صرت حارسك».**

قال مكحول الشامي: إذا تصدّق المؤمن بصدقة رضي الله عنه فنادت جهنّم يا ربّ ائذن لي بالسجود شكراً لك قد أعتقت واحداً من امّة محمّد ﷺ من عذابي لأنّي أستحيي من محمّد ﷺ أن أعذّب من امّته أحداً ولا بدّ لي من طاعتك.

قيل: ولفظ الصدقة أربعة أحرف وكلّ منها إشارة إلى معنى أمّا الصاد فالصدّ أي: الصدقة تصدّ وتمنع عن صاحبها مكروه الدنيا والآخرة، وأمّا الدال فالدليل لأنّها تدلّ صاحبها إلى الجنّة، وأمّا القاف فقربة إلى الله، وأمّا الهاء فهداية الله فمن ساعده المال فلينفق في سبيل الله ولا يقطع رجاء أحد. وفي

الحديث: «من قطع رجاء من التجأ إليه قطع الله رجاءه».

حكي: أنّ بعض العلماء لمّا رأى هذا الحديث بكى بكاء شديداً وتحيّر في رعاية فحواه فقام وذهب إلى واحد من الصلحاء ليستفسر معنى الحديث ويدفع شبهته فلمّا دخل عليه رأى ذلك الرجل الصالح يأخذ بيده خبزاً ويؤكله الكلب من يده فسلّم عليه فردّ عليه السلام ولم يقم له كما كان يفعله قبل فلمّا أكل الكلب الخبز بالتمام قام له ولاطفه وقال معتذرا: اقبل العذر منّي حيث لم أقم امتثالاً لقول النبي ﷺ: «من قطع رجاء...» الحديث. وهذا الكلب رجا منّي أكل الخبز ولم أقم خشية أن أقطع رجاءه فلمّا سمع هذا الكلام إزداد تحيّراً ولم يستفسر وتعجّب من كرامته.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

الهمزة لإنكار الوقوع أي: ما كان ينبغي أن يودّ رجل منكم ﴿أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ كائنة ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ والمراد من الجنّة البستان والأرض المشتملة على الأشجار الملتفّة وتجري الأنهار من تحت الأشجار ﴿لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ الظرف الأوّل خبر والثاني حال والثالث صفة للمبتدأ قائمة مقامه أي: له رزق من كلّ الثمرات. ﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ والحال أنّه قد أصابه كبر السنّ الّذي هو مظنّة شدّة الحاجة إلى منافعها ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ أي: مع الكبر يكون له ذرّيّة صغار لا يقدرون على الكسب ﴿فَأَصَابَهَآ﴾ أي: تلك الجنّة ﴿إِعْصَارٌ﴾ أي: ريح عاصفة تستدير في الأرض ثمّ تنعكس منها ساطعة إلى السماء على هيئة العمود وهي تهبّ من الأرض نحو السماء مثل العمود ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ أي: يكون في ذلك الإعصار نار ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ تلك الجنّة فصارت نعمها إلى الذهاب وأصلها إلى الخراب فبقي الرجل متحيّراً لا قوّة له أن

يغرس مثلها ولا خير في ذريّته من الإعانة لكونهم ضعفاء عاجزين، وهذا تمثيل لحال من يفعل الأفعال الحسنة ويضمّ إليها ما يحبطها مثل الرياء ومن لم يكن له في الآخرة عمل صالح يوصله إلى الجنّة فحسرته مثل صاحب الجنّة المحترقة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك البيان الواضح الّذي بيّن فيما مرّ مثل قصّة عزير وإبراهيم والجهاد والإنفاق في سبيل الله﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ والدلالات تحقيق التوحيد والدين.

قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا ذر جدّد السفينة فإنّ البحر عميق، وأكثر الزاد فإنّ السفر بعيد وأقلّ من الحمولة فإنّ الطريق مخوف، وأخلص العمل فإنّ الناقد بصير»**.[1]

والمراد من تجديد السفينة تكرير التوحيد والمعرفة بالله ومن البحر هو جهنّم.

والحاصل من الآية التحرّز عن الرياء ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ كي تتفكّروا فيها وتعتبروا بها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟﴾ من جياد ما حصّلتم وكسبتم لقوله: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2] قال صاحب «الكشّاف»: إنّما فسّر الطيّب بالجيّد لأنه الحلال استفيد من الأمر فإنّ الإنفاق بالحرام لا يؤمر به ولأنّ قوله بعده: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ﴾ والخبيث هو الرديء المستخبث ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ومن طيّبات ما أخرجنا لكم من الحبوب والثمار والمعادن.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا۟﴾ أي: لا تقصدوا ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ الرديء نقيض الطيّب

١ـ انظر: الاختصاص، ص ٣٤١. وبحار الأنوار، ج ١٣، ص ٤٣٢.
٢ـ سورة آل عمران: ٩٢.

فالطيّب الحلال والخبيث الحرام والطيّب الطاهر والخبيث النجس والطيّب ما يستطيبه النفس والطبع والخبيث ما تستخبثه وتستكرهه ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ والضمير راجع إلى الخبيث والتقديم للتخصيص والجملة حال من فاعل «تيمّموا» قال ابن عبّاس: كانوا يتصدّقون بحشف التمر وشراره فنهوا عنه. ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ﴾ أي: والحال أنكم لا تأخذون الخبيث والرديء في معاملتكم بوجه من الوجوه ﴿إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ﴾ أي: إلّا وقت إغماضكم مثل أن كان لكم حقّ على رجل فجاء برديء ماله بدل حقّكم الطيّب وتقبلونه بحكم التساهل مخافة فوت حقّكم وحاصل المعنى: لا تتصدّقوا بما لا تأخذونه من غيركم لكم إلّا بالمساهلة والمسامحة. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ وهو تعالى مستغن عن صدقاتكم وإنّما يأمركم بالإنفاق لمنفعتكم، مستحقّ للحمد على نعمه العظام، ومعلوم أنّ المتصدّق كالزارع والزارع لا بدّ وأن يبالغ في جودة البذر لجودة الثمرة فكذلك المتصدّق وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] كما قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾[2] قال رسول الله ﷺ: **«إنّ أطيب ما أكله الرجل من كسبه وأطيب الصدقات ما كانت من عمل اليد بقنطار»**.

روي أنّ رسول الله حثّ أصحابه على الصدقة فجعل الناس يتصدّقون وكان أبو أمامة الباهليّ جالساً بين يدي رسول الله ﷺ وهو يحرّك شفتيه فقال النبي ﷺ: **«إنّك تحرّك شفتيك فماذا تقول؟»** قال: إنّي أرى الناس يتصدّقون وليس معي شيء أتصدّق به فأقول في نفسي: **«سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر»** فقال: **«هؤلاء الكلمات خير لك من مدّ ذهباً تصدّق به على**

١ـ سورة النساء: ٤٠.

٢ـ سورة الرحمن: ٤٠.

المساكين». وجلس الإسكندر يوماً مجلساً عاماً فلم يسأل فيه حاجة فقال: والله ما أعدّ هذا اليوم من ملكي قيل: ولم أيها الملك؟ قال: لأنّه لا يوجد لذّة الملك إلّا بإسعاف الراغبين وإغاثة الملهوفين ومكافأة المحسنين.

ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾

ثمّ حذّر سبحانه من الشيطان المانع من الصدقة، فقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ يخوّفكم بالفقر ويقول: أمسك مالك فإنّك إذا تصدّقت به افتقرت «و الوعد» هو الإخبار بما سيكون من جهة المخبر ويستعمل في الشرّ والخير قال الله: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾(١) ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ويغريكم على الخصلة السيّئة وعلى البخل ومنع الصدقات، والعرب تسمّي البخل فاحشا.

﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ في الإنفاق ﴿مَّغْفِرَةً﴾ كائنة لذنوبكم ﴿مِّنْهُ﴾ عزّ وجلّ ﴿وَفَضْلًا﴾ أي: خلفاً ممّا أنفقتم زائداً عليه في الدنيا وثواباً للعقبى ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ قدره وفضله ﴿عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم.

يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

أي: ﴿يُؤْتِى﴾ الله ﴿ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ قيل: المراد من «الحكمة» علم القرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه ومقدّمه ومؤخّره عن ابن عبّاس وابن مسعود. وقيل: المراد الإصابة في القول والفصل أي: العلم والعمل. وقيل: هو النبوة. وقيل:هو المعرفة بالله. وقيل: المراد خشية الله.

روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **«آتاني الله القرآن وآتاني من الحكمة مثل القرآن**

١ـ سورة الحج: ٧٢.

وما من بيت ليس فيه شيء من الحكمة إلّا كان خرابا ألا فتفقّهوا وتعلّموا فلا تموتوا جهّالا».[١] ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: العلم والعمل ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لأنّه خير له وجمع خير الدارين ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ ويتّعظ من الحكمة ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وأهل العقول الخالصة من شوائب النفس والهوى لأنّ من لا يغلب عقله على هواه لا ينتفع به فكأنّه لا عقل له ولذا قيل: إنّ من اعطي علم القرآن ينبغي أن لا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم لأنّ ما أعطيه خير كثير والدنيا متاع قليل قال النبيّ ﷺ: **«القرآن غني لا غنى بعده».**[٢] وسمّي العقل «لبّا» لأنّه أنفس ما في الإنسان كما أنّ لبّ الثمرة أنفس ما فيها.

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

أي: أيّ نفقة كانت في حقّ أو باطل في سرّ أو علانية قليلة أو كثيرة ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ أي: نذر كان في طاعة أو معصية «و النذر» عقد الضمير على شيء والتزامه وهو في الشرع التزام برّ وخير ولا يقع في أمر غير مشروع ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ والضمير راجع إلى «ما» فإنّ الله يجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ فهو ترغيب وترهيب ووعد وعيد ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ وأعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابه، وإيراد صيغة الجمع لمقابلة «الظالمين» أي: وما للظالم من الظالمين من نصير من الأنصار.

إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ١٩٤. وتفسيرالصافي، ج ١، ص ٢٩٩.

٢ـ انظر: كنز العمال، ج ١، ص ٥١٦. والدّر المنثور، ج ١، ص ٣٤٩.

أي: إن تظهروا الصدقات فنعم شيء إبداؤها بعد أن لم يكن رياء وسمعة، وهذا في الصدقات المفروضة وأمّا في الصدقات المتطوّعة فالإخفاء أفضل وهي الّتي أريد بقوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ أي: تعطوها خفية ﴿وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ﴾ ولعلّ التصريح بإيتائها الفقراء مع أنّه واجب في الإبداء أيضا لما أنّ الإخفاء مظنّة الالتباس والاشتباه فإنّ الغنيّ ربّما يدّعي الفقر في صدقة السرّ ويقدم على أخذه لكن لا يفعل ذلك عند الإبداء في الناس ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالإخفاء خير لكم من الإبداء، وكلّ متقبّل إذا صلحت النيّة وهذا في التطوّع وأمّا في الواجب فبالعكس ليقتد به بشرط أن لم يكن القصد رياء كالصلاة الواجبة في الجماعة أفضل والنافلة في البيت، ولنفي التهمة وسوء الظن حتّى إذا كان المزكّي ممّن لا يعرف باليسار كان إخفاؤه أفضل خوف الظلمة والطمعة. قال ابن عبّاس وجماعة: صدقة السرّ في التطوّع تفضل علانيتها سبعين ضعفا وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرّها بخمسة وعشرين ضعفا.(١) وقيل: الإخفاء في كلّ صدقة أفضل من إبدائها.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ ودخلت «من» للتبعيض، قيل: المراد الصغائر من الذنوب. وقال الأخفش: إنّ «من» زائدة في الآية وقد يقال: كل من طعامي وخذ من مالي ما شئت فيكون للتعميم. وقرئ بالنون في الآية «نكفّر عنكم من سيّئاتكم» «و نِعِمّا هِي» في الآية تقديره فنعم الشيء ونعم الأمر إبداء الصدقة و«ما» نكرة وكلمة «هي» يفسّر الفاعل المضمر في نعم و«الإبداء» هو المخصوص بالمدح فحذف المضاف الّذي هو الإبداء وأقيمت هي مقام المضافوحذف لدلالة قوله: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ على المحذوف ولدلالة الفعل المتقدّم وهو «تبدوا» على مصدره وهو الإبداء.

١ـ جامع البيان، ج ٣، ص ١٢٧. وأيضاً عوالي اللئالي، ج ٢، ص ٧١.

وبالجملة فعلى قول الأخفش معنى الآية: يكفّر عنكم جميع ذنوبكم، والقول الأوّل أقوى وأحكم. وبعضهم كانوا يبالغون في إخفاء الصدقة المندوبة جداً حتّى كان يشدّها في ثوب الفقير وهو نائم لقولهﷺ: **«أفضل الصدقة جهد المقلّ إلى فقير في سرّ».**[1] قالﷺ: **«إنّ العبد يعمل عملا في السرّ فيكتبه الله سرّا فإن أظهره نقل من السرّ وكتب في العلانية فإن تحدّث به نقل من السرّ والعلانية وكتب في الرياء».** وفي الحديث:**«صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ويدفع سبعين بابا من البلاء».**[2] وقالﷺ: **«سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: الإمام العدل والشابّ الّذي نشأ في العبادة ورجل قلبه متعلّق بالمسجد حتّى يعود إليه ورجلان تحابّا في الله واجتمعا عليه وتفرّقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إنّي أخاف الله، ورجل يصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لم يعلم يمينه ما ينفق شماله ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه».**[3]

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ عالم بأعمالكم في صدقاتكم وغيرها.

لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

قيل: كان المسلمون يمتنعون عن الصدقة على غير أهل دينهم فنزلت الآية، وقيل: نزلت في أسماء بنت أبي بكر كانت مع رسول اللهﷺ في عمرة القضاء فجاءتها امّها قتيلة وجدّتها تسألانها وهما مشركتان فقالت: لا أعطيكم شيئاً حتّى أستأمر رسول الله فإنّكما لستما على ديني فأنزل الله هذه الآية، عن الكلبيّ.

١ـ السنن الكبرى، ج ٤، ص ١٨٠.و أيضاً كنز العمّال، ج ٦، ص ٣٦٣.

٢ـ وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٣٩٨. ومجمع البيان، ج ٢، ص ١٩٨.

٣ـ المصدر السابق نفسه؛ وانظر: الخصال، ص ٣٤٣.

أي: لا يجب عليك يا محمّدﷺ أن تجعلهم مهديّين إلى الإتيان بما أمروا به من المحاسن والانتهاء عمّا نهوا عنه من القبائح وإنّما الواجب عليك الإرشاد. وقيل: إنّ معناه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ بمنع الصدقة عنهم لتحملهم به على الإيمان، وعلى هذا المعنى فصدقة التطوّع جائزة للكفّار. وقيل: معناه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ بالحمل على النفقة في وجوه البرّ وسبل الخير.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إنّما علّق الهداية بالمشيّة لمن كان المعلوم منه أنّه يصلح باللطف أي: بلطف الله بزيادة التوفيق بحسن اختياره وطلبه، وقبل الطاعة فشاء هدايته عن الزجّاج والبلخيّ وأكثر أهل العلم. وقيل: معناه إلى طريق الجنّة.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ خيره وثوابه والغرض الترغيب في الإنفاق والمنفعة في الإنفاق ترجع إلى العبد المنفق ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ «ما» نافية وهذا إخبار من الله عن صفة إنفاق المخلصين لله بأنّهم لا ينفقون ما ينفقون إلّا لمرضاة الله. وقيل: معنى الآية النّهي وإن كان ظاهره الخبر أي: لا تنفقوا إلّا ليرضى الله. وذكر لفظ «الوجه» لإزالة الشركة.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يوفّر عليكم جزاؤه والتوفية إكمال الشيء، وتضمّنت معنى التأدية أي: تعطون جزاءه وافرا وافيا ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ بثوابه بنقص أو منع.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

العامل في الظرف محذوف أي: الإنفاق للفقراء. قال أبو جعفرعليه السلام:

نزلت الآية في أصحاب الصفّة[1] وهم نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة يأوون إليها يجعلون أنفسهم في المسجد قالوا: نخرج في كلّ سريّة بعثها رسول الله فحثّ الناس لهم بالصدقة فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وحبسوا أنفسهم لطاعة الله ومنعوا أنفسهم للمعاش والكسب للإقبال على العبادة أو للفقر أو لإلزام أنفسهم الجهاد في سبيل الله فلا يقع منهم التصرّف لغيره ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ذهباً فيها وسيراً في البلاد ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بشأنهم ويظنّ أنهم ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ من أجل عفّتهم عن السؤال ﴿تَعْرِفُهُم﴾ أي: تعرف اضطرارهم وفقرهم ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بما تعاين منهم من الضعف ورثاثة الحال والسيما، والسيماء العلامة الّتي تعرف بها الشيء.

﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ مفعول له ففيه نفي السؤال والإلحاف جميعاً لا أنّهم يسألون ولكن من غير إلحاف بل لا يسألون الناس أصلاً فيكون إلحافا، والإلحاف الإلزام والإلحاح وهو أن يلازم السائل المسؤول حتّى يعطيه.

قال رسول الله ﷺ: **«لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيكفّ بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أشياءهم أعطوه أو منعوه»**.[2]

قال النبي ﷺ: **«إنّ الله يحبّ الحييّ الحليم المتعفّف ويبغض البذيء السائل الملحف»**.[3]

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم بذلك أحسن جزاء.

ثمّ زاد سبحانه في التحريض على الإنفاق بقوله:

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٠٢. والتبيان، ج ٢، ٣٥٥.

٢ـ كنزالعمال، ج ٦، ص ٤٩٧. وانظر: وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٤٤٣.

٣ـ وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ٣٣. وبحار الأنوار، ج ٧٦، ص ١١٢.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

النزول: قال ابن عبّاس: نزلت الآية في عليّ كانت معه أربعة دراهم فتصدّق بواحد نهارا وبواحد ليلا وبواحد سرّا وبواحد علانية وهو المرويّ عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام وقيل: هي عامّة في كلّ من أنفق ماله في طاعة الله على هذه الصفة ولا ينافي أن تكون الآية نازلة في عليّ وحكمها سائر في كلّ من فعل مثل فعله وله فضل السبق. بيّن سبحانه كيفيّة الإنفاق وثوابه فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم﴾ في هذه الحالات أي: على الدوام ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أتى بالفاء ليدلّ على أنّ الجزاء إنّما هو من أجل الإنفاق في طاعة الله ولا يجوز «زيد فله درهم» لأنه ليس فيه معنى الجزاء ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من أهوال القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فيها وقيل: المعنى: لا خوف عليهم من فوت الأجر ونقصانه ولا هم يحزنون على ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

أصل «الربا» الزيادة ربا الشيء إذا زاد والربا هو الزيادة على رأس المال. لمّا حثّ الله على الإنفاق عقّبه بذكر الربا الّذي ظنّه الجاهل زيادة في المال وهو يمحق المال ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ أي: يأخذونه وعبّر عنه بالأكل لأنّه معظم المقصود من المال، والربا فضل في الكيل والوزن خال عن العوض وكتب بالواو تنبيهاً على أصله لأنّه من ربا يربو، زيدت الألف تشبيهاً

بواو الجمع ﴿لَا يَقُومُونَ﴾ من قبورهم إذا بعثوا ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ﴾ أي: إلّا قياما مثل قيام الّذي ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ أي: يصرعه ويكون قيامهم مثل المصروع المختلّ فيكون ذلك إمارة لأهل الموقف على أنّهم آكلة الربا عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير وجماعة.

وقيل: إنّ هذا على وجه التشبيه لأنّ الشيطان لا يصرع الإنسان على الحقيقة ولكن من غلب عليه المرّة السوداء وضعف عقله ربّما يخيّل الشيطان إليه أموراً هائلة ويوسوس إليه فيقع الصرع عند ذلك من فعل الله ونسب ذلك إلى الشيطان مجازاً لما كان ذلك عند وسوسته.

وقيل: يجوز أن يكون الصرع من فعل الشيطان في بعض الناس دون بعض عن أبي الهذيل وابن الاخشيد قالا: لأنّ الظاهر من القرآن يشهد به وليس في العقل ما يمنع منه ولا يمنع الله الشيطان عنه امتحاناً لبعض الناس وعقوبة لبعضهم على ذنب ألمّ به ولم يتب منه كما يتسلّط بعض الناس على بعض فيظلمه ويأخذ ماله ولا يمنعه الله منه ولأن يكون هذا علامة لآكلي الربا يعرفون بها يوم القيامة كما أنّ على كلّ عاص من معصيته علامة يليق به فيعرف بها صاحبها وعلى كلّ مطيع من طاعته إمارة يليق به يعرف بها صاحبها وذلك معنى قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾.[1] وقال النبيّ ﷺ في شهداء أحد **«زمّلوهم بثيابهم ودمائهم»**.[2] وقال ﷺ: **«يبعث امّتي يوم القيامة عن قبورهم غرّاً محجّلين من آثار الوضوء»**.[3]

وقد قيل: الّذين يخرجون من الأجداث يوفضون إلّا آكلة الربا فإنّهم

١ـ سورة الرحمن: ٣٩.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٠٦. ووسائل الشيعة، ج ٢، ص ٧٠١.

٣ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٠٦. ومستدرک الوسائل، ج ١، ص ٣٥٧.

ينهضون ويسقطون كالمصر وعين لأنّهم أكلوا الربا فأرباه الله في بطونهم حتّى أثقلهم فلا يقدرون على الإيقاض.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا﴾ أي: ذلك العذاب بسبب قولهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا﴾ قال ابن عبّاس: كان الرجل منهم إذا حلّ دينه على غريمه فطالبه به قال المطلوب له: زدني في الأجل وأزيدك في المال فيتراضيان عليه ويعملان به فإذا قيل: لهم هذا ربا قالوا: هما سواء يعنون بذلك أنّ الزيادة في الثمن حال البيع والزيادة فيه بسبب الأجل عند حلول الأجل سواء.

فذمّهم الله وألحق الوعيد بهم وخطّأهم في ذلك بقوله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا﴾ أي: أحلّ الله البيع الّذي حقيقة هو البيع وحرّم النوع الّذي فيه الربا وألحقتموه أنتم بالبيع.

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ وانتهى بالوعظ عمّا نهاه الله﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ ومضى من ذنبه فلا يؤاخذ به لأنّه أخذ قبل نزول التحريم وله ما أخذ وأكل من الربا ولا يلزمه ردّه قال الباقر عليه السلام: **«من أدرك الإسلام وتاب ممّا كان عمله في الجاهليّة وضع الله له ما سلف».**[1] وهذا فيما قبض وأخذ وأمّا ما لم يقبض فلا يجوز له أخذه وله رأس المال وهذا الحكم كان لأهل الجاهليّة ولكنّ المسلم إذا أخذ ربا ثمّ تنبّه فيجب عليه ردّ ما أخذه بعنوان الربا من دون كلام ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يجازيه على انتهائه إن قبل الوعظ. وقيل: المراد يحكم في شأنه يوم القيامة وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبونه به.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى الربا مستحلًا بعد النهي كما استحلّ قبله من أنّ البيع مثل الربا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنّ ذلك القول لا يصدر إلّا من كافر مستحلّ للربا فلهذا يعذّب بعذاب الأبد. وممّا جاء في

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٣٦٠. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢٠٧.

الحديث في الربا عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: **«لعن رسول الله صلى الله عليه وآله خمسة: آكله ومؤكّله وشاهديه وكاتبه والمحلّل له».**[١] وعنه عليه السلام **«إذا أراد الله بقرية هلاكاً ظهر فيهم الرباء».**[٢] وعنه عليه السلام قال: **«الرباء سبعون باباً أهونها عند الله كالّذي ينكح أمّه».**[٣] وروى جميل بن درّاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«درهم رباء أعظم عند الله من سبعين زنية كلّها بذات محرم في بيت الله».**[٤]

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾

أي: ينقص الله الربا و«المحق» نقصان الشيء حالاً بعد حال حتّى يذهب كلّه كما في محاق الشهر وهو حال آخذ الربا فإنّ الله يذهب بركته ويهلك المال الّذي يدخل فيه ولا ينتفع به ولده بعده ﴿وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ﴾ يضاعف ثوابها ويزيد المال الّذي أخرجت منه الصدقة. وعن النبي صلى الله عليه وآله: **«ما نقصت زكاة من مال قطّ».**[٥]

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ منهمك في ارتكاب المعاصي. والكفّار هو المقيم على الكفر المعتاد له باستحلال الربا وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«سيأتي زمان على الناس لا يبقى أحد إلّا أكل الربا فمن لم يأكله أصابه من غباره».**[٦]

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

١ـ وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٤٣٠. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢٠٨.

٢ـ مجمع البيان، ج٢، ص٢٠٨ ؛ وجامع احاديث الشيعة، ج ١٨، ص ١٢٩.

٣ـ من لايحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٦٧. ووسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٢١.

٤ـ انظر:الكافي، ج ٥، ص ١٤٤. وموسوعة احاديث أهل البيت، ج ٤، ص ١٠٥.

٥ـ بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٣. ومستدرک الوسائل، ج ٧، ص ٢٣.

٦ـ مستدرک الوسائل، ج ١٣، ص ٣٣٣. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢٠٩.

المعنى ظاهر. وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر مع اندراجهما في الصالحات لإنافتهما على سائر الطاعات ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ الموعود لهم حال كونه ﴿عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من مكروهات ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ من محبوب فات.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾

عن أبي جعفرعليه السلام في النزول قال: إنّ الوليد بن مغيرة كان يربي في الجاهليّة وقد بقي له بقايا على ثقيف فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها بعد أن أسلم فنزلت الآية وقيل: نزلت في بقيّة من الربا كانت للعبّاس وخالد بن وليد وكانا شريكين في الجاهليّة يسلفان في الربا ولهما أموال عظيمة على ثقيف فنزلت الآية[١] فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«ألا إنّ كلّ ربًى من رباء الجاهليّة موضوع وأوّل ربًى أضعه ربي العبّاس بن عبد المطّلب وكلّ دم من دم الجاهليّة موضوع وأوّل دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطّلب كان مرضعا في بني ليث فقتله هذيل».**[٢] وقال مقاتل: نزلت في أربعة إخوة من بني ثقيف عبد ياليل ومسعود وحبيب وربيعة وكانوا يداينون بني المغيرة وكانوا يربون فلمّا ظهر النبيّ صلى الله عليه وآله على الطائف وصالح ثقيفاً أسلم هؤلاء الإخوة الأربعة فطلبوا رباهم من بني المغيرة واختصموا إلى عتاب بن أسيد عامل رسول الله على مكّة فكتب عتاب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله بالقصّة فأنزل الله الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في أمر الربا وفي جميع ما نهاكم عنه ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ واتركوا ما بقي لكم

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٣٦٥. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢١٠ ووسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٣١.
٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢١١. وتفسيرالثعالبي، ج ٢، ص ٢٨٤.

غير مقبوض من مال الربا على من عاملتموه به ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حقيقة فإنّ ذلك مستلزم للامتثال ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمرتم به من ترك البقايا ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: فأيقنوا واعلموا من أذن بالأمر أو أعلم به أنّكم تستحقّون القتل في الدنيا والنار في الآخرة أي: اعلموا أنّ في امتناعكم من وضع البقيّة في الربا حرب وعداوة من الله وقرئ «فآذنوا» بالمدّ وكسر الذال فالمعنى: اعلموا من لم ينته عن ذلك بحرب من الله والمراد إعلام الممتنعين عن قبول الترك فإذا أمروا بإعلام غيرهم فهم علموا أيضاً لا محالة وحرب الله حرب ناره أي: بعذاب عظيم من عنده وتنكير الحرب للإشعار بعظمة العذاب.

﴿وَإِن تُبْتُمْ﴾ من الارتباء ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ تأخذونها ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان من رأس المال.

وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠)

أي: إن وقع غريم من غرمائكم ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ من الإعدام أو كساد المتاع فالحكم [نظرة] والنظرة التأخير وهو اسم قام مقام الإنظار ﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي: إلى اليسار والسعة وقرئ إلى «ميسره» بإرجاع الضمير إلى المعسر واختلف في حدّ الإعسار فروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «**هو إذا لم يقدر على ما يفضل من قوته وقوت عياله على الاقتصاد**».[1]

وأيضا اختلف في وجوب إنظار المعسر على ثلاثة أقوال: **أحدها:** أنّه واجب في كلّ دين عن ابن عبّاس والضحّاك والحسن وهو المرويّ عن أبي جعفر[2] عليه السلام. **وثانيها:** أنّه واجب في دين الربا خاصّة عن شريح وإبراهيم

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٣٦٩. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢١٣.

٢ـ التبيان، ج ٢، ص ٣٦٨. ومجمع البيان، ج٢، ص٢١٣.

النخعيّ. وثالثها: أنّه واجب في دين الربا بالآية وفي كلّ دين بالقياس عليه.

وقال الباقر عليه السلام: «﴿إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ **معناه إلى أن يبلغ خبره الإمام فيقضي عنه من سهم الغارمين إذا كانت النفقة في المعروف**».[1]

﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: وأن تتصدّقوا على المعسر بما عليه من الدين خير لكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير من الشر قال صلى الله عليه وآله: «**من اذان ديناً وهو ينوي قضاءه وكّل به ملائكة يحفظونه ويدعون له حتّى يقضيه**».

وفي تفسير «روح البيان» عن النبيّ صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عليه السلام: «**الشهادة تكفّر كلّ شيء إلّا الدين يا محمّد - ثلاثا - فعلى العاقل أن يقضي ما عليه من الديون ومن أدّى القرض فإنّه يهوّن عليه أن يؤدّي القرض**».

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٢٨١)

أي: ﴿وَاتَّقُوا﴾ عذاب الله واحذروا ﴿يَوْمًا﴾ تردّون جميعاً إلى جزاء الله وتصيرون فيه ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لمحاسبة أعمالكم ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ وتعطى جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ وعملت من خير وشرّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا ينقصون من ثوابهم ولا يزدادون على عقابهم وعن ابن عبّاس هذه آخر آية نزلت ولقى رسول الله صلى الله عليه وآله ربّه بعدها بسبعة أو تسعة أيّام أو أحد وعشرين أو أحد وثمانين يوماً أو ثلاث ساعات وقال له جبرئيل: ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة فجعلت بعد آية ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ وآية الربا تأكيداً للزجر عن الربا.

روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ولد يوم الاثنين وبعث يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين وقبض يوم الاثنين.[2] وكان مريضاً ثمانية عشر يوماً يعوده

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٣٦٩. ومجمع البيان، ج٢، ص٢١٣.

٢ـ بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٥٣٤.

الناس وكان آخر ما يقول: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم الصلاة فإنّا لله وإنّا إليه راجعون**». ورثاه بعض الأنصار فقال:

الصبر يحمد في المواطن كلّها ... إلا عليك فإنّه مذموم

واعلم: أنّ الله سبحانه جمع في هذه الآية خلاصة ما أنزله في القرآن وجعلها خاتم الوحي والإنزال كما أنّه جمع خلاصة ما أنزل من الكتب على الأنبياء في القرآن وجعله خاتم الكتب كما أنّ النبيﷺ خاتم الأنبياء وبيان أنّ هذه الآية خلاصة ما أنزله في القرآن لأنّ فائدة هذه الكتب بالنسبة إلى المكلّف نجاته من الدركات وفوزه بالدرجات والدركات أصولها الشرك والجهل والمعاصي والأخلاق المذمومة والدرجات أصولها التوحيد لله والعلم والطاعات والأخلاق الحميدة وهذه الآية شاملة في السعي إليها والتحرّز عنها لأنّ حقيقة التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله ومباشرة ما يقرّبك إليه فيندرج تحت كلمة التقوى الخروج عن الكفر والشرك بالمعرفة والتوحيد وعن الجهل بالعلم وعن المعاصي بالطاعات وعن الأخلاق المذمومة بالأخلاق الممدوحة.

قال ابن عبّاس وجماعة من المفسّرين: إنّه لمّا نزلت: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1] قال رسول اللهﷺ: «**ليتني أعلم متى يكون ذلك**» فأنزل الله تعالى سورة ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فكان رسول اللهﷺ يسكت بين التكبير والقراءة بعد نزول هذه السورة فيقول: «**سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه**» فقيل له: إنّك لم تكن تقوله قبل هذا، فقال: «**إنّ نفسي نعيت إليّ ثمّ بكى بكاء شديداً**». فقيل يا رسول الله: أتبكي من الموت وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: «**فأين هول المطّلع؟ وأين ضيق القبر وظلمة اللحد! وأين**

١ـ سورة الزمر: ٣٠.

القيامة والأهوال؟» فعاش رسول الله بعد نزول هذه السورة عاماً تامّاً.[1]

ثمّ نزلت ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ إلى آخر السورة،[2] فعاش رسول الله بعدها ستّة أشهر. ثمّ نزل عليه في حجّة الوداع ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[3] فعاش بعدها أحد وثمانين يوماً ثمّ نزلت آية الربا، ثمّ نزلت بعدها: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ﴾ الآية،[4] وهي آخر آية نزلت من السماء.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢١٤.

٢ـ سورة التوبة: ١٢٨.

٣ـ سورة المائدة: ٣.

٤ـ سورة البقرة: ٢٨١.

المعنى: إذا داين بعضكم بعضا وعامله نسيئة معطياً أو آخذاً وإنّما قال: «بدين» لأنّ تداينتم قد يكون بمعنى تجازيتم من الدين الّذي هو الجزاء فقيّده بالدين لتخليص اللفظ من الاشتراك ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: وقت مذكور بالتسمية قال ابن عبّاس: إنّ الآية وردت في السلم خاصّة قال الطبرسيّ: وظاهر الآية يقع على دين مؤجّل سلماً كان أو غيره وعليه الفقهاء ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ أي: اكتبوا الدين بأجله المعلوم مثل الأيّام أو الأشهر أو السنة بما يرفع الجهالة لا بالحصاد وقدوم الحاجّ مثل ما لا يرفع الجهالة والجمهور على استحباب هذا الأمر لأنّه أدفع للنزاع.

﴿وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ﴾ وقوله: «بينكم» للإشعار بأنّ الكاتب ينبغي أن يكون بين المتداينين ويكتب كلامهما ولا يكتفي بكلام أحدهما ﴿بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي: كاتب كائن بالعدل والمتصدّي للكتابة من شأنه أن يكتب بالتسوية من غير ميل إلى إحدى الجانبين.

﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ﴾ أي: لا يمتنع أحد من الكتّاب ﴿أَن يَكۡتُبَ﴾ كتاب الدين والصكّ على الوجه المأمور به بل يكتب على وجه الحقّ الواقع ﴿كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ﴾ من الكتابة بالعدل ﴿فَلۡيَكۡتُبۡ﴾ تأكيد للكتابة العادلة ﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ الإملال هو الإملاء وهو إلقاء المعنى على الكتَب أي: ليكن المملل. ومورد المعنى على الكاتب ويقرّ المديون على نفسه بلسانه ليعلم ما عليه فيكتب إقراره ﴿وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي: الّذي عليه الحقّ في الإملاء ﴿وَلَا يَبۡخَسۡ﴾ ولا ينقص من الحق شيئا لا من قدره ولا من صفته.

واختلف في الكتابة هل هي فرض أم لا؟ فقيل: هي فرض على الكفاية كالجهاد ونحوه عن الشعبيّ وجماعة من المفسّرين والرمّانيّ وجوّز الجبّائيّ أن يأخذ الكاتب والشاهد الأجرة على ذلك. قال الشيخ أبو جعفر الطوسيّ:

وعندنا لا يجوز ذلك.[١] وأمّا الورق الّذي يكتب فيه على صاحب الدين دون من عليه الدين ويكون الكتاب في يده لأنّه له.

وقيل: واجب على الكاتب يكتب في حال فراغه. وقيل: واجب عليه أن يكتب إذا امر. وقيل: إنّ ذلك في المواضع التي لا يقدر فيه على كاتب غيره فيضرّ بصاحب الدين إن امتنع فإذا كان كذلك فهو فريضة وإن قدر على غيره فهو سعة إذا قام به غيره. وقيل: كان واجباً ثمّ نسخ بقوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

ثمّ بيّن سبحانه حال من لا يصحّ منه الإملاء فقال: ﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا﴾ ناقص العقل مبذّراً مجازفاً وقيل: صغيراً طفلاً. وقيل: عاجزاً أحمقا ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ أي: ضعيف المزاج مثل أن يكون شيخا مختلّا أو خرفا ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ بنفسه لخرس أو عمى أو جهل من العوارض ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ﴾ الّذي يلي أمره أي: يملل وليّ الّذي عليه الحقّ ويقوم مقامه الشرعيّ من وليّ أو قيّم ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ من غير نقص ولا زيادة.

ثمّ أمر سبحانه بالإشهاد فقال: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ أي: وأشهدوا على المكتوب رجلين من رجالكم. أي: من أهل دينكم وقيل: المراد من الأحرار البالغين المسلمين دون العبيد والكفّار، لكنّ الحرّيّة ليست بشرط عندنا في قبول الشهادة وإنّما اشترط الإسلام مع العدالة.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ أي: لم يكن الشهيدان رجلين فليكن ﴿فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ فليشهد رجل وامرأتان ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهو معروف بالستر والصلاح والأمانة والدين ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: تنسى إحدى المرأتين ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا﴾ الشهادة لأخرى وهذا تعليل لاعتبار العدد في

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٣٧٢.

النساء والعلّة في الحقيقة هي التذكير ولكنّ الضلال لمّا كان سبباً له نزّل منزلته كقولك: أعددت السلاح أن يجيء عدوّ فأدفعه فالإعداد للدفع لا لمجيء العدوّ لكن قدّم عليه المجيء لأنّه سببه. ثمّ حثّ الشهداء على إقامة الشهادة بقوله ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟﴾ لأداء الشهادة و«ما» مزيدة أي: إذا دعوا إلى إثبات الشهادة وإقامتها ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟﴾ ولا تملّوا ولا تضجروا ﴿أَن تَكْتُبُوهُ﴾ من أن تكتبوا الحقّ والدين والكتاب ﴿صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا﴾ حال من الضمير، صغيراً كان الحقّ أو كبيرا قليلاً كان أو كثيرا مجملاً أو مفصّلا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ إلى وقت حلوله الّذي أقرّ به المديون.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي: كتب الحقّ والصكّ إلى أجله كاملا ﴿أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أعدل في حكمه ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾ وأثبت لها وأعون على إقامتها ﴿وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟﴾ وأقرب إلى انتفاء شكّكم في الدين وقدره وأجله وشهادته ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ استثناء منقطع من الأمر بالكتابة أي: لكن وقت كون مبايعتكم ومداينتكم حاضرة يداً بيد بحضور العدلين ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ نقداً لا نسيئة ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ حرج وضيق ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ وليس عليكم إثم في ترك كتابتها.

﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ وأشهدوا الشهود على بيعكم وهذا أمر استحباب في هذا التبايع أو مطلقاً لأنّه أحوط وهذه الأوامر في الآية الكريمة للندب عند الفقهاء، وقال أصحاب الظاهر: الإشهاد فرض في التبايع.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ أصله يضارر ـ بكسر الراء الأولى على قراءة كسر الراء ـ فيكون النهي متعلّقا للكاتب والشاهد عن المضارّة فعلى هذا فمعنى المضارّة أن يكتب الكاتب ما لم يملّ عليه ويشهد الشاهد بما لم يستشهد فيه أو بأن يمتنع من إقامة الشهادة، وعلى قراءة فتح الراء الأولى عن ابن مسعود

ومجاهد فيكون معناه: لا يكلّف الكاتب والشاهد في حال عذر لا يتفرّغ إليها ولا يضيّق على الشاهد والكاتب إلى إثبات الشهادة وإقامتها في حال عذر ولا يعنّفان عليها إذا كانا مشغولين بما يهمّهما ولا يضارّان بإبطال شغلهما.

﴿وَإِن تَفْعَلُوا﴾ ما نهيتم عنه من الضرار ﴿فَإِنَّهُ﴾ فعلكم ذلك ﴿فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ وخروج عن الطاعة أي: حينئذ ملتبسين بالفسق ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في مخالفته ويعلّمكم الله ما تحتاجون إليه من امور دينكم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وذكر عليّ بن إبراهيم بن هاشم أنّ في البقرة خمسمائة حكم وفي هذه الآية خاصّة خمسة عشر حكما.

وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

وإن كنتم مسافرين ومتوجّهين إلى السفر ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ أيها المتبايعون المتداينون كاتباً للصكّ ولا شهوداً تشهدونهم فالوثيقة رهن فيكون «رهان» خبر مبتدأ مقدّر وهو الوثيقة أو التقدير: ﴿فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ يقوم مقام الصكّ والشهود، والقبض شرط في صحّة الرهن فإن لم يحصل القبض لم ينعقد الرهن بالإجماع.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: اطمأنّ بعض الدائنين بعض المديونين لحسن ظنّه به واستغنى بأمانته عن الارتهان فلم يطلب منه الرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ﴾ وهو المديون والايتمان الوثوق بأمانة الرجل ﴿أَمَٰنَتَهُ﴾ أي: فليقض المديون الأمين ما في ذمّته من الدين وسمّي الدين «أمانة» لتعلّقه بالذمّة كتعلّق الأمانة وأراد بقوله: «أمانته» ما اؤتمن فيه فهو مصدر بمعنى المفعول ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ أي: وليتّق المديون عقوبة الله ربّه بجحوده أو النقصان منه.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي: بعد تحمّل الشهادة أيّها الشهود إذا دعيتم إلى الحاكم لأدائها على وجهها ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ والمعنى أنّ الكاتم يأثم قلبه، وقلبه فاعل آثم.

فإن قيل: هلّا اقتصر على قوله: «آثم» وما فائدة ذكر القلب والجملة الآثمة لا القلب وحده؟ فالجواب أنّ كتمان الشهادة هو أن يضمرها ويسترها في قلبه ولا يتكلّم بها فلمّا كان الآثم مقترفاً بالقلب أسند إليه وإسناد الفعل إلى الجارحة الّتي يعمل بها أبلغ وأصحّ تقول: أبصرته بعيني وسمعته بأذني إذا أردت التأكيد في أمر فكأنّه قيل: قد تمكّن الإثم في أصل نفسه وملك أشرف مكان منه، والقلب أصل متعلّقه، ألا ترى أنّ أصل الحسنات والسيّئات الإيمان والكفر وهما من أفعال القلوب، وعن ابن عبّاس: أكبر الكبائر الإشراك بالله لقوله: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[1] وشهادة الزور وكتمان الشهادة. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم به وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«لا ينقضي كلام شاهد زور من بين يدي الحاكم حتّى يتبوأ مقعده من النار وكذلك من كتم الشهادة»**.[2]

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾

اللام لام الملك أي: له تصريف السماوات والأرض وما بينهما لأنّه هو أبدعهما لا شركة لأحد لغيره في شيء منها فلا تعبدوا أحداً سواه ولا تعصوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه، وإن تظهروا ما في قلوبكم من الطاعة والمعصية أو تكتموه وتخفوه عن الناس ككتمان الشهادة وموالاة المشركين أو موالاة المؤمنين، ولا يندرج فيه ما لا يخلو البشر منه من الوساوس وأحاديث النفس الّتي لا عزيمة ولا

١ـ سورة المائدة: ٧٢.

٢ـ من لايحضره الفقيه، ج ٣، ص ٦٠. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢٢٥.

عقد فيها إذ التكليف بحسب الوسع ودفع ذلك ممّا ليس في وسعه.

﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ ويجازيكم به يوم القيامة ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ منهم رحمة وفضلا ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ عدلاً حسبما تقتضيه مشيّته المبنيّة على الحكم والمصالح، ولكن يعذّب الكافر لا محالة لأنّه لا يغفر الشرك لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[1] وتقديم المغفرة على التعذيب لسبقة رحمته على غضبه ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكمال قدرته على جميع الأشياء موجب لقدرته على محاسبتكم.

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

لمّا ذكر سبحانه فرض الصلاة والزكاة وبعض أحكامه في السورة ختم السورة بذكر تعظيمه وشهد بتصديق نبيّه صلى الله عليه وآله بجميع ذلك.

وفي الآية إشعار بترتيب العقائد الّتي لا يتحقّق الإيمان إلّا بها من الأصول ثمّ العمل بالفروع حسب ما نصّ به الشارع لا بالقياس والرأي.

قال ابن شبرمة: دخلت أنا وأبو حنيفة على الصادق عليه السلام فقلت: هذا فقيه أهل العراق فقال عليه السلام: **«أهو النعمان بن ثابت»**؟ فقال أبو حنيفة: نعم أنا ذلك، فقال الصادق عليه السلام: **«اتق الله ولا تقس الدين برأيك فإنّ أول من قاس برأيه إبليس إذ قال أنا خير منه»** ثمّ سأله عليه السلام عن بعض المسائل فعيّ فيها ثمّ سأله عليه السلام عن كلمة أوّلها الشرك وآخرها الإيمان قال: لا أدري، قال الصادق عليه السلام: **«هي كلمة لا إله إلّا الله فلو قال: لا إله وسكت كان شركا»**.

١ـ سورة النساء: ٤٨.

ثمّ قال عليه السلام: ويحك أيّما أعظم عند الله إثما: قتل النفس الّتي حرّم الله أو الزنا؟

قال: بل قتل النفس، قال الصادق عليه السلام: «**إنّ الله قد قبل في قتل النفس شهادة شاهدين ولم يقبل في الزنا إلّا شهادة أربعة، فأنّى يقوم لك القياس**»؟ ثمّ قال عليه السلام: «**أيّما أعظم عند الله: الصوم أو الصلاة**»؟ قال: الصلاة، قال: «**فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ فاتّق الله ولا تقس الدين برأيك فإنّا نقف غدا ومن خالفنا بين يدي الله فنقول: قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وتقول أنت وأصحابك: سمعنا وقسنا فيفعل الله بنا وبكم ما يشاء**».[1]

فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ من الأحكام المذكورة ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: كلّ واحد منهم ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وصدّق به وبصفاته سبحانه ونفي التشبيه عنه وتنزيهه عمّا لا يليق به ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾ أي: وصدّقوا بملائكتهوبأنّهم مطهّرون ومعصومون ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: بجميع ما أنزل من الكتب وبالقرآن وأنّها حقّ وصدق من عند الله، وقرئ «و كتابه» ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: بجميع أنبيائه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ أي: يقولون: لا نفرّق ولا نميّز بين الرسل بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما قال اليهود والنصارى لأنّ تمام الأنبياء اتّفقوا في اصول الشرائع وما اختلفوا.

والمراد بقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ إيماناً تفصيلياً متعلّقاً بالشرائع والكتب ولم يرد به حدوث الإيمان فيه لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان مؤمناً بالله قبل الرسالة منه بل المعنى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم آمن بالقرآن فإنّه قبل إنزاله إليه لم يكن عليه الإيمان به وهو معنى قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾[2] أي: ولا الإيمان بالكتاب،

١ـ انظر: علل الشرايع، ج ١، ص ٨٧. والأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٦٤٥. ومناقب آل أبي طالب، ابن شهرآشوب، ج ٣، ص ٣٧٦.

٢ـ سورة الشورى: ٥٢.

هذا إذا كانﷺ هو المخاطب وأمّا إذا كان المراد الأمّة والخطاب من باب: إيّاك أعني واسمعي يا جارة، فذلك بطريق أولى كما قالﷺ: **«كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين»**.[۱]

قال العلامة أبو السعود العمادي: الوقف في الآية عند قوله: «من ربّه» وقال بعضهم: عند قوله: «و المؤمنون» وهو مبتدأ و«كلّ» مبتدأ ثان «آمن» خبره والجملة خبر للمبتدأ الأوّل والرابط بينهما الضمير الّذي ناب منابه التنوين، وتوحيد الضمير في «آمن» مع رجوعه إلى كلّ المؤمنين لما أنّ المراد بيان إيمان كلّ فرد منهم من غير اعتبار الاجتماع ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا﴾ والضمير راجع إلى الرسول والمؤمنين، سمعنا وفهمنا ما جاءنا من الحقّ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ ما فيه من الأوامر والنواهي.

قيل: لمّا نزلت هذه الآية قال جبرئيل ؑ للرسولﷺ: **«إنّ الله قد أثنى عليك وعلى أمّتك فسل تعط»**[۲] فقال الرسول: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أي: اغفر لنا غفرانك كما قال: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[۳] أو التقدير نسألك غفرانك ذنوبنا وما لا يخلو البشر من التقصير في مراعاة الحقوق الإلهيّة ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: الرجوع بالموت والبعث لا إلى غيرك.

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

۱ـ بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ٤۰۲، وج ۱۸، ص ۲۷۸، وج ٦٥، ص ۲۷.

۲ـ تفسيرالبغوي، ج ۱، ص ۲۷۳.

۳ـ سورة محمد: ٤.

إخبار من الله وليس من كلام المؤمنين، روي أنّه لمّا نزلت ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ...﴾[1] اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوه ثمّ بركوا على الركب فقالوا: يا رسول الله كلّفنا من الأعمال ما نطيق مثل الصلاة والصوم والحجّ والجهاد وقد أنزل إليك هذه الآية ولا نطيقها فقال النبي ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[2]»؟ قالوا: بل ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ...﴾ تهويناً للخطب عليهم ببيان أنّ المراد ﴿بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما عزموا عليه من السوء خاصّة لا ما يعمّ الخواطر الّتي لا يستطاع الاحتراز عنها أي: سنّة أن لا يكلّف نفساً من النفوس إلّا ما يتّسع فيه طوقها رحمة لهذه الأمّة.[3]

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ للنفس ثواب ما حصلت من الخير لا لغيرها ﴿وَعَلَيْهَا﴾ لا على غيرها ﴿مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من الشرّ والتعبير بالافتعال في جانب الشرّ لأنّ الشر لمّا كان مشتهى النفس يكون فيه السعي والاجتهاد طبعاً ولا بدّ فيه من المبالغة والتكلّف لإيجاب العمل.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ بيان دعوات المؤمنين يقولون: ربّنا لا تعذّبنا بما صدر عنّا من الأمور المؤدّية إلى النسيان والخطاء من تفريط وقلّة مبالاة، ودل هذا على أنّ المؤاخذة جائزة في النسيان والخطاء وذلك لأنّ التحرّز عنها ممكن في الجملة وإلّا لم يكن للسؤال معنى وخفّف الله عن هذه الأمّة قال النبي ﷺ: «رفع عن أمّتي الخطاء والنسيان وما استكرهوا عليه».[4]

١ـ سورة البقرة: ٢٨٤.

٢ـ سورة البقرة: ٩٣.

٣ـ مسند احمد، ج ٢، ص ٤١٢.

٤ـ وسائل الشيعة، ج ٣، ص ٢٧٠. وانظر: جامع احاديث الشيعة، ج ١٤، ص ٨٣.

واختلف في المراد من النسيان والخطاء في الآية:

الاول: أنّ المراد من النسيان الترك أي: تركنا كقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1] أي: تركوا طاعته فتركهم من ثوابه ولطفه وقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[2] قال الشاعر: «و لا كنت يوم الروع للطعن ناسيا».

والمراد من ﴿أَخْطَأْنَا﴾ أذنبنا لأنّ المعاصي توصف بالخطاء من حيث إنّها ضدّ الثواب وإن كان فاعلها متعمّداً فكأنّه أمرهم سبحانه بأن يستغفروا ممّا تركوه من الواجبات وممّا فعلوه من القبائح.

والثاني: أنّ المراد من قوله: ﴿إِن نَّسِينَا﴾ إن تعرّضنا لأسباب يقع عندها النسيان والخطاء عن الأمر والغفلة عن الواجب وهذا هو المعنى الّذي ذكر أوّلا في بيان الآية.

والثالث: أن لا تؤاخذنا إن لم نفعل فعلاً يجب فعله على سبيل السهو أو أخطأنا أي: فعلنا فعلاً يجب تركه من غير قصد، ويحسن هذا في الدعاء على سبيل الانقطاع والتضرّع وإظهار الفقر إلى مسألته وإن كان مأموناً منه المؤاخذة بمثله مثل قوله: ﴿احْكُم بِالْحَقِّ﴾[3] ومثل قوله: ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ على سبيل التعبّد وإن كان تعالى لا يكلّف أحداً ما لا يطيقه.

والرابع: كما فسّره ابن عبّاس وعطاء أي: لا تعاقبنا إن عصينا جاهلين أو متعمّدين. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ عطف على ما قبله وتوسيط النداء بينهما لإبراز مزيد الضراعة. والإصر العبء والحمل الّذي يؤخذ ويحبس صاحبه مكانه لثقله والمراد التكاليف الشاقّة ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ

١ـ سورة التوبة: ٦٧.

٢ـ سورة البقرة: ٤٤.

٣ـ سورة الأنبياء: ١١٢.

مِن قَبْلِنَا﴾ أي: مثل ما حملت على من قبلنا وهو ما كلّفه بنو إسرائيل من قتل النفس في التوبة وقطع الأعضاء الخاطئة وعدم التطهير بغير الماء وخمسين صلاة في اليوم والليلة وعدم جواز صلاتهم في غير المسجد وحرمة أكل الصائم بعد النوم ومنع بعض الطيّبات عنهم بالذنوب وكون الزكاة ربع مالهم وقطع موضع النجاسة وكتابة ذنب الليل على الباب الي الصبح وغير ذلك من التشديدات وقد عصم الله ورحم هذه الأمّة من أمثال ذلك وأنزل في شأنهم ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[1] قال ﷺ: **«بعثت بالحنيفيّة السهلة السمحة».**[2] وعن العقوبات الّتي عوقب بها الأولون من المسخ والخسف قال ﷺ: **«رفع عن أمّتي الخسف والمسخ والغرق».**[3]

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ عطف على ما قبله واستعفاء من العقوبات الّتي لا تطاق أي: لا تكلّفنا ما يشقّ علينا الدوام علينا من التكاليف الشاقّة الّتي لا يكاد من كلّفها يخلو عن التفريط فيها فنعاقب بعدم محافظتنا عليها وعبّر عن إنزال العقوبات بالتحميل باعتبار السببيّة وباعتبار ما يؤدّي إليها ولم يرد من الآية عدم الطاقة أصلاً فإنّه لا يكون وحاصل المعنى: لا تشدّد الأمر علينا فيصعب القيام بها فنعذّب كما حملت على الّذين من قبلنا من الأمم الماضية وقد مرّ بيانه. ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ ذنوبنا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ خطايانا أي: استرها وارحمنا بإنعامك علينا في الدنيا والعفو عن عقوباتها في الآخرة ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ سيّدنا ونحن عبيدك أو ناصرنا أو متولّي أمرنا ﴿فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أعنّا عليهم وادفع عنّا شرّهم وحقّ العبد أن يستنصر من

١ـ سورة الأعراف: ١٥٧.

٢ـ الكافي، ج ٥، ص ٤٩٤. وبحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٢٦٤.

٣ـ تفسيرأبي السعود، ج ١، ص ٢٧٧.

مولاه والنصرة على الكفّار تارة بالظفر والسيف وتارة بالحجّة.

روي أنّه لمّا أسري برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السادسة ـ إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ـ أعطي ﷺ ثلاثاً: الصلاة الخمس، وغفر لمن لا يشرك بالله من امّته إلّا المقحمات(١)، وخواتيم سورة البقرة، عن ابن مسعود وعن ابن المكندر، ورفعه إلى النبيّ ﷺ قال: **«في آخر سورة البقرة آيات إنّهنّ قرآن وإنّهنّ دعاء وإنّهنّ يرضين الرحمن»**.(٢)

وفي تفسير الكلبيّ بإسناده ذكر عن ابن عبّاس عن النبيّ ﷺ: قال بينا رسول الله قاعداً إذ سمع نقيضاً يعني صوتاً فرفع رأسه فإذا باب من السماء قد فتح فنزل عليه ملك وقال: **«إنّ الله يبشّرك بنورين لم يعطهما نبيّاً قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لا يقرؤهما أحد إلّا أعطيته حاجته»**.(٣)

العيّاشيّ عن أحدهما عليهما السلام في آخر البقرة قال: **«لمّا دعوا أجيبوا»**.(٤)

وفي «الصافي»: القمّيّ عن الصادق عليه السلام: **«إنّ هذه الآية مشافهة الله لنبيّه لمّا أسري به إلى السماء قال النبيّ ﷺ: انتهيت إلى سدرة المنتهى وإذا الورقة منها تظلّ امّة من الأمم فكنت من ربّي بعين من قرب ربّي كقاب قوسين أو أدنى كما حكى الله فناداني ربّي ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ فقلت أنا مجيبه عنّي وعن امّتي: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ فقلت: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ فقال الله سبحانه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فقلت: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن**

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٣١.

٢ـ مجمع البيان،المصدر السابق نفسه ؛ وتفسيرالثعالبي، ج ٢، ص ٣٠٣.

٣ـ مجمع البيان، ج٢، ص٢٣١ ؛ وتفسير السمرقندي، ج ١، ص ٢١٦.

٤ـ تفسيرالعياشي، ج ١، ص ١٦٠.

نَسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فقال الله: لا أؤاخذك فقلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فقال الله: قد أعطيتك، ذلك لك ولأمّتك فقال الصادقعليه السلام: ما وفد إلى الله أحد أكرم من رسول اللهصلى الله عليه وآله حين سأل لأمّته هذه الخصال».[1]

والعيّاشيّ ما في معناه في حديث بدون قوله: «فقال الصادق» إلى آخر الحديث.

وفي «الاحتجاج» عن الكاظم عن آبائه عن أمير المؤمنينعليهم السلام في حديث يذكر فيه مناقب رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: «إنّه أسري بهصلى الله عليه وآله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر وعرج به في ملكوت السماء مسيرة خمسين ألف عام في أقلّ من ثلث ليلة حتّى انتهى إلى ساق العرش فدنا بالعلم فتدلّى له من الجنّة رفرف أخضر وغشي النور بصره فرأى عظمة ربّه بفؤاده ولم يرها بعينه فكان كقاب قوسين بينهما وبينه أو أدنى فأوحى الله إلى عبده ما أوحى فكان فيما أوحى إليه الآية الّتي في سورة البقرة: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وكانت الآية قد عرضت على الأنبياء من لدن آدم إلى أن بعث الله محمّدا وعرضت على الأمم فأبوا أن يقلبوها من ثقلها وقبلها رسول اللهصلى الله عليه وآله وعرضها على امّته فقبلوها فلمّا رأى الله منهم القبول على أنّهم لا يطيقونها فلمّا أن سار إلى ساق العرش كرّر عليه الكلام ليفهمه فقال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ فأجابصلى الله عليه وآله مجيباً عنه وعن امّته فقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ فقال تعالى: لهم الجنّة والمغفرة عليّ إن فعلوا ذلك.

فقال النبيّصلى الله عليه وآله: أمّا إذا فعلت ذلك بنا فغفرانك ربّنا وإليك المصير فأجابه الله

١ـ تفسير الصافي، ج ١، ص ٣١٠، وتفسير القمي، ج ١، ص ٩٥.

جلّ ثناؤه وقد فعلت ذلك بك وبامّتك. ثمّ قال عزّ وجلّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من خير ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ من شرّ.

فقال النبيّ لمّا سمع ذلك: أمّا إذا فعلت بي وبامّتي فزدني قال: سل قال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله: لست أؤاخذ امّتك بالنسيان أو الخطاء لكرامتك وكانت الأمم السالفة إذا نسوا ما ذكّروا به فتحت عليهم أبواب العذاب وقد رفعت ذلك عن امّتك وكانت الأمم السالفة إذا أخطئوا أخذوا بالعذاب وعوقبوا عليه وقد رفعت ذلك عن امّتك لكرامتك عليّ.

فقال النبيّ ﷺ: إذا أعطيتني ذلك فزدني فقال الله: سل قال النبيّ: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ فأجابه إلى ذلك وقال: قد رفعت الآصار الّتي كانت على الأمم عنهم، كنت لا أقبل صلاتهم إلّا في بقاع معلومة من الأرض وإن بعدت وقد جعلت الأرض كلّها لأمّتك مسجداً وطهورا.

وكانت الأمم السالفة إذا أصابهم أذى من نجاسة قرضوه وجعلت الماء لأمّتك طهورا. وكانت الأمم السالفة تحمل قرابينهم على أعناقهم إلى البيت المقدّس فمن قبلت ذلك منه أرسلت إليه ناراً فأكلته فرجع مسروراً ومن لم أقبل ذلك منه رجع مغبورا وقد جعلت قربان امّتك بطون فقرائها فمن قبلت ذلك منه أضعفت له أضعافا مضاعفة ومن لم أقبل منه رفعت عنه عقوبات الدنيا.

وكانت الأمم السالفة صلواتها مفروضة عليها في ظلم الليل وأنصاف النهار وهي من الشدائد الّتي كانت عليهم فرفعتها عن امّتك وفرضت عليهم صلواتهم في أطراف الليل والنهار وفي أوقات نشاطهم. وكانت صلوات الأمم خمسين صلاة في خمسين أوقات فرفعتها عن امّتك وجعلتها خمساً في خمسة أوقات. وكانت الأمم السالفة حسنتهم بحسنة وسيّئتهم بسيّئة فرفعتها عن امّتك وجعلت الحسنة بعشر والسيّئة بواحدة وهي من الآصار الّتي كانت عليهم.

وكانت الأمم إذا نوى أحدهم حسنة ثمّ لم يعملها لم تكتب له وإن عملها كتب له حسنة وإنّ امّتك إذا همّ أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة وإن عملها كتبت له عشراً وهي من الآصار الّتي كانت عليهم فرفعتها عن امّتك.

وكانت الامة السالفة إذا همّ أحدهم بسيّئة ثمّ لم يعملها لم تكتب عليه وإن عملها كتبت عليه سيّئة وإنّ امّتك إذا همّ أحدهم بسيّئة ثمّ لم يعملها كتبت له حسنة وهذه من الآصار الّتي كانت عليهم فرفعت ذلك عن أمّتك.

وكانت الأمم السالفة إذا أذنبوا كتبت ذنوبهم على أبوابهم وجعلت توبتهم من الذنوب أن حرّمت عليهم بعد التوبة أحبّ الطعام إليهم وقد رفعت ذلك عن امّتك وجعلت ذنوبهم فيما بينهم وبيني وجعلت عليهم ستوراً كثيفة وقبلت توبتهم بعد عقوبة ولا أعاقبهم بأن احرّم عليهم أحبّ الطعام إليهم.

وكانت الأمم السالفة يتوب أحدهم من الذنب الواحد مائة سنة أو ثمانين أو خمسين سنة ثمّ لا أقبل توبته دون أن أعاقبه في الدنيا بعقوبة فرفعتها عن امّتك وإنّ الرجل من امّتك ليذنب عشرين أو ثلاثين أو أربعين أو مائة سنة ثمّ يتوب ويندم طرفة عين فأغفر له ذلك كلّه.

فقال النبيّ ﷺ اللهمّ إذا أعطيتني ذلك كلّه فزدني قال: سل قال ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ قال: قد فعلت ذلك بك وبامّتك وقد رفعت عنهم عظيم بلايا الأمم وذلك حكمي في جميع الأمم أن لا اكلّف خلقاً فوق طاقتهم.

فقال ﷺ: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ قال تعالى: قد فعلت ذلك بتائبي أمّتك.

قال ﷺ: ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الله: إنّ امّتك في الأرض كالشامة البيضاء في الثور الأسود هم القادرون وهم القاهرون يستخدمون ولا يستخدمون لكرامتك عليّ وحقّ عليّ أن اظهر دينك على الأديان حتّى لا يبقى في شرق الأرض

وغربها دين إلّا دينك أو يؤدّون إلى أهل دينك الجزية». (١)

في «ثواب الأعمال» عن السجّاد عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ أربع آيات من أوّل البقرة وآية الكرسيّ واثنين بعدها وثلاث آيات من آخر البقرة لم ير في نفسه وماله شيئاً يكرهه ولا يقربه الشيطان ولا ينسى القرآن». (٢)

وعن جابر عنه عليه السلام في حديث قال: قال الله: «و أعطيت لك ولأمّتك كنزاً من كنوز عرشي: فاتحة الكتاب وخاتمة سورة البقرة». (٣)

وروي عنه عليه السلام: «أنزل آيتين من كنوز الجنّة كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي سنة من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل». (٤) وفي رواية: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه». (٥)

وفي: «ثواب الأعمال»: «من قرأ سورة البقرة وآل عمران جاءتا يوم القيامة تظلّانه على رأسه مثل الغمامتين أو مثل الغيابتين يعني المظلّتين». (٦)

وقال صلى الله عليه وآله: «السورة الّتي تذكر فيها البقرة فسطاط القرآن أي: مصره الجامع فتعلّموه فإنّ تعلّمها بركة وتركها حسرة ولن تستطيعها البطلة» قيل: وما البطلة؟ قال صلى الله عليه وآله: «السحرة» (٧)، أي: لا تستطيع السحرة أن تسحر قارئها ولا تقرء في دار ثلاث ليال فيقربه شيطان وكان معاذ إذا ختم سورة البقرة يقول: آمين.

وهذا الحديث حجّة لمن استكره أن يقول سورة البقرة وقال ينبغي أن

١ـ الاحتجاج، ج ١، ص ٣٢٧.

٢ـ ثواب الأعمال، ص ١٠٤.

٣ـ علل الشرايع، ج ١، ص ١٢٨. ومعاني الأخبار، ص ٥١.

٤ـ الصافي، ج ١، ص ٣١٤. وتفسير القرطبي، ج ٣، ص ٤٣٣.

٥ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٣١. والصافي، ج ١، ص ٣١٤.

٦ـ ثواب الأعمال، ص ١٠٤.

٧ـ تفسير البيضاوي، ج ١، ص ٥٨٩. والكشاف، ج ١، شرح ص ٤٠٩.

يقال: السورة الّتي تذكر فيها البقرة لأنّه ﷺ عبّر في الحديث بهذه العبارة.

وعن أبي الأسلم الديلميّ قال قلت: لمعاذ بن جبل: أخبرني عن قصّة الشيطان حين أخذته فقال: جعلني رسول الله ﷺ على صدقة المسلمين فجعلت التمر في غرفة فوجدت فيه نقصاناً فأخبرت رسول الله ﷺ بذلك فقال: «**هذا الشيطان يأخذه**» فدخلت الغرفة وأغلقت الباب فجاءت ظلمة عظيمة وغشيت الباب ثمّ تصوّر في صورة اخرى فدخل من شقّ الباب فشددت إزاري عليّ فجعل يأكل من التمر فوثبت إليه وقبضته فقلت: يا عدوّ الله فقال: خلّ عنّي فإنّي كبير ذو عيال كثير وأنا فقير من جنّ نصيبين وكانت لنا هذه القرية قبل أن يبعث صاحبكم فلمّا بعث أخرجنا منها فخلّ عنّي فلن أعود إليك، فخلّيت سبيله وجاء جبرئيل فأخبر رسول الله بما كان فصلّى رسول الله فناداني مناديه فجئته وقال: «**ما فعل أسيرك**»؟ فأخبرته فقال ﷺ: «**أما أنّه سيعود**» فعد قال: فدخلت الغرفة وأغلقت الباب عليّ فجاء فدخل من شقّ الباب فجعل يأكل من التمر فصنعت به كما صنعت في المرّة الاولى فقال: خلّ عنّي فإنّي لن أعود إليك فقلت: يا عدوّ الله ألم تقل إنّك لن تعود؟ قال: فإنّي لن أعود، وإنّه إذا قرأ أحدكم خاتمة البقرة لا يدخل منّا في بيته تلك الليلة.[1]

تمّت السورة بعون الله في اليوم الخامس عشر من الشهر الحرام، نسأل الله أن لا يحرمنا ثواب تلاوتها بحرمة من أنزلها الله عليه ﷺ ومن حنّ له الجذع اليابس حنين العشار.

١ـ كتاب الهواتف، ابن أبي الدنيا، ص ١٠٨. والمستدرك، الحاكم النيسابوري، ج١، ص٥٦٤.

سورة آل عمران

(مدنية)

أبيّ بن كعب عن رسول الله ﷺ قال: **«من قرأ سورة آل عمران أعطي بكلّ آية منها أماناً على حرّ جسر جهنم».**[1]

وعن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: **«من قرأ سورة آل عمران يوم الجمعة صلّى الله عليه وملائكته».**[2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ﴿٥﴾

﴿الٓمٓ﴾ وقد مرّ شرحه في «ألم» سورة البقرة لا حاجة إلى الإطالة والمختصر: الألف إشارة إلى الله، واللام إلى اللطيف، والميم إلى المجيد ﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبره أي: هو المستحقّ للمعبوديّة لا غير وهذا

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٣٢، وجوامع الجامع، ج ١، ص ٢٦٢. تخريج الاحاديث والآثار، ج ١، ص ٢٦٧.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٢٣، وبحارالانوار، ج ٨٦، ص ٣٥٩. والكشاف، ج ١، شرح ص ٤٩١.

التفسير معنى اللازم لا معنى نفس الكلام ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ خبر آخر له أي: الباقي الّذي لا سبيل عليه للموت والفناء والقائم بتدبير الخلق وحفظه على الدوام.

روي عن النبيّ ﷺ: «**اسم الله الأعظم في ثلاث سور في سورة البقرة: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[1] وفي آل عمران ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ وفي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾**»[2] **ونزلت: ﴿الم * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾**»[3] إلى نيّف وثمانين آية ردّاً على وفد نجران ومن زعم أنّ عيسى كان ربّاً.

روي أنّ وفد نجران قدموا على رسول الله ﷺ وكانوا ستّين راكباً فيهم أربعة عشر من أشرافهم ثلاثة منهم أكابر وإلى الثلاثة يؤول أمرهم أحدهم أميرهم وصاحب مشورتهم العاقب واسمه عبد المسيح وثانيهم السيّد واسمه الأيهم وثالثهم حبرهم وأسقفهم وصاحب مدارستهم أبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل وقد كان ملوك الروم شرّفوه وموّلوه وأكرموه لمّا شاهدوا من علمه واجتهاده في دينهم وبنوا له كنائس فلمّا خرجوا من نجران ركب أبو حارثة بغلته وكان أخوه كرز بن علقمة إلى جنبه فبينا بغلة أبي حارثة تسير إذ عثرت فقال كرز: تعساً للأبعد يريد به رسول الله ﷺ، فقال له أبو حارثة: بل تعست أمّك، فقال كرز: ولم يا أخي؟ قال: والله إنّه النبيّ الّذي كنّا ننتظره فقال له كرز: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: لأنّ هؤلاء الملوك أعطونا أموالاً كثيرة وأكرمونا فلو آمنّا به لأخذوها منّا فوقع في قلب كرز شيء إلى أن أسلم فكان يحدّث بذلك.[4]

فأتوا المدينة ثمّ دخلوا مسجد رسول الله ﷺ بعد صلاة العصر عليهم

۱ـ سورة البقرة: ۲۵۵.

۲ـ سورة طه: ۱۱۱.

۳ـ تفسيرأبي السعود، ج ۲، ص ۳، وتفسير الآلوسي، ج ۳، ص ۷۵.

٤ـ تفسيرالرازي، ج ۷، ص ۱٦٥. وأيضاًتفسيرأبي السعود، ج ۲، ص ۳.

ثياب فاخرة يقول بعض من رآهم: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد جاءت صلاتهم فقاموا ليصلّوا في المسجد فأراد بعض الأصحاب أن يمنعوهم فقال ﷺ: دعوهم، فصلّوا إلى المشرق.

ثمّ تكلّم أولئك الثلاثة مع رسول الله فقالوا تارة: عيسى هو الله لأنّه كان يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأسقام ويخبر بالغيوب ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيطير[1]، وتارة قالوا: هو ابن الله إذ لم يكن له أب يعلم، وتارة اخرى إنّه ثالث ثلاثة لقوله تعالى: «فَعَلْنا وقُلْنا» ولو كان واحداً لقال: فعلت وقلت، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**أسلموا**»، قالوا: أسلمنا قبلك، قال ﷺ: «**كذبتم بمنعكم من الإسلام ادّعاؤكم لله تعالى شريكاً**» قالوا: إن لم يكن عيسى ولدا لله فمن أبوه فقال ﷺ: «**ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا ويشبه أباه**»؟ فقالوا: بلى. قال ﷺ: «**ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء**»؟ قالوا بلى، قال: «**ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّوم على كلّ شيء يحفظه ويرزقه**»؟ قالوا: بلى، قال عليه السلام: «**فهل تملك عيسى من ذلك شيئاً**»؟ قالوا: لا، فقال: «**ألستم تعلمون أنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء**»؟ قالوا: بلى، قال: «**فهل يعلم عيسى شيئا من ذلك إلّا ما علّم**»؟ قالوا: لا، قال: «**ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته امّه وأنّ الله صوّر عيسى في الرحم كيف شاء وأنّ ربّنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث**»؟ قالوا: بلى، قال: «**ألستم تعلمون أنّ عيسى غذا كما يتغذّى الصبيّ ثمّ كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث**»؟ قالوا: بلى، قال: «**فكيف يكون هذا ربّاً كما زعمتم**»؟ فسكتوا[2] وأبوا إلّا جحودا فأنزل من أوّل السورة إلى نيّف وثمانين آية تقريراً لما احتجّ به ﷺ عليهم وأجاب بالآيات عن شبهاتهم تحقيقاً للحقّ الّذي فيه يمترون.

١ـ التوحيد، ص ٤٢٩.

٢ـ انظر: مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٣٥.

قوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن عبّر عنه باسم الجنس إيذاناً بكمال تفوّقه على بقيّة الأفراد في حيازة كمالات الجنس كأنّه هو الأحقّ بأن يطلق عليه اسم الكتاب ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً ذلك الكتاب بالعدل في أحكامه وأخباره الّتي من جملتها التوحيد ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ في حال كونه مصدّقاً للكتب قبله في التوحيد والنبوّات. ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ اسمان أعجميّان الأوّل عبريّ والثاني سريانيّ، والتوراة أصلها: «تورية» على وزن تفعلة من ورى الزند إذا قدح وظهرت ناره وأصله وورية وأبدلت الواو الّتي هي الفاء تاء كما قالوا في الوجاه: التجاه وفي الوراث: التراث فهي من ورى الزند إذا ظهرت ناره أي: بها يظهر ويستخرج الحلال والحرام ويتبيّن التكليف. و«إنجيل»: إفعيل من نجل ينجل إذا أثار واستخرج، ومنه نجل الرجل يقال لولده لأنّه استخرجهم من صلبه ومن بطن امرأته وبهذا الكتاب المسمّى بإنجيل يستخرج معرفة الحلال والحرام والحقّ والباطل كما قيل للقرآن: «الفرقان» لأنّه يفرق بين الحقّ والباطل.

وقال عليّ بن عيسى: النجل الأصل: فكان الإنجيل أصلاً من اصول العلم. وقال غيره: النجل: الفرع كما يكون الولد فرع أبيه. وهو المعنى الأوّل فكأنّ الإنجيل فرع على التوراة يستخرج منها. وقال ابن فضّال: هو من النجل بمعنى السعة يقال: عين نجلاء: وسيعة وكأنّه قد وسّع عليهم في الإنجيل ما ضيّق على أهل التوراة، والكلّ محتمل.[1]

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: أنزلهما جملة قبل القرآن على موسى وعيسى على نبيّنا وعليهما السلام ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ بيان العلّة للإنزال أي: أنزلهما لهداية الناس، وفي البيان لفّ بدون النشر بسبب معلوميّة زمان موسى عن زمان عيسى فلا يقع اللبس

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٣٤.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: جنس الكتب السماويّة لأنّ كلّها فارقة بين الحقّ والباطل أو هو القرآن كرّر ذكره تعظيماً لشأنه. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بالقرآن ومعجزات النبيّ ﷺ ﴿لَهُمْ﴾ بسبب كفرهم بها ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يقادر قدره ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ غالب لا يتهيأ لأحد منعه، والانتقام مجازاة المسيء على إساءته. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مدرك الأشياء كلّها مطّلع على كفر من كفر به وإيمان من آمن به فيجازيهم يوم القيامة.

هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

«التصوير» جعل الشيء على صورة لم يكن عليها والصورة هيئة يكون عليها الشيء في التأليف من صاره إذا ماله أي: هو الّذي يجعلكم على هيئة مخصوصة في أرحام امّهاتكم من ذكر وأنثى وأسود وأبيض وطويل وقصير وحسن وقبيح، وهو ردّ على الّذين قالوا: عيسى الله أو ابن الله لأنّ من صوّر في الرحم يمتنع أن يكون إلهاً لكونه مركّبا أو حالّا في المركّب وهو في عرض الفناء.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ منزّه نفسه أن يكون عيسى ابناً له ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المتناهي في القدرة والحكمة قال ﷺ: **«يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقرّ في الرحم بأربعين أو بخمس وأربعين ليلة فيقول: أشقيّ أم سعيد؟ فيكتبان. فيقول: أي ربّ: أذكر أم أنثى؟ فيكتبان، ويكتب عمله ورزقه وأجله ثمّ تطوى الصحف فلا يزاد فيها ولا ينقص ثمّ يقول الملك: يا ربّ ما أصنع بهذا الكتاب فيقول: علّقه في عنقه إلى قضائي عليه»**.(١)

أقول: ولا ينافي هذا مع اختيار العبد الصلاح والفساد ولا يدلّ على

١ـ انظر: بحارالانوار، ج ٥٧، ص ٣٨٣. ومسند احمد، ج ٤، ص ٧. والدرالمنثور، ج ٤، ص ٣٤٥.

الجبر في الشقاوة والسعادة لأنّ المراد بهذا الكتاب إظهار علمه للملك وليست هذه الكتابة من موجبات الفعل أبداً بل هو إظهار سابق علمه تعالى بأنّ هذا العبد يؤول أمره إلى هذا فمثاله مثال أنّك تعلم من ضمير السلطان أنّه يقتل غداً زيداً السارق فتخبر ابنك بأنّ زيداً غدا مقتول فيقتل غداً فهل القتل منسبّب عن خبرك لابنك أو أنّ إخبارك له من موجبات قتله فالحال الحال والمثال المثال، فأمر الله تعالى للملك بالكتابة لسابقة علمه لا أنّه قضى عليه بالسعادة أو الشقاوة.

نعم الجبر حاصل في التكوينيّات كالذكر والأنثى والطول والقصر وأمثالها وذلك لمقتضى الحكمة لكنّ الأفعال الصادرة منك بحسب مشتهيات نفسك اختياريّة وإنّما دواعيها ميل خاطرك ونفسك، ودلّت الآية على كمال علمه وقدرته حيث صوّر الولد في رحم الأمّ على هذه الصورة وقد تقرّر في العقول على أنّ العالم لو اجتمعوا على أن يخلقوا بعوضة ما قدروا ولو بذلوا جميع خزائن الأرض ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾.(١)

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾

لمّا تقدّم بيان إنزال القرآن بيّن في هذه الآية كيفيّة القرآن فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن ﴿مِنۡهُ﴾ أي: من القرآن ﴿ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ قطعيّة الدلالة على المعنى المراد ظاهرة العبارة محفوظة عن الاحتمال

١ـ سورة المؤمنون: ١٤.

والاشتباه ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: أصل فيه وعمدة ويردّ إليها غيرها بالتأويل، والإضافة بمعنى «في» أي: امّ في الكتاب.

﴿وَأُخَرُ﴾ أي: ومنه آيات أخر ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ أي: محتملات لمعان متشابهة لا يمتاز بعضها من بعض في استحقاق الإرادة به وليس بمتّضح إلّا بنظر الدقّة فالمتشابه في الحقيقة وصف للمعاني وصف بها الآيات على طريق وصف الدالّ بوصف المدلول.

واعلم أنّ اللفظ إمّا أن لا يحتمل غير معنى واحد أو يحتمل والأوّل: هو النصّ الصريح كقوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[1] والثاني: إمّا أن يكون دلالته على مدلوليه أو مدلولاته متساوية أو لا فالأوّل هو المجمل كقوله: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾[2] وأمّا الثاني فهو بالنسبة إلى الراجح ظاهر وبالنسبة إلى المرجوع مؤوّل كقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾[3] والنصّ المحكم والمجمل والمؤوّل المتشابه كقوله: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِ﴾[4] فيردّ إلى قوله: ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾.[5]

والحاصل أنّ المحكم ما لا يشتبه معانيه، والمتشابه ما اشتبهت معانيه ويكون محتمل الوجوه في المراد ألا ترى أنّ قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[6] يحتمل في اللغة أن يكون معناه كاستواء الجالس على سريره وأن يكون بمعنى القهر والاستيلاء؟ والوجه الأوّل لا يجوز عليه وهذا مثال المتشابه.

١ـ سورة البقرة: ١٦٣.

٢ـ سورة البقرة: ٢٢٨.

٣ـ سورة الفتح: ١٠.

٤ـ سورة البقرة: ١١٥.

٥ـ سورة البقرة: ١٤٤.

٦ـ سورة الأعراف: ٥٤.

وقيل: إنّ المحكم الناسخ والمتشابه المنسوخ عن ابن عبّاس. وقال ابن زيد: المحكم ما لم يتكرّر لفظه والمتشابه ما تكرّر ألفاظه.

فلو قيل: لم وحّد ﴿أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وكلمة «هنّ» تقتضي أمّهات الكتاب؟ لأنّ الآيات بمجموعها أصل الكتاب وليست كلّ آية محكمة امّ الكتاب وأنّها جرت مجرى شيء واحد في البيان والحكمة مثل قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾[1] ولم يقل: آيتين لأنّ هذه الآية إنّما تحقّقت من كليهما في أنّها جاءت به من غير ذكر فلم تكن الآية إلّا به ولا له إلّا بها. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ أي: ميل عن الحقّ إلى الأهواء الباطلة ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ معرضين عن المحكمات يتعلّقون بظاهر المتشابه من الكتاب وبتأويل باطل لا للتحرّي للحقّ ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ بل طلبا أن يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك في معنى الآية لحصول مقاصدهم ولمناقضة المحكم بالمتشابه ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ أي: طلب أن تأوّلوه حسبما يشتهونه من التأويلات الفاسدة والحال أنّهم بمعزل من تلك الرتبة وذلك قوله: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾ أي: تاويل المتشابه ﴿إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: الثابتون في العلم.

واختلف في نظم الآية على قولين: أحدهما أنّ الراسخون معطوف على الله فيكون المعنى أنّ تأويل المتشابه لا يعلمه إلّا الله وإلّا الراسخون في العلم مثل النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمة فإنّهم يعلمونه ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وموضع «يقولون» النصب على الحال أي: حال كونهم قائلين آمنّا بالله ﴿كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ وهذا قول ابن عبّاس وأبي مسلم وجماعة من المفسّرين، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام فإنّه قال: **«كان رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم قد علم جميع ما أنزل الله عليه من التأويل والتنزيل وما كان لينزل عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وهو**

۱ـ سورة المؤمنون: ٥٠.

وأوصياؤه من بعد يعلمونه كلّه».[1]

والقول الآخر أنّ الواو في قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ واو الاستيناف والوقف عند قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويبتدأ بقوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فيكون مبتدءا وخبرا وهذا قول عائشة وعروة بن الزبير والحسن ومالك واختيار الكسائيّ والفرّاء والجبّائيّ، وقالوا: إنّ الراسخين لا يعلمونه ولكنّهم يؤمنون به فالآية راجعة على هذا المعنى إلى عدم العلم بمدّة بقاء الدنيا وأكل هذه الأمّة ووقت قيام الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى عليه السلام وخروج الدجّال ونحو ذلك ممّا استأثر الله بعلمه.

قال أكثر أهل التفسير من أهل السنّة والجماعة والإماميّة رضوان الله عليهم: إنّ الوجه القول الأوّل، لأنّ الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلّا لينتفع به عباده فلو كان المتشابه لا يعلمه غيره للزمنا للطاعن مقال، ثمّ إنّا نرى أنّ الصحابة والتابعين اجتمعوا على تفسير جميع أي: القرآن ولم نرهم توقّفوا على شيء منه، وكان ابن عبّاس يقول: أنا من الراسخين في العلم فعلى هذا يلزمنا أن نقول: إمّا تفسير الصحابة غلط أو أنّهم أعلم من رسول الله وكلا القولين باطل.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ حقّ التذكّر ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: العقول الخالصة عن الركون إلى الأهواء، واختلف في الّذين قصدوا في الآية من مبتغي الفتنة فقيل: عني به وفد نجران لمّا حاجّوا رسول الله صلى الله عليه وآله في أمر عيسى عليه السلام وسألوه صلى الله عليه وآله فقالوا: أليس عيسى كلمة الله وروحاً منه؟ فقال: «بلى»، فقالوا: حسبنا، فأنزل الله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾[2] يعني أنّهم قالوا: إنّ الروح ما فيه بقاء البدن فأجروه على ظاهره، وقد قامت الدلالة على

١ـ الكافي، ج ١، ص ٢١٣. وتفسيرالقمي، ج ١، ص ٩٦.

٢ـ تفسير ابن أبي حاتم، ج ٢، ص ٥٩٦. والدرالمنثور، ج ٢، ص ٦.

أنّ القديم ليس بذي أجزاء وأعضاء وإنّما أضاف الروح تشريفاً للروح كما يضاف البيت إليه. وقيل: هم اليهود طلبوا علم بقاء هذه الأمّة واستخراجه بحساب الجمل.

وقيل: هم المنافقون. وقيل: الآية عامّة في كلّ من احتجّ بالمتشابه لباطله.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

هذه حكاية عن قول الراسخين الّذين ذكرهم الله في الآية أي: لا تمنعنا لطفك الّذي تستقيم به القلوب فيميل قلوبنا عن الإيمان بعد أن وفّقتنا بألطافك فاهتدينا. وهذا دعاء للتثبيت على الهداية كأنّهم قالوا: لا تخلّ بيننا وبين نفوسنا بمنعك الألطاف عنّا فتزيغ قلوبنا، وإنّما يمنع ذلك بسبب ما يكتسبه العبد من المعصية وتأخير التوبة. وقيل: معنى الآية: لا تكلّفنا من الشدائد ما تصعب علينا فعله فنتركه فتزيغ قلوبنا بعد الهداية فأضافوا ما يقع من زيغ القلوب إليه سبحانه لأنّ ذلك يكون عند تشديده تعالى المحنة عليهم كما قال نوح: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾[1] وقال أبو عليّ الجبّائيّ: إنّ المراد لا تزغ قلوبنا من ثوابك ورحمتك وهو ما ذكره الله من الشرح والسعة بقوله: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[2] وذكر أنّ ضدّ هذا الشرح هو الضيق والزيغ اللذان يقعان بالكفّار عقوبة فكأنّهم سألوا الله أن لا يزيغ قلوبهم من هذا الثواب إلى ضدّه من العقاب، أو المعنى أنّهم يقولون: لا تمل قلوبنا عن نهج الحقّ إلى اتّباع المتشابه بتأويل لا ترتضيه.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ إلى الحقّ والمحكم ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك

١ـ سورة نوح: ٦.

٢ـ سورة الأنعام: ١٢٥.

﴿رَحْمَةً﴾ واسعة تقرّبنا إليك ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ وإطلاق صيغة المبالغة ليتناول كلّ موهوب.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ﴾ بعد الموت ﴿لِيَوْمٍ﴾ لجزاء يوم وحسابه وهو يوم القيامة ﴿لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ من وقوعه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ قيل: إنّ الكلام على الاستيناف فيكون إخباراً من الله. وقيل: بقيّة كلام دعاء الراسخين وإن خالف آخر الكلام أوّله في الخطاب والغيبة فيكون مثل قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾[1] والتقدير الخطاب.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾

بيّن في الآية حال الّذين في قلوبهم زيغ فقال: إنّ الّذين كفروا بآيات الله ورسله و«من» في الآية بمعنى «عند» لا تدفع أموالهم ولا أولادهم عند الله شيئا وقال المبرّد: «من» على أصلها والمعنى من عذاب الله شيئا ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الكافرون حطب النار وتتّقد النار أجسامهم كما قال في موضع آخر ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾.[2]

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾

«الدأب» مصدر دأب إذا اجتهد في العمل وكدح فيه ونقل من هذا المعنى إلى العادة والتمرّن أي: عادة هؤلاء في الكفر كعادة آل فرعون والّذين قبل فرعون من الأمم الكافرة ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بيان لدأبهم كأنّه قيل: كيف كان دأبهم؟ فقيل: كذّبوا بآياتنا وكتبنا ورسلنا ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فبسبب كفرهم

١ـ سورة يونس: ٢٢.

٢ـ سورة الأنبياء: ٩٨.

عاقبهم الله بعذابه فحال هؤلاء كحال أولئك، و«الدأب» في الأصل التلو والتابع ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن كفر بآياته.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ﴿١٢﴾

قال ابن عبّاس: إنّ يهود المدينة لمّا شاهدوا غلبة رسول الله ﷺ على المشركين يوم بدر قالوا: والله إنّه النبيّ الأميّ الّذي بشّرنا به موسى وفي التوراة نعتهوهمّوا باتّباعه، فقال بعضهم. لا تعجلوا حتّى ننظر إلى وقعة له اخرى فلمّا كان يوم اُحد شكّوا وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدّة فنقضوه وانطلق كعب بن الأشرف في ستّين راكبا إلى أهل مكّة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ البتّة عن قريب وقد صدق الله وعده بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وفتح خيبر وضرب الجزية على من عداهم وهو من شواهد النبوّة، وقيل: المراد كفّار مكّة ومشركوهم ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ وتجمعون إليها يوم القيامة، وقرئ بالياء على الغياب فيمكن أن يكون المغلوبون والمحشورون غير المخاطبين وأنّهم قوم آخرون، ويمكن أن يكونوا إيّاهم. قال الفرّاء: يقال: قل لعبد الله: إنّه قائم وإنّك قائم. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: بئس ما مهّدتم لأنفسكم وبئس القرار.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ ﴿١٣﴾

نزلت في قصّة بدر وكان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً على عدّة أصحاب طالوت: سبعة وسبعون رجلاً من المهاجرين ومائتان وستّة

وثلاثون رجلاً من الأنصار، وكان صاحب لواء رسول اللهﷺ والمهاجرين عليّ بن أبي طالب وصاحب لواء الأنصار سعد بن عبادة، وكانت الإبل في جيش رسول اللهﷺ سبعين بعيرا والخيل فرسين فرس للمقداد بن أسود وفرس لمرثد بن أبي مرثد وكان معهم من السلاح ستّة أدرع وثمانية سيوف وجميع من استشهد يومئذ أربعة عشر رجلاً من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

واختلف في عدّة المشركين فروي عن عليّﷺ وابن مسعود أنّهم كانوا ألفاً[1]، وعن قتادة وعروة بن الزبير والربيع كانوا بين تسعمائة إلى ألف وكانت خيلهم مائة فرس ورأسهم عتبة ابن عبد شمس، وكان حرب بدر أوّل مشهد شهده رسول اللهﷺ. المعنى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ جواب قسم محذوف أي: والله قد كان لكم أيّها اليهود المغترّون بعددهم ﴿ءَايَةٌ﴾ عظيمة دالّة على صدق ما أقول لكم: أنّكم ستغلبون ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ وجماعتين فإنّ المغلوبة منها كان مدلّة بكثرتها معجبة لغرّتها وقد لقاها ما لقاها فسيصيبكم ما يصيبكم ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ وتلاقتا بالقتال يوم بدر ﴿فِئَةٌ﴾ خبر مبتدء محذوف أي: إحداهما فئة ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهم لا كثرة فيهم ولا شوكة وهم أصحاب محمّدﷺ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي: فئة اخرى ﴿كَافِرَةٌ﴾ بالله ورسوله.

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾ أي: ترى الفئة الكافرة الفئة الاولى المؤمنة مثلي عدد الرائين وضعفهم ﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ في ظاهر العين، واختلف في معناه فقيل: معناه يرى المسلمون المشركين مثلي عدد أنفسهم قلّلهم الله في أعينهم حتّى رأوهم ستّمائة وستّة وعشرين رجلاً تقوية لقلوبهم وذلك أنّ المسلمين قيل لهم: فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين فأراهم الله عدوّهم حسب ما حدّ لهم من العدد الّذي يلزمهم أن يثبتوا لهم ولا يحجموا عنهم عن ابن

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٤٠٨. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢٤٧. وبحارالانوار، ج ١٩، ص ٢٠٦.

مسعود وجماعة من المفسّرين. وقيل: إنّ الرؤية للمشركين يعني: يرى المشركون المسلمين ضعيفهم فإنّ الله تعالى قلّل المسلمين في أعين المشركين قبل القتال ليجترؤوا ولا ينصرفوا فلمّا أخذوا في القتال كثّرهم في أعينهم ليجبنوا وقلّل المشركين في أعين المسلمين ليجترؤوا عليهم وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ...﴾[1]. وذلك أحسن أسباب النصر للمسلمين والخذلان للكافرين، وهذا المعنى على قراءة الياء وأمّا من قرأ بالتاء فلا يحتمله إلّا القول الأوّل على أن يكون الخطاب لليهود المعنيّون بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ وهم يهود بني قينقاع فكأنّه قال: ترون أيّها اليهود المشركين؟ المسلمين مع أنّ الله أظفرهم عليهم فأنتم كذلك فلا تغترّوا بكثرتكم، وهذا قول البلخيّ. ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يقوّي بإعانته من يريد نصره من غير توسيط الأسباب العاديّة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من رؤية القليل كثيرا والكثير قليلا ﴿لَعِبْرَةً﴾ من العبور كالجلسة من الجلوس والمراد الاتّعاظ فإنّه نوع من العبور إلى فهم المعنى أي: عظة عظيمة لذوي العقول والبصائر. فعلى العاقل أن يعتبر ولا يغترّ بكثرة الأعداد والأموال فإنّ الله يمتّعه قليلا ثمّ يضطرّه إلى عذاب غليظ.

قيل: إنّه قدم على الأستاذ أبي عليّ الدقّاق مؤمن فقير وعليه مسح[2] وقلنسوة فقال بعض أصحابه من المريدين للفقير على وجه المطايبة: بكم اشتريت هذا المسح؟ فقال اشتريته بالدنيا فطلب منّي الآخرة فلم أبعه.

قال أبو بكر الورّاق: طوبى للفقراء في الدنيا والآخرة لا يطلب السلطان

١ـ سورة الأنفال: ٤٤.

٢ـ نسيج الشعر.

منه في الدنيا الخراج ولا الجبّار في الآخرة الحساب.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

أي: حسّن لهم ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ والشهوة توقان النفس إلى المشتهى والمزيّن هو الله ولا يقدر عليها أحد من البشر وهي ضرورة فينا، وإنّما جعلها فينا ليصحّ التكليف ولا يمكننا رفعها عن نفوسنا وذلك على سبيل الامتحان وتشديد التكليف كما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1] وقيل: زيّن الله ما يحسن منه وزيّن الشيطان ما يقبح منه بالوسوسة، عن أبي عليّ الجبّائيّ. وخلق الله الملائكة عقولاً بلا شهوة والبهائم ذات شهوات بلا عقول وجعلهما في الإنسان فمن غلب عقله شهوته فهو أفضل من الملائكة ومن غلب عليه شهوته فهو أرذل من البهائم.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وقدّم ذكر النساء أي: حال كونها من طائفة النساء لعراقتهنّ في معنى الشهوات فإنّهنّ حبائل الفتنة والشيطان ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾ ويقع الفتنة بسببهم على جمع المال وكسب الحرام ولأنّ العلاقة بهم يمنع الإنسان عن محافظة حدود الله قيل: أولادنا فتنة إن عاشوا فتنونا وإن ماتوا أحزنونا. وعدم التعريض للبنات لعدم الاطّراد في حبّهنّ مثل البنين. ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾«القنطار» المال الكثير المجتمع و، قيل: «القنطار» مائة ألف دينار أو ملئي مسك ثور قاله أبو جعفرعليه السلام، أو سبعون ألفا أو أربعون ألف مثقال أو ثمانون ألفا أو مائة رطل أو ألف ومائتا مثقال أو ألف دينار أو مائة منّ ومائة

١ـ سورة الكهف: ٧.

مثقال ومائة رطل ومائة درهم أودية النفس. وفي «الكشّاف»: المقنطرة مبنيّة من لفظ القنطار للتوكيد كقولهم: ألوف مؤلّفة وبدر مبدّرة. وقيل: «المقنطرة» المضاعفة قال الفرّاء: هي تسعة قناطير. وقيل: هي الأموال المنضد بعضها على بعض وجمع جميع الأقوال يرجع إلى الكثرة.[١] ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ قيل: المراد الخيل الراعية.[٢] وقيل: هي الحسنة السيماء. وقيل: من السمة والعلامة أي: المعلمة «و الخيل» جمع لا واحد له من لفظه، واحده فرس واشتقاقها من الخيلاء فإنّها لم يتخيّل في عين صاحبها أعظم منها وركوبها فوجب الخيلاء لراكبها بعد أن تمكّن عليها ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ أي: الإبل والبقر والغنم والزرع كلّ منها فتنة للناس: أمّا النساء والبنون فتنة للجميع، والذهب والفضّة فتنة لأهل الغنى والتجّار، والخيل فتنة للملوك، والأنعام لأهل البوادي، والحرث لأهل الرساتيق.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأشياء المعهودة ﴿مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ما يمتّع به في الحياة الدنيا أيّاماً قلائل فيفنى سريعاً ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ وهو الجنّة لأنّ مرجع أهل الله إليها وفي الآية تزهيد في طيّبات الدنيا في الجملة وترغيب فيما عند الله فعلى العاقل أن يأخذ من الدنيا قدر البلغة ولا يستكثر بالاستكثار الّذي يورط صاحبه في المحظور.

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمّد، والهمزة للتقرير أي: أخبركم بما هو خير ممّا فصّل

١ـ راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٥٣، والتبيان، ج ٢، ص ٤١١.
٢ـ جامع البيان، ج ٣، ص ٢٧٥.

من تلك المستلذّات المزيّنة لكم ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ والمراد أهل التّقوى «للّذين» خبر مبتدؤه «جنّات» والمراد من التقوى التحرّز عن المعاصي والتبتّل إلى الله بالإعراض عمّا سواه كما ينبئ عن هذا المعنى النعوت الآتية ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ نصب على الحاليّة ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ ومبرّءات من العيوب الظاهرة كالحيض والقاذورات ومن العيوب الباطنة كالغضب والحسدونحوه، قال النبيﷺ: **«شبر من الجنّة خير من الدنيا وما فيها»**[1] ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ وإزاء هذه الجنّات رضوانه أي: رضوان لا يقادر قدره كائن منه تعالى. قال أهل التحقيق: الجنّات في الآية إشارة إلى الجنّة الجسمانيّة، والرضوان إشارة إلى الجنّة الروحانيّة وهي عبارة عن تجلّي أنوار رضاء الله وجلاله لروح العبد واستغراق العبد في استدراك لذّة المعرفة فيصير العبد في مقام الأوّل راضياً عن الله وفي آخره مرضيّاً عنده تعالى[2] وإليه الإشارة بقوله: ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾.[3]

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ وبأعمالهم فيعاقب ويثيب حسب ما يليق.

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)﴾

ثمّ وصف المتّقين الّذين سبق ذكرهم بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[4] فقال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي: المتّقين يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ صدّقنا بك ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: استرها وادفع عنّا عذاب النّار

١ـ بحارالانوار، ج ٨، ص ١٤٨. ومعارج اليقين في أصول الدين، ص ٤٩٥.

٢ـ تفسيرالرازي، ج ٧، ص ٢١٤.

٣ـ سورة الفجر: ٢٨.

٤ـ سورة آل عمران: ١٥.

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ نصب على المدح بإضمار أعني الصابرين وهو وصف آخر ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡا﴾ والصبر التحمّل من مشاقّ الدنيا والطاعات ﴿وَٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في نيّاتهم وأقوالهم ﴿وَٱلۡقَـٰنِتِينَ﴾ المواظبين على الدعاء والعبادة ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ أموالهم في سبيل الله﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ وتوسّط الواو بين الصفات مؤذن بأنّ كلّ صفة مستقلّة بالمدح.

وقيل: إنّ الصبر ثلاثة: الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية.[1] والصدق يجري في القول وهو مجانبة الكذب وفي الفعل وهو إتيانه وعدم الانصراف عنه وفي النيّة وهو العزم عليه حتّى يفعل، والإنفاق يتناول على أقاربه ورحمه لله وفي الجهاد والصدقات على الفقراء وسائر وجوه البرّ.

«و الاستغفار» سؤال المغفرة وتخصيص الأسحار لأنّ الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة والعبادة حينئذ أشقّ والنفس أصفى والروح أجمع لا سيّما للمجتهدين وأبعد للرياء قال يعقوب‍: «سأستغفر لكم» أخّره إلى وقت السحر قال النبيّ‍ ينزل الله إلى السماء الدنيا كلّ ليلة حتّى يبقى ثلث الليل فيقول: أنا الملك من ذا الّذي يدعوني فأستجيب له؟ من ذا الّذي يسألني فأعطيه من الّذي يستغفرني فأغفر له؟[2] ومعنى ينزل الله ينزّل الله ملكاً من أمره فكأنّه ينزل تعالى وهو تعالى شأنه عن النزول والصعود. قال لقمان لابنه: **«يا بنيّ لا تكوننّ أعجز من هذا الديك يصوت بالأسحار وأنت نائم على فراشك»**.[3]

والحاصل إذا كان التسبيح من فعل الحيوانات العجم بل النباتات

۱ـ الكافي، ج ۲، ص ۹۱. وتحف العقول، ص ۲۰٦. ووسائل الشيعة، ج ۱٥، ص ۲۳۸.

۲ـ سنن الترمذي، ج ٥، ص ۱۸۸، والسنن الكبرى، ج ٤، ص ٤۲۰.

۳ـ تفسير البغوي، ج ۱، ص ۲۸٥. والدرالمنثور، ج ٥، ص ۱٦۳.

والجمادات كما يفصح عن هذا البيان قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] فالإنسان الّذي هو العالم الكبير أولى بأن يشتغل بالتسبيح.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نزلت الآية حين جاء رجلان من أحبار الشام فقالا للنبي ﷺ: أنت محمّد؟ «قال: نعم». قالا: أنت أحمد؟ «قال: نعم»، قالا: أخبرنا عن أعظم الشهادة في كتاب الله فأخبرهما. أي: أثبت الله بالحجّة القطعيّة وأعلم سبحانه بمصنوعاته الدالّة على وحدانيّته في خلقة الأشياء إذ لا يقدر أحد أن ينشئ شيئاً منها قال ابن عبّاس: خلق الله الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة فشهد لنفسه قبل خلق الخلق حين كان ولم يكن سماء ولا أرض ولا برّ ولا بحر فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ...﴾.

و«الملائكة» عطف على الاسم الجليل أي: أقرّت الملائكة بذلك لمّا عاينت من عظم قدرته وأولوا العلم آمنوا به واحتجّوا عليه بالأدلّة التكوينيّة والتشريعيّة وهم الأنبياء والمؤمنون العالمون. قال الزجّاج: معنى «شهد الله» أي: علم الله وأخبر بما يقوم مقام الشهادة على وحدانيّته من عجائب صنعه فإنّ الشاهد هو العالم الّذي يبيّن ما علمه، ومن هذا المعنى شهد فلان عند القاضي أي: بيّن علمه، وقال الحسن: (في الآية تقديم وتأخير والتقدير: شهد الله أنّه لا إله إلّا هو قائماً بالقسط، وشهدت الملائكة أنّه لا إله إلّا هو قائماً بالقسط وشهد أولو العلم أنّه لا إله إلّا هو قائماً بالقسط). والقسط: العدل

١ـ سورة الإسراء: ٤٤.

الّذي قامت به السماوات.

وقيل: معنى قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أنه يقوم بتدبير الخلق وجزاء الأعمال بالعدل كما يقال: فلان قائم بالتدبير أي: يجري أفعاله على الاستقامة.

وإنّما كرّر قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه بيّن بالأوّل أنّه المستحقّ للتوحيد وبالثاني أنّه القائم بتدبير الخلق من الأرزاق والآجال والإثابة والمعاقبة

يفعل ما يشاء لا معقّب لحكمه وتضمّنت الآية الإبانة عن فضل أهل العلم والعلماء لأنّه قرن العلماء بالملائكة وشهادتهم بشهادة الملائكة.

وممّا جاء في فضل العلم والعلماء من الحديث ما رواه جابر بن عبد الله عن النبيﷺ أنّه قال: **«ساعة من عالم يتكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاما»**.[1]

أقول: المراد من العلم علم الدين والشريعة.

وروى أنس بن مالك عنهﷺ قال: **«تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله حسنة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وتذكّره لأهله قربة لأنّه معالم الحلال والحرام ومنار سبيل الجنّة والنار والأنيس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدّث في الخلوة والدليل على السرّاء والضرّاء والسلاح على الأعداء والقرب عند الغرباء يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة يقتدى بهم ويقتفي بآثارهم وينتهي إلى رأيهم وترغب الملائكة في خلّتهم وبأجنحتها تمسحهم وفي صلاتهم تستغفر لهم وكلّ رطب ويابس مستغفر لهم حتّى حيتان البحر وهوامّ الأرض وسباعها وأنعامها والسماء ونجومها، ألا وإنّ العلم حياة القلب ونور الأبصار وقوّة الأبدان يبلغ بالعبد منازل الآخرة ومجلس الملوك والفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام، والعلم إمام**

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٥٨. وبحارالانوار، ج ٢، ص ٢٣.

العمل والعمل تابعه».[١]

وروى أنس في فضل هذه الآية قال: من قرأ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ...﴾ عند مقامه خلق الله منها سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة.

وقال سعيد بن جبير: كان حول الكعبة ثلاثمائة وستّون صنما فلمّا نزلت ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ...﴾ خرّوا سجّداً.

وعن غالب القطّان قال: أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فكنت أختلف إليه فلمّا كنت ذات ليلة أردت أن أصدر إلى البصرة قام من اللّيل فتهجّد فمرّ بهذه الآية: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ قلت في نفسي: لقد سمع فيها شيئاً فصلّيت معه وودّعته ثمّ قلت: آية سمعتك تردّدها فما بلغك فيها؟ قال والله: لا أحدّثك بها إلى سنة فلبثت على بابه سنة فلمّا مضت السنة قلت: يا أبا محمّد قد مضت السنة قال: حدّثني أبو وائل عن عبد الله (أقول: المراد عبد الله بن عمر) قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله: إنّ لعبدي هذا عندي عهدا وأنا أحقّ من وفى بالعهد أدخلوا عبدي الجنّة».**[٢]

وعن ابن مسعود أنّ النبي ﷺ قال: لأصحابه ذات يوم أيعجز أحدكم أن يتّخذ كلّ صباح ومساء عند الله عهدا قالوا: وكيف ذلك؟ قال: **«يقول كلّ صباح ومساء: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة إنّي أعهد إليك بأنّي أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك وأنّ محمّدا عبدك ورسولك وأنّك إن تكلني إلى**

١ـ انظر: الخصال، ص ٥٥٢ ومجمع البيان، ج٢، ص٢٥٨؛ وبحارالانوار، ج ١، ص ١٦٦.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٥٩. ومستدرک الوسائل، ج ٤، ص ١٨٣.

نفسي تقرّبني من الشرّ وتباعدني من الخير وأنّي لا أثق إلّا برحمتك فاجعل لي عهداً توفنيه يوم القيامة إنّك لا تخلف الميعاد. فإذا قال ذلك طبع عليه بطابع ووضع تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الّذين لهم عند الله عهد فيدخلون الجنّة».[1]

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ جملة مستأنفة مؤكّدة للأولى أي: لا دين مرضيًا عند الله سوى الإسلام الّذي هو التوحيد والإطاعة والتسليم بالشريعة المقرّرة في أحكام الإسلام وهو القرآن، ولا شكّ أنّ الإسلام شهادة التوحيد قلباً ولساناً والقبول لما جاء من عند الله وهذا الحكم ثابت من زمن آدم إلى الخاتم وإنّما الاختلاف في الفروع الّتي هي الشرائع والشروط ويغيّر بما جاء به النبيّ في كلّ زمان فالحقيقة متّحدة والشروط مختلفة وهذا الاختلاف الصوريّ لا ينافي الاتّحاد الأصليّ. ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ نزلت في اليهود والنصارى حين أنكروا نبوّته ﷺ إلّا من بعد ما جاءهم العلم استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال والأوقات أي: ما اختلفوا في الإسلام والنبوّة لمحمّد ﷺ إلّا بعد أن علموا بأنّه الحقّ وعرفوا صحّة كلامه ﷺ بالحجج والآيات وأنّ الاختلاف بعد حصول تلك المرتبة ممّا لا يصدر عن العاقل بغيا بينهم مفعول له لقوله: «اختلف» أي: حسداً كائناً بينهم وطلباً للرياسة.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الناطقة ولم يعمل بمقتضاها

الجملة قائم مقام جواب الشرط، ومن يكفر بآياته فإنّه يجازيه ويعاقبه عن قريب لأنّه تعالى يحاسبهم في أقلّ من لمحة.

۱ـ بحارالانوار، ج ۸۳، ص ۱۵۲. وجوامع الجامع، ج ۲، ص ۴۷۰. والصافي، ج ۳، ص ۲۹۶.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

فإن خاصموك، وخاصمه وفد نصارى وهم نصارى نجران في كون الدين عند الله الإسلام ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ﴾ وأخلصت قلبي وجملتي ﴿لِلَّهِ﴾ وحده لم أجعل فيها لغيره شريكا بأن أعبده وأدعوه وهو القديم الّذي ثبتت ألوهيّته عندكم وعندي وما جئت بشيء بديع حتّى تجادلونني فيه ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ عطف على الضمير في «أسلمت» أي: وأسلم من اتّبعني.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ الّذين لا كتاب لهم من مشركي العرب ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ متّبعين لي كما فعل المؤمنون وصورة اللفظ الاستفهام ومعناه التهديد ومتضمّن للأمر أي: أسلموا فإنّه تعالى قد أزاح العلل ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أم بعد باقون على كفركم؟ ونظيره قوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[1] أي: انتهوا ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ كما هديتم أيّها المسلمون وفازوا بالحظّ الأوفر.

﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن الاتّباع ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ قائم مقام جواب الشرط أي: لم يضرّوك شيئاً أو عليك التبليغ ولست ملتزماً بحصول هدايتهم. روي أنّ رسول الله لمّا قرأ هذه الآية على أهل الكتاب قالوا: أسلمنا، فقال ﷺ لليهود: أتشهدون أنّ عيسى كلمة الله وعبده ورسوله؟ فقالوا: معاذ الله، وقال للنصارى: أتشهدون أنّ عيسى عبد الله ورسوله؟

فقالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبدا وذلك قوله تعالى: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا﴾.[2]

١ـ سورة المائدة: ٩١.

٢ـ تفسيرالثعلبي، ج ٣، ص ٣٦. تفسيرأبي السعود، ج ٢، ص ١٩.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ عالم بأحوالهم وهو وعد ووعيد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾

أي: الّذين يجحدون حجج الله وبيّناته ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ قيل: هم اليهود، عن أبي عبيدة الجراح قال: قلت: يا رسول الله أي: الناس أشدّ عذاباً يوم القيامة؟ فقال: «**رجل قتل نبياً أو قتل رجلاً أمر بمعروف أو نهى عن منكر**». ثمّ قرأ ﷺ ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ...﴾ ثمّ قال ﷺ: «**يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًا من أوّل النهار في ساعة واحدة فقام مائة رجل واثنا عشر رجلا من عباد بني إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا في آخر النهار في ذلك اليوم وهو الّذي ذكره الله**»[1] ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: وقوله ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ لا يدلّ على أن قتل الأنبياء ما هو حقّ بل المراد أنّ قتلهم لا يكون إلّا بغير حقّ كقوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾[2] والمراد تأكيد النفي فإنّ القتل يكون بوجوه من الحقّ وهم كانوا يقتلون بغير وجه من وجوه الحقّ.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المتّصفون بتلك الصفات القبيحة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بطلت أعمالهم الّتي عملوها من البرّ ولم يبق لهم أثر في الدارين ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه.

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٦٢. والتبيان، ج ٢، ص ٤٢٢.

٢ـ سورة المؤمنون: ١١٧.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

تعجيب للرسول ولكلّ من تتأتّى منه الرؤية في حال أهل الكتاب وسوء صنيعهم أي: تنظر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾ وحظًا وافرا من التوراة وما أوتوا من العلوم والأحكام الّتي من جملتها ما علموه من نعوت النبيّ ﷺ ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ قيل: المراد التوراة، قال ابن عبّاس: دعا إليها اليهود فأبوا لعلمهم بلزوم الحجّة لما فيه من الدلالات على صدق نبوّة محمّد ﷺ وإنّما قال: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ لأنّهم كانوا يعلمون بعض ما فيه. وقيل: المراد من «الكتاب» في الآية (القرآن) عن الحسن وقتادة. دعوا إلى القرآن لأنّ ما فيه موافق لما في التوراة من اصول الديانة.[1]

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليحكم ذلك الكتاب بينهم وأضيف الحكم إليه لأنّه يفرق بين الحقّ والباطل فهو الحاكم كما في صفة القرآن «بَشِيراً ونَذِيراً» وذلك أنّ رسول الله ﷺ دخل مدارس اليهود فدعاهم إلى الإسلام فقال له رئيسهم نعيم بن عمر: على أي: دين أنت؟ قال ﷺ: **«على ملّة إبراهيم»**، قال: إنّ إبراهيم كان يهوديّا، قال ﷺ: **«إنّ بيننا وبينكم التوراة فهاتوها فأبوا»**.[2]

وقال الكلبيّ: نزلت الآية في قضيّة الرجم وهي أنّه فجر رجل وامرأة من أهل خيبر وكانا في شرف من قومهما وكان حكمهم في كتابهم الرجم فأتوا رسول الله رجاء رخصة عنده فحكم عليهم بالرجم فقالوا: جرت علينا في الحكم ليس عليهما الرجم، فقال ﷺ: **«بيني وبينكم التوراة»** قالوا: قد أنصفتنا، قال: **«فمن أعلمكم بالتوراة»**؟ قالوا: ابن صوريا فأرسلوا إليه فدعا النبيّ

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٦٥.

٢ـ تفسير جوامع الجامع، ج ١، ص ٢٧٤. والكشاف، ج ١، شرح ص ٤٢٠.

بشيء من التوراة فيه الرجم دلّه على ذلك ابن سلام فقال ﷺ لابن صوريا: «اقرأ» فلمّا أتى على آية الرجم وضع كفّه عليها وقام ابن سلام ورفع إصبعه عنها ثمّ قرأ على رسول الله وعلى اليهود بأنّ المحصن والمحصنة إذا زنيا وقامت عليهما البيّنة رجما وإن كانت المرأة حبلى تربّص حتّى تضع ما في بطنها وأمر رسول الله باليهوديّين فرجما فغضب اليهود لذلك ورجعوا كفّارا فأنزل الله هذه الآية.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الحقّ. ذلك التولّي حاصل بأنهم بسبب أنّهم قالوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ باقتراف الذنوب وركوب المعاصي إلّا أياما معدودات وهي الأيّام الّتي عبدوا فيها العجل أربعون يوما وبسبب قصر المدّة سهّلوا وهوّنوا عليهم الخطوب. وقال الحسن: سبعة أيّام. وقيل: المراد أيّام قلائل منقطعة عن الجبّائي.[1]

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

من قولهم ذلك وأطمعهم هذه العقيدة الفاسدة وما أشبهه نحو قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[2] وآباؤنا الأنبياء يشفعون لنا، وأنّ الله وعد يعقوب أن لا يعذّب أولاده إلّا تحلّة القسم ولذلك ارتكبوا ما ارتكبوا من القبائح.

قال ابن عبّاس: زعمت اليهود أنّهم وجدوا في التوراة أنّ ما بين طرفي جهنّم أعلاها وأسفلها أربعون سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقّوم، وإنّما نعذّب حتّى نأتي على شجرة الزقّوم ؛ فتذهب جهنّم.[3] وأصل الجحيم سقر

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٦٦.

٢ـ سورة المائدة: ١٨.

٣ـ تفسير ابن كثير، ج ١، ص ١٢٢.

وفيها شجرة الزقّوم فإذا اقتحموا من باب جهنّم وتبادروا في العذاب حتّى انتهوا إلى شجرة الزقّوم وملؤوا البطون ؛ قال لهم خازن سقر: زعمتم أنّ النار لن تمسّكم إلّا أيّاما معدودات فدخلت أربعون سنة وأنتم مؤبّدون.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

حاصل المعنى: أي حال يكون حال من اغترّ بالدعاوى الباطلة حتّى أدّاه ذلك إلى الخلود في النار ونظير هذا الكلام قول القائل: أنا أكرمك وإن لم تجئني فكيف إذا جئتني؟ يريد عظم الإكرام أي: كيف يصنعون ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أي: لجزاء يوم لا شكّ في وقوعه ووقوع ما فيه؟ روي أنّ أوّل راية ترفع يوم القيامة من رايات الكفرة راية اليهود فيفضحهم الله على رؤوس الأشهاد ثمّ يأمرهم إلى النار. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ جزاء ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من غير نقص أصلا كما زعموا، واللام في «ليوم» يدلّ على الجزاء ولو قال: «جمعناهم في يوم» لم يدلّ كما يقال: جئته ليوم الخميس يعني لما يكون يوم الخميس ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: كلّ الناس المدلول عليهم «بكلّ نفس».

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

«اللهم» أصله يا الله فالميم عوض عن حرف النداء ولذلك لا يجتمعان وشدّدت الميم لقيامها مقام حرفين وهذا من خصائص الاسم الجليل. وقيل: أصله يا الله أمنا بخير أي: اقصدنا بخير، وخفّف بحذف حرف النداء

ومتعلّقات الفعل وهمزته الّتي هي فاء الفعل ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ أي: جنس الملك على الإطلاق هو مالكه حقيقيّاً يتصرّف فيه إيجادا وإعداما إحياء وإماتة من غير مشارك ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ﴾ بيان لبعض وجوه التصرّف الّذي يستدعيه مالكيّة الملك والإيتاء إثبات مالكيّته على سبيل الحقيقة ﴿مَن تَشَآءُ﴾ إيتاءه ﴿وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ نزعه منه ومن أوتي الملك فالمأتيّ مالكيّته على سبيل المجاز ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ أن تعزّه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما على سبيل الندرة واقتضاء الحكمة ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ أن تذلّه في أحدهما أو فيهما ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ وتعريف الخير للتعميم وتقديم الخبر للتخصيص أي: بقدرتك الخير كلّه لا بقدرة أحد من غيرك قبضا وبسطا، وكلّ أفعال الله من نافع وضارّ صادر عن المصلحة فهو كلّه خير.

روي أنّ رسول الله ﷺ لمّا خطّ الخندق عام الأحزاب وقطع لكلّ عشرة من أهل المدينة أربعين ذراعاً وجمع من وافى الخندق من القبائل عشرة آلاف وأخذوا يحفرونه خرج من بطن الخندق صخرة كالفيل العظيم لم تعمل فيها المعاول فوجّهوا سلمان نحو رسول الله ﷺ فجاءه فأخبره فجاء ﷺ وأخذ المعول من يد سلمان فضربها ضربة صدعتها مقدار ثلثها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها كأنّه مصباح في جوف بيت مظلم فكبّر وكبّر معه المسلمون وقال: «**أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنّها أنياب الكلاب**»، ثمّ ضرب الثانية فكسرها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها حتّى كان مصباحا في جوف بيت مظلم فكبّر النبيّ ﷺ وكبّر المسلمون فقال ﷺ: «**أضاءت لي قصور الحمر في أرض الشام**»، ثمّ ضرب الثالثة وبرق منها برق أضاءت قصور صنعاء فكبّر وكبّر المسلمون فقال ﷺ: «**أخبرني جبرئيل عليه السلام. أنّ امّتي ظاهرة على الأمم كلّها فابشروا**» فقال المنافقون: ألا تعجبون يمنّيكم

ويعدكم الباطل ويخبركم أنّه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنّها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا؟[١]

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من الإعزاز والإذلال، وبعد أن قال المنافقون هذا الكلام نزلت ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ... ﴾ وروى جعفر بن محمّد عن أبيه عن آبائه عن النبيّ ﷺ أنّه قال: **«لمّا أراد الله أن ينزّل فاتحة الكتاب وآية الكرسيّ و﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ... ﴾ و﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ... ﴾ إلى قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تعلّقن بالعرش وليس بينهنّ وبين الله حجاب وقلن: يا ربّ تهبطنا إلى دار الذنوب وإلى من يعصيك ونحن معلّقات بالطهور وبالقدس؟ فقال: وعزّتي وجلالي ما من عبد مؤمن قرأ كنّ في دبر كلّ صلاة مكتوبة إلّا أسكنته حظيرة القدس على ما كان فيه وإلّا نظرت إليه بعيني المكنونة في كلّ يوم سبعين نظرة وإلّا قضيت له في كلّ يوم سبعين حاجة أدناها الفقر وإلّا أعذته من كلّ عدوّ ونصرته عليه ولا يمنعه دخول الجنّة إلّا أن يموت»**.[٢]

وقال معاذ بن جبل: احتبست عن رسول الله ﷺ يوماً لم أصلّ معه الجمعة فقال:**«يا معاذ ما يمنعك عن صلاة الجمعة»**؟ قلت: يا رسول الله كان ليوحنّا اليهود عليّ أوقية من تبر وكان على بابي يرصدني فأشفقت أن يحبسني دونك، قال: **«أتحبّ أن يقضي الله دينك»**؟

قلت: نعم يا رسول الله ﷺ قال: **«قل: قل اللهم مالك الملك إلى قوله: بغير حساب، يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطي منهما ما تشاء وتمنع منهما ما تشاء اقض عنّي ديني فإن كان عليك ملء الأرض ذهباً لأداه الله»**.

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ

١ـ انظر: مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٧٠. وبحارالانوار، ج ١٧، ص ١٧١. وج ٢٠، ص ١٩٠.

٢ـ مستدرک الوسائل، ج ٥، ص ٦٧. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢٦٧. وبحارالانوار، ج ٨٩، ص ٢٦١.

﴿ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: تنقص من الليل فيجعل ذلك النقصان زيادة في النهار وتنقص من النهار فيجعل ذلك النقصان زيادة في الليل على قدر طول النهار وقصره عن ابن عبّاس وعامّة المفسّرين. وقيل: معنى الآية: تدخل أحدهما في الآخر باتيانه بدلاً منه في مكانه عن أبي عليّ الجبّائيّ.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: من النطفة وهي ميّتة بدليل قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾[1] ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي: النطفة من الحيّ وكذلك الدجاجة من البيض والبيض من الدجاجة، وقيل: إنّ معناه: «**تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن**» روي ذلك عن الصادقين عليهما السلام.[2] وقرئ «الميّت» بالتشديد والتخفيف، قال البصريّون: إنّهما سواء كقول الشاعر:

ليس من مات واستراح بميت ... إنّما الميت ميّت الأحياء[3]

فجمع بين اللغتين. وقيل: الميّت بالتشديد الّذي لم يمت بعد وبالتخفيف الّذي مات، قال الطبرسيّ: والصحيح الأول.[4]

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: بغير تقتير لأنّ عادة المقتّر لا ينفق إلّا بحساب. قال أبو العبّاس المقرئ: ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه: بمعنى التعب قال تعالى: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وبمعنى العدد قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5] وبمعنى المطالبة قال تعالى: ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[6] وفي الآية إشارة على أنّ من قدر على هاتيك

١ـ سورة البقرة: ٢٨.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٧١. ونورالثقلين، ج ١، ص ٣٢٥.

٣ـ الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٣١٠. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢٦٨.

٤ـ مجمع البيان، ج٢، ص٢٦٨.

٥ـ سورة الزمر: ١٠.

٦ـ سورة ص:٣٩.

الأفاعيل العظام المحيّرة للعقول فقدرته على أن ينزع الملك من العجم ويذلّهم ويؤتيه العرب ويعزّهم أهون عليه من كلّ هيّن. وفي بعض الكتب: أنا الله ملك الملوك قلوب الملوك ونواصيهم بيدي فإنّ العباد إن أطاعوني جعلتهم لهم رحمة وإن عصوني جعلتهم عليهم عقوبة. فلا تشتغلوا بسبّ الملوك ولكن توبوا إلى أعطفهم عليكم[1]، وهو معنى كما تكونون يولّى عليكم أي: إن كنتم من أهل الطاعة يولّ عليكم أهل الرحمة وإن كنتم أهل المعصية يولّ عليكم أهل العقوبة.

وفي الحديث أنّ موسى عليه السلام ناجى ربّه فقال: **«يا ربّ ما علامة سخطك من رضاك؟ فأوحى الله إليه إذا استعملت على الناس خيارهم فهو علامة رضاي عنهم وإذا استعملت شرارهم فهو علامة سخطي عليهم»**. وفيه إشارة إلى أنّ الولاة يكونون على حسب أعمال الرعايا وأحوالهم صلاحا وفسادا فعلى كلّ واحد من المسلمين التضرّع لله والإنابة إليه بالتوبة والاستغفار عند فشوّ الظلم وشمول الجور من السلطان ويظهر جور الوالي وعدله في الضرع والزرع والأشجار والمكاسب والحرف بقلّها ونزوع البركة عنها وتكسّد معاملة أهل الحرف في الأمصار.

قال النبي صلى الله عليه وآله: **«سيأتي زمان لأمّتي يكون امراؤهم على الجور وعلماؤهم على الطمع وعبّادهم على الرياء وتجّارهم على أكل الربا ونساؤهم على زينة الدنيا»**.[2]

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)

١ـ الكشاف، ج ١،شرح ص ٤٢٢. وتفسيرأبي السعود، ج ٢، ص ٢٢.

٢ـ بحارالانوار، ج ٢٢، ص ٤٥٤. وج ١٠٠، ص ٨٢. ومستدرک الوسائل، ج ١١، ص ٣٧٦.

أي: لا يجوز ولا ينبغي للمؤمنين أن يتّخذوا الكافرين أولياء لنفوسهم فيصاحبوهم ويستغيثوا بهم في أمورهم ويظهروا المحبّة لهم كما قال في عدّة مواضع من القرآن: نحو قوله: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾[1] وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[3] نهوا عن موالاتهم ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى أنّ المؤمنين هم الأحقّاء في المولاة فلا تؤثروهم عليهم في الولاية. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: اتّخاذهم أولياء ﴿فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من ولايته تعالى ﴿فِى شَىْءٍ﴾ يعني: أنّه منسلخ عن ولاية الله وهذا أمر معقول فإنّ موالاة الوليّ وموالاة عدوّه متنافيان قال الشاعر:

تـودّ عـدوّي ثـمّ تـزعم أنّنـي صديقك ليس النوك عنك بعازب[4]

والأعداء ثلاثة: عدوك وعدوّ صديقك وصديق عدوك.

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟﴾ أي: إلّا حال اتّقائكم من جهتهم ﴿تُقَىٰةً﴾ أي: اتّقاء مثل أن يكون المؤمن بينهم ويخاف منهم فإنّ الموالاة حينئذ مع اطمينان النفس بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع فحينئذ لا بأس كما قال عيسى عليه السلام: «**كن وسطا وامش جانبا**»[5] أي: كن فيما بينهم صورة وتجنّب عنهم سيرة، وهذا رخصة فلو صبر حتّى قتل كان أجره عظيما.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: يخوّفكم الله ذاته المقدّسة كقوله: فاتّقون واخشون، فلا تتعرّضوا لسخطه بموالاة أعدائه وهذا وعيد شديد ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ

١ـ سورة المجادلة: ٢٢.

٢ـ سورة المائدة: ٥١.

٣ـ سورة الممتحنة: ١.

٤ـ جوامع الجامع، ج ١، ص ٢٧٦. والكشاف، ج ١، شرح ص ٤٢٢.

٥ـ تفسير البيضاوي، ج ٢، ص ٢٦. وتفسيرأبي السعود، ج ٢، ص ٢٣.

﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: إلى جزاء الله مرجع الخلق.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾ من الضمائر الّتي من جملتها ولاية الكفر ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ فيما بينكم ﴿يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم إليه ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه شيء منه وهو من باب إيراد العامّ بعد الخاصّ تأكيداً﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيقدر على عقوبتكم ولو علم بعض عبيد السلطان أنّ السلطان مطّلع على حال عبيده وقد بثّ السلطان من يتجسّس على بواطن أموره لأخذ حذره فما بال من علم أنّ الله يعلم السرّ وأخفى من السرّ فكيف يكون أمنا؟ اللهم إنّا نعوذ بك من اغترارنا بسترك المرخى.

قال النبيﷺ: **«أربعة من الكبائر: لبس الصوف لطلب الدنيا، وادّعاء محبّة الصالحين وترك فعلهم، وذمّ الأغنياء والأخذ منهم، ورجل لا يرى الكسب ويأكل من كسب الناس»**. واعلم أيّها العاقل أنّ الحبّ في الله والبغض في الله باب عظيم وأصل من اصول الإيمان والمراودة الاختياريّة والتوافق المعنويّ بين المؤمن والكافر لا يمكن إلّا أن يكون الإيمان إيمانا صوريّا بل موافقة المؤمن مع الفاسق ومعاشرته إذا لم تكن عن ضرورة في هذا الحكم قال الشاعر:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه فكلّ قرين بالمقارن يقتدي

قال أمير المؤمنينعليه السلام:

فلا تصحب أخا الجهل وإيّاك وإيّاه فكم من جاهل أردى حليماً حين آخاه[1]

فاصحب العاقل، والعقل ما عقل به عن السيّئات، وحضّ القلب على الحسنات، ويكون معقلاً عن الدنيّات ونجاتاً من المهلكات، والنظر في العواقب

١ـ كنز العمال، ج ٩، ص ١٧٩ ؛ ودستورمعالم الحكم، ص ٢٠٠.

قبل حلول المصائب، والوقوف مقادير الأشياء قولاً وفعلا.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

«يوم» منصوب على الظرف متعلّق بقوله: «يُحَذِّرُكُمُ الله» ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ في الدنيا من طاعة و﴿خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ عندها بأمر الله وكذلك ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ تجد محضرا.

﴿تَوَدُّ﴾ وتحبّ وتتمنّى يوم تجد صحائف الأعمال من الخير والشرّ أو أجزيتها حاضرة، وعن قريب يغلق الباب بغتة ويؤخذ فلتة فليسارع العبد إلى دفع الموبقات وطلب المحسّنات قبل الإغلاق، وفي الحديث: أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس من لا درهم له ولا متاع، قال ﷺ: «المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا أو سفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي أخذ من خطاياهم وطرحت عليه ثمّ يطرح في النار»[1] ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ﴾ أي: بين النفس وبين ذلك اليوم وهو له أو بين النفس والعمل السوء ﴿أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي: مسافة واسعة كما بين المشرق والمغرب ولم يعمل ذلك السوء قطّ.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: ويقول الله: احذروا من سخطي، تكرير لما سبق ليكون على بال منهم لا يغفلون عنه ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ بتحذيره إيّاكم قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قطّ وأظمأ ما كانوا قطّ وأعرى ما كانوا قطّ وأنصب ما كانوا قطّ فمن أطعم الله أطعمه ومن سقى الله سقاه ومن كسى الله كساه ومن عمل لله كفاه».[2]

١ـ بحار الانوار، ج ٦٩، ص ٦، ومسند احمد، ج ٢، ص ٣٠٣. وفتح القدير، ج ٤، ص ١٨٣.

٢ـ الدر المنثور، ج ٥، ص ١٣٥.

قال النبي ﷺ: **«أيها الناس لا تعجبوا بأنفسكم وبكثرة أعمالكم وبقلّة ذنوبكم ولا تعجبوا بأمر من الطاعة حتّى تعلموا بم يختم له فإنّ الأعمال بخواتيمها ولو أنّ أحدكم جاء يوم القيامة بعمل سبعين نبياً لتمنّى الزيادة لهول ما يقدم عليه يوم القيامة وأقلّ ما يلزمكم أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه».**

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

حذفت الياء في «أطيعون» و«في فاتّقون» لأنّه ختم آية ينوى بها الوقف وليس هذا الجهة في «فاتّبعوني» ولهذا لم تسقط الياء.

نزلت الآية حين دعا رسول الله ﷺ كعب بن الأشرف ومن تابعه إلى الإيمان فقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فنزلت الآية: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﷺ: إنّي رسول الله أدعوكم إلى من تحبّونه بزعمكم فإن كنتم تحبّونه ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ على دينه وامتثلوا أمره ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فإنّ المحبّ إذا كان صادقاً يقتضي أن يكون حريصاً على مطاوعة محبوبه ومحبوب محبوبه ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ فيقربكم من جنّات عزّه ويبوّئكم في جوار كرامته. وعبّر عن هذا المعنى بالمحبّة بطريق الاستعارة أو المشاكلة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ في جميع الأوامر والنواهي ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ إمّا من تمام مقول القول فهي صيغة المضارع المخاطب بحذف إحدى التائين أي: تتولّوا وتعرضوا، وإمّا كلام متفرّع مسوق من جهته تعالى فهي صيغة الماضي الغائب، نفي المحبّة كناية عن بغضه لهم وسخطه عليهم أي: لا يرضى عنهم، ودلّت الآية على شرف النبي ﷺ فإنّه جعل متابعته متابعة حبيبه ومن ادّعى محبّة الله وخالف سنّة نبيّه فهذا كذّاب بنصّ الآية قال النبي ﷺ: **«والّذي**

نفس محمّد بيده لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه»[١]. الحديث رواه البخاريّ عن عبد الله بن هشام.

وامّة محمّد ﷺ على الحقيقة من اتّبعه وأطاعه ولا يتّبعه إلّا من أعرض عن الدنيا فإنّه ﷺ ما دعا إلّا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلّا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما أعرضت عنها وأقبلت على الله وصرفت الأوقات لأعمال الآخرة فقد سلكت سبيله الّذي يسلكه، وبقدر ما اتّبعته صرت من امّته وحزبه، وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله وأعرضت عن متابعته ولو خرجت عن مكمن الغرور وأنصفت من نفسك يا رجل وكلّنا ذلك الرجل لعلمت أنّك من حين تمسي لا تسعى إلّا في الحظوظ العاجلة ثمّ تطمع في أن تكون غدا من أتباعه. ما أبعد ظنّنا وما أفحش طمعنا!

إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

«الاصطفاء» أخذ ما صفي من الشيء أي: اختار آدم بالكمالات القدسيّة للرسالة كما في كافّة الرسل كلّ بحسبه أو اصطفاه بتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة إيّاه وإسكانه الجنّة واصطفى نوحاً بما ذكر من الوجه الأوّل أو اصطفاه بكونه أوّل من نسخ الشرائع وبإطالة عمره وجعل ذرّيّته هم الباقين واستجابة دعوته في حقّ الكفرة والمؤمنين وحمله في السفينة.

[وَ]اصطفى ﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وهو إسماعيل وإسحاق والأنبياء من أولادهما الّذين من جملتهما النبيّ ﷺ ويفهم من اصطفائهم اصطفاء إبراهيم بطريق الأولويّة وبأمور اخرى.

١ـ انظر:الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٤١٤. وعلل الشرايع، ج ١، ص ١٤٠. وبحارالانوار، ج ١٧، ص ١٣. وج ٢٧، ص ٧٦ وص ٨٦ وص ١١٢.

[وَ]اصطفى ﴿ءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ وهو عيسى وامّه ابنة عمران بن ماثان بن العاذر بن أبي هود بن ربّ بن بابل بن ساليان بن يوحنّا بن ارشا بن أومودر بن ميشك بن خارقا بن يونام بن غربا بن بوزان بن ساقط بن ايشا بن راجقيم بن سليمان بن داود بن ايشا بن عويل ابن سلمون بن ياعر بن ممشون بن عمياد بن دام بن خضروم بن مارض يهود ابن يعقوب عليه السلام وقيل: «آل عمران» هو موسى وهارون عليهما السلام ابنا عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب عليه السلام وبين العمرانين ألف وثمانمائة سنة فيكون اصطفاء عيسى بالاندراج في آل إبراهيم والأوّل أظهر بدليل تعقيبه بقصّة مريم، واصطفاء موسى وهارون بالانتظام في سلك آل إبراهيم انتظاماً ظاهراً.

ونظم الآية بما قبلها أنّه لمّا وقعت المنازعة في إبراهيم وعيسى عليهما السلام باختلاف أقوال اليهود والنصارى فيهما بيّن سبحانه بأنّهم مصطفون للرسالة وأنّ الناس مأمورون بمعرفتهم بالنبوّة والإطاعة، أو أنّه لمّا أمر بطاعة محمّد صلى الله عليه وآله وأبى ذلك المشركون بيّن سبحانه أنّه كما اصطفاهم للرسالة من قبله اصطفى محمّداً للرسالة فلا وجه لإنكارهم رسالته صلى الله عليه وآله.

قوله: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جمع عالم وهو اسم لنوع من المخلوقين فيه علامة يمتاز بها عن غيره من الأنواع كالملك والجنّ والإنس يقال: عالم البرّ وعالم البحر وعالم السماء وعالم الأرض والمراد من «العالمين» أهل زمان كلّ واحد منهم وحاصل المعنى: اصطفى كلّ واحد منهم على عالمي زمانهم.[1]

﴿ذُرِّيَّةً﴾ منصوبة على البدليّة من الآلين، والذرّ ـ بالفتح من الذال ـ البثّ والتفريق، وسمّي نسل الثقلين ذرّيّة لأنّه تعالى بثّهم ونشرهم في الأرض أو لأنّه تعالى أخرج نسل آدم من صلبه كهيئة الذرّ وهو جمع ذرّة وهي أصغر

١ـ الخصائص الفاطمية، ج ١، ص ٥٧٨.

النمل، والذرء معناه الخلق فهو خلقهم من العدم إلى الوجود وبثّهم ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ فإنّ آل إبراهيم أعني إسماعيل وإسحاق متشعّبان من إبراهيم المتشعّب من نوح المتشعّب من آدم إلى آخر الأنبياء إلى خاتم النبيّين ﷺ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لأقوال العباد ﴿عَلِيمٌ﴾ بأعمالهم البادية والخافية فيصطفي لخدمة دينه من يعلم استقامته كما قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[١] ولكنّ التفاضل واقع فيهم مثل أن يكون واحدهم خليلاً مثلاً والآخر حبيباً والآخر نجيًا والآخر صفيًا كما قال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.[٢]

قال صاحب تفسير «روح البيان»: والولادة قسمان صوريّة ومعنويّة والأب أب ولّدك وأب ربّاك وعلّمك، والولادة التعليميّة تختلف باختلاف القوابل والاستعدادات وإلى هذه الولادة أشار عيسى عليه السلام بقوله: لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرّتين، فالروح في الصفاء والكدورة يناسب القابل، والمزاج في القرب والاعتدال الحقيقيّ وعدمه إذ الفيض يصل بحسب القابليّة والمناسبة فتتفاوت الأرواح بحسب مراتبها في الصفوة والقرب والبعد عن الفيض الأقدس.

وبهذا البيان يتّضح أنّ كلّ نبيّ كان يتّبع نبيّاً قبله في التوحيد والمعرفة وما يتعلّق بأصول الدين ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ وعلى هذا جعل الله المهديّ الموعود عليه السلام به من نسل محمّد ﷺ وبه يربّي العالم ويصلحه بعد فساده.

أقول: وهذا معنى «الولد سرّ أبيه» كما كان روحانيّة عيسى ببركة صدق مريم مع فضل نبوّته بكامليّته وقابليّته.

١ـ سورة الأنعام: ١٢٤.

٢ـ سورة البقرة: ٢٥٣.

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

«إذ» منصوب بذكر ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ بن ماثان امّ مريم البتول جدّة عيسى عليه السلام وهي حنة بنت فاقوذا ولا يخفى أنّ عمران بن ماثان غير عمران ابن يصهر وكان لعمران ابن يصهر أيضا بنت يقال لها: مريم، لكن هي أكبر من موسى وهارون وهي غير مريم البتول امّ عيسى عليه السلام وما كان العمرانان في عصر واحد. وبالجملة روي أنّ حنة زوجة عمران كانت عاقرا لم يلد إلى أن عجزت فبينا هي في ظلّ شجرة أبصرت بطائر يطعم فرخاً له فتحرّكت نفسه للولد وتمنّته فقالت: يا ربّ إنّ لك عليّ نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدّق به على بيت المقدس فيكون من سدنته وخدمه، فحملت بمريم وهلك عمران وهي حامل وذلك قوله: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى﴾ و«النذر» ما يوجبه الإنسان على نفسه وعبّر عن الولد «بما» لإبهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء بعد ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: معتقا لخدمة بيت المقدس لا أستخدمه ولا أشغله بأموري فيكون خالصاً لخدمة الله ولا يعمل عمل الدنيا ولا يتزوّج ليتفرّغ لعمل الآخرة، وكان هذا النذر مشروعاً شايعاً عندهم لأنّ الأمر في دينهم ذلك الزمان أنّ الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة الأبوين فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الانتفاع ويجعلونهم محرّرين لخدمة المسجد ولم يكن لأحد من الأنبياء إلّا ومن نسله محرّر لبيت المقدس ولم يكن يحرّر إلّا الغلمان ولا تصلح له الجارية لما يصيبها من الحيض فتحتاج إلى الخروج ولكن حرّرت ما في بطنها مطلقا إمّا لأنّها بنت الأمر على تقدير الذكوريّة أو لأنّها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الولد الذكر. ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ أي: ما نذرت، والقبَل أخذ الشيء على وجه

الرضى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لجميع المسموعات العليم لكلّ المعلومات الّتي من جملتها ما في ضميري.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

قالت حنة بعد أن وضعت وكانت ترجو أن يكون غلاما فلمّا رأتها أنّ ما وضعت أنثى خجلت واستحيت وقالت منكّسة رأسها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ومرادها الاعتذار من العدول عن النذر لأنّها أنثى، والضمير المتّصل في «وضعتها» عائد إلى النسمة و « أنثى» حال منه وإنّما قالت هذا الكلام تحسّراً على ما رأته من خيبتها رجاءها وعكس تقديرها ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ وهو كلام من الله وتعظيم من جهته تعالى لما وضعت فإنّها لمّا تحسّرت وتحزّنت على أن ولدت أنثى قال الله: **«إنّها لا تعلم قدر هذا الموهوب والله العالم بالشيء الّذي وضعت»**، وفيه من العجائب وعظائم الأمور فإنّه سيجعله وولده آية للعالمين وهي جاهلة بذلك لا تعلم به. ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ مقول ـ الله ـ أيضاً مبيّن لتعظيم ما وضعت ورفع منزلته، واللام فيهما للعهد أي: ليس الذكر الّذي كانت تطلبه وتتخيّل فيه كمالاً قصاراه أن يكون كواحد من السدنة كالأنثى الّتي وهبت لها فإنّ دائرة علمها لا تكاد تحيط بما فيها من جلائل الأمور فهي أفضل من مطلوبها، وهاتان الجملتان من مقول ـ الله ـ تعالى معترضتان بين قول امّ مريم: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ وقولها: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وفائدتهما التسلية لنفس حنة والتعظيم لوضعها. ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ من مقول حنة عطف على قولها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ أي: جعلت اسمها مريم وغرضها من عرضها على الله استدعاء العصمة لها فإنّ مريم في لغتهم العابدة وخادم الربّ وأيضا إظهار أنّها غير راجعة في نيّتها وإن كانت أنثى وإنّها وإن

كانت لا تصلح لسدانة البيت فلتكن من العابدات فيه، وظاهر هذا الكلام يدلّ على أنّ عمران كان قد مات قبل وضع حنة مريم وإلّا لما تولّت الأمّ تسمية المولود، وكانت مريم أجمل النساء وأفضلها في وقتها.

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي: أجيرها بحفظك وأجير ذرّيّتها وأولادها من مسّ الشيطان المطرود. وعن النبيّ ﷺ **«ما من مولود يولد إلّا والشيطان يمسّه حين يولد فيستهلّ صارخاً من مسّه إلّا مريم وابنها»**[1] فوقاها الله وولدها عيسى منه بحجاب. أو استعاذت بالله لها من إغواء الشيطان.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)

أي: تقبّلها الله مع أنّها أنثى ورضي بها في النذر الّذي نذرته حنة للعبادة في بيت المقدّس ولم يقبل قبلها أنثى وقبوله إيّاها أنّه ما عرتها علّة ساعة من ليل أو نهار بتقبّل حسن مع صغرها فإنّ المعتاد في تلك الشريعة أن لا يجوز التحرير إلّا في حقّ غلام عاقل قادر على خدمة المسجد فلمّا علم الله صدق نيّة حنة وتضرّعها تقبّل مريم مع أنوثتها وصغرها.

﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ مجاز عن التربية الحسنة ما يصلح لها من جميع أحوالها وكان في ذلك الوقت أربعة آلاف محرّر في البيت لم يشتهر خبر أحد

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٨٢. وبحارالانوار، ج ٦٠، ص ١٤٥.

منهم اشتهار صلاحها. قال علماء الأخلاق: من علامة من تولّاه الله أن لا يقصّر في الطاعات ويشهد التقصير في إخلاصه دائما والنقصان في عمله وتحترز عن العجب وعن الاتّكال بالعمل فإنّهما يهلكانه مثل أن يعمل الطاعة فيعجب لها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يفعلها ويطلب من الله العوض عليها فهذه حسنة أحاطت بها سيّئات ويذنب العبد الذنب فيلجأ إلى الله فيه ويلوم نفسه ويستصغرها ويستعظم من لم يفعل ذلك الذنب فهذه سيّئة أحاطت بها حسنات فينبغي للعبد أن يواظب على أصناف الطاعات وبعد أن عملها ينساها كيلا يبطلها العجب لأنّ حفظ الطاعة أشدّ من فعلها ومثلها مثل الزجاجة يسرع إليه الكسر ولا يقبل الجبر، وإنّ الله تعالى أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات فأمّا من فاته من الطاعات صنف أو أعوزه من الآداب جنس فقد من النور بمقدار ذلك فلا تستغنوا ببعضها عن بعضها. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ الفعل لله بمعنى ونسبه الله إلى زكريّا وجعله كافلاً لمصالحها قائماً بتدبير أمورها، وفي الحديث: **«أنا وكافل اليتيم كهاتين»** وهو زكريّا بن اذن بن مسلم بن صدون من أولاد سليمان بن داود عليه السلام.

روي أنّ حنة حين ولدت مريم لفّتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون عليه السلام وهم في بيت المقدّس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم: **«دونكم هذه النذيرة فتنافسوا فيها لأنّها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فإنّ بني ماثان كانت رؤوس بني إسرائيل»** فقال لهم زكريّا: **«أنا أحقّ بها عندي خالتها لأنّ اخت حنة كانت زوجة زكريّا»** فقالوا: لا حتّى نقرع عليها، فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر الأردن فألقوا فيه أقلامهم الّتي كانوا يكتبون بها الوحي على أنّ من ارتفع قلمه فهو الأولى بالتكفّل فألقوا ثلاث مرّات ففي كلّ مرّة يرتفع قلم زكريّا وكانت أقلامهم من حديد ورسبت أقلام

الباقي فتكفّلها.[1]

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ أي: كلّ وقت دخل زكريّا على مريم في المحراب قيل: بنى لها محراباً في المسجد أي: غرفة تصعد إليها بسلّم أو المحراب أشرف المجالس ومقدّمها كأنّها وضعت في أشرف موضع من بيت المقدس أو كانت مساجدهم تسمّى المحاريب لأنّها مواضع محاربة العابد مع الشيطان وكان يدخل زكريّا عليها وحده فإذا خرج غلق عليها سبعة أبواب فكلّما دخل عليها ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ نوعاً من الرزق غير معتاد إذ كان ينزل من الجنّة وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ولم ترضع ثدياً قطّ.

﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ أي: من أين يجيء لك هذا الّذي لا يشبه أرزاق الدنيا وهو آت في غير حينه والأبواب مغلّقة عليك لا سبيل للداخل عليك ﴿قَالَتْ﴾ مريم، قيل تكلّمت وهي صغيرة. وقيل: إنّ زكريّا استرضع لها وضمّها إلى خالتها أم يحيى حتّى إذا شبّت وبلغت مبلغ النساء بنى بها محراباً في المسجد ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: من الجنّة وهذه تكرمة لها من الله وإن كان ذلك خارقاً للعادة فإنّ عندنا يجوز أن يظهر الآيات الخارقة للعادة على غير الأنبياء من الأولياء ومن منع ذلك من المعتزلة قالوا فيه قولين أحدهما: أنّ ذلك كان تأسيساً لنبوّة عيسى، والآخر: أنّه بدعاء زكريّا لها فكانت معجزة زكريّا وعلى القول الأوّل إرهاصاً لنبوّة عيسى عليه السلام.

قال صاحب تفسير «روح البيان»: وعن النبي صلى الله عليه وآله أنّه جاع في زمن قحط فأهدت له فاطمة عليها السلام رغيفين وبضعة لحم أثرته بها فرجع بها إليها بطبق فقال: «**هلمّي يا بنيّة فكشف عن الطبق فإذا هو مملوء خبز ولحما**». فعلمت أنّها

١ـ مجمع البحرين، ج ١، ص ١١٩. وأيضاً تفسير الرازي، ج ٨، ص ٣٠.

نزلت من عند الله فقال ﷺ لها: «أنّى لك هذا»؟ فقالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال ﷺ: «الحمد لله الّذي جعلك شبيهة بسيّدة بني إسرائيل» ثمّ جمع رسول الله عليّاً والحسنين فأكلوا وشبعوا وبقي الطعام كما هو.[1]

والعيّاشيّ عن الباقر عليه السلام قال: «إنّ فاطمة ضمنت لعليّ عليه السلام عمل البيت والعجن والخبز وقسم البيت، وضمن عليّ لها ما كان خلف الباب من نقل الحطب والطعام وأمثاله فقال لها يوماً: يا فاطمة هل عندك شيء؟ فقالت: لا والّذي عظّم حقّك ما كان عندنا منذ ثلاث إلّا شيء نقريك به، قال: أفلا أخبرتني؟ قالت: نهاني رسول الله أن أسألك شيئا، فقال: لا تسأل ابن عمّك شيئا إن جاءك بشيء وإلّا فلا تسأليه. قال: فخرج عليّ فلقى رجلاً فاستقرض منه ديناراً ثمّ أقبل به فلقي في الطريق المقداد بن الأسود فقال للمقداد: ما أخرجك في هذه الساعة؟ قال: الجوع والّذي عظّم حقّك يا أمير المؤمنين، قال عليّ عليه السلام: فهو أخرجني وقد استقرضت دينارا وساؤثرك به ودفعه إليه. فأقبل عليّ فوجد رسول الله جالساً وفاطمة تصلّي وبينهما شيء مغطّى، فلمّا فرغت فإذا جفنة من خبز ولحم قال عليه السلام: يا فاطمة أنّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب فقال رسول الله ﷺ لعلي: ألا أحدّثك بمثلك ومثلها؟ قال: بلى، قال: مثل زكريّا إذا دخل على مريم المحراب ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فأكلوا منها شهراً وهي الجفنة الّتي يأكل منها القائم عليه السلام وهي عندنا».[2]

وفي الكافي أورد هذا الخبر بطريق آخر والمفاد هذا المفاد وأيضاً من طريق العامّة بنحو ثالث كما ذكرت، وأورده الزمخشريّ والبيضاويّ وغيرهم في تفاسيرهم. ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ أي: حيث كان قاعداً زكريّا عند

١ـ جوامع الجامع، ج ١، ص ٢٨٢. والكشاف، ج ١، شرح ص ٤٢٧. وبحارالانوار، ج ٣٥، ص ٢٥٥.

٢ـ تفسيرالعياشي، ج ١، ص ١٧٢.

مريم ورأى حال مريم وكرامتها على الله ومنزلتها رغب في أن يكون له من إيشاع ولد مثل ولد أختها حنة في النجابة والكرامة وإن كانت عجوزاً عاقراً فقد كانت كذلك دعا زكريّا ربّه. ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ أي: أعطني من محسن قدرتك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: ولداً صالحاً مباركاً تقيّاً رضيّاً، و«الذريّة» النسل يقع على الواحد والجمع والذكر والأنثى، والمراد هنا ولد واحد، و«الطيّب» هو الّذي تستطاب أفعاله وأخلاقه ولا يكون فيه أمر يستخبث ويعاب. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ أي: مجيبه كما في قولهم: «سمع الله لمن حمده» وهذا لأنّ من لم يجب فكأنّه لم يسمع، فإن قيل: إنّ زكريّا كان عالماً بقدرة الله قبل رؤية حال مريم فهلّا سأل قبل ذلك؟ فالجواب أنّه قد يزداد الإنسان رغبة في الشيء إذا عاينه وإن كان عالماً به قبله. ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: جبرئيل وحكم الواحد من الجنس قد ينسب إلى الجنس نحو:فلان يركب الخيل، وإنّما يركب واحداً من أفرادها ولمّا كان جبرئيل من المقرّبين عبّر عنه باسم الجماعة تعظيماً له﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ أي: والحال أنّ زكريّا قائم في المسجد أو في غرفة مريم يصلّي ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ أي: بأنّ الله﴿يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ بولد اسمه يحيى لأنّه تحيى به المجالس من وعظه والقلوب بهدايته.

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ حال كونه أوّل من يؤمن بعيسى وصدّق بأنّه كلمة الله وروحه، وإنّما سمّي «كلمة الله» لأنّه وجد بكلمة «كن» من غير أب فشابه البديعيّات الّتي هي عالم الأمر وسمّي «روحا» لأنّ عيسى أحيى به من الضلالة كما يحيى الإنسان بالروح، قال السدّيّ: لقيت امّ يحيى امّ عيسى فقالت: **«يا مريم أشعرت بحبلي؟ فقالت: وأنا أيضا حبلى، قالت: فإنّي وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك**

فذلك قوله تعالى: «مصدّقا» وقتل يحيى قبل أن رفع عيسى إلى السماء».(١)

﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ عطف على ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي: رئيساً يسود قومه ويفوقهم في الشرف، كان فائقاً للناس قاطبة ولم يلمّ بمعصية ولم يهمّ بخطيئة، ومبالغاً في حصر النفس وحبسها عن الشهوات مع القدرة و«الحصور» الممتنع من النساء مع القدرة عن ابن عبّاس وجماعة. وقيل: وقد تزوّج مع ذلك ليكون أغضّ لبصره. وقيل: كان عنينا عن سعيد بن المسيّب والضحّاك، لكن هذا الكلام ليس بصحيح لأنّه عيب ولا يجوز العيب على الأنبياء ولأنّ الكلام خرج مخرج المدح.

أي: يوحى إليه إذا بلغ هو مبلغه وناشئاً من الأنبياء لأنّه كان من أصلابهم و«الصلاح» صفة تنتظم الخير كلّه.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾

قال زكريّا عند نداء الملائكة وبشارتهم له بالولد بالاستفهام مسروراً بالولد مخاطباً لله لا لجبرئيل: **«كيف يكون لي غلام وولد وقد أصابني الشيب ونالني الهرم»**؟ قال ابن عبّاس: كان زكريّا يوم بشّر بالولد ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ أي: عقيم لا تلد، وبيضة العقر آخر البيضة.

فإن قيل: لم راجع زكريّا هذه المراجعة وقد بشّره الله بأن يهب له ذرّيّة طيّبة بعد أن سأل ذلك؟ قيل: إنّما قال ذلك على سبيل التعرّف عن كيفيّة حصول الولد أيعطيهما الله وهما على ما كانا عليه من الشيب أم يصرفهما إلى

١ـ جامع البيان، ج ٣، ص ٣٤٥. وأيضاً الدرالمنثور، ج ٢، ص ٢١.

حال الشباب ثمّ يرزقهما الولد، ويحتمل أن يكون سؤاله أيعطيه الله من امرأته العجوزة أم من امرأة اخرى شابّة[1]؟ وقيل: سؤاله على وجه استعظام المقدور ومثل هذا التعجّب يحصل للإنسان عند ظهور آية عظيمة كمن يقول: كيف سمحت نفسك بإخراج ذلك الملك النفيس؟ تعجّباً من جوده. وقيل قال هذا الكلام تعجّباً كيف أجابه الله إلى مراده فيما دعا وكيف استحقّ ذلك؟ ومن زعم أنّ ذلك من وسوسة الشيطان فقد غلط وأخطأ.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ قال الله كذلك إشارة إلى مصدر «يفعل» في «الله يفعل» أي: مثل ذلك الفعل يفعل ما يشاء أن يفعله من الأفاعيل الخارقة للعادة «فالله» مبتدأ و«يفعل» خبره، والكاف في محلّ النصب على أنّها في الأصل نعت لمصدر محذوف أي: الله يفعل ما يشاء أن يفعله فعلاً مثل ذلك الفعل العجيب من شيخ فان وعجوز عاقر.

قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

قال زكريّا ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي﴾ علامة تحقّق المسؤول ووقوع الحبل، وإنّما سألها لأنّ العلوق أمر خفيّ لا يوقف عليه فأراد أن يطلعه الله عليه ليتلقّى تلك النعمة منه تعالى حين حصوله بالشكر قال الله أو جبرئيل: ﴿آيَتُكَ﴾ أي: علامة حدوث الولد أن لا تقدر على تكليم الناس ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ متوالية مع لياليها فإنّ ذكر الليالي أو الأيّام يقتضي دخول الاخرى فيها عرفاً، وإنّما جعلت آيته ذلك لتخليص المدّة لذكر الله وشكره ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ أي: إشارة بيد أو رأس أو نحوهما وسمّى الرمز كلاماً لأنّه يؤدّي ما يؤدّي الكلام ويفهم منه

١ـ بحارالانوار، ج ١٤، ص ١٧٠.

بعض ما يفهم من الكلام.

ثمّ أمره تعالى بذكره فقال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ في أوقات الحبسة ﴿كَثِيرًا﴾ أي: ذكراً كثيرا ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ﴾ أي: نزّهه عمّا لا ينبغي من الزوال إلى الغروب ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ من طلوع الفجر إلى الضحى وقد حبس لسانه عن امور الدنيا إلّا رمزا، فأمّا في الذكر والتسبيح فقد كان لسانه جيّدا وكان ذلك من المعجزات. وقيل: المراد من التسبيح الصلاة كما يقال: فرغت من تسبيحي أي: صلاتي، ولعلّ المراد من قوله: ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ في آخر النهار وأوّله.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾

أي: اذكر وقت قول الملائكة وهو جبرئيل بدلالة قوله تعالى في سورة مريم: «فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا»[١] وإنّما جمع تعظيماً لجبرئيل ﴿يَا مَرْيَمُ﴾ وكلام جبرئيل معها لم يكن وحياً لها فإنّ الله يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾[٢] ولا نبوّة للنساء بالإجماع، وكلّمها شفاها كرامة لها أو إرهاصاً لنبوّة عيسى عليه السلام و«الإرهاص» من الرهص وهو الصفّ الأسفل من الجدار، هذا في اللغة وفي الاصطلاح أن يتقدّم على دعوى النبوّة أو وقوعها ما يشبه المعجزة كإظلال الغمام لرسول الله صلى الله عليه وآله وتكلّم الحجر وقصّة الفيل.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أوّلاً حيث تقبّلك من امّك بقبول حسن ولم يتقبّل غيرك أنثى ورزقك من رزق الجنّة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الكفر والأفعال الذميمة ومن مسيس الرجال ومن الحيض والنفاس ومن تهمة اليهود وتكذيبهم

١ـ سورة مريم: ١٧.

٢ـ سورة النحل: ٤٣.

بإنطاق الطفل ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ﴾ آخرا ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بأن وهب لك عيسى عليه السلام من غير أب وجعلكما آية للعالمين والمراد من «العالمين» أي: على نساء عالمي زمانها، لأنّ فاطمة بنت محمّد صلى الله عليه وآله سيّدة نساء العالمين أجمع كما قال الباقر[1] عليه السلام وقال: أبو جعفر عليه السلام: معنى الآية: اصطفاك من ذرّيّة الأنبياء وطهّرك من السفاح واصطفاك لولادة عيسى عليه السلام[2] فيكون الاصطفاء على معنيين مختلفين.

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أي: اعبديه وأخلصي له العبادة أو المعنى: أديمي الطاعة له أو أطيلي القيام في الصلاة، عن مجاهد ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ واسجدي شكراً واركعي أي: وصلّي مع المصلّين في الجماعة، وقيل: معنى ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ أي: افعلي كما يفعل الساجدون والراكعون ولمّا كان غاية قرب العبد السجود واختصّ السجود بهذه الفضيلة لا جرم تقدّم بالذكر، ثمّ إنّ الواو تفيد الاشتراك لا الترتيب والسجود يستعمل بمعنى الصلاة أيضاً كقوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.[3]

وعلى هذا فالمعنى: يا مريم اقنتي أي: قومي للعبادة وصلّي فكان المراد من ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ أي: صلّي واركعي مع الراكعين أي: صلّي بالجماعة مع الخاشعين الخاضعين، ويمكن أن يكون أنّ السجود في ذلك الدين كان مقدّماً على الركوع.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٤٥٦. ومجمع البيان، ج ٢، ص ٢٩٠.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٩٠. والصافي، ج ١، ص ٣٣٥. وبحارالانوار، ج ١٤، ص ١٩٣.

٣ـ سورة ق: ٤٠.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدّم أي: إنّ الّذي مضى ذكره من حديث حنة وزكريّا ويحيى إنّما هو من أخبار الغيب الّتي لا يوقف عليها إلّا بمشاهدة أو قراءة كتاب أو تعلّم من عالم أو بوحي وانعدمت الثلاثة الأُول فتعيّنت الرابعة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ ننزّله عليك و«الوحي» في القرآن لمعان: للإرسال إلى الأنبياء وللإلهام قال: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[1] ولإلقاء المعنى المراد قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾[2] وللإشارة ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[3].

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ عند الّذي اختلفوا في تربية مريم وهو تقرير لكونه وحياً على طريق التهكّم بمنكري نبوّته ﷺ أي: إنّهم لا يشكّون أنّك لم تقرأ كتاباً وما صاحبت من علم تلك الأمور الواقعة حتّى تسمع منهم فلم يبق طريق إلّا المشاهدة وهي منتفية بالضرورة فلو لم يكن هذا الخبر والعلم بطريق الوحي وأنت ما كنت مشاهداً هذا الأمر فمن أين أخبرتهم لو لا الوحي؟ وأهل مكّة ما كانوا أهل كتاب وما سمعوا بهذه القصّة أبدا.

﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ الّتي كانوا يكتبون بها التوراة في الماء على ما تقدّم ذكره، وقيل: «أقلامهم» أقداحهم للاقتراع جعلوا عليها علامات يعرفون بها من يكفل مريم على جهة القرعة حتّى وفّق خير الكفلاء زكريّا، وفي الكلام حذف أي: ليعلموا أيّهم يكفل مريم.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ويتنافسون في هذا الأمر بحيث تخاصموا في التكفّل بعضهم بعضا، وفي الآية دلالة على أنّ للقرعة مدخلا في تمييز الحقوق وقد قال الصادق عليه السلام: **«ما تقارع قوم ففوّضوا أمورهم إلى الله إلّا**

١ـ سورة القصص: ٧.

٢ـ سورة الزلزال: ٥.

٣ـ سورة مريم: ١١.

خرج سهم المحقّ».[١] وقال عليه السلام: «أي: قضيّة أعدل من القرعة إذا فوّض الأمر إلى الله تعالى قال الله: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾[٢]».[٣] قال الباقر عليه السلام: «أوّل من سوهم عليه مريم ابنة عمران ثمّ استهموا في يونس ثمّ في قصّة عبد المطّلب كان أمر القرعة في الإبل وعبد الله»[٤]، وهي مشهورة.

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾

﴿إِذْ قَالَتِ﴾ بدل من «و إذ قالت» في الآية السابقة ومنصوب بناصبه والمراد ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ جبرئيل كما ذكرنا ﴿يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ أي: يفرّحك ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ كائنة ﴿مِّنْهُ﴾ عزّ وجلّ واطلق على عيسى لفظ «الكلمة» بطريق إطلاق السبب على المسبّب لأنّ الكلمة سبب حدوثه وهي تعبّر «بكن» وحدوث كلّ مخلوق وإن كان بسبب هذه الكلمة لكنّ السبب المتعارف للحدوث لمّا كان مفقوداً في حقّ عيسى عليه السلام كان إسناد حدوثه إلى الكلمة أنسب وأكمل فجعل عليه السلام بهذه الاعتبار كأنّه نفس الكلمة.

﴿ٱسْمُهُ﴾ أي: اسم المسمّى بالكلمة ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ والكلمة لمّا كانت عبارة عن مذكّر ذكّر الضمير و﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ أصله مشيحا يعني بالعبرانيّة المبارك ﴿عِيسَى﴾ بدل من المسيح معرّب من ايشوع ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ والمسيح فعيل بمعنى مفعول أي: مسح وطهر من الأقذار، والمسيح الّذي أحد شقّي وجهه

١ـ الكافي، ج ٥، ص ٤٩١. والاستبصار، ج ٣، ص ٣٦٩. ووسائل الشيعة، ج ٢١، ص ١٧٢.

٢ـ سورة الصافات: ١٤١.

٣ـ من لايحضره الفقيه، ج ٣، ص ٩٢. ووسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٢٦١.

٤ـ انظر: من لايحضره الفقيه، ج ٣، ص ٨٩. ووسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ٢٦٠. وخصال، ص ١٥٦.

ممسوح لا عين له ولا حاجب له ولذا سمّي الدجّال مسيحا. وقيل: المسيح بفتح الميم والتخفيف عيسى والمسيّح بكسر الميم والتشديد على وزن شرّير الدجّال، عن إبراهيم النخعيّ.

﴿وَجِيهًا﴾ على الحاليّة، ذو الجاه والشرف ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالتقدّم على الناس والنبوّة ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بعلوّ الدرجة في الجنّة والشفاعة ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله بارتفاعه إلى السماء ومصاحبة الملائكة. ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يكلّمهم طفلاً وكهلاً من غير تفاوت حال الطفليّة والكهليّة، يقال: اكتهل النبت إذا طال وقوي وهو في الإنسان ما بين الشيخ والشابّ. وقيل: الكهولة إذا بلغ الإنسان حدّ أربع وثلاثين سنة. وقيل: سمّي بالمسيح لأنّه مسح بدهن زيت بورك فيه وكانت الأنبياء يتمسّحون به. وقيل: لأنّه مسحه جبرئيل بجناحه وقت ولادته ليكون عوذة من الشيطان. وقيل: لأنّه كان يمسح رأس اليتامى لله أو لأنّه عليه السلام كان يمسح عين الأعمى فيبصر ولا يمسح ذا عاهة بيده إلّا برىء.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

﴿قَالَتْ﴾ مريم متضرّعة إلى الله: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ من أين يكون لي ولد على وجه الاستبعاد العاديّ وذلك من اقتضاء البشريّة إذ لم يجز عادة بأن يولد ولد بلا أب ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ آدميّ، وسمّي بشر لظهوره، وهو كناية عن الجماع. ﴿قَالَ﴾ الله أو جبرئيل: ﴿كَذَٰلِكِ﴾ إشارة إلى مصدر يخلق في قوله: ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: الله يخلق ما يشاء أن يخلقه مثل ذلك الخلق العجيب ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ وأراد شيئا وأصل القضاء الإحكام أطلق على الإرادة الإلهيّة القطعيّة المتعلّقة لإيجاد الشيء ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

من غير ريث، وهو تعبير لكمال قدرته وبيان لسرعة حصوله قال ابن عبّاس: كانت مريم في غرفة قد ضربت دونها سترا إذا هي برجل عليه ثياب بيض وهو جبرئيل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ تامّ الخلقة فلمّا رأته ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ ثمّ نفخ في جيب درعها حتّى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت. قال وهب: وكان معها ذو قرابة يقال له يوسف النجّار[1]، وكان يوسف يستعظم هذا الأمر فإذا أراد أن يتّهمها ذكر صلاحها وإذا أراد أن يبرأها رأى ما ظهر عليها فكان أوّل ما كلّمها أن قال لها: قد دخل في صدري شيء أردت كتمانه فغلبني ذلك فرأيت الكلام أشفى لصدري قالت: قل، قال: فحدّثيني هل ينبت الزرع من غير بذر؟ قالت نعم، قال: فهل ينبت شجر من غير أصل؟ قالت: نعم، قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أنّ الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر والبذر يومئذ إنّما صار من الزرع الّذي أنبت الله من غير بذر، ألم تعلم أنّ الله خلق آدم وحوّاء من غير أنثى ولا ذكر؟ فلمّا قالت له ذلك وقع في نفسه أنّ الّذي بها شيء أكرمها الله به روي أنّ عيسى عليه السلام حفظ التوراة وهو في بطن امّه وكانت مريم تسمع عيسى وهو يدرس في بطنها ثمّ لمّا شرّف عالم الشهود أعطاه الله الزهادة في الدنيا فإنّه كان يلبس الشعر ويتوسّد الحجر ويستنير القمر وكان له قدح يشرب فيه الماء ويتوضّأ فيه فرأى رجلاً يشرب بيده فقال لنفسه: يا عيسى هذا أزهد منك، فرمى القدح واستظلّ يوماً في ظلّ خيمة عجوز فكان قد لحقه حرّ شديد فخرجت العجوز فطردته فقام وهو يضحك وقال: يا أمة الله ما أنت أقمتني وإنّما أقامني الّذي لم يجعل لي نعيماً في الدنيا، ولمّا رفع إلى السماء وجد عنده إبرة كان يرقع بها فاقتضت الحكمة الإلهيّة نزوله في السماء

١ـ جامع البيان، ج ١٦، ص ٨١.

الرابعة فالسالك لا بدّ وأن ينقطع عن كلّ ما سوى الله ويتجرّد عن العلائق والعوائق حتّى يسير إلى الملأ الأعلى ويطير إلى مقام قاب قوسين أو أدنى.

وروي أنّ موسى عليه السلام ناجى ربّه وقال: اللهم أرني وليّاً من أوليائك فأوحى الله إليه أن اصعد الجبل الفلانيّ وادخل في زاوية كذا في كهف كذا حتّى ترى وليّي ففعل فرأى فيه رجلاً ميّتاً توسّد بلبنة وفوق عورته خرقة وليس فيه شيء غيره فقال: اللهم إنّي أسألك أن تريني وليّك فأريتني هذا، فقال سبحانه: هذا هو وليّي فو عزّتي وجلالي لا أدخله الجنّة حتّى أحاسبه باللبنة والخرقة من أين وجدها. نسأل الله الإعراض عن حطام الدنيا.

وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: يعلّم الله عيسى الكتاب أي: بعض الكتب الّتي أنزلها على أنبيائه سوى التوراة والإنجيل مثل الصحف والزبور. وقيل: المراد من الكتاب في الآية الكتابة والخطّ. قيل: أعطى الله عيسى تسعة أجزاء من الخطّ وسائر الناس جزءا، والأوّل أليق في المعنى، والمراد من «الْحِكْمَةَ» علم الحلال والحرام كما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**أوتيت القرآن**

ومثله».[١] أو المراد من ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ اصول التوراة والإنجيل، وأفرد الإنجيل والتوراة بالذكر مع دخولهما في الحكمة تنبيهاً عن جلالة موقعهما كقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[٢] والحكمة العلوم الشرعيّة والعقليّة الموافقة للشرعيّة من تهذيب الأخلاق وما يضرّ وينفع للإنسان من الكمال والنفع الباقي. ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ * وَرَسُولًا﴾ أي: ويجعله رسولا ﴿إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ وهذا الكلام سبق تطييباً لقلب مريم وردّ القول اليهود حيث قالوا: إنّ عيسى كان مبعوثا إلى قول مخصوصين. وكان أوّل أنبياء بني إسرائيل يوسف وآخرهم عيسى عليه السلام وانقطع هنا قصّة مريم وولادتها ويأتي تمام قصّتها في سورة مريم، ومن قول: ﴿وَرَسُولًا﴾ ابتدأ بقصّة عيسى. ﴿أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم﴾ أي: قال لهم عيسى وكلّمهم: بانّي قد جئتكم ﴿بِـَٔايَةٖ﴾ لمّا بعث رسولا أي: جئتكم بحجة ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ دالّة على صحة نبوتي وهي ما ذكر بعده من خلق الطير وغيره ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ﴾ أي: أقدّر وأشكّل لأنّه قد ثبت أنّ العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والإبداع فوجب أن يكون بمعنى التسوية والتقرير ﴿لَكُم﴾ أي: لأجلكم ولجهة حصول إيمانكم ورفع تكذيبكم إيّاي ﴿مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ شيئا ﴿كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ ومثل صورته ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي: في الشيء المماثل للطير أنفخ ﴿فَيَكُونُ طَيۡرَۢا﴾ حيّاً طيّاراً كسائر الطيور ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمره والإحياء منه تعالى لا منّي.

روي أنّ عيسى لمّا ادّعى النبوّة وأظهر المعجزات طالبوه يخلق خفّاشاً فأخذ طيناً وصوّره ثمّ نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض. قال وهب بن منبّه: كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميّتاً

١ـ مسندأحمد، ج ٤، ص ١٣١.

٢ـ سورة البقرة: ٩٨.

ليتميّز فعل الخلق من فعل الله.[1] وإنّما طلبوا خلق الخفّاش لأنّه أعجب من سائر الخلق ومن عجائبه أنّه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الحيوان من الطيور، ويكون له الضرع ويخرج منه اللبن ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل وإنّما يرى في ساعتين ساعة بعد غروب الشمس وساعة بعد طلوع الفجر قبل أن يسفرّ جدًا، ويضحك كما يضحك الإنسان وله أسنان، ويحيض كما تحيض المرأة. وإنّ عيسى لمّا تولّد من نفخ جبرئيل في مريم وجبرئيل روح محض وروحانيّ فكانت بالمناسبة نفخة عيسى عليه السلام فجعله الله سبباً للحياة والروح. ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ أي: أشفي الّذي ولد أعمى، قال الزمخشريّ: لم يوجد في هذه الأمّة أكمه غير قتادة بن دعامة السدوسيّ صاحب التفسير[2] «و الأبرص» الّذي به برص وهو بياض في الجلد لم تكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه تتطيّر منه، وإذا امتنحكم فلا برء له ولا يزول بالعلاج.

وإنّما خصّهما بالذكر للشفاء لأنّهما ممّا أعيى الأطبّاء في تداويهما وكانوا في غاية الحذاقة في زمن عيسى وسألوا الأطبّاء عنهما فقال جالينوس وأصحابه: إذا ولد أعمى لا يبرأ بالعلاج وكذا إذا كان البرص بحال لو غرزت الإبرة فيه لا يخرج منه الدم لا يقبل العلاج. فرجعوا إلى عيسى وجاءوا بالأكمه والأبرص فمسح يده بعد الدعاء عليهما فأبصر الأعمى وبرىء الأبرص فآمن به البعض وجحد البعض وقالوا: سحر هذا.

روي أنّه أبرأ في يوم واحد خمسين ألفا من المرضى من أطاق منهم

١ـ تفسيرالثعالبي، ج ٣، ص ٧١.أيضاًتفسير القرطبي، ج ٤، ص ٩٤.

٢ـ الكشاف عن الحقائق التنزيل وعيون الأقاويل، ج ١، ص ٤٣١.

أتاه ومن لم يطق أتاه عيسى عليه السلام[1] وكان يداويهم على شرط الإيمان.

ثمّ قال عيسى: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فسألوا جالينوس عنه فقال: الميّت لا يحيى بالعلاج فإن كان هو يحيي فهو نبيّ وليس بطبيب فطلبوا أن يحيي الموتى فأحيى أربعة أنفس أحيى العاذر وكان صديقاً له فأرسل أخته إلى عيسى أنّ أخاك العاذر يموت فأتاه وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيّام فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قد مات منذ ثلاثة أيّام فقال انطلقي بنا إلى قبره فانطلقت معهم إلى قبره وهو في صخرة مطبقة فقال عيسى: «**اللهم ربّ السماوات السبع والأرضين السبع إنك أرسلتني إلى بني إسرائيل أدعوهم إلى دينك وأخبرهم أنّي أحيي الموتى فأحي العاذر**» فقام العاذر فخرج من قبره وبقي وولد له.

وأحيى ابن عجوز مرّ به ميّتاً على عيسى على سرير يحمل فدعا الله عيسى فجلس على سريره ونزل عن أعناق الرجال ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله وبقي وولد له.

وأحيى ابنة العاشر الّذي يأخذ العشور قيل له: أحيها وقد ماتت أمس، فدعا الله فعاشت وبقيت وولد لها فقالوا: إنّه يحيي من كان قريب العهد من الموت فلعلّهم لم يموتوا بل أصابتهم سكتة فأحي لنا سام بن نوح فقال عيسى: دلّوني على قبره فخرج والقوم معه حتّى انتهى إلى قبره فدعا الله بالاسم الأعظم فخرج من قبره وقد شاب رأسه فقال عيسى: كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانك شيب؟ قال: يا روح الله لمّا دعوتني سمعت صوتاً يقول: أجب روح الله فظننت أنّ القيامة قد قامت فمن هول ذلك شاب رأسي، فسأله عن النزع فقال: يا روح الله إنّ مرارته لم تذهب عن حنجرتي وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم: صدّقوه فإنّه

١ـ المصدر السابق نفسه.

نبيّ فآمن به بعضهم وكذّبه آخرون، ثمّ قال له: مت، قال: بشرط أن يعيذني الله من سكرات الموت، فدعا الله ففعل.

ثمّ طلبوا آية اخرى دالّة على صدقه فقال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ من أنواع المآكل ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ وتخبؤون للغد ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ فكان يخبر الرجل بما أكل قبل وبما يأكل بعد ويخبر الصبيان وهو في المكتب بما يصنع أهلهم وبما يأكلون ويخبؤون لهم وكان الصبيّ ينطلق إلى أهله ويبكي عليهم حتّى يعطوه ما خبؤوا له ثمّ قالوا: لصبيانهم لا تلعبوا مع هذا الساحر، وجمعوهم في بيت فجاء عيسى يطلبهم، فقالوا: ليسوا في هذا البيت، فقال: فمن في هذا البيت، قالوا: خنازير، فقال‌عليه‌السلام: كذلك يكونون، فإذا هم خنازير.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذكر من الخوارق ﴿لَآيَةً﴾ عظيمة ﴿لَّكُمْ﴾ دالّة على صحّة نبوّتي ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ انتفعتم بها.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي: قد جئتكم بآية ومصدّقاً لما تقدّمني وموافقاً لمن كان قبلي وجئتكم لأحل لكم وأرخص لكم ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في شريعة موسى‌عليه‌السلام من قبيل لحوم السمك ولحوم الإبل والشحوم والشروب. ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بشاهد على صحّة رسالتي وإنّما أعاد قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لأنّ إخراج الإنسان عن العادة المألوفة عسير فأعاد‌عليه‌السلام كلامه في ذكر المعجزات ليصير كلامه ناجعاً في القلوب ومؤثّراً في قلوبهم. فإن قيل: إنّ بين كلامه ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ وبين كلامه ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي﴾ تناقضا فالجواب أنّ التصديق في الأصول والتغيّر في بعض الفروع، لكن قال وهب بن منبّه: إنّ عيسى كان على شريعة موسى وكان يقرّر البيت ويستقبل بيت المقدس[1] وإنّ الأحبار

١ـ جامع البيان، ج ٣، ص ٣٨٣. أيضاً الدرالمنثور، ج ٢، ص ٣٥.

كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى فجاء عيسى فأبطلها وأعاد الأمر إلى ما كان، أو أنّ الله كان قد حرّم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على ما صدر عنهم كما قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾[1] ثمّ بقي ذلك التحريم مستمرا على اليهود فجاء عيسى ورفع بأمر الله تلك الشدّة عنهم، ولو كان رفع كثيرا من أحكام الفروع فرضاً مثل رفع السبت ووضع الأحد مقامه لا يكون ذلك قادحاً في كونه مصدّقاً فإنّ الناسخ والمنسوخ يقع في الأحكام والفروع دون الأصول.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه فإنّه من أمر الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ فلا تعصوه بالشرك والمخالفة «هذا» أي: الإيمان بالله وحده وملازمة التقوى «صراط» سويّ يؤدّي صاحبه إلى الجنّة وهو الحقّ الصريح الّذي أطبق عليه الرسل كافّة فقوله تعالى: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ إشارة إلى استكمال القوّة النظريّة في مقام المعرفة بالتوحيد وقوله: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إشارة إلى لزوم استكمال القوّة العمليّة فإنّه يلازم الطاعة الّتي هي الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي فالعلم والعمل يوجبان الاستقامة.

وسئل بعض المحقّقين كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله والاستقامة؟ فقال: بتوبة تزيل الأحمال وخوف يرفع التسويف ورجاء يبعث على العمل وذكر الله تعالى على اختلاف الأوقات وإخافة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل، ولا يحصل هذه الأمور إلّا بقلب مفرد فيه توحيد مجرّد فإذا اجتهد ونحل وذبل واستمرّ استقام كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ

١ـ سورة النساء: ١٦٠.

اَسْتَقَـٰمُواْ﴾[1] والاستقامة لا يتحمّلها إلّا الأكابر لأنّها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات قال رسول الله ﷺ: **«لا تكوننّ أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل ولا كالأجير السوء ان لم يعط لم يعمل»**.[2]

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

الفاء فصيحة تفصح عن تحقّق أمر عيسى من الولادة إلى بعثه وإرشاده إلى الخلق ﴿أَحَسَّ﴾ وعلم من بني إسرائيل ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ وأرادوا قتله وأنّهم لا يزدادون على رؤية الآيات إلّا الإصرار على الجحود ﴿قَالَ﴾ لمخلصي أصحابه مستنصراً على الكفّار: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من يعينني على إقامة الدين؟

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ جمع حواري أي: صفوته وخاصّته وهم اثنا عشر رجلا، وقيل: في وجه تسميتهم أقوالاً: أحدها لنقاء ثيابهم عن سعيد بن جبير. وقيل: كانوا قصّارين ينقّون الثياب بالاجرة ويبيضونها في الغسل. وقيل: المعنى الأوّل الّذي فسّرناه بالصفوة وهو الأنسب ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: أنصار دينه ورسوله.

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ استيناف جار مجرى العلّة لما قبله فإنّ الإيمان بالله تعالى موجب لنصرة دينه والذبّ عن أوليائه والمحاربة مع أعدائه ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ منقادون لنصرتك، طلبوا من عيسى الشهادة بذلك يوم القيامة

١ـ سورة فصلت: ٣٠.

٢ـ انظر: بحار الانوار، ج ٦٧، ص ١٩٨. ومستدرك الوسائل، ج ١، ص ١٠٢.

يوم تشهد الرسل لأممهم. ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ من الإنجيل على عيسى وهو كلام تضرّع إلى الله وعرض إيمانهم عليه تعالى بعد عرضه على الرسول ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: تابعنا عيسى رسولك في كلّ ما يأتي ويذر ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الّذين يشهدون بوحدانيّك أو المراد مع امّة محمّد ﷺ فإنّهم شهداء على الناس قاطبة كما قال: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.[1]

﴿وَمَكَرُوا۟﴾ أي: الّذين علم عيسى كفرهم من اليهود بأن وكّلوا عليه من يقتله غيلة ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بأن رفع عيسى وألقى شبهه على من قصد اغتيال عيسى حتّى قتل وصلب وهم يزعمون أنّهم صلبوا عيسى عليه السلام ورفع عيسى إلى السماء. وإضافة «المكر» إلى الله مع أنّه عدل وحقّ على مزاوجة الكلام مثل قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2] والثاني: ليس باعتداء وإنّما هو جزاء والمجانسة أحد وجوه البلاغة كما أنّ المقابلة أحد وجوهها نحو قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.[3]

قال ابن عبّاس: لمّا أراد كفّار بني إسرائيل قتل عيسى عليه السلام دخل بأمر الله بيتاً فيه روزنة فرفعه جبرئيل من الكوّة إلى السماء فقال الملك لرجل خبيث: ادخل عليه فاقتله فدخل الرجل الخبيث الخوخة ليقتله فألقى الله عليه شبه عيسى فخرج الرجل إلى أصحابه يخبرهم أنّ عيسى ليس في البيت فأخذوه وصلبوه وظنّوا أنّه عيسى، هذا قول ابن عبّاس.

١ـ سورة البقرة: ١٤٣.

٢ـ سورة البقرة: ١٩٤.

٣ـ سورة القيامة: ٢٢ ـ ٢٥.

وقال وهب بن منبّه: إنّهم أسروا عيسى عليه السلام ونصبوا له خشبة ليصلبوه فأظلمت الأرض وأرسل الله الملائكة فحالوا بينه وبينهم فأخذوا رجلاً يقال له «يهوذا» وهو الّذي دلّهم على المسيح وذلك أنّ عيسى عليه السلام جمع الحواريّين تلك الليلة وأوصاهم ثمّ قال: ليكفرنّ بي أحدكم قبل أن يصيح الديك فيبيعني بدراهم يسيرة، فخرجوا وتفرّقوا، وكانت اليهود تطلبه، فأتى أحد الحواريّين إليهم فقال: ما تجعلون لي فأدلّكم عليه؟ فجعلوا له ثلاثين درهما فأخذها ودلّهم عليه فألقى الله عليه شبه عيسى لمّا دخل البيت ورفع عيسى فأخذ فقال: أنا الّذي دللتكم عليه فلم يلتفتوا وصلبوه وهم يظنّون أنّه عيسى.

ولمّا صلبوا شبه عيسى قالوا: إنّ وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا فإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا وإن كان صاحبنا فأين عيسى فوقع بينهم مقال عظيم.

ولمّا صلب المصلوب جاءت مريم ومعها امرأة أبرأها الله من الجنون بدعاء عيسى وجعلتا تبكيان على المصلوب فأنزل الله عيسى فجاءهما وقال: على من تبكيان؟ قالتا عليك فقال: «**إنّ الله رفعني وإنّ هذا شيء شبّه لهم**».

فلمّا كان بعد سبعة أيّام أمر الله عيسى أن اهبط إلى الأرض على موضع في جبل مخصوص فإنّه لم يبك عليك أحد بكاءه ولم يحزن أحد حزنه. وذلك بعد أن ألبسه الله النور وقطع عنه لذّة المطعم والمشرب وكساه الله من ريش الجنّة وكان يطير مع الملائكة وكان إنسيّاً ملكيّاً أرضيّاً سماويّاً وأمره أن يستجمع الحواريّين وبعثهم في الأرض دعاة إلى دين الله وأهبطه الله إلى الجبل فاشتعل الجبل نوراً حين هبط عيسى عليه وجمعت له الحواريّون ووصّاهم وجعلهم متفرّقين في الأرض.

ثمّ رفعه الله إليه في تلك الليلة وكان هبوطه على الجبل في الليل وهي

الليلة الّتي تدخن فيها النصارى فلمّا أصبح الحواريّون حدث كلّ واحد منهم بلغة من أرسله عيسى إليهم.

وكان الحواريّون قبل أن يصلب عيسى ملازمون في صحبة عيسى إذا جاعوا قالوا: يا روح الله جعنا فيضرب بيده عليه السلام إلى الأرض فيخرج لكلّ واحد رغيفان وإذا عطشوا قالوا: يا روح الله عطشنا فيضرب بيده إلى الأرض فيخرج الماء فيشربون فقالوا: من أفضل منّا إذا شئنا سقيتنا وقد آمنّا بربّنا فقال عيسى عليه السلام: أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه فبعد ذلك صاروا يغسلون الثياب بالكراء.

وقيل: إنّهم كانوا ملوكاً وتبعة الملوك وذلك أنّ واحداً من الملوك صنع طعاماً وجمع الناس عليه وكان عيسى من جملتهم على قصعة منها فكانت القصعة لا تنقص فذكروا هذه القصّة للملك، فقال: أتعرفونه؟ قالوا: نعم، فذهبوا بعيسى إليه فقال له الملك: من أنت؟ قال أنا عيسى ابن مريم، قال الملك: فإنّي أترك ملكي وأتبعك فتبعه ذلك الملك مع أقاربه وخواصّه فأولئك هم الحواريّون.

وذكر محمّد بن إسحاق: أنّ اليهود بعد أن صلبوا عيسى بزعمهم عذّبوا الحواريّين فشمتوهم وعذّبوهم، ولقوا الجهد من اليهود فبلغ ذلك ملك الروم وكان ملك اليهود يومئذ من رعيّته فقيل له: إنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يخبرهم أنّه رسول الله وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فقتل، فقال: لو علمت لحلت بينه وبينهم، ثمّ بعث إلى الحواريّين فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن أمر عيسى فأخبروه فتابعهم على دينهم وأنزل المصلوب وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها ثمّ غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقاً كثيراً، ومنه ظهر أصل النصرانيّة في الروم وكان اسم هذا الملك طباريس وهو صار نصرانيّاً إلّا أنّه ما أظهر ذلك ثمّ أنّه

جاء بعده ملك آخر يقال له: ملطيس وغزا بيت المقدس بعد رفع عيسى بنحو من أربعين سنة فقتل وسبى ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجرا على حجر فخرج عند ذلك قريظة وبني النضير إلى الحجاز.

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

أي: اذكر وقت قول الله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: متوفّى أجلك، وعاصمك من أن يقتلك الكفّار ومؤخّرك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم ﴿وَرَافِعُكَ﴾ الآن ﴿إِلَىَّ﴾ أي: إلى محلّ كرامتي ومقرّ ملائكتي وهذا البيان للتعظيم ومثله قوله: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[1] وإنّما ذهب إبراهيم من العراق إلى الشام كما يقال: الحاجّ زوّار الله والمجاورون جيران الله، وكلّ ذلك للتفخيم فإنّه يمتنع أن يكون تعالى في المكان.

﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ أي: مبعدك ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من سوء جوارهم ودنس معاشرتهم ومصاحبة أرجاسهم، وقيل في معنى التوفّي في الآية: توفّي النوم، ورافعك إليّ في النوم لا توفّي الموت عن الربيع قال: رفعه نائماً ويدلّ عليه قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾[2] أي: ينيمكم وأنّ النوم أخو

١ـ سورة الصافات: ٩٩.

٢ـ سورة الأنعام: ٦٠.

الموت فأطلق عليه. قال ابن عبّاس: أماته الله ثلاث ساعات وفات نوم. وأمّا النحويّون يقولون: هو على التقديم والتأخير أي: إنّي رافعك ومتوفّيك قالوا: الواو لا توجب الترتيب بدلالة قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[1] والنذر قبل العذاب وكذلك ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] عن الضحّاك، ويدلّ عليه ما روي عن النبيّ ﷺ قال: «**إنّ عيسى لم يمت وإنّه راجع إليكم قبل يوم القيامة**». وقد صحّ عنه أنّه ﷺ قال: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**»؟ رواه البخاريّ ومسلم في الصحيح فعلى هذا يكون معنى الآية: إنّي رافعك وقابضك بالموت بعد نزولك من السماء.

قال الحقّيّ في تفسيره: قيل ينزل عيسى من السماء على عهد الدجّال حكما عدلا يكسر الصليب ويقتل الخنازير ويضع الجزية فيقبض المال حتّى لا يقبله أحد ويهلك في زمانه الملل كلّها إلّا الإسلام ويقتل الدجّال ويتزوّج بعد قتله امرأة من العرب وتلد منه، يموت هو بعد ما يعيش أربعين سنة من نزوله فيصلّي عليه المسلمون لأنه سأل ربّه أن يجعله من هذه الأمّة فاستجاب الله دعاءه.

أقول: إنّ ما قال الحقّيّ حقّ إلّا أنّه عليه السلام يفعل هذه الأمور ويصلّي بالمسلمين خلف المهديّ المنتظر عليه السلام ويكون من أنصار المهديّ وأنّ المهديّ ذلك اليوم هو القائم بالحقّ وعيسى عليه السلام من أتباعه.

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم المسلمون لأنهم متّبعوه في أصل الإسلام وإن اختلفت الشرائع دون الّذين كذّبوا وكذبوا عليه من اليهود والنصارى والّذين مكروا في قتله ومن يسير بسيرتهم وذلك التفوّق

١ـ سورة القمر: ١٦.

٢ـ سورة القمر: ١٦.

بالحقيقة والحجة عند الله. ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: رجوعكم بالبعث، والضمير في «اتّبعوك» لعيسى ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يوم رجوعكم وبعثكم ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر عيسى عليه السلام.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ بالسبي والسيف وأخذ الجزية والمصائب من العقوبات والمراد بهم اليهود ومن سلك مسلكهم كما وقع عليهم هذه الأمور وأنّهم أذلّ الملل إلى يومنا بل إلى يوم القيامة، والمراد من الّذين اتّبعوه النصارى الّذين آمنوا بعيسى عليه السلام حقيقة بنبوّته وقبلوا دينه.

وقيل: المعنيّ به امّة محمّد صلى الله عليه وآله وإنّما سمّاهم تبعا مع أنّ لهم شريعة على حدة لأنّه وجد فيهم التبعيّة صورة ومعنى أمّا صورة فإنّه يقال: فلان يتبع إذا جاء بعده، وأمّا معنى فلأن نبيّنا صلى الله عليه وآله كان مصدّقا بعيسى وبكتابه وليس بين الأنبياء اختلاف في أبواب التوحيد أبدا ومن يعقب الأوّل ويصدّقه فهو تابعه فامّة محمّد صلى الله عليه وآله يكونون ظاهرين إلى يوم القيامة ومن دعا عيسى عليه السلام إلها لا يكون تابعا لعيسى عليه السلام أبدا. ﴿وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يخلصونهم من عذاب الله، وصيغة الجمع لمقابلة ضمير الجمع أي: ليس لواحد منهم ناصر واحد.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كما هو عادة المؤمنين ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ كاملا ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ولا يرضى عنهم ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من أحوال عيسى نقرؤه عليك يا محمّد وأسند تلاوته إلى ذاته تعالى مع أنّ التالي هو الملك المأمور بها على طريق إسناد الفعل إلى السبب الآمر به وفيه تشريف عظيم للملك ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ أي: من العلامات الدالّة على نبوّتك لأنّها أخبار لا يعلمها إلّا قارئ الكتاب أو من يوحى إليه وهي شواهد قدرتنا ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أي: القرآن المحكم الممنوع من تطرّق الخلل والعيب، والمشتمل على الحكم وجميع الحكمة الذكر الحكيم.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

«المثل» ذكر أمر سائر يدلّ على أنّ سبيل الثاني سبيل الأوّل. نزلت الآيات في وقد نجران: العاقب والسيّد وجماعة من النصارى معهما فلمّا وردوا إلى محضر رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا له: هل رأيت ولدا من غير ذكر؟ فنزلت الآية فقرأها عليهم.

إنّ شأنه البديع الغريب عليه السلام في سلك الأمثال في تقدير الله وحكمه كحالة عجيبة آدم عليه السلام ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ تفسير للمثل أي: خلق قالب آدم من تراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾ أي: صر: بشرا ﴿فَيَكُونُ﴾ والمقتضي أن يقال: فكان، إلّا أنّه عدل عن الماضي إلى المضارع حكاية للحال بصورة المشاهد الّذي يقع الآن.

روي أنّ وفد نجران لمّا قدموا المدينة[1] وهم أربعة عشر من أشراف النصارى منهم السيّد والعاقب والثالث أبو حارثة بن علقمة الاسقفّ وكان أبو حارثة في شرف وخطر عظيم وهو الّذي بنى له ملك الروم الكنائس وكان السيّد اسمه أهيب، ولمّا دخلوا على النبي صلى الله عليه وآله في المسجد بعد العصر عليهم ثياب حسان ولهم وجوه جسام فقاموا وصلّوا واستقبلوا قبلتهم تجاه المشرق فأراد أصحاب النبي صلى الله عليه وآله أن يمنعوهم فقال صلى الله عليه وآله: **«دعوهم»**.

ثمّ انتهى أبو حارثة هذا وآخر معه إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال لهما صلى الله عليه وآله: **«أسلما»**، فقالا: أسلمنا قبلك، فقال صلى الله عليه وآله: **«كذبتما يمنعكما عن الإسلام ثلاث: عبادتكما**

١ــ تفسير ثعلبي، ج ١، ص ٢٦٠.

الصليب وأكلكما الخنزير وزعمكما أنّ لله ولداً»[1]، قالوا: يا محمّد فلم تشتم صاحبنا عيسى؟ قال: وما أقول؟ قالوا: تقول: إنّه عبد، قال: أجل هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنساناً من غير أب وامّ؟ فحيث سلّمت أنّ عيسى لا أب له من البشر وجب أن يكون هو ابن الله، فقال صلى الله عليه وآله: «**إنّ آدم ما كان له أب ولا امّ ولم يلزم من ذلك كونه ابناً لله فكذا حال عيسى، فالوجود من غير أب وامّ أخرق للعادة من الوجود من غير أب**» فشبّه صلى الله عليه وآله الغريب بالأغرب ولشبهة الخصم أقطع.

﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي: ما قصصنا عليك من نبأ عيسى، هو الحقّ كائنا ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لا قول النصارى أنّه ابن الله، وقولهم: ولدت مريم إلها، ونحو ذلك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أيها السامع من الشاكّين، أو الخطاب للنبيّ على طريقة الإلهاب والتهييج والغرض زيادة التثبيت فيكون المعنى: دم على يقينك وعلى ما أنت عليه من الاطمينان. قال أبو منصور: العصمة لا ترفع النهي والخطاب. ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾ من النصارى إذ هم المتصدّون للمحاجّة ﴿فِيهِ﴾ أي: في شأن عيسى وامّه عليهما السلام ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ من الآيات وسمعوا ذلك منكم ولم يرعوا عمّا هم عليه من الغيّ ﴿فَقُلْ﴾ واقطع الكلام بالمباهلة وهي أن تدعوهم إلى الملاعنة وقل لهم: ﴿تَعَالَوْاْ﴾ التعالي في الأصل التصاعد كأنّ الداعي في علوّ والمدعوّ في سفل ثمّ يستعمل لكلّ مدعوّ أين كان أي: هلمّوا بالرأي والعزيمة لا بالأبدان لأنهم حاضرون عنده بأجسادهم ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ أي: ليدع كلّ منّا ومنكم أولاده ونساءه ونفسه وأعزّة أهله إلى طلب البعد من الرحمة ونطلب العذاب للكاذب منهم ونحملهم على هذا الأمر من الله ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ من الفريقين.

١ـ بحارالانوار، ج ٣٥، ص ٢٦٤؛ وأيضاً مجمع البيان، ج ٢، ص ٢٣٤.

روي أنّهم لمّا دعوا إلى المباهلة طلبوا المهلة وقالوا: نستنظر إلى صبيحة غد فأنظرهم رسول الله ﷺ فلمّا رجعوا إلى منازلهم قال لهم الأسقفّ وهو عبد المسيح المكنّى أبو حارثة: إنّه لنبيّ مرسل وانظروا في غداة غد إن غدا بولده وأهله فاحذروا مباهلته ولا تباهلوه وإن غدا بأصحابه فباهلوه فإنّه على غير شيء.[1]

فأتوا رسول الله وقد خرج ﷺ محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعليّ خلفها وهو يقول: «**إذا دعوت أنا فأمّنوا**». فلمّا رأى أبو حارثة وهو أعلمهم بأمور دينهم قال: يا معشر النصارى إنّي لأرى وجوهاً لو دعوا الله وشاؤوا أن يزيل الله جبلاً من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوه وصالحوا الرجل وإن باهلتم تهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيّ إلى يوم القيامة.

فتقدّم رسول الله ﷺ وجثا على ركبتيه، قال أبو حارثة لقومه: والله جثا كما جثا الأنبياء، فكعّ أبو حارثة، فقال النبيّ ﷺ: «**ادن يا أبا حارثة للمباهلة**» فقال أبو حارثة: يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك وأن تترك على دينك ونثبت على ديننا، قال ﷺ: «**فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما على المسلمين**» فأبوا، فقال: «**فإنّي أحاربكم**»، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردّنا عن ديننا على أن نؤدّي إليك كلّ عام ألفي حلّة: ألف في صفر وألف في رجب، وثلاثين درعا عادية من حديد، فصالحهم على ذلك وكتب لهم كتابا بذلك وقال: «**والّذي نفسي بيده إنّ الهلاك قد تدلّى على أهل نجران ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي نارا ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على رؤوس الشجر، وما حال الحول**

١ـ انظر: شرح احقاق الحق، ج ٣٠، ص ٢٠.

على النصارى كلّهم حتّى هلكوا».

وقيل في المصالحة: وثلاثين فرسا وثلاثين رمحا وقيمة كل حلّة أربعون درهما. ولمّا رجع وفد نجران لم يلبث السيّد والعاقب إلّا يسيرا حتّى رجعا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وأهدى العاقب له حلّة وعصا وقدحا ونعلين وأسلما.

وقال بعض المعتزلة: هذا يدلّ على أنّ الحسن والحسين كانا مكلّفين في تلك الحال لأنّ المباهلة لا يجوز إلّا مع البالغين. وقال أصحابنا: إنّ صغر السنّ عن حدّ بلوغ الحلم لا ينافي كمال العقل وإنّما جعل بلوغ الحلم حدّا لتعلّق الأحكام الشرعيّة وقد كان سنّهما في تلك الحال سنّا لا يمتنع معها أن يكونا كاملي العقل، على أنّ عندنا يجوز أن يخرق الله العادة للأئمّة ويخصّهم بأمور لا يشركهم فيه غيرهم فلو صحّ أنّ كمال العقل غير معتاد في تلك السنّ لجاز ذلك فيهم إبانة لفضلهم عن ما سواهم ويؤيّده قول النبيّ صلى الله عليه وآله: **«ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا».**[1]

واتّفقوا على أنّ المراد من ﴿وَنِسَاءَنَا﴾ فاطمة لأنّه لم يحضر المباهلة غيرها من النساء ولم يقل أحد: إنّ غيرها من النساء حضرت، وهذا يدلّ على تفضيل فاطمة على جميع النساء وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«إنّ الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها».**[2] وقد صحّ عن حذيفة بن اليمان قال: سمعت رسول الله يقول: **«أتاني ملك فبشّرني أنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة ونساء أمّتي».**[3] وعن الشعبيّ عن مسروق عن عائشة قالت: أسرّ النبيّ إلى فاطمة فضحكت فسألتها فقالت: **«قال لي: ألا ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمّة ونساء**

١ـ الارشاد، ج ٢، ص ٣٠؛ الطرائف، ص ١٩٦؛ وعوالي اللئالي، ج ٣، ص ١٣٠.

٢ـ عيون أخبار الرضا، ج ١، ص ٥١؛ وبحارالانوار، ج ٢١، ص ٢٧٩؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٣١١.

٣ـ مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ١٠٥؛ وبحارالانوار، ج ٢١، ص ٢٧٩؛ وج ٤٣، ص ٣٦.

المؤمنين؟فضحكت لذلك».[١]

فتبيّن أنّ المراد من قوله: ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ فاطمة ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ يعني عليًا خاصّة ولا يجوز أن يكون المعنيّ بهﷺ لأنه هو الداعي ولا يجوز أن يدعو الإنسان نفسه وإنّما يصحّ أن يدعو غيره وإذا كان قوله: ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ لا بدّ أن يكون إشارة إلى غير الرسولﷺ وجب أن يكون إشارة إلى عليّ لأنّه لا أحد يدّعي دخول غير عليّ وفاطمة وولديه في المباهلة وهذا هو الأفضليّة على من عليها في المشرق والمغرب إذ جعله الله سبحانه نفس الرسولﷺ.

وممّا يعضده من الروايات ما صحّ عن النبيّﷺ أنّه سئل عن بعض أصحابه فقال له قائل: فعليّ، فقالﷺ: **«إنّما سألتني عن الناس ولم تسألني عن نفسي».**[٢] وقولهﷺ لبريدة الأسلميّ: **«يا بريدة لا تبغض عليًا فإنّه منّي وأنا منه إنّ الناس خلقوا من شجر شتّى وأنا وعليّ من شجرة واحدة».**[٣] وكذلك قوله بأحد ونكايتهﷺ في تلك الغزوة ووقاية عليّ بنفسه إيّاه حتّى قال جبرئيل: إنّ هذه لهي المواساة فقال النبيّﷺ: **«يا جبرئيل إنّه منّي وأنا منه»**، فقال جبرئيل: **وأنا منكما**[٤].

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

أي: إنّ ما قصّ من نبأ عيسى وأمّهﷺ ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ دون ما عداه من أكاذيب النصارى ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ ما إله ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ صرّح في الكلام

١ـ مناقب آل أبي طالب، ج٣، ص١٠٥؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٣١١.

٢ـ الصراط المستقيم، ج ١، ص ٢٥٠؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٣١١؛ وبحارالانوار، ج ٢١، ص ٢٧٩.

٣ـ الشافي في الإمامة، ج ٢، ص ٢٥٦؛ وبحارالانوار، ج ٢١، ص٢٧٩.

٤ـ الكافي، ج ٨، ص ١١٠؛ وعلل الشرايع، ج ١، ص ٧. والخصال، ص ٥٥٦؛ وبحارالانوار، ج ٢٠، ص ٥٥.

«بمن» الاستغراقيّة تأكيداً للردّ على النصارى في تثليثهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على جميع مقدوراته المحيط ﴿الْحَكِيمُ﴾ بما يقتضي الصلاح لا يشاركه أحد في الألوهيّة.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن قبول التوحيد والحقّ الّذي قصّ عليك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: فاقطع كلامك عنهم فإنّ الله عليم بفساد المفسدين مطّلع على ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى. أمر الله سبحانه نبيّه بأن يعدل عن طريق المجادلة والاحتجاج إلى نهج الملاينة والإنصاف وذلك بعد تتميم الحجّة فدعاهم إلى التوحيد وإلى الاقتداء بمن اتّفقوا على أنّه كان على الحقّ فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم: هلمّوا إلى كلمة عادلة بيننا وبينكم لا ميل لها إلى الاعوجاج وهي ترك العبادة لغير الله لأنها لا تحقّ إلّا له ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: لا يتّخذ بعضنا عيسى عليه السلام ربّا فإنّه كان بعض الناس.

وقيل: معنى الآية: أن لا يتّخذ الأحبار أربابا بأن يطيعهم طاعة الأرباب كقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[1].

وقد روي أيضا لمّا نزلت هذه الآية قال عديّ بن حاتم: ما كنّا نعبدهم يا رسول الله فقال صلى الله عليه وآله: **«أما كان يحلّون لكم ويحرّمون فتأخذون بقولهم»؟** فقال عديّ: نعم، فقال صلى الله عليه وآله: **«هو ذاك»**.[2]

١ـ سورة التوبة: ٣١.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣١٤؛ والصافي، ج ١، ص ٣٤٥.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عمّا دعوتموهم إليه من التوحيد وترك الإشراك ﴿فَقُولُوا﴾ أي: قل: لهم أنت والمؤمنون ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: إن تولّوا وأعرضوا عن التوحيد فقولوا لهم أنت يا محمّد ومن معك من أهل الإيمان للمعرضين: اشهدوا أنتم أيّها الكفّار بأنّا مستسلمون لما دعانا الله من التوحيد. والسرّ في الإشهاد على الإسلام ليشهد الكفّار لهم يوم القيامة على الإسلام كما يشهد لهم المؤمنون بالكفر فيكون شهادة الكفّار للمسلمين يوم القيامة بالتوحيد حجّة على أنفسهم.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

تنازعت اليهود والنصارى في إبراهيم وزعم كلّ واحد منهما أنّه عليه السلام منهم وترافعا إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية والمعنى: لم تدّعون أنّ إبراهيم كان منكم ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ﴾ على موسى ﴿وَالْإِنجِيلُ﴾ على عيسى ﴿إِلَّا مِن بَعْدِهِ﴾ أي: إلّا من بعد موت إبراهيم وأنتم سمّيتم باليهوديّة والنصرانيّة بعد نزول الكتاب ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وتتفكّرون في بطلان جدلكم وبطلان كلامكم ومذهبكم لأنّ بين إبراهيم وموسى ألف سنة وبين موسى وعيسى ألفي سنة فكيف يكون إبراهيم على دين لم يحدث إلّا بعد عهده بأزمنة متطاولة؟

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾

جملة من مبتدء وخبر صدّرت بحرف التنبيه إشعاراً بكمال غفلتهم أي: أنتم هؤلاء الحمقاء حيث ﴿حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ من التوراة والإنجيل من نبوّة محمّد ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: فيما ليس له ذكر في

كتابكم ولا علم لكم به من دين إبراهيم إذ لا ذكر لدينه في إحدى الكتابين قطعا ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾ دين إبراهيم وشأنه ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ذلك وما تعرفون شريعته فلا تضيفوا إليه ما لا تعلمونه.

مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾

تصريح بما نطق به البرهان المذكور ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا﴾ مائلاً عن العقائد الزائفة كلّها ﴿مُّسۡلِمٗا﴾ منقاداً لله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تعريض بأنّهم مشركون بقولهم: «عُزَيْرٌ ابْنُ الله» «و الْمَسِيحُ ابْنُ الله» وردّ لادّعاء المشركين أنّهم على ملّته.

إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾

أي: إنّ أحقّ الناس بادّعائه بأنّه على دين إبراهيم هم الّذين اتّبعوه في زمانه وما خالفوه ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ المصطفى ﷺ لأنّه اتّبعه في الحنيفيّة ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وبمحمّد ﷺ من هذه الأمّة لموافقتهم إيّاه في اصول الشرائع ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وناصرهم ويجازيهم الحسنى بإيمانهم.

وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾

أي: أحبّت أن يصرفوكم عن دين الإسلام إلى دين الكفر وإنّما قال: ﴿طَّآئِفَةٞ﴾ لأنّ من أهل الكتاب امّة قائمة يتلون آيات الله ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ جملة حاليّة تدلّ على ثبات المؤمنين على ما هم عليه من الدين القويم وحاصل الآية أنّ إضلال أهل الكتاب يعود وباله على الكافرين ويضاعف به عذابهم ﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ بهذا الضرر.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾

أي: لم تجحدون بما نطقت به من التوراة والإنجيل على نبوّة محمّد ﷺ ﴿وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ أنها آيات الله وتعلمون نعته بالكتابين أو المراد المعجزات الّتي تشاهدون منه وكتابه ومعجزاته تدلّ على نبوّته.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾

المراد بالحقّ في الآية كتاب الله الّذي أنزله على موسى وعيسى وبالباطل ما حرّفوه وكتبوه بأيديهم، أي: لم تخلطون أحدهما بالآخر وإبراز باطلهم في صورة الحقّ بأن يقولوا: الكلّ من عند الله ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: نبوّة محمّد ﷺ وصفاته وعلاماته المذكورة في كتابكم ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنّه ثابت وحقّ في كتابكم.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهم رؤساؤهم ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أظهروا الإيمان بالقرآن الّذي أنزل على المسلمين ﴿وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ أي: في أوّل النهار وأظهروا الكفر به آخر النهار مرائين لهم أنّكم آمنتم به ابتداء من غير تأمّل ثمّ تأمّلتم فيه فوقفتم على خلل رأيكم الأوّل ورجعتم ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ أي: المؤمنين ﴿يَرۡجِعُونَ﴾.

﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣﴾

عمّا هم عليه من الإيمان به كما رجعتم. والمراد كعب بن الأشرف ومالك بن الصيف ونفر من اليهود قالوا لأصحابهم لما حوّلت القبلة: آمنوا بما

أنزل عليهم من الصلاة إلى الكعبة وصلّوا إليها أوّل النهار ثمّ صلّوا إلى بيت المقدس آخر النهار لعلّهم يقولون هم أعلم منّا وقد رجعوا فيرجعون.

قال الحسن والسدّيّ: تواطأ اثنا عشر رجلا من أحبار يهود خيبر قرى عرينة وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمّد أوّل النهار باللسان دون الاعتقاد واكفروا به آخره وقولوا: إنّا نظرنا في كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمّداً ليس ذلك الموعود به وظهر لنا كذبه وبطلان دينه فإذا فعلتم ذلك شكّ أصحابه في دينه وقالوا: إنّهم أهل الكتاب وهم أعلم منّا وبهذه الجهة يرجعون عن دينهم إلى دينكم.[1]

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا﴾ أي: لا تصدّقوا ﴿إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ اليهوديّة وقام بشرائعكم وكان يوصي بعضهم بعضا بهذا الأمر، فحاصل المعنى أنّ هذا الكلام من بقيّة طائفة اليهود أي: لا تصدّقوا إلّا نبيّا يقرّر شرائع التوراة فيكون اللام صلة زائدة كقوله: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ والمعنى «ردفكم».

وقيل: معنى الآية: إنّهم قالوا لتبعهم: إنّكم لا تؤتوا بذلك الإيمان المدلّس الملبس إلّا لبقاء دينكم فإنّ مقصودنا من هذا التدليس الّذي نؤمن أوّل النهار أن نحفظ دينكم. فقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ قل يا محمّد جواباً ورداً على اليهود: إنّ الهدى هدى الله وقد جئتكم به فلن ينفعكم في دفعه هذا الكيد والحيلة.

ثمّ قال تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ وقرئ «آن يؤتى» بالمدّ على الاستفهام مثل ابن كثير والباقون بفتح الهمزة من غير مد ولا استفهام كقوله: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ

۱ـ مجمع البيان، ج ۲، ص ۳۲۲؛ ورواه المجلسي في البحار، ج ۹، ص ۷۰.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1] وعلى هذه القراءة فالكلام في معرض الاستفهام التوبيخيّ والمعنى: أمن أجل أن يؤتى أحد شرائع مثل ما أوتيتم من الشرائع ينكرون اتّباعه ثمّ حذف الجواب للاختصار ومثل هذا الحذف كثير مثل قول الرجل لصاحبه: أمن قلّة إحساني إليك أم من إهانتي إليك؟ ثمّ ما يذكر الجواب وهو «فعلت ذلك» وهذا المعنى به قال مجاهد وعيسى بن عمرو، أمّا قرأ بقصر الألف في «أن» فقد يمكن أيضا حملها على معنى الاستفهام كما قرئ ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾[2] بالمدّ والقصر قال امرؤ القيس: «تزوّج من الحيّ أم تبتكر» أراد أتزوّج من الحيّ؟ فحذف ألف الاستفهام فيكون على هذا التقدير معنى الآية المعنى الأوّل.

قال الرازيّ في «المفاتيح»: واعلم أنّ هذه من المشكلات الصعبة أقول: ولعلّ منشأ الإشكال الاختلاف الواقع بأنّ قوله: ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾ من جملة كلام الله بعد قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أم بقيّة كلام اليهود[3]؟

وقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ جملة معترضة. قال الفيض في «الصافي»: إنّ الآية من المتشابهات الّتي لم تصل إلينا عن أهل البيت شيء[4] وخلص نفسه، قال الطبرسيّ: والمفسّرون ذكروا وجوها:

منها أنّه قل يا محمّد: ﴿إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ وقل: ﴿إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ فلا ينبغي لهم أن ينكروا أن يؤتى أحد مثل ما أوتوا من النبوّة والتوراة وهذا معنى قول الحسن وأبي عليّ الفارسيّ.

وثاني الأقوال: أن يكون قوله: ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ كلام

١ـ سورة القلم: ١٤ ـ ١٥.

٢ـ سورة البقرة: ٦.

٣ـ تفسير الرازي، ج ٨، ص ١٠٢.

٤ـ الصافي، ج ١، ص ٣٤٨.

اليهود وما بعده من كلام الله ويكون المعنى: قل إنّ الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أيّها المسلمون، و«لا» مقدّرة مثل قوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾[1] أي: أن لا تضلّوا فيكون المعنى: لا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم وأن لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، فيكون من كلام الطائفة.[2] وقال المبرّد: إنّ «لا» ليست ممّا يحذف في هذا المقام والمعنى: قل إنّ الهدى هدى الله كراهة أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أي: ممّن خالف دين الله الإسلام لأنّه تعالى خصّ المؤمنين الهداية ولا يهدي من هو كاذب كفّار فهدى الله بعيد من غير المؤمنين. نعم إنّه تعالى هداه ابتداء فطرة الإسلام في ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ فبعد قبوله الكفر غير لائق بالهداية.

وقيل: معنى الآية: إنّ الهدى هدى الله والحقّ ما أمر الله به ثمّ فسّر الهدى فقال: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ﴾ فيكون حاصل المعنى أنّ المؤتى ما شرّع لكم. وقيل: «أن» في الآية نافية فيكون على هذا التقدير من كلام الطائفة فقالوا: لا تؤمنوا أيّها اليهود إلّا لمن تبع دينكم وقولوا لهم: إنّه ما يؤتى أحد مثل ما أوتيتم حتّى يحاجّوكم عند ربّكم فيدحضوا حجّتكم، والواو في ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾ راجع إلى «أحد» وهو في معنى الجمع إذا المراد غير أتباعهم.

وقيل: الآية من أوّلها إلى آخرها كلّها خطاب من الله وتقديره: ولا تؤمنوا أيّها المؤمنون إلّا لمن تبع دينكم وهو دين الإسلام ولا تصدّقوا بأن يؤتى أحد مثل أوتيتم من الدين المستقيم فلا نبيّ بعد نبيّكم ولا شريعة بعد شريعتكم إلى يوم القيامة ولا تصدّقوا حجّة لأنّ دينكم خير الأديان وأنّ الهدى هدى الله. بأن تكون لأحد عليكم عند ربّكم ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾

١ـ سورة النساء: ١٧٦.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٢٣.

ويستفهم هذه المعاني من سوق الكلام ويدلّ عليه ما قاله الضحّاك: إنّ اليهود قالوا: إنّا نحاجّ عند ربّنا من خالفنا في ديننا، فبيّن الله أنّهم المغلوبون المدحضون وأنّ المؤمنين هم الغالبون والمراد من «الفضل» في الآية النبوّة، وقيل: نعم الدنيا والآخرة. ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ علّقه بالمشيّة بسبب سعة علمه بمصالح الأمور وهو تعالى واسع المقدور.[(١)]

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يجعل رحمته لمن يشاء ويكون محلًا وقابلا للرحمة وهذا كقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[(٢)] وفي مضمون الآية إشارة إلى الاحتراز من الحسد فإنّ الحسد حمل أحبار اليهود على مثل هذا الإنكار من تصديق نعوت النبيّ صلى الله عليه وآله ولأنّ تصديقهم إيّاه صلى الله عليه وآله كان مانعاً لهم من جمع المال وحصول الجاه والقبول عند أرباب الدنيا.

قال النبيّ صلى الله عليه وآله: **«ثلاث هنّ أصل الخطيئة فاتّقوهنّ: إيّاكم والكبر فإنّ إبليس حمله الكبر على أن لا يسجد لآدم، وإيّاكم والحرص فإنّ الحرص يحمل الإنسان على الانهماك في الدنيا، وإيّاكم والحسد فإنّ ابني آدم قتل أحدهما صاحبه حسداً، وبئست الخصلة الحسد».**[(٣)]

قال أمير المؤمنين: **«قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بالحاسد قبل المحسود».** قال الأصمعيّ رأيت أعرابيًا أتى عليه مائة وعشرون سنة فقلت: ما طوّل عمرك؟ فقال: تركت الحسد فبقيت. ومن علامات الحاسد أن يتملّق إذا شهد ويغتاب إذا غاب ويشمت بالمصيبة إذا نزلت. قال الشاعر:

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٢٣.

٢ـ سورة الأنعام: ١٢٤.

٣ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج ٤٩، ص ٤٠؛ وانظر: كنزالعمال، ج ٣، ص ٥٢٥.

و إذا أراد الله نشـر فضـيلة ... طويت، أتاح لها لسان حسود

لو لا اشتعال النار فيما جـاوزت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

و علاج إزالته عن النفس بكثرة الأذكار والانقطاع إلى الله وإنّ تباين مقامات أفراد الإنسان في الصفات الفاضلة رحمة لهم ولم يكن ذلك إلّا بتقدير العزيز العليم فالحاسد على الحقيقة يعارض الحقّ ومعنى حسده أنّه تعالى أنعم على من لا يستحقّ تعالى عن ذلك وقد ذمّ الله الحاسدين في كتابه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(1) لكن الغبطة على طاعة الله محمودة.

وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

«القنطار» وقد ذكر الخلاف في مقداره قبل هذا وعلى الجملة فالمراد المال الكثير قال ابن عبّاس: يعني بقوله: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ عبد الله بن سلام أودعه رجل ألفا ومأتي أوقية من ذهب فأدّاها إليه فمدحه الله سبحانه.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ والمراد «بالدينار» مثقال من الذهب أو العدد القليل ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ وهو كعب بن الأشرف أو فنحاص بن عازورا استودعه رجل من قريش ديناراً فلم يؤدّه وجحده فذمّه الله والمعنى أنّ فيهم من هو في غاية الأمانة ومن هو في غاية الخيانة ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ أي: في حال من الأحوال إلّا في حال دوام قيامك عليه على رأسه مبالغا في

١ـ سورة النساء: ٥٤.

مطالبته بالتقاضي وإقامة البيّنة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: تركهم أداء الحقوق ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ بيان لنفي السبيل عليهم من غير أهل دينهم بادّعائهم أنّ هذا الحكم في التوراة ولهذا السبب يميلون إلى الخيانة وكانوا يقولون: إنّه ليس علينا في أموال العرب الّتي أصبناها بأس لأنهم مشركون وادّعوا أنّ ذلك في كتبهم.

فأكذبهم الله في ذلك بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنّهم يكذبون لأنّ الله أمرهم بخلاف ما قالوا، وإنّما سمّوهم «امّيين» لأنّهم ما كانوا يكتبون وذلك لأنّ الأمّ أصل الشيء فمن لا يكتب فقد بقي على أصل حاله في أن لا يكتب أو لأنّهم منسوبون إلى مكّة وهي امّ القرى فلهذا السبب استحلّوا ظلم من خالفهم في اليهوديّة وقالوا: لم يجعل الله في التوراة لما لهم حرمة وقد كذبوا في ذلك على الله فإنّ أداء الأمانة واجب في الأديان كلّها وحبس مال الغير والإضرار به والخيانة إليه حرام ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه أي: بلى عليهم سبيل وما أمر الله بذلك ولا أحبّه ولا أراده بل أوجب والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ الهاء في «بِعَهْدِهِ» عائدة إلى الله في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فيكون معناه «بعهد الله» والمراد من عهد الله أمره ونهيه ويحتمل أن يكون عائدة إلى «من» ومعناه: من أوفى بعهد نفسه لأنّ العهد يضاف تارة إلى العاهد وتارة إلى المعهود له.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: إنّ الله يحبّه، وعدل إلى ذكر المتّقين لبيان الصفة الّتي يجب لها محبّة الله وروي عن النبيّ ﷺ لمّا قرأ هذه الآية قال: **«كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهليّة إلّا وهو تحت قدمي إلّا الأمانة فإنّها مؤدّاة إلى البرّ والفاجر».**(١)

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٢٧؛ ونورالثقلين، ج ١، ص ٣٥٤.

وعنه ﷺ قال: «ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صلّى وصام وزعم أنّه مؤمن: من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان»[1]، وعنه ﷺ «من ائتمن على الأمانة فأدّاها ولو شاء لم يؤدّها زوّجه الله من الحور العين ما شاء».[2]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾

نزلت في جماعة من أحبار اليهود: أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وحييّ بن الأخطب كعب بن الأشرف كتموا ما في التوراة من أمر محمّد ﷺ وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا أنّه من عند الله لئلّا تفوتهم الرياسة وما كان لهم على أتباعهم، عن عكرمة.

وقيل: نزلت في الأشعث بن قيس وخصم له في أرض قام ليحلف عند رسول الله ﷺ لمّا نزلت الآية نكل الأشعث واعترف بالحقّ وردّ الأرض، عن ابن جريح. وقيل: نزلت في رجل حلف يميناً فاجرة في تنفيق سلعة، عن مجاهد والشعبيّ.

ذكر الله سبحانه الوعيد لهم على أفعالهم الخبيثة فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ﴾ أي: يستبدلون ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ أي: بما يلزمهم الوفاء به[3] ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ وبدّلوا ما عاهدوا عليه من الإيمان بالرسول والوفاء بالأمانات وبما حلفوا عليه من كتمان نعوته وخياناتهم بالأمانات في ابلة ثمن بخس قليل وهو حطام الدنيا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون ﴿لَا خَلَٰقَ﴾ ولا نصيب ﴿لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾

١ـ الكافي، ج ٢، ص ٢٩٠؛ وتحف العقول، ص ٣١٦.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٢٧.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

ولا في نعيمها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وهو مجاز عن شدّة غضبه وسخطه عليهم وإيقاعه بهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يثني عليهم كما يثني على أوليائه والتزكية من الله تكون على ألسنة الملائكة كقوله: ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم﴾[1] ومثل قوله: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[2] ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما فعلوه من المعاصي.

وفي تفسير الكلبي عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ: **«من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها مال أخيه المسلم لقى الله وهو غضبان»** وتلا هذه الآية.[3]

وروى مسلم بن الحجّاج في الصحيح بإسناده من عدّة طرق عن أبي ذرّ الغفاريّ عن النبي ﷺ قال: **«ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: المنّان الّذي لا يعطي شيئاً إلّا منّة والمنفق سلعة باليمين الفاجرة والمسبل إزاره»**.[4]

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

أي: من اليهود المحرّفين ﴿لَفَرِيقًا﴾ ونصب «فريقا» بأنّه اسم «إنّ» واللام للتأكيد وهم جماعة من أحبار اليهود كتبوا ما ليس في التوراة من صفات النبيّ وغيرها وأضافوه إلى التوراة. وقيل: نزلت الآية في اليهود والنصارى حرّفوا التوراة والإنجيل ضربوا كتاب الله بعضه ببعض وألحقوا به

١ـ سورة الرعد: ٢٤.

٢ـ سورة يس: ٥٨.

٣ـ انظر: المبسوط، الشيخ طوسي، ج ٥، ص ١٩٧.

٤ـ صحيح مسلم، ج ١، ص ٧١؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٣٢٨.

ما ليس فيه واستعمل تحريف الكتاب عن الجهة ليّاً باللسان والمراد تفسيره وتحريفه بخلاف الحقّ ﴿لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: لتظنّوه أيّها المسلمون من كتاب الله﴿وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: من جملته والحال أنّه ليس منه في نفس الأمر وفي اعتقادهم أيضا.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنّهم كاذبون ومفترون على الله وبالجملة لمّا حرّفوا في التوراة وبدّلوا صفة رسول الله ﷺ أخذت قريظة ما كتبوا فخلطوه بالتوراة الّتي عندهم.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾

في الآية بيان لمفتريات الأحبار على الأنبياء حيث قالوا: إنّ عيسى عليه السلام أمرنا أن نتّخذه ربّا ـ حاشاه عليه السلام ـ وجاء رجل من المسلمين فقال: يا رسول الله نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك؟ فقال ﷺ: **«معاذ الله أن نعبد غير الله ونأمر بعبادة غير الله»**[1] أي: ما صحّ وما استقام لأحد سواء كان بشراً أولا وإنّما قيل: «بشرا» إشعاراً بعلّة الحكم فإنّ البشريّة منافية لهذا الاسناد الّذي أسنده الكفرة من النصارى وهو إسناد الربوبيّة إليه.

وحاصل معنى الآية أنّه ليس لبشر بعد أن آتاه الله وأعطاه ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الناطق بالحقّ مثل التوراة والإنجيل والقرآن ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ أي: الفهم والعلم ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ فالكتاب السماويّ والوحي ينزل أولاً ثمّ يحصل في عقل النبيّ وإدراكه فهم ذلك الكتاب وأسراره ثمّ بعد الحصول يبلّغ النبيّ ذلك المفهوم

١ـ بحارالانوار، ج ٢٥، ص ٢٦٢؛ وانظر: ج ٩، ص ٧١.

إلى الخلق وهو المراد بالنبوّة.

﴿ثُمَّ يَقُولَ﴾ ذلك البشر بعد هذه التشريفات ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وليس لأحد حقّ في هذا القول. قال الأصمّ: معنى الآية أنّه لا يتمكّن النبيّ بعد تحقّق نبوّته أن يقول: ﴿لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي﴾ فمعنى الآية مثل قوله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ... لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾.[1]

﴿وَلَٰكِن﴾ يقول لهم ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ الربّانيّ منسوب إلى الربّ بزيادة الألف والنون كاللحيانيّ إذا وصف بطول اللحية ففيه الدلالة على الكمال في هذه الصفة وإذا نسب إلى اللحية من غير قصد المبالغة يقال: لحويّ، فالربّانيّ هو الكامل في العلم، والعلم الشديد التمسّك بطاعة الله، كما يقال: رجل إلهيّ، إذا كان مقبلاً على معرفة الإله وطاعته. ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: كونوا ربّانيّين في علمكم ودراستكم وعلّموا الناس، وعلم الكتاب ودرسه يقتضي كونه ربّانيًا وتعلّم الناس طريق الهداية فعلم الكتاب سبب لنهي الناس عن عبوديّة غير الله فكيف يتصوّر أن يقول للخلق اعبدوني؟ فهذا الّذي يدّعونه النصارى غير واقع وكذب.

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

عطف على قوله: «ما كانَ لِبَشَرٍ» أو على «ثُمَّ يَقُولَ» وصورة الكلام «ما كانَ لِبَشَرٍ» يكون موصوفاً بصفة النبوّة يأمر الناس بعبادة نفسه ولا يكون له أن يأمر الناس أن يتّخذوا الملائكة والنبيّين آلهة ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ﴾ كونكم مخلصين بالتوحيد فإنّه لو أمركم بذلك لكفر ونزع منه النبوّة ومن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوّة يمنعه ذلك من ادّعاء الألوهيّة.

وقيل: الضمير في «يأمركم» راجع إلى الله. وقيل: إلى محمّد وقيل: إلى

١ـ سورة الحاقة: ٤٤.

عيسى. ومنشأ الاختلاف قراءة رفع الراء في «يأمركم» ونصبها لأنّ من قرأ بالنصب عطفه على «أنْ يُؤْتِيَهُ الله» وتكون «لا» مزيدة لتأكيد معنى النفي في قوله: «ما كانَ لِبَشَرٍ» وقراءة الرفع على الاستيناف وتضمّن معنى الحاليّة بتقدير المبتدء أي: وهؤلاء يأمركم هكذا.

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

قرأ حمزة بكسر اللام في «لما» والباقون بفتحها وقرأ نافع «آتيناكم» على الجمع والباقون على التوحيد، وقراءة الكسرة قال حمزة: إنّه يتعلّق «بالأخذ» كأنّ المعنى أخذ ميثاقهم لهذا ويكون «ما» موصولة المعنى، الميثاق مصدر يجوز إضافته إلى الفاعل وإلى المفعول فيحتمل أن يكون الميثاق من النبيّين ويحتمل أن يكون أخذه للنبيّين.

قال المفسّرون: إنّ الله أخذ الميثاق من النبيّين أن يصدّق بعضهم بعضا وأخذ العهد على كلّ نبيّ أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء وأن ينصره إن أدركه وإن لم يدركه أن يأمر قومه بالإيمان به إن أدركوه فأخذ الميثاق من موسى عليه السلام أن يؤمن بعيسى عليه السلام ومن عيسى عليه السلام أن يؤمن بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وإذا كان [هذا] حكم الأنبياء كانت الأمم بذلك أولى.(١)

أي: اذكر يا محمّد وقت أخذ الله ميثاق الأنبياء وأممهم ﴿لَمَا ءَاتَيْتُكُم﴾ و«اللام» موطّئة لأنّ أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف و«ما» مبتدأ موصولة و«آتيتكم» صلتها والعائد محذوف تقديره: للّذي آتيتكموه ﴿لَتُؤْمِنُنَّ

١ـ راجع: بحارالانوار، ج ٦٤، ص ١١٥.

بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ جواب قسم مقدّر والقسم المقدّر وجوابه خبر للمبتدأ أي: والله لتصدّقنّه برسالته وتنصرنّه على أعدائه وهذا إذا كانت «ما» في الآية موصولة، واللام لام ابتداء وهي المتلقيّة لما اجري مجرى القسم من قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ وموضع «ما» حينئذ رفع بالابتداء كما ذكرنا قبيل هذا والخبر «لتؤمنن» وإذا جعلت «ما» للشرط كانت «ما» في موضع نصب «بآتيتكم» وتقديره: أيّ شيء آتيتكم ومهما آتيتكم من كتاب لتؤمننّ به فالشرط هو إيتاؤه إيّاهم الكتاب والحكمة ومجيء الرسول والجزاء القسم والمقسم عليه وهو قول: «لتؤمننّ به» كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.[1]

فيكون على هذا معنى الآية إنّ الله قال لهم: مهما اوتيكم كتابا وحكمة ثمّ يجيئكم به رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه فأقرّوا بذلك وأعطوا مواثيقهم وهو المرويّ عن عليّ وابن عبّاس وقتادة والسدّيّ والجبّائيّ وأبو مسلم[2] وهذا كلّه على قراءة الفتح في اللام في «لَما آتَيْتُكُمْ» وعلى قراءة كسر اللام فالمعنى: ميثاقهم لأجل ما أوتوه من الكتاب والحكمة لأنّهم الفواضل وخيار الناس. وقرأ سعيد بن جبير «لمّا» مشدّدة.

قال بعض المفسّرين ذكر «النبيّين» على سبيل المنابية ثمّ قال مخاطبا بقوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ في الآية إضمار فقالوا تقديره: وإذ أخذ الله ميثاق النبيّين لتبلّغنّ الناس ما آتيتكم، وحذف لدلالة الكلام. وهذا باب واسع في القرآن وأراحوا أنفسهم التكلّفات في الآية فإنّ لام القسم إنّما يقع على الفعل فلمّا دلت هذه اللام على هذا الفعل لا جرم حذفه اختصارا.

قال سعيد بن المسيّب: وهذه الآية من مشكلات آيات القرآن. قال

١ـ سورة الزمر: ٦٥.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٣٤.

الطبرسيّ: وقد غاص النحويّون في وجوه إعرابها وشقّوا الشعر في تدقيقها.

﴿قَالَ﴾ أي: قال الله بعد ما أخذ الميثاق: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أي: بالإيمان والنصر له. قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي: قبلتم على ذلكم الميثاق عقدي الّذي عقدته عليكم؟ والإصر الثقل الّذي يلحق الإنسان والمراد هنا العهد.

﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾ أي: قال الأنبياء وأممهم أقررنا بما أمرتنا به ﴿قَالَ﴾ الله: ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ أيها الملائكة أو الأنبياء أو الأمم بإقرار بعضكم على بعض ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: وأنا أيضاً شاهد على إقراركم ذلك، والمقصود التحذير من الرجوع إذا علموا شهادة الله وشهادة بعضهم على بعض.

فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

فَمَنْ تَوَلَّى أي: أعرض بَعْدَ ذلِكَ العهد الخارجون المتمرّدون عن الإيمان والطاعة وروي عنهﷺ أنه قال: لقد جئتكم بها بيضاء نقيّة أما والله لو كان موسى بن عمرانعليه السلام حيّاً لما وسعه إلّا اتّباعي.(۱)

قال أمير المؤمنينعليه السلام: «**إنّ الله ما بعث آدم ومن بعده من الأنبياء إلّا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمّدﷺ وهو حيّ ليؤمننّ به**».(۲) وقال أبو مسلم: إنّ الّذين أخذ الله الميثاق منهم، يجب عليهم الإيمان بمحمّد عند مبعثه وكلّ الأنبياء يكونون عند مبعث محمّد في زمرة الأموات فلمّا كان الّذين أخذ الميثاق عليهم يجب عليهم الإيمان بمحمّد عند مبعثه ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند مبعث محمّد علمنا أنّ الّذين أخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيّين بل هم أممهم، وكثيراً ورد في القرآن لفظ النبيّ والمراد امّته.

وممّا يؤكّد هذا أنّه تعالى حكم على الّذين أخذ عليهم الميثاق أنّهم لو

۱ـ معاني الاخبار، ص ۲۸۲؛ وبحارالانوار، ج ۳۰، ص ۱۷۹؛ وج ۷۳، ص ۳٤۷.

۲ـ انظر: بحارالانوار، ج ۱۱، ص ۱۳؛ وجوامع الجامع، ج ۱، ص ۳۰۵؛ وتفسيرالرازي، ج ۸، ص ۱۲۳.

تولّوا لكانوا فاسقين وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء وإنّما يليق بالأمم. وأجاب بعض المفسّرين أنّه لم لا يجوز أن يكون المراد أنّ الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم هذا الأمر وهو الإيمان بمحمّدﷺ ونظيره قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1] وقد علم الله أنّهﷺ لا يشرك قطّ لكن خرج هذا الكلام على سبيل الفرض كما قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾.[2]

فلو قيل: إنّ هذا الخطاب في قوله: ﴿لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ﴾ إن كان المراد الأنبياء فجميع الأنبياء ما أوتوا الكتاب وإنّما أوتي بعضهم وإن كان الخطاب مع الأمم فالإشكال أظهر.

والجواب أنّ الأنبياء كانوا محكومين ومهتدين بالكتاب المنزل ولو أنّه لم ينزل على بعضهم، ووصف الكلّ بالإتيان وبوصف أشرف أنواعهم وهم الّذين أوتوا الكتاب. والمراد من «الكتاب» هو المنزل المقروء، والمراد من «الحكمة» هو الوحي الوارد بالتكاليف المفصّلة الّتي لم يشتمل ظاهر الكتاب عليها.

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

ولمّا بيّن سبحانه في الآية الاولى أنّ الإيمان بمحمّد شرع شرّعه الله وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء لزم أنّ كلّ من كره ذلك فإنّه يكون طالباً ديناً غير دين الله فلهذا عبّر بهذه الآية ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾ وقرئ «تبغون» بالخطاب والخطاب لليهود، فالميثاق لمّا كان مذكوراً في كتبهم على لسان رسلهم فقد كانوا عالمين وعارفين بصدق الرسول الأمّيّ فلم يبق لجحودهم نبوّتهﷺ سوى العناد.

١ـ سورة الزمر: ٥٦.

٢ـ سورة الحاقة: ٤٤.

فقال سبحانه: أيتولّون غير دين الله ويطلبونه ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ﴾ أي: لله أخلص وانقاد ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أهلهما. فإن قيل: إنّ الكافر ما أسلم له فالجواب: أنّ المسلمين أسلموا له طوعاً والكافر أسلم له كرهاً عند موته ضرورة كما قال سبحانه: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾[1]

وقيل: المراد من قوله: «أسلم» أي: خضع وانقاد كما فسّرنا فخضوع كلّ من في السماوات والأرض لله بيانه: أنّ كلّ ما سوى الله منقاد خاضع لله في طرفي وجوده وعدمه وهذا هو نهاية الانقياد فكلّ ما سواه لا يوجد إلّا بتكوينه ولا يفنى إلّا بإفنائه سواء كان عقلاً أو نفساً أو روحاً أو جسماً أو جوهراً أو عرضاً أو فعلاً أو فاعلا.

ونظيره في الدلالة على هذا المعنى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2] وكذلك ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[3] وليس لأحد الامتناع عليه سبحانه في مراده فالمسلمون الصالحون ينقادون لله طوعا فيما يتعلّق بالدين وينقادون له كرها فيما يخالف طباعهم من المرض والفقر والموت وأشباه ذلك والكافرون عند موتهم ضرورة. وقال الحسن: الطوع لأهل السماوات خاصّة وأمّا أهل الأرض فبعضهم بالطوع وبعضهم بالكره.[4]

وقيل: في الآية قول آخر وهو أنّ المراد أنّ انقياد الكلّ إنّما حصلت وقت أخذ الميثاق وهو قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[5]

١ـ سورة غافر: ٨٥.

٢ـ سورة الرعد: ١٥.

٣ـ سورة الإسراء: ٤٤.

٤ـ تفسيرالرازي، ج ٨ ص ١٣١.

٥ـ سورة الأعراف: ١٧٢.

﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ أي: إلى جزائه مصيركم فبادروا إلى قبول دينه ولا تخالفوا الإسلام و﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ منصوبان على الحال مصدران تقديره: طائعاً وكارها.

قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾

خاطبه سبحانه أولاً بخطاب الواحد ليدلّ على أنّه لا مبلّغ لهذا التكليف من الله إلى الخلق إلّا هو وهو المعين للتبليغ ثمّ قال: ﴿ءَامَنَّا﴾ بلفظ الجمع حتّى يوافقونه أصحابه عليه وتنبيهاً على أنّ هذا التكليف ليس من خواصّه بل هو واجب لكلّ المؤمنين، أو النون نون العظمة، أمره سبحانه بأن يتكلّم عن نفسه على ديدن الملوك إظهاراً منه تعالى لإبانة جلالة قدره ﷺ ورفعة محلّه.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا﴾ وهو القرآن، والنزول كما يعدّى بإلى لانتهائه إلى الرسل يعدّى بعلى لأنّه من فوق ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ من الصحف والمراد من «الأسباط» حفدة يعقوب وأبناؤه الاثنا عشر وذراريهم فإنّهم حفدة إبراهيم.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات الظاهرة على أيديهم وتخصيصهما بالذكر لما أنّ الكلام مع اليهود والنصارى ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾ أي: وما اوتي النبيّون من المذكورين وغيرهم ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾ من الصحف والمعجزات.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ كدأب اليهود والنصارى آمنوا ببعض وكفروا ببعض بل نؤمن بصحّة كلّ منهم وبحقّيّة ما أنزل إليهم في زمانهم. واختلف في أنّ النبيّ الّذي نسخ شرعه بنبيّ بعده فهل يكون نبوّته باقية أم لا؟ فمن

قائل إنّ نبوّته أيضا منسوخة.

ومن قائل إنّ نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوّة ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون ومخلصون له تعالى أنفسنا ولا نجعل له شريكاً في الربوبيّة.

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

ومن يطلب غير التوحيد ﴿دِينًا﴾ يدين به كدأب المشركين صريحا والمدّعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ذلك أبدا بل يردّ ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بحرمان الثواب وحصول العقاب والتحسّر الدائم.

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾

﴿كَيْفَ﴾ أصله الاستفهام والمراد به هنا الإنكار أي: لا يهديهم الله إلى الحقّ ﴿قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ والآية تدلّ على أنّ الدين والإسلام والإيمان واحد. قيل: هم عشرة رهط ارتدّوا بعد ما آمنوا ولحقوا بمكّة[١]، والمراد أنّه كيف يوفّقهم الله لاكتساب الاهتداء؟ وإنّما يوفّق سبحانه على كسب الاهتداء ويقدرهم عليه إذا كانوا متواضعين للحقّ راغبين فيه لا معرضين عنه ولا معاندين له. وقد جرت سنّة الله في دار التكليف على أنّ كلّ فعل يقصد العبد إلى تحصيله فإنّ الله لا يمنعه عقيب قصد العبد.

﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ أي: صادق فيما يقول ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ والشواهد من القرآن والمعجزات أي: بعد أن آمنوا وبعد أن شهدوا حقيقة الأمر. وهو دليل على أنّ الإقرار باللسان فقط خارج عن حقيقة الإيمان

١ـ تفسيرأبي السعود، ج ٢، ص ٥٦.

ضرورة أنّ المعطوف مغاير للمعطوف عليه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الّذين ظلموا أنفسهم بوضع الكفر موضع الإيمان، وهذا حال من دام على الكفر والثابت عليه وأمّا إذا رجعوا وتحرّوا إصابة الحقّ فحينئذ يهديهم الله ويجعل الاهتداء فيهم ولا يمنعهم ثواب الفيض الأقدس.

أولئك الموصوفون جزاؤهم ان عليهم لعنة الله وهو إبعاده عن الجنّة وإنزال العذاب والملائكة أي: ولعنهم.

أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾

أي: إنّهم مخلّدون في اللعنة وثابتون في البعد عن الرحمة ولا يزال يوم القيامة يلعنهم الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار من غير تخفيف لهم من العذاب في النار، ولا يؤخّر العذاب من وقت إلى وقت عنهم فإنّ العذاب الملحق بالكفّار دائم غير منقطع.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

قيل: نزلت في رجل من الأنصار يقال له: الحارث بن سويد بن الصامت، وكان قتل المحذر بن زياد البكريّ غدراً وهرب إلى مكّة وارتدّ عن الإسلام ثمّ ندم فأرسل رسولاً إلى قومه أن يسألوا رسول الله هل لي من توبة؟ فسألوا، فنزلت الآيات إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ فحملها إليه رجل من قومه فقال: إنّي أعلم أنّك لصدوق ورسول الله أصدق منك وأنّ الله أصدق الثلاثة، فرجع إلى المدينة وتاب وحسن إسلامه، عن مجاهد والسدّيّ وهو

المرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام.[1]

وقيل: نزلت الآيات في أهل الكتاب الّذين كانوا يؤمنون بالنبيّ صلى الله عليه وآله قبل مبعثه ثمّ كفروا بعد البعثة حسداً وبغياً، عن الحسن والجبّائيّ وأبي مسلم.

والاستثناء متّصل ولا يحمل على المنقطع مع حسن الاتّصال لأنّه الأصل في الكلام والمستثنون ﴿ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ ورجعوا عن الكفر إلى الايمان ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ ضمائرهم وعزموا على أن يثبتوا على الإيمان.

قال الطبرسيّ: وهذا المعنى أحسن من قول من قال: المراد من قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي: أصلحوا أعمالهم بعد التوبة وصلّوا وصاموا فإنّ ذلك ليس بشرط في صحّة التوبة إذ لو مات قبل فعل الصالحات مات مؤمناً بالإجماع.[2]

أقول: إنّ ما قاله الشيخ الطبرسيّ من أنّ ذلك ليس بشرط في صحّة التوبة صحيح لكن إذا تاب ومات قبل فعل الصالحات بحيث أدركه بعد التوبة الأجل، أمّا إذا تاب وبقي ولم يتدارك صلاته وسائر واجباته الّتي عليه أداؤها فهل هو مغفور ولم يعذّب؟ فيه تأمّل لأنّ شرط قبول التوبة الرجوع عمّا كان عليه والتدارك لما فات منه، نعم مات مؤمنا معناه أنّه ليس بكافر ولا مخلّد لكن إسقاط العذاب عنه غير معلوم. قال صاحب تفسير روح البيان: إنّ عطف قوله: «وَ أَصْلَحُوا» على قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ يدلّ على أنّ التوبة وحدها وهي الندم على ما مضى من الارتداد والعزم على تركه في المستقبل لا يكفي حتّى ينضاف إليها العمل الصالح.

يحكى عن السريّ السقطي أنّه قال: عجبت من ضعيف عصى قويّا. فلمّا كان الغداة وصلّيت الغداة إذا أنا بشابّ قد وافى وخلفه ركبان على

١ـ انظر: التبيان، ج ٢، ص ٥١٩؛ ونورالثقلين، ج ١، ص ٣٦٣. وجامع البيان، ج ٣، ص ٤٦٠.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٤٠.

دوابّ بين يديه غلمان وهو راكب على دابّته فنزل وقال: أيّكم السري؟ فأومأ جلسائي إليّ، فسلّم عليّ وجلس وقال: سمعتك تقول: عجبت لضعيف عصى قويّا، فما أردت به؟ فقلت: ما ضعيف أضعف من ابن آدم ولا قويّ أقوى من الله وقد تعرّض ابن آدم مع ضعفه إلى معصية الله، قال: فبكى، ثمّ قال: يا سريّ هل يقبل ربّك غريقا مثلي؟ قلت: ومن ينقذ الغريق إلّا الله؟ قال الشابّ: إنّ عليّ مظالم كثيرة كيف أصنع؟ قال: إن صححت الانقطاع إلى الله ارضى عنك الخصوم بشرط أن تردّ إليهم ما بيدك بلغنا عن رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة واجتمع الخصوم على وليّ الله تقول الملائكة لهم **«لا تروعوا وليّ الله فإنّ الحقّ اليوم على الله فيهب الله لهم مقامات عالية بدل حقوقهم فيتجاوزون عن الوليّ»**.

قال فبكى ثمّ قال: صف لي الطريق إلى الله، فقلت: إن كنت تريد طريق المقتصدين فعليك بالصيام والقيام وترك الآثام، وإن كنت تريد طريق الأولياء فاقطع العلائق واتّصل بخدمة الخالق وعدّ نفسك من أصحاب القبور فإنّ الإنسان لا يصل إلى الحضور الباقي والحياة الأبديّة إلّا بعد إفناء وجوده في الطاعة وتبديل الأخلاق الذميمة بالحميدة.

قال رسول الله ﷺ: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ولا تتخذها وطنا»**، الحديث.[1]

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾

لمّا ذكر سبحانه ذكر التوبة المقبولة عقبه بذكر مالا يقبل منها.

قيل: نزلت في أهل الكتاب الّذين آمنوا بمحمّد وكتابه قبل مبعثه ثمّ

١ـ انظر:الأمالي، الشيخ الطوسي، ص ٣٨١ وص ٤٠٢؛ ومشكاة الانوار، ص ٥٢٤.

كفروا به وأنكروا نعوته بعد مبعثه. وقيل: نزلت في الّذين آمنوا بموسى عليه السلام وكفروا بعيسى والإنجيل ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ بكفرهم بمحمّد والقرآن. وقيل: نزلت في أحد عشر من أصحاب الحارث بن سويد لمّا رجع الحارث قالوا: نقيم بمكّة على الكفر فمتى أردنا الرجعة إلى الإسلام رجعنا فينزل فينا ما نزل في الحارث فلمّا افتتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكّة دخل في الإسلام من دخل منهم فقبلت توبته ونزل فيمن مات على كفره.[1]

وقيل: معنى الآية ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ لأنّه كلّما نزلت آية كفروا بها وثبتوا على كفرهم وازدادوا بالإصرار عليه والطعن فيه والصدّ عن الإيمان. وقيل: لن تقبل توبتهم عند رؤية البأس والموت لأنّها يكون في حال الإلجاء ولا يتوبون إلّا عند حضور الموت ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ عن الحقّ الهالكون المعذّبون.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

لمّا كان الموت على الكفر سبباً لامتناع قبول الفدية دخلت الفاء إيذاناً بسببيّة المبتدء لخبره والكلام وارد على الفرض، والذهب كناية من أعزّ الأشياء وكونه ملء الأرض كناية عن غاية الكثرة وإلّا فهو يوم القيامة لا يملك نقيراً ولا قطميراً، والمراد أنّ من مات على الكفر لو كان يملك ملء الأرض ذهباً وافتدى به لا تنفعه الفدية عن عذاب الله وأنّهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بهذا الوصف الشنيع ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مولم

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٤٠؛ ورواه المجلسي في البحار، ج ٢٢، ص ١٧.

ومالهم من ناصرين في دفع العذاب، وقرأ الأعمش «ذهب» بالرفع أمّا النصب فعلى التميز ومعنى التميز في الكلام أن يكون الكلام معلوما في الجملة لكنّه مع معلوميّته مبهم مثل قولك: عندي عشرون، فالعدد معلوم لكنّ المعدود مبهم فإذا قلت: درهما، فسّرته، وكذلك إذا قلت: هو أحسن الناس، فقد أعلمت وأخبرت عن حسنه ولم تتبيّن في ما ذا، فإذا قلت: وجها أو فعلا، فقد بيّنته وفسّرته. وإنّما نصب التمييز لأنّه ليس له ما يخفضه ولا ما يرفعه فلمّا خلا من هذين نصب لأنّ النصب أخفّ الإعراب فيجعل منصوبا كأنّه لا عامل فيه. وأمّا الرفع ردّاً على «ملء» كما يقال: عندي عشرون نفسا رجالا.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ لمّا بيّن أنّه لا خلاص لهم عن العذاب بسبب الفدية بيّن أنّه لا خلاص لهم عنه بسبب الإعانة والنصرة والشفاعة. وفي الآية إشعار على إثبات الشفاعة وذلك لأنّه تعالى ختم وعيد الكفّار بعدم النصرة والشفاعة فلو حصل هذا المعنى في حقّ غير الكافر بطل تخصيص هذا الوعيد بالكفر. وصيغة الجمع لمراعاة الضمير أي: ليس لواحد منهم ناصر واحد. قال رسول الله ﷺ: **«يقول الله لأهون أهل النار عذابا يوم القيامة: لو أنّ لك ما في الأرض من شيء أكنت تفدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلّا أن تشرك بي»**.[1]

قال الفخر الرازيّ: إنّ الكافر على ثلاثة أقسام: **أحدها**: الّذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة وهو الّذي ذكره الله بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

والقسم **الثاني**: هو الّذي يتوب عن الكفر توبة فاسدة وهو الّذي ذكره الله في قوله: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾.

١ـ صحيح البخاري، ج ٧، ص ٢٠١؛ وصحيح مسلم، ج ٨، ص ١٣٤.

وثالثها: الّذي يموت على الكفر من غير توبة وهو المذكور بقوله: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾[1] وهم الّذين رسخت هيئة استيلاء النفوس الأمّارة على قلوبهم وتمكّنت وصارت زينا فتمادت في العناد وكان سبب كفرهم محبّة هذه العوائق الفانية واتّباع الهوى.

قال النبي صلى الله عليه وآله: **«أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحقّ وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة»**[2] قال علماء الأخلاق: مفتاح العبادة الفكرة وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى.

قال جعفر بن نصير: دفع إليّ بعض الزهّاد درهما فقال: اشتر به التين الوزيريّ فاشتريته، فلمّا أفطر أخذ واحدة ووضعها في فيه ثمّ ألقاها من فمه وبكى وقال لي: احمله، فقلت: له في ذلك، فقال: هتف في قلبي: أما تستحيي شهوة تركتها من أجله تعالى، ثمّ تعود إليها.

وأعلم أنّ النفس مجبولة على ضدّ الروحانيّة الّتي هي من الملكوت الأعلى وتأمر بالتمرّد والاستكبار ولا تقبل الموعظة. قال صاحب البردة:[3]

فإنّ أمّارتي بالسوء ما اتّعظت ... من جهلها بنذير الشيب والهرم

فهي شبيهة بجهنّم ولها دركات سبع كما أنّ لجهنّم طبقات، ودركات النفس صفاتها السبع: الكبر والحرص والشهوة والحسد والغضب والبخل والحقد فمن زكّى نفسه عن هذه الصفات فقد عبر عن هذه الدركات السفليّة الشيطانيّة الجهنّميّة ووصل إلى درجات الجنان العلويّة كمال قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[4] ومن لم

١ـ تفسيرالرازي، ج ٨، ص ١٤٠.

٢ـ الكافي، ج ٨، ص ٥٨. والخصال، ص ٥١؛ والأمالي، الشيخ المفيد، ص ٣٤٥.

٣ـ اعيان الشيعة، ج ٩، ص ٣٠٤.

٤ـ سورة الشمس: ٩.

يزكّها عن هذه الصفات بقي خائبا خاسرا كما قال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.[١]

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

أي: لن تبلغوا أيها المؤمنون ولن تدركوه ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟﴾ واختلف في «البر» هنا فقيل: هو الجنّة عن ابن عبّاس وجماعة. وقيل: هو الطاعة والتقوى. وقيل: معناه لن تكونوا صالحين أتقياء ولن تلحقوا بزمرة الأبرار حتّى تنفقوا في سبيل الله بعض ما تهوونه وتعجبكم من كرائم أموالكم.

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ أي: أيّ شيء تنفقوا طيّب تحبّونه أو خبيث تكرهونه ـ ومحلّ الجارّ والمجرور النصب على التمييز ـ فيجازيكم بحسبه جيّداً كان أو رديئاً علماً كاملاً لا يخفى عليه شيء من ذات ذلك أو صفاته، والعاقل إذا أحبّ شيئاً جعله لنفسه ذخيرة ليوم يحتاج إليه. روي أنّها لما نزلت جاء أبو طلحة فقال يا رسول الله: إنّ أحبّ أموالي إليّ بئر حاء ـ وهو ضيعة له في المدينة مستقبل مسجد رسول الله ـ فضعها يا رسول الله حيث أراك الله فقال ﷺ: «**بخ بخ ذاك مال رابح** ـ أو رايح ـ **فإنّي أرى أن تجعلها في الأقربين**» فقسّمها في أقاربه.[٢]

وقد قيل: من أراد البرّ فلينفق بعض ما يحبّه ومن أراد البارّ فلينفق جميع ما يحبّه.

قال نجم الدّين: فبقدر ما تكونون له يكون لكم كما قيل: «من كان لله كان الله له» فإنّ الفراش ما نال من برّ الشمع وهو شعلته حتّى أنفق ما أحبّه وهو نفسه حتّى قيل: من أحبّ من دون الله شيئاً فقد حجب به عن الله وأشرك شركاً خفيّا لتعلّق محبّته بغير الله.

١ـ سورة الشمس: ١٠.

٢ـ انظر: معجم ما استعجم، ج ٢، ص ٤١٣.

حكي أنّ ربيع بن خثيم ضربه الفالج وطال به وجعه فاشتهى لحم دجاج فكفّ نفسه أربعين يوماً فأبت فقال: لزوجته قد اشتهيت لحم دجاج منذ أربعين يوم فكففت نفسي رجاء أن تكفّ فأبت فقالت امرأته: سبحان الله وأيّ شيء هذا تكفّ نفسك عنه وقد أحلّه الله لك فأرسلت امرأته إلى السوق فاشترت له دجاجة وذبحتها وشوتها وخبزت خبزا وجعلت لها أصباغا ثمّ جاءت بالخوان فوضعته بين يديه فقام سائل بالباب فقال: تصدّقوا عليّ بارك الله لكم، فكفّ عن الأكل وقال لامرأته: خذي هذا وادفعيه إليه، فقالت له امرأته: سبحان الله، قال: افعلي ما آمرك به، قالت: فاصنع ما هو خير له، قال: وما هو، قالت: تعطيه ثمن هذا وتأكل أنت شهوتك، قال: أحسنت ايتيني بثمنه فجاءت بثمنه، فقال: ضعيه على هذا وادفعيه جميعا ففعلت، ثمّ قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

وبالجملة فلا يحصل القرب ولا يزول البعد إلّا بقطع محبّة غير الله وإفناء النفس والشهوة.

كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾

النزول: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ...﴾[2] وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾[3] أنكر اليهود وغاظهم ذلك وبرّؤوا ساحتهم من الظلم وقالوا: لسنا بأوّل من حرمت عليه تلك المطعومات وما هو إلّا

١ـ سورة الشمس: ٩ ـ ١٠.

٢ـ سورة النساء: ١٦٠.

٣ـ سورة الأنعام: ١٤٦.

تحريم قديم كانت محرّمة على نوح وإبراهيم ومن بعده وهلمّ جرّاً حتّى انتهى التحريم إلينا، وغرضهم نفي البغي والظلم والصدّ عن سبيل الله من أنفسهم وما عدّد الله من مساويهم الّتي كلّما ارتكبوا منها كبيرة حرّم عليهم نوع من الطيّبات عقوبة لهم.

فقال سبحانه: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ وأنواعه ﴿كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ والمراد أكله ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ أي: يعقوب حرّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها.

روي أنّ يعقوب كان نذر إن وهب الله له اثني عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم، فتلقّاه ملك من الملائكة فقال له: يا يعقوب إنّك رجل قويّ فهل لك في الصراع؟ فعالجه فلم يصرع واحداً منهما صاحبه فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النساء من ذلك، ثمّ قال له الملك: أما أنّي لو شئت أن أصرعك لفعلت ولكن غمزتك هذا الغمزة لأنّك نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحا ذبحت آخر ولد لك، وجعل الله لك لهذه الغمزة مخرجا من ذلك الذبح.[١]

ثمّ إنّ يعقوب لمّا قدم بيت المقدس أراد ذبح ولده ونسي قول الملك أو انسي ـ على اختلاف بين العامّة والخاصّة في نسيان الأنبياء أو إنسائهم في امور أو عدمهما ـ فأتاه الملك فقال: إنّما غمزتك للمخرج وقد وفي نذرك فلا سبيل لك إلى ولدك. ثمّ إنّه حين ابتلا بذلك المرض لقي من ذلك بلاء وشدّة وكان لا ينام الليل من الوجع فحلف ونذر لئن شفاه الله لا يأكل أحبّ الطعام إليه فحرّم لحوم الإبل وألبانها، عن ابن عبّاس وجماعة.[٢]

١ـ تفسير البغوي، ج ١، ٣٢٦.

٢ـ تفسيرالثعالبي، ج ٣، ص ١٢؛ وتفسير القرطبي، ج ٢، ص ١٣٥.

وقيل: حرّم على نفسه لحم الجزور وسأل الله أن يجيز له فحرّم الله ذلك على ولده.

وقيل: حرّم زائد من الكبد والكليتين والشحم إلّا ما حملته الظهور.
وقيل: حرّمه كما يحرم المستظهر في دينه من الزهّاد بعض اللذائد على نفسه وكان ذلك جائزا.[١]

﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾ متعلّق بقوله: ﴿كَانَ حِلّٗا﴾ والاستثناء معترضة في الكلام والمعنى أنّ المطعومات كانت حلّا لهم قبل نزول التوراة ثمّ حرّمت بسبب بغي اليهود وظلمهم فكذّب الله اليهود ادّعاءهم أنّ بعض هذه الأطعمة كانت محرّمة وما حرّمت بسبب بغينا، وردّ عليهم في دعواهم البرائة من الظلم والطعن في دعوى الرسول موافقته لإبراهيم بتحليله عليه السلام لحوم الإبل وألبانها.

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أمره سبحانه بأن يحاجّهم بكتابهم الناطق بأنّ تحريم ما حرّم تحريم مرتّب على ظلمهم وبغيهم ويكلّفهم إخراجه وتلاوته ليبكتهم ويلقمهم الحجر ويظهر كذبهم. روي أنّهم لم يجترئوا على إخراج التوراة فبهتوا وانقلبوا صاغرين.

فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾

أي: من اختلق عليه سبحانه بزعمه أنّه حرّم ما ذكر قبل نزول التوراة على بني إسرائيل ومن تقدّمهم من الأمم من بعد ما ذكر من أمرهم بإحضار التوراة فأولئك المصرّون على الافتراء وهم المفرطون في الظلم والعدوان.

قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٤٤؛ ورواه المجلسي في البحار، ج ١٢، ص ٢١٦.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ظهر وثبت صدقه تعالى فيما أنزل في شأن التحريم وأنّ كلّ الطعام كان حلًا لبني إسرائيل وأنّ محمّدا في مراتب التوحيد كان متّبعا على دين إبراهيم وهو الحقّ ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ أنتم أيّها اليهود ﴿مِلَّةَ﴾ الإسلام فإنّه ملّة إبراهيم وأنّكم ما كنتم متّبعين ملّته كما تزعمون ﴿حَنِيفًا﴾ حال من إبراهيم أي: مائلا عن الأديان الزائفة المعوجّة ﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وفيه تعريض بإشراك اليهود وتصريح بأنّهﷺ على دين الحقّ وعلى دين أبيه إبراهيم في الأصول لأنّهﷺ لا يدعو إلّا إلى التوحيد والبراءة من التشريك والتثليث.

قال نجم الدين في (كتاب تأويلات النجميّة): إنّ الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة أصناف: صنف منها الملك الروحانيّ العلويّ اللطيف النورانيّ وجعل غذاءهم من جنسهم الذكر وخلقهم للعبادة ولا يعصون الله طرفة عين أبدا، وصنف منها الحيوان الجسمانيّ السفليّ الكثيف الظلمانيّ وجعل غذاءهم من جنسهم الطعام وخلقهم للعبرة والخدمة كالبقر والغنم وأمثالها، وصنف منها الإنسان المركّب من الملكيّ الروحانيّ والحيوانيّ الجسمانيّ جعل غذاءهم من جنسهم وجعل لروحانيّتهم الذكر ولجسمانيّتهم الطعام وخلقهم للمعرفة والعبادة والخلافة.[1]

فمنهم ظالم لنفسه وهو الّذي غلبت حيوانيّته على روحانيّته فبالغ في غذاء جسمانيّته وقصّر في غذاء روحانيّته حتّى مات روحه واستولت حيوانيّته أولئك كالأنعام بل هم أضلّ.

ومنهم مقتصد وهو الّذي تساوت روحانيّته وحيوانيّته فغذى كلّ واحدة منهما غذاءها خلطوا عملا صالحا وآخر سيّئا عسى الله أن يتوب عليهم.

١ـ راجع: الكافي، ج ١، ص ٢٧١.

ومنهم سابق بالخيرات وهو الّذي غلبت روحانيّته على حيوانيّته فبالغ في غذاء روحانيّته وهو الذكر وقصّر في غذاء حيوانيّته وهو الطعام حتّى ماتت نفسه واستوت قوى روحه، أولئك هم خير البريّة فكان كلّ الطعام حلالاً لهم من الأطعمة المناسبة للإنسان إلّا ما حرّم الإنسان السابق بالخيرات على نفسه بموت النفس وحياة القلب واستيلاء الروح من قبل أن نزل عليه الوحي والإلهام، وإنّما حرّمه على نفسه بسبب ارتقائه إلى درجة الملكيّة ومنع نفسه عن اللذّات بسبب نهي النفس عن هواها لا أنّه حرّمه حقيقة على وجه التشريع فهنيئا لهم.

وبالجملة قال سبحانه في حقّ إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لأنّه عليه السلام ما جعل الشركة في الخلّة مع الله وما اتّخذ خليلا سواه وأحبّ من أحبّه الله وأبغض من أبغضه الله.

قال الفضل بن عياض: يقول الله يوم القيامة: يا ابن آدم أمّا زهدك في الدنيا فإنّما طلبت الراحة لنفسك في الآخرة وأمّا انقطاعك إليّ فإنّما طلبت العزّ لنفسك ولكن هل عاديت لي عدوّا أو واليت لي وليّا.[1] فاسع، أي: العاقل، في طاعتك بالخلوص في محبّة الله فإنّه الكبريت الأحمر والله لا يحبّ القلب المشترك بمحبّة غيره من شهوة أو غيرها.

قال محمّد بن حسان: بينما أنا أدور في جبل لبنان إذ خرج عليّ شابّ قد أحرقته السموم والرياح فلمّا رآني ولّى هاربا فتبعته وقلت: عظني بكلمة أنتفع بها، قال: احذره تعالى فإنّه غيور لا يحبّ أن يرى في قلب عبد سواه.[2]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾

١ـ بحار الانوار، ج ٦٦، ص ٢٣٨.

٢ـ تاريخ مدينه دمشق، ج ٥٢، ص ٢٩٠.

«البيت» ما يبيت فيه أحد ثمّ استعمل في المسكن مطلقا، روي أنّه لمّا حوّلت القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوّتهﷺ وقالوا: إنّ بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحقّ بالاستقبال، لأنّه وضع قبل الكعبة وهو أرض المحشر ومهاجر الأنبياء وقبلتهم وهي الأرض المقدّسة الّتي بارك الله فيها للعالمين وفيها الجبل الّذي كلّم الله عليه موسىؑ فتحويل القبلة منه إلى الكعبة باطل[1] فنزلت: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ للعبادة وجعل متعبّدا لهم والواضع هو الله تعالى ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ خبر لإنّ، أي: هو البيت الّذي في بكّة وهو علم للبلد الحرام يقال: بكّة إذا زحمه لازدحام الناس فيه أو لأنّها تبكّ أعناق الجبابرة ولم يقصدها جبّار إلّا اضمحلّ وفنى.

قال النبيّﷺ: أوّل بيت وضع للناس المسجد الحرام ثمّ بيت المقدس وبينهما أربعون سنة.[2] وروي أنّ الملائكة بنوا بيت الحرام قبل خلق آدم بألفي عام فلمّا هبط آدم إلى الأرض قالت له الملائكة: طف حول هذا البيت فلقد طفنا حوله قبلك بألفي عام، فطاف به آدم ومن بعده إلى زمن نوح فلمّا أراد الله الطوفان حمل إلى السماء الرابعة وهو البيت المعمور بحيال الكعبة يطوف به ملائكة السماوات.[3]

فعلى هذا فنسبة بناء الكعبة إلى إبراهيم رفع قواعدها وإظهار ما درس منها بعد الطوفان وبقي مختفيا إلى أن بعث الله جبرئيل إلى إبراهيم ودلّه على مكان البيت وأمره بعمارته ولمّا كان الآمر بالبناء هو الله والمبلّغ والمهندس جبرئيل والباني هو الخليل والتلميذ والمعين إسماعيل كيف يكون بناء أشرف من الكعبة؟

١ـ تفسيرالرازي، ج ٨، ص ١٥١.

٢ـ الكشاف، ج ١، شرح ص ٤٤٦؛ وتفسيرالرازي، ج ٨، ص ١٥٤.

٣ـ انظر: عوالي اللئالي، ج ٢، ص ٨٣، وتفسير البحر المحيط، ج ٣، ص ٦.

﴿مُبَارَكًا﴾ أي: كثير النفع والخير لما يحصل لمن حجّه وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ لأنه قبلتهم ومتعبّدهم.

فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ مثل قصّة الفيل وأصحاب الفيل وبانحراف الطيور عن موازاة البيت وبانمحاق الجمار على كثرة الرماة فلولا أنّه لكان تجتمع هناك من الحجارة مثل الجبال على طول الزمان.

وقرأ ابن عبّاس: فيه آية بيّنة ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أثر قدميه عليه السلام في الصخرة الّتي كان يقوم عليها وقت رفع الحجارة لبناء الكعبة عند ارتفاعه أو عند غسل رأسه على ما روي أنّه عليه السلام جاء زائراً من الشام إلى مكّة فقالت له زوجة إسماعيل: أنزل حتّى أغسل رأسك فلم ينزل فجاءته بهذا الحجر فوضعته على شقّه الأيمن فوضع قدمه عليه حتّى غسلت شقّ رأسه ثمّ حوّلته إلى شقّه الأيسر حتّى غسلت شقّ الآخر فبقي أثر قدميه عليه و«مقام» بدل من «آيات» بدل البعض من الكلّ.[1]

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ أي: ومن دخل الحرم كان مأمونا قال ابن عبّاس: إنّ الحرم كلّه مقام إبراهيم. قيل: إنّ الكلام خبر والمراد به الأمر يعني أمّنوه حتّى أنّ من وجب عليه الحدّ فلاذ بالحرم لا يبايع ولا يشارى ولا يعامل حتّى يخرج من الحرم فيقام عليه الحدّ، وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام[2] **«إلّا أن يكون الفعل الموجب للحدّ واقع في الحرم فحينئذ يقام عليه الحدّ»**. وقيل: المعنى من دخله عارفاً بجميع ما أوجبه الله عليه كان آمنا

١ـ تفسيرأبي السعود، ج ٢، ص ٦٠.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٥٠.

في الآخرة من العذاب وذلك بدعوة إبراهيم ﴿قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾.[(١)]

وقيل: «بكّة» المسجد و«مكّة» الحرم كلّه يدخل فيه البيوت وهو المرويّ عن أبي جعفر. وقيل: «بكّة» بطن مكّة و«مكّة» اسم البلد. وقيل: «بكّة» هي مكّة واشتقاقها اشتقاق بكّة وإبدال الميم من الباء واقع في كلام العرب كقولهم: ضربة لازب في لازم، ومسجد رأسه وسيّده، والحطيم قال الصادق عليه السلام: **«هو ما بين الحجر الأسود والباب وهو الموضع الّذي فيه تاب الله على آدم»**. وسمّي الحطيم حطيماً لأنّ الناس يحطم بعضهم بعضا أو أنّ الذنوب تنحطم فيه، وقال عليه السلام: **«إنّ تهيّأ لك أن تصلّي صلاتك كلّها الفرائض وغيرها عند الحطيم فافعل فإنّه أفضل بقعة على وجه الأرض وبعده الصلاة في الحجر أفضل»**.[(٢)]

ورد عن أبي حمزة الثماليّ عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: **«أفضل البقاع ما بين الركن والمقام ولو أنّ رجلا عمر ما عمر نوح في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاما يصوم النهار ويقوم الليل في ذلك المقام ثمّ لقى الله تعالى بغير ولايتنا لا ينفعه ذلك شيئا»**.[(٣)] وقال الصادق عليه السلام: **«الركن اليمانيّ بابنا الّذي ندخل منه الجنّة»**.[(٤)]

قال صاحب «روح البيان»: في الحديث: **«من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا»**.[(٥)]

وقال الحقّي: وعن النبي صلى الله عليه وآله **«الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينشران في**

١ـ سورة إبراهيم: ٣٥.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٤٩؛ ومن لايحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٠٩.

٣ـ ثواب الاعمال، ص ٢٠٤؛ ومن لايحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٤٥؛ ووسائل الشيعة، ج ١، ٩٣.

٤ـ من لايحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٠٨؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٣٤٩.

٥ـ من لايحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٢٩.

الجنّة وهما مقبرتا مكّة والمدينة».[١] وعن ابن مسعود: وقف النبي‌صلى الله عليه وآله على تثنية الحجون وليس بها مقبرة فقال: **«يبعث الله من هذه البقعة ومن هذا الحرم سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر يدخلون الجنّة بغير حساب يشفع كلّ واحد منهم في سبعين ألفا وجوههم كالقمر ليلة البدر».**[٢] وعنه‌صلى الله عليه وآله **«من صبر على حرّ مكّة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنّم مسيرة مائتي عام».**[٣]

أقول: هذا إذا كان مع الولاية وبدونها لا ينفع الجوار كما نطق به الحديث السابق ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ لمّا بيّن الله فضيلة البيت عقّبه بذكر وجوب حجّة الإسلام أي: وواجب على من استطاع وتمكّن وقدر إلى حجّ البيت وزيارته على الوجه المخصوص فوجد إليه طريقاً بنفسه وماله فليحجّ وليتوجّه إليه. واختلف في الاستطاعة فقيل: هي الزاد والراحلة، عن ابن عبّاس. وقيل: ما يمكنه معه بلوغ مكّة بأيّ وجه يمكن وصول نفسه إليه. والمرويّ عن أئمّتناعليهم السلام: **«وجود الزاد والراحلة ونفقة من يجب نفقته والرجوع إمّا من مال أو ضياع أو حرفة مع الصحّة في البدن وإمكان السير».**[٤]

قال الحقّيّ: والاستطاعة الّتي هي شرط لوجوب الفعل هي الاستطاعة بهذا المعنى لا الاستطاعة الّتي هي شرط حصول الفعل فهي لا يكون إلّا مع الفعل لأنّها علّة وجود الفعل فلا يكون إلّا معه ولا تتحقّق إلّا بتحقّق الفعل فالاستطاعة الاولى شرط الوجوب والثانية شرط حصول الفعل. و«الحجّ» بالفتح لغة أهل الحجاز والكسر لغة نجد وأيّاماً كان فهو القصد للزيارة بإتيان الأعمال

١ـ انظر: مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٣٠٩؛ وتفسيرالثعالبي، ج ٣، ص ١٥١.

٢ـ تخريج الاحاديث، والآثار، ج ١، ص ٢٠٠. والكشاف، ج ١، شرح ص ٤٤٨.

٣ـ تفسيرالثعالبي، ج ٣، ص ١٥١؛ وتفسيرالرازي، ج ٨، ص ١٦١.

٤ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٥٠.

المخصوصة وهو حقّ واجب في ذمم الناس ولا انفكاك لهم عن أدائه.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وضع سبحانه من كفر موضع من لم يحجّ تأكيداً لوجوبه وتشديداً لتاركه أي: من لم يحجّ مع الاستطاعة ولم يره واجباً فقد كفر فإنّ الله غنيّ عن عبادتهم ولم يتعبّدهم لحاجة إليها، وقيل: معنى الآية كفران النعمة لأنّ امتثال أمر الله شكر لنعمته وتركه كفران.

وقد روي عن أبي امامة عن النبيّ‌ﷺ أنّه قال: «**من لم يحبسه حاجة ظاهرة من مرض حابس أو سلطان جائر ولم يحجّ فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نصرانيًا**».[1] قال الصادقعليه‌السلام عن رسول الله: «**الحجّ والعمرة ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد**».[2]

وفي الآية دلالة على فساد قول من قال: إنّ الاستطاعة مع الفعل لأنّ الله أوجب الحجّ على المستطيع ولم يوجب على غير المستطيع وذلك لا يمكن إلّا قبل فعل الحجّ.

وأمّا نظم الآية بما قبلها أنّ الله أمر أهل الكتاب باتّباع ملّة إبراهيم ومن ملّته تعظيم البيت وزيارته.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

عاد الكلام إلى محاجّة أهل الكتاب أو اليهود خاصّة يأمرهﷺ بخطابهم: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الّتي آتاها محمّداًﷺ والعلامات الّتي وافقت صفتهﷺ وتقدّمت البشارة به، واللفظ لفظ الاستفهام والمراد به التوبيخ

١ـ المصدر السابق؛ وزبدة البيان، ص ٢١٨.

٢ـ وسائل الشيعة، ج ٨، ص ٧٤؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٣٦٦؛ وبحارالانوار، ج ٩٦، ص ١٣.

من حيث إنّه سؤال يعجزه عن إقامة العذر فكأنّه قال: هاتوا العذر في ذلك إن أمكنكم ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ حفيظ على أعمالكم ليجازيكم عليها.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ﴾ لم تصرفون عن دينه الحقّ وهو ملّة الإسلام «من آمن» مفعول «تصدّون» كانوا يمنعون من أراد الدخول في الإسلام بجهدهم ويقولون: إنّ صفته ﷺ ليست كذلك في كتابنا. وقيل: إنّ كيفيّة صدّهم كانوا يغرون بين الأوس والخزرج بتذكيرهم الحروب الّتي كانت بينهم في الجاهليّة حتّى تدخلهم الحميّة والعصبيّة فينسلخوا عن التوافق في الإسلام ونصرة النبيّ[1] وعلى هذا يكون المراد من «أهل الكتاب» في هذه الآية اليهود خاصّة. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ و«الضمير» للسبيل وهو يذكّر ويؤنّث أي: تطلبون سبيل الله مائلاً عن الاستقامة بأن تلبسوا عليهم لقولكم: إنّ شريعة موسى لا تنسخ. و«العوج» بفتح العين وكسرها الانحراف لكنّ المكسور يختصّ بالمعاني والمفتوح بالأعيان تقول: في كلامه عوج بالكسر وفي الجدار والشجر عوج بالفتح ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي: والحال أنّكم تشهدون في لبابكم بأنّها سبيل الله.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الصدّ وكتمان الشهادة لنبيّه ﷺ. ولمّا وبّخ الله أهل الكتاب بصدّ المؤمنين نهى المؤمنين عن اتّباع الصادّين فقال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾

نزلت في شاس بن قيس اليهوديّ رأى منتدى محتوياً على زحام من أوس وخزرج فغاظه ألفتهم فأرسل شابّاً ينشدهم أشعار يوم بغاث وكان ذلك

١ـ راجع: مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٥٢؛ ورواه المجلسي في البحار، ج ٩، ص ٧٢.

يوما عظيما اقتتل فيه الحيّان وكان الظفر فيه للأوس فنعّر عرق الداء الدفين فتشاجروا فأخبر النبيﷺ فخرج يصلح ذات بينهم.

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

إنكار وتعجيب من كفرهم أي: من أين يتطرّق إليكم الكفر والحال أنّ القرآن المعجز ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ على لسان الرسول غضّاً معجباً مستجمعاً لجميع صفات الكمال من حيث اللفظ والمعنى وبين أظهركم ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ تعالى يعظكمويبيّن لكم مالا تعلمون منه ويزيح شبهكم. ويجوز أن يكون المراد بقوله: «وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ» القوم الّذين كانوا في زمنهﷺ خاصّة، ويجوز أن يكون المراد الأمّة إلى يوم القيامة لأنّ آثاره وعلاماته من القرآن فينا قائمة باقية وذلك بمنزلة وجوده فينا. ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ وبدينه وبكتابه ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وطريق واضح فإنّهﷺ لو مضى فآثار معجزاته ووجوده باقية وقد شاهد أهل عصره وتناقلتها الرواة بحيث كادت تبلغ إلى حدّ التواتر:

منها: أنّهﷺ يرى من خلفه كما يرى من قدّامه.

ومنها: أنّه كانت تنام عينه ولا ينام قلبه.

ومنها: أنّه لم يكن له ظل.

ومنها: أنّ الذباب لم يقع عليه.

ومنها: أنّه كان يسطع نور من جبهته في الليل المظلمة.

ومنها: أنّه ولد مختوناً[1] إلى غير ذلك من المعجزات والشواهد على صدق نبوّته فالاعتصام بكتابه وبرسوله هو الهداية إلى الصراط المستقيم ولا

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٥٤.

يحصل الاعتصام إلّا باتّباع سنّته ﷺ والخشية من الله من مخالفته وشاهد الخشية موافقة الأمر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾.(١)

والعالم متى ما كان رغبته في الدنيا وتملّق لأربابها وصرف الهمّة لاكتسابها وأحبّ الادّخار والاستكثار وطال أمله ونسي الآخرة فعلمه وبال عليه وما أبعد من العلم عمله، وكيف يكون مثله من ورثة الأنبياء؟ بل هو خليفة الشيطان. قال رسول الله ﷺ: «**يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلّا اسمه ولا من القرآن إلّا رسمه، قلوبهم خربة من الهدى ومساجدهم عامرة بأبدانهم، شرّ من تظلّ السماء يومئذ علماؤهم، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود**»(٢).

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾

الاتّقاء افتعال من الوقاية وهي فرط الصيانة ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي: حقّ تقواه وما يجب منها من استفراغ الوسع في القيام بالواجبات والاجتناب عن المحارم، يريد بالغوا في التقوى حتّى لا تتركوا من المستطاع منها شيئا ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ مخلصون نفوسكم لله لا تجعلون فيها شركة لما سواه أصلا. استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال والمراد دوامهم على الإسلام.

وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

النزول: قال مقاتل: افتخر رجلان من الأوس والخزرج: ثعلبة بن غنم من الأوس وأسعد بن زرارة من الخزرج فقال الأوسيّ: منّا خزيمة بن ثابت

١ـ سورة فاطر: ٢٨.

٢ـ انظر: كنز العمال، ج ١١، ص ١٨١؛ وأيضاً تفسير القرطبي، ج ١٢، ص ٢٨٠.

ذو الشهادتين ومنّا حنظلة غسيل الملائكة ومنّا عاصم بن ثابت حميّ الدين ومنّا سعد بن معاذ الّذي اهتزّ العرش له بموته ورضي الله بحكمه في بني قريظة. وقال الخزرجيّ: منّا أربعة أحكموا القرآن ابيّ ابن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد ومنّا سعد بن عبادة خطيب الأنصار ورئيسهم. فطال الحديث بينهما فغضبا وتفاخرا ونادیا فجاء الأوسيّ إلى الأوس والخزرجيّ إلى الخزرج ومعهم السلاح، فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله فركب حماره وأتاهم فأنزل الله الآية فقرأها فاصطلحوا.(١)

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ وتمسّكوا به وامتنعوا عن غيره قيل: المراد من «حبل الله» القرآن. وقيل: إنّه دين الإسلام. وقيل: على ما رواه أبان بن تغلب عن جعفر بن محمّد عليه السلام قال: **«نحن حبل الله الّذي قال سبحانه في الآية».**(٢) قال الطبرسيّ: والأولى حمله على الجميع.(٣)

والّذي يؤيّده ما رواه أبو سعيد الخدريّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: **«أيها الناس إنّي تركت فيكم حبلين إذا أخذتم بهما لن تضلّوا بعدي: أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ألا وإنهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض».**(٤)

﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ بحذف التاء الثانية لأنّ الاولى علامة والعلامة لا تحذف أي: لا تتفرّقوا عن دين الله الّذي أمركم جميعا بلزومه واثبتوا عليه.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ أراد ما كان بين الأوس والخزرج من الحروب الّتي تطاولت مائة وعشرين سنة حتّى ألّف

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٥٥. وأيضاً رواه المجلسي في البحار، ج ١٨، ص ١٥٦.

٢ـ تفسير فرات الكوفي، ص ٩١؛ وبحارالانوار، ج ٢٤، ص ٨٣؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٣٥٦.

٣ـ مجمع البيان، ج٢، ص٣٥٦.

٤ـ المصدر السابق؛ وانظر: الكافي، ج ٢، ص ٤١٥؛ وبحارالانوار، ج ٢٣، ص ١٥٢و ج ٢٤، ص ٨٣.

الله بينهم بالإسلام فزالت تلك الأحقاد. وقيل: هو ما كان بين مشركي العرب من الأيّام والطوائل فرفع الله ما كان بينهم من التنازع والاختلاف ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾ الله ﴿إِخْوَٰنًا﴾ متواصلين وأحبابا متحابّين بعد أن كنتم متحاربين بحيث يقصد كلّ واحد منكم إخاء الآخر لأنّ أصل الأخ معناه القصد من توخّيت الشيء إذا قصدته وطلبته. ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: كنتم على طرف حفرة من جهنّم مشرفين على الوقوع فيها لكفركم لو أدرككم الموت على حالة الكفر ﴿فَأَنقَذَكُم﴾ وخلّصكم بأن هداكم إلى الإسلام ﴿مِّنْهَا﴾ أي: من تلك الحفرة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الّذي بعده أي: مثل ذلك التبيين الواضح ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ طلبا لثباتكم على الهدى فالعبد من شأنه أن يتّقي محارم الله ويحذر مخالفته فإذا غلبت عليه نفسه أحيانا فليرجع بساعته إلى ساحة كرمه وعفوه ويقول: يا ربّ تبت إليك فاستر عليّ، فإذا ستر عليه يقول: يا ربّ وفّقني لأتدارك وأعمل حتّى أخلص، فإذا تدارك وأخلص يقول: يا ربّ تقبّل منّي. وليكن خائفاً طول عمره من زلّته الّتي أوقعها خوفاً من عدم قبول توبته فإذا تمرّن بهذه العادة ينبغي أن يقال له: إنّه مهتد.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

أي: لتوجد منكم جماعة داعية إلى ما فيه صلاح دينيّ ﴿يَأْمُرُونَ﴾ بالطاعة ﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ عن المعصية، وكلّ ما أمر الله ورسوله فهو معروف، وما نهى الله ورسوله فهو منكر. وقيل: المعروف ما يعرف حسنه عقلاً وشرعاً، والمنكر ما ينكره العقل والشرع. وفي الآية دلالة على وجوبهما لأنّه سبحانه علّق الفلاح بهما

بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون، وكلمة «هم» ضمير فصل يفيد اختصاص المسند بالمسند إليه أي: هم الأخصّاء بكمال الفلاح.

وأكثر المتكلّمين على أنّهما من فروض الكفايات، ومنهم من قال: إنّهما من فروض الأعيان، منهم الشيخ أبو جعفر الطوسيّ. قال الطبرسيّ: والصحيح أنّ ذلك إنّما يجب بالسمع وليس في العقل ما يدلّ على وجوبه إلّا إذا كان على سبيل دفع الضرر.[1] وقال الجبّائيّ يجب عقلا والسمع يؤكّده قال النبيّ ﷺ: **«من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في أرضه وخليفة رسول الله وخليفة كتابه»**[2]، عن الحسن.

وعن درّة بن أبي لهب قال: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ وهو على المنبر فقال: يا رسول الله من خير الناس؟ قال: **«آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأرضاهم».**[3] وقال أبو الدرداء: لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلّطنّ الله عليكم سلطانا ظالما لا يجلّ كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو خياركم فلا يستجاب لهم وتستنصرون فلا تنصرون. وقال حذيفة: يأتي زمان على الناس لأن يكون فيهم جيفة الحمار أحبّ إليهم من مؤمن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. ثمّ أمرهم سبحانه بالاتّفاق على الإسلام وترك التفرّق فقال:

وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

ولمّا أمر الله هذه الأمّة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذلك لا يتمّ

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٥٩.

٢ـ المصدر السابق نفسه، وتفسيرالثعالبي، ج ٣، ص ١٢٢ ؛ وتفسير النسفي، ج ١، ص ١٧١.

٣ـ مجمع البيان، ج٢، ص٢٥٦ ؛ وأيضاً الكشاف، ج ١، شرح ص ٤٥٢.

إلّا إذا كان الآمر والناهي قادراً ولا تحصل هذه القدرة إلّا إذا حصل الاتّفاق والاجتماع في الدين فحذّرهم الله في هذه الآية الاختلاف لكيلا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف.

وهذان الأمران وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون من أهمّ الواجبات لأنّ الدين يقوم بهما قال ﷺ: **«إنّ الناس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه يوشك أن يعمّهم الله بعذابه»**.(١)

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ واختلفوا في الديانة. وقيل: المراد هم اليهود والنصارى حيث تفرّقت اليهود فرقا والنصارى فرقا واختلفوا ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ والآيات المبيّنة للحقّ الموجبة للاتّفاق وهم اختلفوا باستخراج التأليفات الزائفة وكتم نعوت النبي ﷺ وتحريفها بسبب حطام الدنيا وصار كلّ واحد من أحبارهم رئيساً في بلدهم وكلّ واحد منهم يدّعي أنّه على الحقّ وأنّ صاحبه على الباطل. ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة بسبب التفرّق.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾

أي: اذكروا ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ كثيرة ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ كثيرة أي: من استبشر ونال بمطلوبه فابيضّ وجهه ومن وصل إليه مكروه فتبدّلت صورته واغبرّ لونه، فإنّ الإنسان يرد في القيامة على ما قدّمت يداه، وبياض الوجه وسواده حقيقتان حاصلتان فيوسم أهل الحقّ ببياض وإشراق وسعي النور بين أيديهم وأهل الباطل بأضداد ذلك.

١ـ تفسير البغوي، ج ١، ص ٣٣٨؛ وتفسير الرازي، ج ١٢، ص ١١٢.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ واختلف فيمن يقال له هذا الكلام قيل: إنّهم الّذين كفروا بعد إظهار الإيمان بالنفاق. وقيل: إنّهم جميع الكفّار لإعراضهم عمّا وجب عليهم الإقرار به من التوحيد حين أشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾[1] فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ يوم الميثاق.

وقيل: إنّهم أهل الكتاب كفروا بالنبيّ صلى الله عليه وآله بعد إيمانهم به وبنعته قبل مبعثه، عن عكرمة والجبّائيّ والزجّاج. وقيل: أهل البدع والأهواء من هذه الأمّة عن عليّ عليه السلام وقتادة ويروى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**و الّذي نفسي بيده ليردنّ عليّ الحوض ممّن صحبني أقوام إذا رأيتهم اختلجوا دوني فأقول: إنّهم أصحابي، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعد إيمانهم ارتدّوا على أعقابهم القهقرى**»[2]، ذكره الثعالبيّ في تفسيره.[3] وقال أبو امامة الباهليّ: هم الخوارج.

والاستفهام في قوله: ﴿أَكَفَرْتُم﴾ للتقريع أو التقرير أي: قد كفرتم ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم بمحمّد وبالقرآن. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وهم المؤمنون بالقرآن وبمحمّد ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ وثوابه وجنّته ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مؤبّدون، وإعادة كلمة الظرف تأكيداً لتمكّن المعنى في النفس أو لأنّ في قوله: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ دلالة على إدخالهم وظرف الثاني على خلودهم.

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

١ـ سورة الأعراف: ١٧٢.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٦٠؛أيضاً الصافي، ج ١، ص ٣٦٩.

٣ـ تفسير الثعالبي، ج ٣، ص ١٢٦.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار وتعذيب الكفّار وهو مبتدأ ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ خبره ﴿نَتْلُوهَا﴾ جملة حاليّة من الآيات ﴿عَلَيْكَ﴾ نقرؤها عليك يا محمّد بواسطة جبرئيل والآيات ملتبسة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والعدل بموجب الوعد والوعيد ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا﴾ أي: شيئا من الظلم ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأحد من خلقه بأن يحملهم من العقاب ما لم يستحقّوه وينقصهم من الثواب ما استحقّوه وإنّما يظلم لجهله بقبح الظلم أو لحاجة من دفع ضرر أو جرّ نفع، وتعالى الله عن مثل هذه الأمور. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً فكيف يجوز أن يظلمهم؟ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ومعنى رجوع الأمر إليه بأن يذهب العالم بالفناء ثمّ يعيدها للجزاء. وقيل: معناه أنّ الله قد ملّك عباده في الدنيا أموراً وجعل لهم تصرّفاً واختياراً ويزول ذلك في الآخرة ويرجع إليه كلّه كما قال: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ واعلم أنّه يموت المرأ على ما عاش فيه ويحشر على ما مات عليه.

قال رسول الله: «**يبعث كلّ عبد على ما مات عليه**».[1] وقال: «**من مات وهو سكران فإنّه يعاين ملك الموت سكراناً ويعاين منكراً ونكيراً سكرانا ويبعث يوم القيامة سكرانا إلى خندق جهنّم يسمّى السكران**»،[2] فيه عين يجري ماؤها دما لا يكون له طعام ولا شراب إلّا منه كما أنّ أكلة الربا يقومون من قبورهم ويسقطون لعظم بطونهم وهم كالمجانين من مسّ الشيطان.

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

١ـ كنز العمال، ج ١٤، ص ٣٦٥؛ وج ١٥، ص ٦٨١؛ وتفسير الثوري، ص ١١٢.
٢ـ فيض القدير، ج ٦، ص ٥٩٢؛ وانظر: معارج اليقين في أصول الدين، ص ٤٢٣.

أي: أنتم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وإنّما قال: «كنتم» لتقدّم البشارة لهم في الكتب الماضية ويعضد هذا البيان ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**أنتم وفيتم سبعين امّة أنتم خيرها وأكرمها على الله**».[1] أو المراد كنتم عند الله في اللوح المحفوظ خير امّة، عن الفرّاء والزجّاج. وقيل: «كان» في الآية تامّة والمعنى: وجدتم وخلقتم و«خير امّة» نصب على الحال. وقيل: «كان» بمعنى «صار» ومعناه صرتم خير امّة لكونكم تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وإيمانكم بالله. فيصير هذه الخصال على هذا المعنى الأخير شرطا في كونهم خيرا. وقد روي عن بعض الصحابة أنّه قال: من أراد أن يكون خيرها فليؤدّ شرط الله فيه من الإيمان بالله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[2] وذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب للحكم مشعر بالعلّيّة.

قال الطبرسيّ: واختلف في المعنيّ بالخطاب قيل: هم المهاجرون خاصّة. وقيل: نزلت في ابن مسعود وابيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة.وقيل: الخطاب لأصحاب النبيّ الصادقين ولكنّه يعمّ السائرين ممّن يحذو حذوهم.[3]

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كإيمانكم ﴿لَكَانَ﴾ ذلك ﴿خَيْرًا لَّهُم﴾ ممّا هم عليه من الرياسة واستتباع العوامّ ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كأنّه قيل: هل منهم من آمن أو كلّهم على الكفر؟ فقيل: منهم المؤمنون المعهودون كعبد الله بن سلام وأصحابه ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن الطاعة والحدود.

لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٦٢.

٢ـ المصدر السابق نفسه ؛ وانظر: جامع البيان، ج ٤، ص ٦٠.

٣ـ مجمع البيان، ج٢، ص٣٦٢.

في الآية تثبيت لمن آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله وأصحابه، وذلك أنّ رؤساء اليهود مثل أبي رافع وكعب وأبي ياسر وكنانة وابن صوريا كانوا يهدّدونهم ويؤذونهم بالسبّ والطعن فأثبتهم الله بقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ استثناء مفرّغ من المصدر العامّ.

ومعنى الآية أنّهم لن يضرّوكم ضرراً صعباً إلّا ضرر أذى لا يبالى به من طعن وتهديد لا أثر له ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ﴾ ويخرجوا إلى قتالكم يجعلوا ظهورهم ما يليكم منهزمين من غير أن ينالوا منكم شيئاً من قتل أو أسر ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ عطف على الشرطيّة أي: لا ينصرون من جهة أحد كما كان الأمر في حال بني قريظة والنضير ويهود خيبر.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

أي: في أيّ: مكان وأيّ زمان وجدوا في دار الإسلام الزموا الذلّ وأنزلت بهم وجعلت محيطة بهم، استعارة من قولهم: ضرب فلان الضريبة على عبده أي: ألزمها إيّاه. وكان اليهود لا يكونون في موضع إلّا بالجزية ولقد أدركهم الإسلام وهم يؤدّون الجزية إلى المجوس ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ ووجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ استثناء من أعمّ الأحوال أي: ضربت عليهم الذلّة ضرب القبّة على من هي عليه في جميع الأحوال إلّا حال كونهم معتصمين بذمّة الله وذمّة المسلمين واستعير لفظ «الحبل» للعهد لأنّه سبب الفوز والنجاة.

والمراد من «العهد» وجوه الأمان، والأمان الحاصل للذمّيّ قسمان: أحدهما الّذي نصّ الله عليه وهو الأمان الحاصل له بإعطاء الجزية عن يد، أو الأمان الّذي فوّض إلى رأي الإمام. ولعلّ الأوّل هو المسمّى بحبل الله، والثاني هو المسمّى

بحبل من الناس وأنّهما متغابران بالاعتبار.[١] ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجعوا بغضب وعقاب ولعن من الله أو المعنى استوجبوا الغضب منه تعالى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ وزيّ الافتقار، واليهود في الغالب إن لم يكونوا فقراء حقيقة فإنّهم يظهرون في أنفسهم الفقر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: ذلك الّذي ذكر من الذلّة والبوء بالغضب كائن بسبب كفرهم بآيات الله الناطقة بنبوّة محمّدﷺ وتحريفهم لها ولسائر الآيات وبسبب ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: في اعتقادهم أيضاً وهؤلاء المتأخّرون وإن لم يصدر منهم قتل الأنبياء لكنّهم راضون بفعل أسلافهم ومصوّبين لهم في تلك الأفعال القبيحة فلذلك أسند القتل إليهم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الكفر والقتل ﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ كان بسبب اعتدائهم حدود الله على الاستمرار فقوله: «ذلِكَ بِما عَصَوْا» إشارة إلى علّة العلل قال بعض أهل التحقيق: من ابتلي بترك الأدب وقع في ترك السنن ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفريضة، ومن ابتلي بترك الفريضة وقع في استحقار الشريعة ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر. فعلى المؤمن أن لا يفتح على نفسه باب المعصية بل يترك بعض ما أبيح له خوفاً ممّا يؤدّي إلى بعض ما لا يجوز له قالﷺ: **«لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتّى يدع بعض ما لا بأس به حذراً ممّا به البأس».**[٢]

وقيل: الحياء على رؤوس المتّقين كالتيجان على رؤوس الملوك قال رسول اللهﷺ ذات يوم لأصحابه: **«استحيوا من الله حقّ الحياء»**، وقالوا: إنّا

١ـ تفسيرالرازي، ج ٨، ص ١٩٧.

٢ـ الصراط المستقيم، ج ١، ص ١٣٥؛ وتفسيرالرازي، ج ٢، ص ٢٠.

نستحيي يا رسول الله والحمد لله، قال: «**ليس ذلك الحياء ولكن من استحيا من الله حقّ الحياء فليحفظ الرأس وما حوى وليحفظ البطن وما وعى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حقّ الحياء**».[1]

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)﴾

نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من أهل الحبشة وثمانية من الروم صدّقوا بمحمّد ﷺ. وقيل: نزلت هذه الآية لمّا أسلم عبد الله بن سلام ومن تبعه فقالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمّد ﷺ إلّا شرارنا فأنزل الله هذه الآية.[2]

أي: ليس الّذين آمنوا من أهل الكتاب امّة قائمة كعبد الله وأصحابه والّذين لم يؤمنوا سواء في الدرجة ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ وتمام البيان يقتضي أن يقال: ومنهم امّة مذمومة غير قائمة إلّا أنّه أضمر بناء على أنّ ذكر أحد الضدّين يغني عن الآخر وقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ قيل: إنّه على لغة «أكلوني البراغيث» ومثله قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾[3] قال الزجّاج والرمّاني: وليس الأمر كذلك لأنّ هذه اللغة رديئة في القياس والاستعمال[4] بل إنّ ذكر أهل الكتاب قد جرى فأخبر الله أنّهم غير متساوين، ورفع «امّة» إمّا على تقدير الفعل وتقديره لا يستوي امّة هادية وامّة ضالّة أو على الابتداء.

١ـ روضة الواعظين، ص ٤٦٠؛ وانظر: الخصال، ص ٢٩٣.

٢ـ جوامع الجامع، ج ١، ص ٣٦٥.

٣ـ سورة المائدة: ٧١.

٤ـ التبيان، ج ٢، ص ٥٦٥.

والمعنى ليس سواء امّة قائمة بأمر الله وطاعته ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويقرءون كتاب الله وهو القرآن ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: ساعاته و«الآناء» مفردة أنا زنة. «عصا» وقال: واويّة مفردة «انو» قيل: المراد من التلاوة الصلاة جوف الليل. وقيل: الصلاة بين المغرب والعشاء وهي الساعة الّتي تسمّى ساعة الغفلة ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ الجملة حاليّة من فاعل «يتلون» أي: يصلّون إذ لا تلاوة في السجود. وتخصيص السجود بالذكر لكونه أدلّ على كمال الخضوع.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يؤمنون على الوجه الّذي نطق به الشرع، وفي الآية تعريض بأنّ إيمان اليهود به مع قوله: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ وكفرهم بمحمّد بخلاف الإيمان ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ تعريض بأنّهم يأمرون بصدّ الناس عن سبيل الله فإنّه نهي عن المعروف وأمر بالمنكر وكذا كانوا يفعلون.

﴿وَيُسَٰرِعُونَ﴾ ويبادرون إلى الطاعات خوف الفوات بالموت غير متثاقلين منها لعلمهم بحسن عاقبتها بخلافهم فإنّ تلك الأمّة المذمومة منهم يتباطئون ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ويتبادرون إلى الشرّ ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من جملة من صلحت أحوالهم.

وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

وقرئ «تفعلوا» بالخطاب وجه القراءة «بالياء» كناية عمّن تقدّم ذكره من أهل الكتاب ليكون الكلام على طريقة واحدة ووجه «الخطاب» أنّه خلطهم بغيرهم من المكلّفين ويكون خطاباً للجميع في أنّ حكمهم واحد. ﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟﴾ مجزوم بالشرط أي: وما تفعلوا من خير كائناً ما كان فلن يضيّع ولا ينقص ثوابه، وسمّي النقص ومنع الثواب «كفرانا» مع أنّه لا يضاف الكفران إلى الله إذ ليس لأحد عليه تعالى نعمة حتّى يكفرها نظراً إلى أنّه تعالى سمّى

إيصال الجزاء والثواب «شكرا» حيث قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[1] فلمّا جعل الشكران مجازاً عن توفية الثواب جعل الكفران مجازاً عن منعه. وتعديته إلى مفعولين قاما مقام الفاعل.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيجاز بهم وإنّما خصّ «المتّقين» بالذكر وإن كان عليماً بالكلّ لأنّ الكلام اقتضى ذكر جزاء المتّقين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بما يجب أن يؤمن به لن تدفع عنهم ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ من عذاب الله﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء ردّ للكفّار حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2] وكانوا يعيّرون رسول الله وأصحابه بالفقر ويقولون: لو كان محمّدﷺ على الحقّ ما تركه ربّه في الفقر والشدّة. ولمّا كان الإنسان يدفع عن نفسه تارة بفداء المال وتارة بالانتصار من أهله وولده فذكرهما ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مصاحبو النار على الدوام ومؤبّدون فيها.

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

بيان لكيفيّة عدم إغناء إنفاق الكفرة أموالهم قربة أو رياء أو مفاخرة أو خوفاً كالمنافقين بأيّ قسم كان.

والمراد تشبيه ما أنفقوا في عدم نفعه بحرث أصابته ريح شديدة البرد مهلكة للزرع أي: كما أنّ الزرع تهلكه تلك الريح الباردة كذلك الكفر يذهب

١ـ سورة البقرة: ١٥٨.

٢ـ سورة سبأ: ٣٥.

فائدة الإنفاق «و الصر» البرد الشديد وإنّه في الأصل مصدر لكن شاع إطلاقه على الريح الباردة كالصرصر ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ عقوبة لهم ولا تدع منه أثرا لأنّ الكفر مانع من الانتفاع حيث لا يقبل الله منهم أبدا فلا يبقى لهم في الآخرة إلّا الحزن والأسف وهذا هو التشبيه المركّب الحاصل من الجملتين.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ في ضياع ما أنفقوا من الأموال ﴿وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لما أنّهم أضاعوها فيما لا ينبغي كما أنفق أبو سفيان في عداوة النبيّ، أو أضاعوها وأنفقوها لا على أمر ينبغي لأنّ إنفاقهم منتزع عن القربة لأنّ القربة لا يحصل مع الكفر وتقديم المفعول لرعاية الفواصل.

قال رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتّى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه وعن جسده فيم أبلاه وعن علمه ما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه».**[1] قال النبيّ ﷺ: **«يا عائشة إن أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب وإيّاك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلقي ثوبا حتّى ترقعيه».**[2] وقال ﷺ: **«اللهمّ من أحبّني فارزقه العفاف والكفاف ومن أبغضني فأكثر ماله وولده»**[3] ثمّ قرأ ﷺ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[4]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨)

لمّا شرح سبحانه أحوال المؤمنين والكافرين حذّر المؤمنين في هذه

١ـ الأمالي، للطوسي، ص ٥٩٣؛ وأيضاً بحارالانوار، ج ٧، ص ٢٦١. وج ٢٧، ص ١٣٤.

٢ـ كنز العمال، ج ٣، ص ٤٠٢؛ والطبقات الكبرى، ج ٨، ص ٧٦.

٣ـ الأمالي، للطوسي، ص ١٣٢؛ ورواه المجلسي في البحارالانوار، ج ٦٩، ص ٦٤.

٤ـ سورة التكاثر: ١ ـ ٢.

الآية عن مخالطة الكافرين وذلك لأنّ المسلمين كانوا يشاورون اليهود في أمورهم ويؤانسونهم لما كان بينهم اختلاط ورضاع وحلف ظنّاً منهم أنّهم وإن خالفوهم في الدين فهم ينصحون لهم في المعاش فنهاهم الله.

وقيل: المراد المنافقون وذلك لأنّ المؤمنين يظنّون من أقوال المنافقين أنّهم صادقون في أقوالهم، ويدلّ على هذا المعنى ما بعد هذه الآية وهو قوله: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾[1] وهذه صفة المنافقين.

وقيل: المراد به أصناف الكفّار جميعا والدليل عليه قوله: ﴿بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾[2] أي: لا تصاحبوا من دون المسلمين صاحبا، وبطانة الرجل صاحب وليجته ومن يعرف أسراره ثقة به، شبّه سبحانه ببطانته الّتي يلي بطنه.

﴿لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا﴾ يقال: ألا في الأمر إذا قصر فيه فمعنى لا آلوك نصحا أي: لا أمنعك نصحا ولا أقصر في نصيحتك والمراد أنّهم لا يقصرون لكم في الإيذاء والفساد والمكر والخديعة والشرّ «و الخبال» الفساد والنقص، ورجل مخبول أي: ناقص العقل.

﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ﴾ «ما» مصدريّة أي: تمنّوا عنتكم وشدّة ضرركم في دينكم ودنياكم والفرق بين الجملة الأولى والجملة الثانية مع أنّ معناهما واحد بيان أنّه إذا عجزوا عن إيذائكم فحبّ ذلك وتمنّيه غير زائل من قلوبهم.

﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ البغضاء شدّة البغض كالضرّ بالنسبة إلى الضراء أي: قد ظهرت علامة العداوة في كلامهم الخارج من أفواههم لما أنّهم لا يتمالكون مع ضبط أنفسهم أن ينفلت بعض الأحيان من ألسنتهم ما

١ـ سورة آل عمران: ١١٩.

٢ـ سورة الممتحنة: ١.

يعلم منه بغضكم، والأفواه جمع الفم والفم أصله «فوه» مثل طوق وأطواق وسوط وأسواط ثمّ حذفت الهاء تخفيفاً وأقيم الميم مقام الواو لأنّهما شفويّان.

﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ممّا بدأ لأنّ ما يظهر على لسانهم أقلّ ممّا في قلوبهم من النفرة والحقد ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ الدالّة على صلاحكم من موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين والمنافقين ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما بيّنا لكم فتعملون به.

﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

قال الأزهريّ: يحتمل أن يكون «أولاء» منادى كأنّه قال: «يا أولاء» وقال غيره: «ها» للتنبيه و«أنتم» مبتدأ و«أولاء» خبره و«تحبّونهم» حال. وقال الزجّاج: جائز أن يكون «أولاء» في معنى الّذين فالمعنى: الّذين تحبّونهم ولا يحبّونكم.[1] قال أبو السعود في تفسير المعنى: تنبهوا أنتم أولاء المخطئون في موالاتهم فيكون جملة من مبتدء وخبر صدّرت بحرف التنبيه و﴿تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ بيان لخطيئتهم وهو خبر ثان ﴿لأَنتُمْ﴾[2] وتحبّونهم بسبب ما بينكم من الحلف والرضاعة ولا يحبّونكم بسبب إيمانكم وعدم بقائكم على الكفر.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: بجنس الكتاب جميعا والمعنى: لا يحبّونكم والحال أنّكم تؤمنون بكتابهم فما بالكم تحبّونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم؟ وفيه توبيخ بأنّهم في باطلهم أصلب منكم في حقّكم.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ نفاقا وخدعة ﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ حيث لم يجدوا إلى التشفّي سبيلا ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بدوام الغيظ وزيادته بتضاعف قوّة الإسلام وأهله إلى أن يهلكوا

١ـ التبيان، ج ٢، ص ٥٧٣؛ وأيضاً مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٧٣.

٢ـ تفسير أبي السعود، ج ٢، ص ٧٦.

والمراد الطعن والطرد لا على وجه الإيجاب وإلّا لماتوا من ساعتهم ودعاء عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمنّون من ضعف الإسلام، وليس المراد الأمر بالإقامة على الغيظ حتّى يكون أمراً بالكفر.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ و«ذات» كلمة وضعت لنسبة المؤنّث كما أنّ «ذو» كلمة وضعت لنسبة المذكّر والمراد «بذات الصدور» الخواطر القائمة بالقلب والدواعي.

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

أي: إن تصبكم أيها المؤمنون ﴿حَسَنَةٌ﴾ بظهوركم على عدوّ لكم وغنيمة تنالونها وتتابع الناس في الدخول في دينكم وخصب معاشكم تحزنهم حسدا إلى ما نلتم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ بإخفاق سريّة لكم أو اختلاف يقع بينكم أو جدب ونكبة ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ يشمتون ويفرحون من وقوع المصيبة بكم.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على عداوتهم وعلى مشاقّ التكليف ﴿وَتَتَّقُوا﴾ ما حرّم الله ونهاكم عنه ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ﴾ ومكرهم و«الكيد» حيلة لطيفة ﴿شَيْئًا﴾ من الضرر بحفظه الموعود للصابرين.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في عداوتكم من الكيد ﴿مُحِيطٌ﴾ عليم فيعاقبهم على ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ إشارة إلى أنّ الحامل لأسرار الرجل ينبغي أن يكون من أهل دينه ولا يفشي المرأ بسرّه إلى من لم يجرّبه في كلّ حاله:

إنّ الرجال صناديق مقفلـة ... وما مفاتيحها إلا التجاريب

قال الغزاليّ: ولا تعول على مودة غير أهل دينك بل وعلى من لم تختبره حقّ الخبرة بأن تصحبه مدة في دار أو موضع واحد فتجرّبه في عزله وولايته وفقره وغنائه أو تسافر معه لأنّ السفر سمّي سفراً لأنّه يكشف عن أخلاق الرجال أو تعامله في الدينار والدرهم فإن رضيته في هذه الأحوال فاتّخذه صديقا وبطانة، واجعله أباً لك إن كان كبيراً وابناً لك إن كان صغيرا وأخاً لك إن كان يساويك.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

اختلف العلماء في أنّ هذا اليوم أي: يوم فالأكثرون أنّه يوم احد لأنّ يوم أحد أليق بهذا الكلام لأنّ المقصود من ذكر هذه القصّة تقرير قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ ثم إنّ الانكسار واستيلاء العدوّ كان في يوم احد. وقيل: المراد يوم بدر. وقيل: الأحزاب.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾ أي: اذكر لهم يا محمّد وقت خروجك أوّل النهار إلى أحد ليذّكروا ما وقع فيه من الأحوال الناشئة عن عدم الصبر فيعلموا أنّهم إن لزموا الصبر والتقوى لا يضرّهم كيد الكفرة ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ وبيتك ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تنزلهم ﴿مَقَاعِدَ﴾ مهيّأة ﴿لِلْقِتَالِ﴾ والمراد الأماكن الّتي عيّنت لكلّ واحد من الصحابة لأن يقعد وينتظر فيه إلى أن يجيء العدوّ فيقوموا عند الحاجة إلى المحاربة فسمّيت الأماكن «مقاعد» لهذا الوجه.

ومجمل قصّة أحد أنّ المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبد الله بن ابيّ بن سلول ولم يكن دعاه قبل ذلك فاستشاره فقال عبد الله وأكثر الأنصار: يا رسول الله أقم بالمدينة ولا

تخرج إليهم فو الله ما خرجنا منها إلى عدوّ قطّ إلّا أصابنا ولا دخلها علينا إلّا أصبنا منه فكيف وأنت فينا؟ فدعهم فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبس وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم الصبيان والنساء بالحجارة، وإن رجعوا رجعوا خائبين. وقال بعضهم: يا رسول الله اخرج بنا إلى هؤلاء الأكلب لا يرون أنّا قد جبنا عنهم.

وقال ﷺ: **«إنّي رأيت في منامي بقراً مذبحة حولي فأوّلتها خيرا ورأيت في ذباب سيفي ثلما فأوّلته هزيمة ورأيت كأنّي أدخلت يدي في درع حصينة فأوّلتها المدينة فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم»**.

فقال رجال مسلمون قد فاتتهم بدر وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا، طلباً لسعادة الشهادة وطمعاً في الحسنى والزيادة، فلم يزالوا به ﷺ حتّى دخل ولبس لابته أي: درعه فلمّا رأوا ذلك ندموا وقالوا: بئسما صنعنا نشير على رسول الله والوحي يأتيه وقالوا: يا رسول الله اصنع ما رأيت فقال ﷺ: **«ما ينبغي لنبيّ أن يلبس لابته فيضعها حتّى يقاتل»**.

وكان قد أقام المشركون بأحد يوم الأربعاء والخميس وخرج النبيّ ﷺ الجمعة بعد ما صلّى الجمعة وصلّى على رجل من الأنصار مات فيه فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة[1] فجعل ﷺ يصفّ أصحابه للقتال إن رأى صدراً خارجاً قال ﷺ: **«تأخّر»**. وكان نزوله في طرف الوادي وعدوته، وجعل ظهره وعسكره إلى احد وأمّر عبد الله بن جبير على الرماة وقال لهم: **«ادفعوا العدوّ عنّا بالسهم حتّى لا يأتونا من ورائنا ولا تبرحوا مكانكم وإذا ولّوكم الأدبار فلا تطلبوا المدبرين»**.

ثمّ إنّ رسول الله ﷺ لمّا ما وافق رأى عبد الله بن ابيّ وكان من قدماء

١ـ تفسير البغوي، ج ١، ص ٣٤٦.

أهل المدينة ورؤساء المنافقين شقّ عليه ذلك وقال: «**أطاع الولدان وعصاني**» ثمّ قال لأصحابه: إنّ محمّداً إنّما يظفر بعدوّه بكم وقد وعد أصحابه أنّ أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا فانهزموا أنتم فيتبعونكم ويصير الأمر على خلاف ما قاله محمّد، فلمّا التقى الفريقان انهزم عبد الله بالمنافقين.

وكان ﷺ قد خرج في ألف رجل أو تسعمائة وخمسين رجلا فلمّا انهزم عبد الله مع ثلاثمائة بقيت سبعمائة وقوّاهم الله مع ذلك حتّى حملوا على المشركين وهزموهم.

فلمّا رأى المؤمنون انهزام المشركين طمعوا أن تكون هذه الواقعة كواقعة بدر فطلبوا المدبرين وتركوا ذلك الموضع وخالفوا أمر رسول الله، فأراد الله أن يفطمهم عن هذا الفعل لئلّا يقدموا على مخالفة الرسول وليعلموا أنّ ظفرهم يوم بدر ببركة طاعتهم لله ولرسوله ومتى تركهم الله مع عدوّهم لم يقوموا لهم، فتفرّق العسكر عن رسول الله كما قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[1] وشجّ وجه الرسول وكسرت رباعيّته وشلّت يد طلحة ووقعت الصيحة في العسكرين: إنّ محمّداً قد قتل وكان رجل يكنّى أبا سفيان من الأنصار نادى: هذا رسول الله.[2]

وكانت راية رسول الله بيد أمير المؤمنين وراية قريش بيد طلحه بن أبي طلحة العبديّ من بني عبد الدار فقتله أمير المؤمنين فأخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة فقتله عليّ عليه السلام وسقطت الراية فأخذها مسافع بن أبي طلحة وهكذا حتّى قتل عليه السلام من حاملي الراية تسعة نفر كلّهم من بني عبد الدار إلى أن حمل لواهم عبد لهم أسود يقال له ثوأب فانتهى إليه عليّ عليه السلام فقطع يده اليمنى فأخذ

١ـ سورة آل عمران: ١٥٣.

٢ـ تفسيرالرازي، ج ٨، ص ٢١٩.

اللواء باليسرى فضرب يسراه وقطعها فاعتنقها بالمجذومين إلى صدره ثمّ التفت العبد إلى أبي سفيان فقال: هل أعذرت في بني عبد الدار، فضربه عليّ عليه السلام على رأسه فقتله وسقط اللواء فأخذها غمرة بنت علقمة الكنانيّ فرفعتها.

فانحطّ خالد بن الوليد في مائتي فارس على عبد الله بن جبير واستقبلوهم بالسهام وكان أصحاب عبد الله بن جبير خلّوا عبد الله واشتغلوا ينتهبون سواد القوم من المشركين وذلك وقت هزيمة المشركين فخلّوا مراكزهم طمعاً للغنيمة وبقي عليّ عليه السلام وعبد الله بن جبير في نفر قليل وبعد ما حمل خالد وأصحابه على المسلمين وقتلوهم على باب الشعب فأتى من أدبارهم وفرّ المسلمون ونظرت قريش إلى رايتهم أنّها ارتفعت لاذوا بها[1] وانهزم أصحاب رسول الله هزيمة عظيمة وأقبلوا يفرّون إلى الجبل وفي كلّ وجه وزعموا أن رسول الله قد قتل، وما بقي إلّا عليّ ونفر قليل مع رسول الله صلى الله عليه وآله نادى رسول الله «**إلى أين تفرّون عن الله ورسوله**»؟ وكانت هند بنت عتبة في وسط العسكر فإذا رأت رجلا انهزم من قريش دفعت إليه ميلا ومكحلة وقالت له: إنّما أنت امرأة فاكتحل بهذا.

وكان حمزة بن عبد المطلب يحمل على القوم فإذا رأوه يحمل انهزموا ولم يثبت له أحد، وكانت هند قد أعطت وحشيّاً عهداً لئن قتلت محمّداً أو عليّاً أو حمزة لأعطيتك كذا وكذا، وكان وحشيّ عبداً لجبير بن مطعم حبشيّا فقال وحشيّ: أمّا محمّد فلم أقدر عليه وأمّا عليّ فرأيته حذراً كثير الالتفات فلا مطمع فيه قال: فكمنت حمزة فرأيته يهدّ الناس هدّا فمرّ بي على جرف نهر فانهار فسقط فرسه وأخذت حربتي فهززتها ورميته بها فوقعت في خاصرته فخرجت من ثنّته فسقط فأتيته فشققت بطنه وأخذت كبده وجئت بها إلى هند

١ـ أي: التجؤوا.

فقلت: هذه كبد حمزة، فأخذتها في فمها فلاكتها فجعله الله في فمها مثل الداعضة وهي عظم رأس الركبة فلفظتها. قال رسول الله: «**فبعث الله ملكاً فحمله وردّه إلى موضعه**». قال: فجاءت إلى مذاكيره وقطعت يده ورجله».[1]

ولم يبق مع رسول الله إلّا أبو دجانة وسماك بن خرشة وعليّ عليه السلام فكلّما حملت طائفة على رسول الله استقبلهم عليّ عليه السلام فدفعهم عنه حتّى تقطّع سيفه فدفع إليه رسول الله سيفه ذا الفقار وانحاز[2] النبيّ صلى الله عليه وآله إلى ناحية أحد فوقف وكان القتال من وجه واحد فلم يزل عليّ يقاتل حتّى أصابه في وجهه وبدنه وبطنه ورجليه سبعون جراحة، كذا أورده عليّ بن إبراهيم في تفسيره.[3]

فقال جبرئيل: «**إنّ هذه هي المواساة يا محمّد**» فقال النبيّ: «**إنّه منّي وأنا منه، فقال جبرئيل: وأنا منكما**». قال أبو عبد الله: نظر رسول الله إلى جبرئيل بين السماء والأرض على كرسيّ من ذهب وهو يقول: «**لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا عليّ**».[4]

قال الواقديّ وابن جرير وجماعة: إنّ المشركين مثّلوا بجماعة من المسلمين وكان حمزة أعظم مثلة.

أقول: ولعلّ الحكمة في انكسار المسلمين عدم ثباتهم المحلّ الّذي ألزمهم النبيّ صلى الله عليه وآله وأمرهم أن لا يفارقوا العقبة ولجهة اخرى اقتضت المصلحة وهي أنّه لو كانت الغلبة كلّ مرّة للمؤمنين لصار الإيمان ضروريّاً وهو مناف مع التكليف.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لمّا شاور النبيّ أصحابه في ذلك الحرب وقال بعضهم: أقم المدينة وقال آخرون: اخرج إليهم، وكان لكلّ أحد غرض

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٧٨؛ وأيضاً التفسيرالصافي، ج ١، ص ٣٧٦.

٢ـ أي: بعد ونحى.

٣ـ تفسيرالقمي، ج ١، ص ١١٦.

٤ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٧٩؛ وبحار الانوار، ج ٢٠، ص ١٨.

في قوله: فمن موافق ومن منافق قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقولون ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يرون.

قوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾ أي: فرقتان ﴿مِنكُمْ﴾ أي: من المسلمين وهما بنو سلمة وبنو حارثة حيّان من الأنصار من الأوس بنو سلمة ومن الخزرج بنو حارثة ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ أي: تضعفا وترجعا لظنّهم الثواب فيه والظاهر أنّ قصدهما ما كان على حسب العزم والتصميم وإنّما هو خطرات وحديث نفس يحدث للإنسان عند الشدائد ثمّ يردّها صاحبها إلى الثبات ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ وعاصمهما من اتّباع تلك الخطرات والجملة اعتراض ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده دون غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في أمورهم فإنّه حسبهم.

قال علماء الأخلاق: من وقع في ميدان التوكّل يزفّ إليه المراد كما تزفّ العروس إلى أهلها. قال النبيّ ﷺ: **«من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما اعطي السائلين»**.[1]

قال أبو حمزة الخرساني: حججت سنة من السنين فبينما أنا أمشي في الطريق إذ وقعت في بئر فنازعتني نفسي أن استغيث فقلت: لا والله لا أستغيث، فإذا مرّ برأس البئر رجلان فقال أحدهما للآخر: تعال حتّى نسدّ رأس هذه البئر لئلّا يقع فيها أحد فأتوا بقصب وطمسوا البئر فهممت أن أصيح ثمّ قلت: أشكو إلى من هو أقرب منهما فسكتّ فبينما أنا كذلك إذ أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر وأدخل رجله وكأنّه ألهمت أن تعلّق بها فتعلّقت فأخرجني فإذا هو سبع ومرّ وهتف هاتف: يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجّيناك من التلف بالتلف؟

١ـ الظاهرإنه حديث قدسي قاله النبي عن الله تعالى وبحارالانوار، ج ٩٠، ص ٣٢٣؛ وتفسيرالرازي، ج ١، ص ١٥١.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ «بدر» بئر ماء بين مكّة والمدينة حفرها رجل اسمه بدر فسمّيت به وكانت وقعة بدر في السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة.

وإنّما قال: «أذلّة» ولم يقل: «ذلائل» بجمع الكثرة للإشعار على أنّهم على ذلّتهم كانوا قليلا وذلّتهم بسبب قلّة السلاح وما كان بهم من قلّة المال والمركوب، يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلّا فرس واحد للمقداد بن الأسود وتسعون بعيرا وستّ أدرع وثمانية سيوف وهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ستّة وسبعون من المهاجرين وبقيّتهم من الأنصار وكان عدوّهم زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس والشكّة والشوكة.

وكان صاحب راية رسول الله عليّ بن أبي طالب وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة وقيل: سعد بن معاذ.

في «تفسير العيّاشيّ» قال الصادق: **«ليس هكذا نزلت إنّما نزلت، وأنتم قليل وما أذلّ الله رسوله قطّ»**.[1]

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في الثبات مع رسوله كما اتّقيتم يومئذ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لتقوموا بشكر نعمته.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥)

«إذ» ظرف «لنصركم» وقت قولك ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ حين أظهروا العجز عن المقاتلة ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ «الكفاية» سدّ الخلّة والقيام بالأمر، و«الإمداد» إعانة

١ـ تفسيرالعياشي، ج ١، ص ١٩٦.

الجيش بالجيش. وكانوا حينئذ كالآيسين من النصر لضعفهم وقوّة العدوّ.

﴿مُنزَلِينَ﴾ أنزلهم الله من السماء إلى الأرض لنصرتكم، قال ابن عبّاس وجماعة. إنّ الإمداد بالملائكة يوم بدر، ولم تقاتل الملائكة إلّا يوم بدر وكان الإمداد من الملائكة غير بدر، بل كانت في غيره عدّة ومددا. قيل: أمدّهم الله أوّلا بألف ثمّ صاروا ثلاثة آلاف ثمّ خمسة[1]، وإنّما قدّم لهم الوعد أوّلا بنزول الآية لتتقوّى قلوبهم ويعزموا على الثبات ويتقوّوا بنصر الله.

﴿بَلَىٰ﴾ إيجاب لما بعد «أن» وتحقيق له أي: بلى يكفيكم ذلك، ثمّ وعدهم الزيادة بشرط الصبر والتقوى حثّا لهم عليهما فقال: ﴿إِن تَصْبِرُوا﴾ على لقاء العدوّ ومناهضتهم ﴿وَتَتَّقُوا﴾ معصية الله﴿وَيَأْتُوكُم﴾ أي: إن يجيئكم المشركون ﴿مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: من ساعتهم هذه ورجعوا يعني المشركين إذا همّوا بكم وابتدروا إلى قتالكم. وقيل: معنى «من فورهم» من غضبهم وغليان عداوتهم ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ في حال إتيانهم لا يتأخّر نزولهم عن إتيانهم، يريد أنّ الله يعجّل نصرتكم إن صبرتم «التسويم» إظهار سيما الشيء أي: **«معلّمين أنفسهم أو خيلهم في أذنابها ونواصيها بالصوف الأبيض»**، قال ﷺ لأصحابه: **«تسوّموا فإنّ الملائكة تسوّمت»**.[2]

روي أنّ الملائكة كانوا بعمائم بيض إلّا جبرئيل فإنّه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوّام[3] ونزلوا على الخيل البلق موافقة لفرس المقداد. وإنّما قال ذلك لأنّ الكفّار في غزوة أحد قدموا بعد انصرافهم وهمّوا بالرجوع فأوحى الله إلى نبيّه أن يأمر أصحابه بالتهيّؤ والرجوع إليهم وقال لهم: ﴿إن

١ـ كنز الدقائق، ج ٢، ص ٢١٩؛ وأيضاً جامع البيان، ج ٤، ص ١٠٤.

٢ـ بحارالانوار، ج ٩٨، ص ١٦٠؛ وأيضاً جامع البيان، ج ٤، ص ١٠٩.

٣ـ تفسيرأبي سعود، ج ٢، ص ٨٠؛ وتفسيرالثعالبي، ج ٢، ص ١٠٣.

يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾[1] فيكون المعنى: إن صبرتم على الجهاد وراجعتم الكفّار أمدّكم الله بخمسة آلاف من الملائكة.

وخرجوا يتبعون الكفّار على ما كان بهم من الجراح فأخبر المشركين من مرّ برسول الله أنّه خرج يتبعكم فخاف المشركون إن رجعوا أن تكون الغلبة للمسلمين وأن يكون قد التحق إليهم من كان تأخّر عنهم فدسّوا نعيم بن مسعود الأشجعيّ حتّى يصدّهم بتعظيم أمر قريش وأسرعوا في الذهاب إلى مكّة فكفى الله المسلمين أمرهم.

قال الباقر عليه السلام: «**إنّ الملائكة الّذين نصروا يوم بدر ما صعدوا بعد ولا يصعدون حتّى ينصروا القائم**»[2] وهاهنا يقتضي مزيد بيان: قال الرازيّ: قد اختلف المفسّرون في أنّ هذا الوعد حصل يوم بدر أو يوم احد ويتفرّع على هذين القولين اختلاف العامل في «إذ» فإن كان الوعد حصل يوم بدر كان العامل في «إذ» قوله تعالى: ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وتقدير الآية حينئذ. إذ نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة يقول للمؤمنين ألن يكفيكم، الآية. وإن كان الوعد حصل يوم أحد كان ذلك بدلا من قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ﴾.

وحجّة القائلين بأنّ الوعد حصل يوم أحد قالوا: إنّ يوم بدر إنّما أمدّ رسول الله بألف من الملائكة قال تعالى: في سورة الأنفال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾[3] فكيف يليق ما ذكر فيه ثلاثة آلاف وخمسة آلاف بيوم بدر؟

وأيضا إنّه تعالى قال في هذه الآية: ويأتوكم أعداؤكم من فورهم، ويوم

١ـ سورة آل عمران: ١٤٠.

٢ـ الصافي، ج ١، ص ٣٧٨؛ ونور الثقلين، ج ١، ص ٣٨٨؛ وتفسيرالعياشي، ج ١، ص ١٩٧.

٣ـ سورة الأنفال: ٩.

احد هو اليوم الّذي كان يأتيهم الأعداء فأمّا يوم بدر فالأعداء ما أتوهم بل هم ذهبوا إلى الأعداء.

فإن قيل: لو جرى قوله تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ في يوم أحد والحال أنّه ما حصل الأمداد والنصر لزم الكذب.

فالجواب أنّ إنزال الملائكة كان مشروطا بشرط أن يصبروا ولم يتعرّضوا في المغانم حسب ما أمرهم النبيّ أن لا يفارقوا الثنيّة وهم خالفوا أمر الرسول فلمّا خالفوا الشرط لا جرم فات المشروط، وإنّما وعد الرسول بذلك للمؤمنين الّذين بوّأ بهم رسول الله مقاعد للقتال بشرط أن يثبتوا في تلك المقاعد وهم أهملوا القعود والثبات طمعاً في الغنيمة لمّا أحسّوا النصر ففاتهم المشروط.

ولو سلّمنا أنّ الملائكة نزلت كما أنّه روي أنّ رسول الله ﷺ أعطى اللواء مصعب ابن عمير فقتل مصعب فأخذه ملك في صورة مصعب فقال رسول الله: «**تقدّم يا مصعب**»، فقال الملك: «**لست بمصعب فعرف الرسول أنّه الملك**»، فنقول: إنّ الملائكة لم يقاتلوا[1].

وأمّا حجّة القائلين أنّ هذا الوعد كان يوم بدر أنّ ظاهر قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ يقتضي أنّ الله نصرهم ببدر وقد وقع النصر ببدر وقلّة العدد كانت يوم بدر أكثر وكان الاحتياج إلى تقوية القلب في ذلك اليوم أكثر.

وليس لأحد أن يقول: إنّهم نزلوا لكنّهم ما قاتلوا لأنّ الوعد كان بالإمداد وبمجرّد الإنزال لا يحصل الإمداد بل لا بدّ من الإعانة حصلت يوم بدر ولم

١ـ تفسير الرازي، ج ٨، ص ٢٢٣.

يحصل يوم أحد النهاية أنّ الجواب عن القول: بأنّ واقعة بدر كان عدد الملائكة مذكورا في الآية بتعيين الألف هو أنّه تعالى أمدّ أصحاب الرسول بألف ثمّ زاد ألفين فيهم فصاروا ثلاثة آلاف ثمّ زادوا ألفين آخرين فصاروا خمسة آلاف فكأنّه قال ﷺ لهم: **«ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بألف من الملائكة»** فقالوا: بلى، ثمّ قال: **﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ﴾** فقالوا: بلى، ثمّ قال لهم: **﴿إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ... يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾** وهذا الكلام كما قال ﷺ لأصحابه: **«أيسرّكم أن تكونوا ربع أهل الجنّة»** قالوا: نعم، قال: **«أيسرّكم أن تكونوا ثلث أهل الجنّة»** قالوا: نعم، قال: **«فإنّي أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنّة»**.[1]

وقال بعض أهل التفسير: إنّ الله تعالى أمدّ أهل البدر بألف من الملائكة[2] فقيل: إنّ كرز بن جابر المحاربيّ يريد أن يمدّ المشركين فشقّ ذلك على المسلمين فقال النبيّ: **﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾** يعني بتقدير أن يجيء المشركين مدد فالله يمدّكم أيضا بثلاثة آلاف وخمسة آلاف، ثمّ إنّ المشركين ما جاءهم المدد فكذا هاهنا الزائد على الألف ما جاء المسلمين.

قال الرازيّ: إنّ أبا بكر الأصمّ أنكر بعض هذه المعاني أشدّ الإنكار واحتجّ عليه بوجوه: منها: أنّ الملك الواحد يكفي في إهلاك أهل الأرض كما أنّ جبرئيل أدخل تحت المدائن الأربع أو الخمس لقوم لوط وبلغ جناحه إلى الأرض السابعة ورفعها إلى السماء وقلّب عاليها سافلها فإذا حضر هو يوم بدر فأيّ حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفّار ثمّ بتقدير حضوره فأيّ فائدة في إرسال سائر الملائكة؟

١ـ تفسير مقاتل بن سليمان، ج ٢، ص ٣٧٥؛ وتفسيرالرازي، ج ٨، ص ٢٢٥.

٢ـ تفسيرالرازي، ج٨، ص٢٢٥.

وأيضا قال: إنّ أكابر الكفّار كانوا مشهورين وكلّ أحد منهم مقابله من الصحابة معلوم وإذا كان كذلك امتنع إسناد قتله إلى الملائكة.

وأيضا قال: إنّ الملائكة لو قاتلوا لكانوا إمّا أن يصيروا بحيث أن يراهم الناس أو لا يراهم فإن رآهم الناس فإمّا أن يقال: إنّهم رأوهم في صورة الناس أو في غير صورة الناس فإن كان الأوّل فعلى هذا التقدير صار المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف أو أكثر ولم يقل أحد بذلك، وإن شاهدوهم في صورة غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد في قلوب الخلق فإنّ من شاهد الجنّ لا شكّ أنّه يشتدّ فزعه، وقال: إنّه على تقدير أنّ الملائكة إذا حاربوا وجزّوا الرؤوس ومزّقوا البطون وأسقطوا الكفّار عن الأفراس فحينئذ الناس كانوا يشاهدون حصول هذه الأفعال مع أنّهم ما كانوا شاهدوا أحداً من الفاعلين ومثل هذا من أعظم المعجزات ولو كانت الملائكة أجساماً كثيفة وجب أن يراهم الكلّ وإن كانوا أجساماً لطيفة مثل الهواء لم يكن فيهم صلابة وقوّة وكيف يكونوا راكبين على الخيول؟

انتهى كلام أبي بكر الأصمّ في هذه الشبهات الركيكة لأنّها تليق بمن ينكر القرآن والنبوّة فأمّا من يقرّ بالقرآن والنبوّة فلا تليق به أن يتفوّه بمثل هذه الخرافات ونصّ القرآن ناطق بها وغير قابل للتأويل لأنّ التأويل جاز في كلام لا يجوز حمله على ظاهره وأنّه لو حمل على ظاهره لكان مخالفاً للأصول أو الفروع المتّفق، فأمّا مثل هذه الآية المحكمة ناطقة بهذا الأمر وشبهاته إذا قوبلت بقدرة الله زالت وطاحت بالكلّيّة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. واستدلاله بقوّة جبرئيل ليس مناف كون ألوف من الملائكة مع جبرئيل من القوّة بل لعلّ يكون لأجل إجلال النبيّ في تلك الواقعة. وكذلك سائر

استدلالاته بالنسبة إلى قضاء الله وأمره أوهن من نسج العنكبوت.[1]

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

الضمير في ﴿جَعَلَهُ﴾ راجع إلى المصدر. والمعنى: ما جعل الله المدد والإمداد إلّا بشارة لكم بأنّكم تنصرون ودلّ يمددكم على الإمداد و«البشرى» اسم من الإبشار ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي: بالإمداد وتسكن إليه نفوسكم من الخوف كما كانت السكينة لبني إسرائيل.

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ كائن لا من العدة والعدد، وهو تنبيه على أنّه لا حاجة في نصرتهم إلى مدد وإنّما أمدّهم ربطاً على قلوبهم وتطييباً لنفوسهم من حيث إنّ نظر العامّة إلى الأسباب أكثر ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالب في أمره ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ الّذي يفعل حسبما يقتضي الحكمة.

لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

وجه اتّصال الآية بما قبلها أي: أعطاكم الله هذا النصر ﴿لِيَقۡطَعَ﴾ جمعا ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالأسر والقتل أو متّصل بقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾ ﴿لِيَقۡطَعَ﴾ ويهلك طائفة وجماعة منهم ولقد انقطع يوم بدر صناديدهم وقادتهم إلى الكفر فقتل من رؤسائهم سبعون وأسر سبعون. وقيل: هو يوم احد ﴿أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ﴾ أي: يخزيهم، وقيل: أي: يصرعهم الله على وجوههم.

والمراد حصول الإخزاء واللعن و﴿أَوۡ﴾ في الآية للتنويع ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ لم ينالوا ممّا أملوا عرفا بشيء من مبتغاهم.

وقيل: إنّ معنى الآية: لتطمئنّ قلوبكم به وليقطع طائفة وجمعا من

١ـ تفسيرالرازي، ج ٨، ص ٢٢٦.

الكفّار. وإنّما ذكر بغير حرف العطف لأنّ العطف إذا كان البعض قريباً من البعض جاز حذف حرف العطف كما يقول السيّد لعبده: أكرمتك لتخدمني لتقوم بحقّي لتعينني، فكذا هاهنا.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨)

واختلف في سبب النزول. واختلف أيضاً في القراءة بالتاء والياء في «يتُوب» و«يعذب».

العيّاشيّ عن الباقر عليه السلام أنّه قرأ «أن تتوب عليهم أو تعذّبهم» بالتاء فيهما.[1] وعنه عليه السلام قرئ عنده: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ قال: **«بلى والله إنّ له من الأمر شيئاً وشيئاً وشيئاً وليس حيث ذهبت ولكنّي أخبرك أنّ الله لمّا أخبر نبيّه أن يظهر ولاية عليّ عليه السلام ففكّر صلّى الله عليه وآله في عداوة قومه له فيما فضّله الله به عليهم ضاق عن ذلك فأخبر الله أنّه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إنّما الأمر فيه إلى الله أن يصيّر عليّاً وصيّه ووليّ الأمر من بعده فهذا على الله».**[2]

وقال أبو مسلم: قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ﴾ متّصل بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فيكون معناه: نصركم الله ليقطع طرفا منهم أو يكبتهم وليس لك ولا لغيرك من هذا النصر شيء.

وقيل في معنى الآية: إنّ قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ﴾ اعتراض واقع بين قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ والتقدير: ليقطع طرفا منهم أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذّبهم أي: ليس لك من هذه الأربعة شيء.

وأمّا اختلاف النزول قال جماعة منهم ابن عبّاس وأنس بن مالك

١ـ تفسيرالعياشي، ج ١، ص ١٩٨.

٢ـ انظر: تفسيرالعياشي، ج ١، ص ١٩٧؛ وبحار الانوار، ج ٢٥، ص ٣٢٧؛ والصافي، ج ١، ص ٣٧٩.

والحسن: إنّه لمّا كان من المشركين يوم أحد ما كان من كسر رباعيّته وشجّه حتّى جرت الدماء على وجهه قال: كيف يفلح قوم نالوا هذا من نبيّهم وهوﷺ حريص على فلاحهم وهدايتهم؟

فأعلم الله أنّه ليس إليه فلاحهم وأنّه ليس إليه إلّا التبليغ وإنّما ذلك إلى الله وكان الّذي كسر رباعيّته وشجّه في رأسه عتبة بن أبي وقّاص وأدمى وجهه الشريف رجل من هذيل يقال له عبد الله بن قينة وهوﷺ كان يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون.[١]

وقيل في معنى الآية: إنّهﷺ استأذن ربّه أن يدعو عليهم يوم أحد فنزلت هذه الآية فلم يدع وإنّما لم يؤذن له فيه لما كان في المعلوم من توبة بعض عن، الجبّائيّ.

وقيل: أراد رسول الله أن يدعو على المنهزمين يوم أحد فنزلت الآية: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ﴾ عن ابن مسعود.

وقيل: لمّا رأى النبيﷺ ما فعل بعمّه حمزة وبأصحابه من المثلة من جدع الأنوف قال: لئن أدالنا الله منهم لنفعلنّ بهم مثل ما فعلوا بنا ولنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قطّ فنزلت الآية عن الشعبيّ ومحمّد بن إسحاق.

وقيل: نزلت الآية في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلا من قرّاء أصحاب الرسول وأميرهم المنذر بن عمرو بعثهم رسول اللهﷺ إلى بئر معونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهر من وقعة أحد ليعلّموا الناس القرآن فقتلهم جميعا عامر بن الطفيل فحزن رسول اللهﷺ من ذلك وجداً شديداً، فنزلت الآية.

قال الطبرسيّ: والأصحّ أنّها نزلت في أحد ويقتضيه سياق الكلام وإنّما

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٨٥.

قال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ﴾ مع أنهﷺ يدعوهم إلى الله[1]، المراد: أنّ أمر عقابهم أو الدعاء عليهم ولعنهم ليس لك لأنه يقع إنابة بعضهم.

قال الرازيّ: لو قيل: إنّ ظاهر هذه الآية تدل على أنّ النبيّ فعل فعلا وكانت هذه الآية كالمنع منه والأمر الممنوع منه إن كان حسنا فلم منعه الله وإن كان قبيحا فكيف يليق بالنبي؟ فالجواب أنّ المنع من الفعل لا يدلّ على أنّ الممنوع منه كان مشتغلا به، فإنّه تعالى قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[2] وأنّه ما أشرك قطّ وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾[3] لا يدلّ على أنه ما كان يتّقي الله وقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾[4] وهو ما أطاعهم بل الفائدة من هذا المنع ذهاب غمّه الشديد والغضب في مثلة حمزة والمسلمين غيرة على دين الله وتقوية لتصبّرهﷺ وإكمالا لدرجة العبوديّة.[5]

قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على قوله: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ أي: إن الله مالك أمرهم فإمّا أن يهلكهم أو يخزيهم أو يقبل توبتهم إن أسلموا ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ إن أصرّوا ﴿فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ بكفرهم وظلمهم.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (۱۲۹)

لمّا قال سبحانه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ﴾ في الآية السابقة عقّب في هذه الآية بأنّ الأمر له. وذكر لفظ «ما» لأنّ «ما» أعمّ ممّن يعقل وما لا يعقل، له

۱ـ مجمع البيان، ج ۲، ص ۳۸٦.

۲ـ سورة الزمر: ٦٥.

۳ـ سورة الأحزاب: ۱.

٤ـ سورة الأحزاب: ۱.

٥ـ تفسيرالرازي، ج ۸، ص ۲۳۲.

ملكا وخلقا ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يغفر له ومشيئته مبنيّة على الحكم والمصالح ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أن يعذّبه، وقدّم المغفرة لسبق رحمته غضبه ولم يبيّن من يغفر له ومن يشاء تعذيبه ليكون المكلّف بين الخوف والرجاء فلا يأمن من عذابه ولا ييأس من روحه. وسأل بعضهم كيف يعذّب الله عباده بالأجرام مع سعة رحمته؟ فقال: رحمته لا تغلب حكمته ولا يكون رحمته برقّة القلب كما يكون الرحمة منّا. قال ابن عبّاس: معنى الآية: يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ممّن لم يتب. وأوحى الله إلى داود عليه السلام: **«يا داود بشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين»**، قال: **«يا ربّ فكيف ابشّر المذنبين وأنذر الصدّيقين؟ قال: بشّر المذنبين بأنّي لا يتعاظمني ذنب إلّا أغفره، وأنذر الصدّيقين أن لا يعجبوا بأعمالهم وأنّي لا أضع عدلي وحسابي على أحد إلّا أهلكه».**[1] فالإنسان وإن كثرت عبادته لا بدّ أن يطلب بقلبه ولسانه أن تدركه رحمته.

قال بعض علماء الأخلاق: دواء القلب خمسة: تلاوة القرآن مع التدبّر وخلاء البطن وقيام الليل والتضرّع إلى الله عند السحر ومجالسة الصالحين.[2]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾

لمّا ذكر أنّ له التعذيب لمن يشاء والمغفرة لمن يشاء وصل ذلك بالنهي عمّا لو فعلوا لاستحقّوا عليه العذاب وهو الربى فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾ صدّقوا الله ورسوله ﴿لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ ذكر الأكل لأنّه معظم الانتفاع وإن كان غيره من التصرّفات أيضا منهيّا عنه و«الربا» الزيادة على أصل المال بالتأخير عن الأجل الحال. وقيل: هو ربى الجاهليّة.

١ـ الكافي، ج ٢، ص ٣١٤؛ ورواه المجلسي في بحارالانوار، ج ١٤، ص ٤٠ وص ٦٩، ص ٣١٢.

٢ـ الأذكار النورية، ص ١٠٧؛ والتبيان في آداب حملة القرآن، ص ٨٤.

﴿أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ زيادات مكرّرة كان الرجل في الجاهليّة إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ولم يكن المديون واجدا لذلك المال قال: زدني في المال حتّى أزيدك في الأجل[1]، فربّما جعله مأتين ثمّ إذا حلّ الأجل الثاني فعل مثل ذلك ثمّ إلى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها و﴿أَضْعَافًا﴾ جمع ضعف حال من «الربى» أي: متضاعفاً ولمّا كان جمع قلّة والمقصود الكثرة أتبعه بما يدلّ على الكثرة حيث وصفه بقوله: ﴿مُّضَاعَفَةً﴾ وهي اسم مفعول لا مصدر وهذه الحال ليس لتقييد النهي بها حتّى تنتفي الحرمة عند انتفائها بل بيان ما كانوا عليه من العادة توبيخا لهم على ذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما نهيتم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لكي تنجوا بإدراك ما تأملونه من ثواب الجنّة، وإنّما أعاد تحريم الربا مع ما سبق من ذكره في سورة البقرة لأمرين: أحدهما: التصريح بالنهي عنه بعد الإخبار بتحريمه لشدّة التحذير منه ولتأكيد النهي عن هذا الضرب منه الّذي يجري على الأضعاف.

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾

﴿وَاتَّقُوا﴾ بالتحرّز عن تعاطي ما يتعاطونه. وفي الآية تنبيه على أنّ النار بالذات معدّة للكفّار وبالعرض للعصاة. قيل: هي أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدّة للكافرين إن لم يتّقوه في أصناف محارمه.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ في كلّ ما أمركم به ونهاكم عنه والرسول الّذي يبلّغكم أي: لكي ترحموا وفي هذا البيان نهاية التهديد على الربى حيث أتى بلعلّ في فلاح من اجتنبه لأنّ تعليق إمكان الفلاح ورجائه بالاجتناب منه يستلزم امتناع

١ـ تفسيرأبي السعود، ج ٢، ص ٨٤.

الفلاح لهم إذا لم يجتنبوه فما أعظمها من مصيبة توجب عقاب الكفّار للمؤمنين! وكيف درج التغليظ في التهديد حتّى ألحقه بالكفّار في الجزاء والعقاب؟

قال رسول الله: **«لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه والمحلّل»**.[1]

وروي عن عبد الله ابن سلام: **«للربى اثنان وسبعون حوباً أصغرها كمن أتى امه في إسلام»**، كذا في «تنبيه الغافلين».[2] قال «صاحب روح البيان»: وآخذ الربا لا يقبل الله منه صدقة ولا جهادا ولا حجّا ولا صلاة.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣﴾

لمّا حذّر الله عن الأفعال الموجبة للعقاب عقّبه بالحثّ على الأفعال الموجبة للثواب أي: بادروا ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ باجتناب المعصية وإلى الأعمال الّتي توجب المغفرة. واختلف في ذلك فقيل: سارعوا إلى الإسلام، عن ابن عبّاس. وقيل: إلى أداء الفرائض، عن عليّ بن أبي طالبعليه السلام. وقيل: إلى الهجرة. وقيل: إلى التكبيرة الاولى عن أنس بن مالك. وقيل: إلى الصلاة الخمس، وقيل: إلى الجهاد، عن الضحّاك. وقيل: إلى التوبة، عن عكرمة.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي: وإلى جنّة عرضها كعرض السماوات السبع والأرضين السبع إذا ضمّ بعض ذلك إلى بعض، عن ابن عبّاس وجماعة. وإنّما ذكر العرض بالعظم دون الطول لأنّه يدلّ على أنّ الطول أعظم من العرض بخلاف ما إذا ذكر الطول دون العرض[3]، فمعنى الآية مثل قوله:

١ـ انظر كنز العمال، ج ٤، ص ١٠٦؛ وجامع البيان، ج ٣، ص ١٤٢.

٢ـ الدرالمنثور، ج ١، ص ٣٦٤؛ وكنز العمال، ج ٤، ص ١٩٣.

٣ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩٠.

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾[1] أي: كخلق نفس واحدة.

وقيل: المراد في الآية بيان عظم ثمنها أي: لو بيعت وعرضت للبيع كثمن السماوات والأرض كما يقال: عرضت هذا المتاع للبيع والمراد بيان جلالة قدرها وثمنها.

وروي أنّه سئل النبيّ ﷺ فقيل له: إذا كانت الجنّة عرضها كعرض السماوات والأرض فأين تكون النار؟ فقال ﷺ: **«سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل»**؟ أي: إنّ القادر على أن يذهب بالليل حيث شاء قادر على أن يخلق النار حيث شاء.[2]

وبيانه ﷺ في جوابهم معارضة فيها إسقاط المسألة والجواب أنّ الجنّة فوق السماوات السبع وتحت العرش، والنار تحت الأرضين السبع ومعنى قولهم: إنّ الجنّة في السماء أي: إنّها في ناحية السماء وجهتها والسماء يحويها ولا ينكر أن يخلق الله في العلو أمثال السماوات والأرضين، وإن صحّ الخبر أنّها في السماء الرابعة كان كما يقال: في الدار بستان لاتّصاله بها وكونه في ناحية منها أو يشرع إليها بابه وإن كان أضعاف الدار.

وقيل: إنّ الله يزيد عرضها يوم القيامة فيكون المراد من قوله: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ يوم القيامة لا في الحال على تسليم أنّها في السماء.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المطيعين لله ولرسوله، وإنّما أضيفت إلى المتّقين لأنّهم المقصودون بها أصلا وإن دخلها غيرهم من الأطفال والمجانين على وجه التبع وكذلك الفسّاق لو عفي عنهم. وقيل: معناه لو لا المتّقون لما خلقت الجنّة كما يقال: وضعت المائدة للأمير. وقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ يدلّ على أنّ الجنّة

١ـ سورة لقمان: ٢٨.

٢ـ التبيان، ج ٢، ص ٥٩٢؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩١؛ وبحار الانوار، ج ٨، ص ٨٣.

مخلوقة اليوم لأنّها لا تكون معدّة إلّا وهي مخلوقة، وأنّها خارجة عن هذا العالم أمّا الأوّل فلدلالة لفظ الماضي، وأمّا الثاني فلأنّ ما يكون عرضها السماوات والأرض لا يكون في هذا العالم ولا داخلا فيه.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وصف سبحانه حال المتّقين فقال: الّذين ينفقون كلّما يصلح للإنفاق في حالة اليسر وفي حالة العسر أو في حالة الفرح والغمّ أي: في الأحوال كلّها لأنّ الإنسان لا يخلو عن هاتين الحالتين ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ عطف على الموصول و«الكظم» الحبس أي: الممسكين غضبهم الكافّين عن إمضائه مع القدرة عليه ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ التاركين عقوبة من استحقّ مؤاخذته ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهم الّذين عمّت فواضلهم وتمّت فضائلهم، واللام يجوز للجنس فيدخل تحته هؤلاء ويصلح للعهد فيكون الإشارة إليهم.

قال رسول الله: «**من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمنا وإيمانا**»[1] وأمّا في الآخرة فهو أن يبرأ ذمّته من التبعات والمطالبات.

قال الفضيل بن عياض: الإحسان بعد الإحسان مكافأة والإساءة بعد الإساءة مجازاة والإحسان بعد الإساءة كرم وجود والإساءة بعد الإحسان لؤم وشؤم.

روي أنّ جارية لعليّ بن الحسين عليه السلام جعلت تسكب عليه الماء ليتهيّأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها فشجّه ورفع رأسه عليه السلام إليها فقالت الجارية: إنّ الله يقول: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ فقال لها: قد كظمت غيظي، قالت: ﴿وَٱلْعَافِينَ

١ـ جوامع الجامع، ج ١، ص ٣٢٨؛ وانظر: الكافي، ج ٢، ص ١١٠؛ ووسائل الشيعة، ج ٨، ص ٥٢٤.

عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: قد عفى الله عنك، قالت: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فقال عليه السلام: «اذهبي يا جارية فأنت حرّة لوجه الله».[١]

وتأمّل بأنّ الله تعالى عدّ من أخلاق أهل الجنة السخاء في الآية، قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**السخاء شجرة في الجنّة أغصانها في الدنيا من تعلّق بغصن من أغصانها قادته إلى الجنّة والبخل شجرة في الجهنّم أغصانها في الدنيا فمن تعلّق بغصن منها قادته إلى النار**».[٢]

قال عليّ عليه السلام: «**الجنّة دار الأسخياء**»[٣] وقال عليه السلام: «**السخيّ قريب من الله قريب من الجنّة قريب من الناس بعيد من النار. والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنّة بعيد من الناس قريب من النار**»[٤].

وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

أسباب النزول: روي أنّ قوماً من المؤمنين قالوا: يا رسول الله بنو إسرائيل أكرم على الله منّا كان أحدهم إذا أذنب أصبحت كفّارة ذنبه مكتوبة على عتبة بابه: اجدع أنفك وأذنك أو افعل كذا وكذا. فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فنزلت الآية فقال صلى الله عليه وآله: «**ألا أخبركم بخير من ذلكم**»؟ وقرأ عليهم الآية عن ابن

١ـ روضة الواعظين، ص ١٩٩؛ والارشاد، ج ٢، ص ١٤٦؛ والمناقب، ابن شهرآشوب، ج ٣، ص ٢٩٦.

٢ـ فقه الرضا، ص ٣٦٢؛ والاختصاص، ص ٢٥٢؛ ومجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩٢.

٣ـ مجمع البيان، ج٢، ص٣٩٢ ؛ وبحارالانوار، ج ٣٠، ص ٤١٥.

٤ـ مجمع البيان، ج٢، ص٣٩٢ ؛ وروضة الواعظين، ص ٣٨٥.

مسعود[1]. وفي ذلك تسهيل لهم إذ جعل الاستغفار بدلا منه.

وقيل: نزلت في تيهان التمّار أتته امرأة تبتاع منه تمرا فقال: إنّ هذا التمر ليس بجيّد وفي البيت أجود منه، وذهب بها إلى بيته فضمّها إلى نفسه فقبّلها فقالت: اتّق الله، فتركها وندم وأتى النبيّ وذكر له ذلك فنزلت الآية، عن عطا.

واختلفوا في معنى الفاحشة الكبائر وظلم النفس فقيل: المراد بالفاحشة الزنا، ومن ظلم النفس سائر المعاصي. وقيل: الفاحشة الكبائر وظلم النفس الصغائر، عن القاضي عبد الجبّار الهمدانيّ. وقيل: الفاحشة الكبائر ولو أنّها اسم لكلّ معصية ظاهرة أو باطنة لكنّها لا يقع إلّا على الكبيرة[2]. وقيل: المراد: ﴿فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ فعلا ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قولاً ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ أي: وعيده وذكروا جلاله الموجب للخشية ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ بأن يندموا على المعصية مع العزم على ترك مثله في المستقبل وأمّا مجرّد الاستغفار باللسان فلا أثر له في إزالة الذنب وهو توبة الكذّابين.

﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ و«من» استفهام إنكاريَ أي: جنس الذنوب، من يغفر جنس الذنوب غيره تعالى و﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ بدل من الضمير المستتر في ﴿يَغْفِرُ﴾ وهو معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه تطييباً لقلوب التائبين وبشارة لهم بسعة رحمته وتحريضاً للعباد على التوبة وردعاً من اليأس والقنوط.

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ عطف على ﴿فَاسْتَغْفَرُوا﴾ أي: لم يقيموا على الذنوب وأصل «الصر» الشدّ والاستحكام من الصرّة والمراد هنا الارتباط بالذنب بالإقامة والثبات عليه ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وهم عالمون بقبحه

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩٤؛ وجامع البيان، ج ٤، ص ١٢٧؛ وتفسيرالثعالبي، ج ٣، ص ١٦٨.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩٢.

ووعيده، والتقييد بذلك لما أنّه قد يعذر من لا يعلم إذا لم يكن عن تقصير في تحصيل العلم به، أو المراد وهم ذاكرين للخطيئة غير ساهين ولا ناسين، لأنّ الله يغفر للعبد ما نسيه وإن لم يتب منه بعينه، أو المراد أنّهم يعلمون الحجّة في أنّها خطيئة وهذا قريب من معنى الأوّل فإذا لم يعلموا ولا طريق لهم إلى العلم به كان الإثم موضوعا عنهم كمن تزوّج امّه من الرضاع أو النسب وهو لا يعلم به فإنّه لا يأثم، وهذا قول ابن عبّاس. وقيل: وهم يعلمون أنّ الله يملك مغفرة ذنوبهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الموصوفين في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ إلى هنا، أي: هؤلاء ﴿جَزَآؤُهُم﴾ على هذه الأمور ﴿مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ وستر لذنوبهم من الله﴿وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ و«الجنّات» مفسّرة مرارا، والمخصوص بالمدح محذوف أي: ونعم أجر العاملين ذلك. والتعبير بالأجر وإن كان الجزاء بالتفضيل لا بالاستحقاق لمزيد الترغيب في الطاعات والزجر عن المعاصي.

في تفسير «روح البيان»: قال رسول الله ﷺ عن ربّه قال: **«ابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك، ابن آدم إنّك إن تلقني بتراب الأرض خطايا لقيتك بترابها مغفرة بعد أن لا تشرك بي شيئا، ابن آدم إنّك إن تذنب حتّى تبلغ ذنبك عنان السماء ثمّ تستغفرني أغفر لك»**.(١)

قال ثابت البنانيّ: بلغني أنّ إبليس بكى حتّى نزلت هذه الآية وهي ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾ قال رسول ﷺ: **«ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثمّ يقوم ويصلّي ثمّ يستغفر الله إلّا غفر الله له»**.(٢)

١ـ انظر: بحار الانوار، ج ٩٠، ص ٢٨٣.

٢ـ سنن أبي داود، ج ١، ص ٣٤٠؛ وتفسير الرازي، ج ٣، ص ٢٤.

روي أنّ الله أوحى إلى موسى عليه السلام ما أقلّ حياء من يطمع في جنّتي بلا عمل! يا موسى كيف أجود برحمتي على من يبخل بطاعتي؟ قال شهر بن حوشب: طلب الجنّة بلا عمل ذنب من الذنوب وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور.[1]

قالت رابعة البصريّة:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إنّ السفينة لا تجري على اليبس

قال القشيريّ: أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام قل: للظلمة حتّى لا يذكروني فإنّي أوجبت أن أذكر من يذكرني وذكري للظلمة باللعنة.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨)﴾

لمّا بيّن سبحانه ما يفعله بالمؤمن والكافر ذكر في هذه الآية أنّ ذلك عادته في خلقه و«السنّة» الطريقة المجعولة ليقتدى بها و«الخلو» الانفراد ويستعمل في الزمان الماضي لأنّ ما مضى انفرد عن الوجود وخلا عنه، والمراد بسنن الله معاملاته في الأمم المكذّبة بالهلاك والعذاب. قيل: خطاب لمن هزم يوم أُحد.

أي: قد مضت يا امّة محمّد صلى الله عليه وآله أو يا أهل اُحد المنهزمين عادات من الله في الأمم المتقدّمة إذا كذّبوا رسله بالإهلاك، وتبقية آثارهم في الديار للاعتبار والاتّعاظ.

وقيل: معناه قد مضت لكلّ امّة سنّة ومنهاج إذا اتّبعوها يحصل لهم رضى الله إن شككتم في ذلك ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ولعلّ المراد من السير

١ـ الكشاف، ج ١، شرح ص ٤٦٥؛ وتفسير الثعالبي، ج ٣، ص ١٧٠.

ليست المسافرة في الأرض بسير الأقدام بل تعرّف أحوالهم فإن لم تحصل المعرفة فإنّ أثر المشاهدة أقوى من أثر السماع كما قيل: ليس الخبر كالعيان ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ و﴿كَيْفَ﴾ خبر مقدّم «لكان» أي: عاقبة مكذّبي رسلي وأنبيائي.

﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما سلف من قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ إلى آخر الآية ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ وإيضاح ليعتبروا ودلالة وهداية وزيادة بصيرة ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ لأهل الدين والتقوى لأنهم هم المتّعظون.

قال صاحب روح البيان: في الآية تسلية للمؤمنين فيما أصابهم يوم احد[1] فإنّ الكفّار وإن نالوا من المؤمنين بعض النيل لحكمة اقتضته، فالعاقبة للمتّقين ولو كانت الغلبة كلّ مرّة للمؤمنين لصار الإيمان ضرورياً وهو خلاف التكليف والحكمة، والعاقل لا يغترّ بالحظوظ الفانية واللائق أن يجتهد فيما هو خير.

وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

أي: لا تضعفوا من الجهاد بما أصابكم من الجراح يوم احد ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على من قتل منكم. وهذا النهي ورد للتسلّي والتصبير لا النهي عن الحزن وذلك أنّه لمّا انهزم المسلمون في الشعب وأقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبيﷺ: **«لا يعلنّ علينا، اللهم لا قوّة لنا إلّا بك اللهم ليس يعبدك بهذه البلدة إلّا هؤلاء النفر فنزلت الآية وقام نفر رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتّى هزموهم وعلوا المسلمون الجبل»**[2]، فذلك قوله: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ وأصله «الأعليون» واحده «الأعلى» ومؤنّثه

١ـ انظر: جوامع الجامع، ج ١، ص ٣٣٠.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٣٩٨؛ تفسير الثعالبي، ج ٣، ص ١٧٢.

«العليا» وجمعه «العليات والعلى» وحذفت الياء كراهة الجمع بين اخت الكسرة والضمّة أي: والحال أنتم الغالبون ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والجواب محذوف دلّ عليه المذكور أي: إن كنتم مؤمنين لا تهنوا، فإنّ الإيمان يوجب قوّة القلب.

إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

أي: إن يصبكم قرح ـ بفتح القاف وبضمّها ـ كالشهد والشهد، وقيل: إنّ القرح ـ بالضمّ ـ الجراحات بأعيانها، والقرح ـ بالفتح ـ ألم الجراحات ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ﴾ أي: الكفّار يوم بدر، وقتل المسلمون من الكافرين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين وقتل الكافرون من المسلمين بأُحد سبعين وأسروا سبعين. والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله ولم يضعف ذلك قلوبهم ولم يمنعهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى بأن لا تضعفوا فإنَكم ترجون من الله ما لا يرجون.

﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ﴾ إشارة إلى أوقات الظفر والغلبة ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي: نصرفها بينهم نديل لهؤلاء تارة ولهؤلاء اخرى و«المداولة» نقل الشيء من واحد إلى واحد يقال: تداولته الأيدي أي: تناقلته، وليس المراد أنّه تعالى تارة ينصر المؤمنين واخرى ينصر الكافرين لأنّ نصره تعالى منصب شريف لا يليق بالكافر بل المراد أنّه تعالى تارة يشدّد المحنة على الكفّار واخرى على المؤمنين وأنّه لو شدّد المحنة على الكفّار في جميع الأوقات وأزالها عن المؤمنين في جميع الأوقات لحصل العلم الضروريّ بأنّ الإيمان حقّ وما سواه باطل: ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب فلهذا المعنى تارة كذا وتارة كذا لتكون الشبهات باقية والمكلّف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عطف على علّة محذوفة أي: تلك الأيّام نداولها بينكم ليكون المصالح كيت وكيت وإيذانا بأنّ العلّة فيما فعل غير واحدة. و«لِيَعْلَمَ» أي: وليعاملكم معاملة من يريد أن يعلم المخلصين من غيرهم، أو العلم في الآية مجاز عن التميز بطريق إطلاق اسم السبب على المسبّب أي: ليميّز الثابتين على الإيمان من غيرهم، والمراد تعلّق العلم بالمعلوم من حيث إنّه موجود بالفعل إذ هو الّذي يدور عليه فلك الجزاء لا من حيث إنّه موجود بالقوة فالمعنى: ليعلم الله الّذين آمنوا علماً يتعلّق به الجزاء.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: ويكرم ناسا منكم بفوز الشهادة وهم شهداء احد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ونفي المحبّة كناية عن البغض، وفي الآية إشعار بأنّه تعالى لا ينصر الكافرين على الحقيقة وإنّما يغلبهم أحيانا استدراجا لهم وابتلاء للمؤمنين ولا ينافي هذا مع قولهَ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.[1]

وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾

عطف على «يتّخذ» أي: ليصفيهم ويطهّرهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم ﴿وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ويهلكهم إن كانت عليهم، وقابل سبحانه بين التمحيص والمحق لأنّ محص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك بإهلاك أنفسهم وهذه مقبلة في المعنى.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾

﴿أَمْ﴾ منقطعة و«الحسبان» الظنّ، والخطاب للّذين انهزموا يوم أُحد أي: بل أظننتم ﴿أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ﴾ وتفوزوا بنعيمها ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾

١ـ سورة الصافات: ١٧٣.

المجاهدين ﴿مِنكُمْ﴾ حال من ضمير ﴿تَدْخُلُواْ﴾ مؤكّدة للإنكار فإنّ رجاء الأجر من غير عمل مستبعد في العقول وعدم العلم كناية عن عدم المعلوم أي: ما جاهدتم لأنّ وقوع الشيء يستلزم كونه معلوماً عند الله ونفي اللازم يستلزم نفي الملزوم فنزّل نفي العلم بمنزلة نفي المعلوم وهو الجهاد و«لَمّا» بمعنى «لم» إلّا أنّ فيه ضربا من التوقّع تقول: وعدني أن يفعل كذا ولمّا يفعل، أي: لم يفعل وأنا أنتظر فعله.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ منصوب بإضمار «أن» أي: وأن يعلم الصابرين ويقع منكم الصبر على الشدائد فيعلّق العلم بالمعلوم.

واعلم أنّ تحقيق المسألة في علمه ليس شأنه أن يسع في هذا المختصر ولا شكّ أنّ علمه تعالى قديم وهو عين ذاته تعالى وعلمه بالأشياء كان حاصلاً قبل أن يحصل الأشياء فعلمه القديم هو ذاته لم يقترن بمعلوم بل هو علم ولا معلوم، مثاله أنّك إذا قابلت المرآة انطبعت فيها صورتك وهي في المرآة مثال المخلوق المعلوم بحصوله وحضوره وهذه الصورة المنطبعة هي ظلّ صورتك الّتي فيكوشبحها يعني أنّك ظهرت للصورة الّتي في المرآة بواسطة صقالتها ومقابلتها الّتي هي المشخّصات لها عن الصورة الّتي قامت بها فالظهور الّذي انطبع من صورتك الّتي قامت بك في المرآة منفصل عن صورتك الّتي قامت بك فالله سبحانه عالم ولا معلوم فمثله كنت أنت بصورتك الّتي هي أنت عليه ولك ومعك وهي كينونتك ولا صورة في المرآة فلمّا أحدث الأشياء وتكوّن المعلوم وقع العلم على المعلوم مثل أنّ المقابلة في المرآة شخص تلك الّتي هي قديمة فيك وكنت تعلم بها وعلمك بالصورة المقابلة في المرآة هو علمك بالصورة قبل المقابلة في المرآة واحد. وهو تعالى شأنه أحديّ الذات ليس في شيء وليس فيه شيء ولا يبتدئ منه الخلق

بمعنى أنّه أصل مادّة الخلق أو ينتهي إليه الخلق برجوع مادّة أو صورة، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا، فالخلق من أمره بقاؤه وفناؤه لا من شيء أو جزء منه تعالى عن الشيئيّة والتركيب.

وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: الحرب فإنّها من مبادئ الموت أو الموت بالشهادة، والخطاب للّذين لم يشهدوا بدر وكانوا يتمنّون أن يشهدوا مع النبيّ ﷺ مشهداً لينالوا ما ناله شهداء بدر من الكرامة فألحّوا على رسول الله ﷺ إلى الخروج ثمّ ظهر منهم خلاف ذلك ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ أي: من قبل أن تشاهدوا وتعرفوا شدّته ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: ما تمنّونه من أسباب الموت ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ معاينين مشاهدين له حتّى قتل من قتل من إخوانكم وشارفتم أن تقتلوا أيضا أنتم فلم فعلتم ما فعلتم وهزمتم؟

وفي الآية توبيخ لهم بأنّ حبّ الدنيا لا يجتمع مع سعادة الآخرة وبقدر ما يزداد أحدهما ينتقص عن الآخر فإنّ الحبّ هو الّذي لا ينقص بالجفاء ولا يزداد بالوفاء ولذا قيل من ظنّ أنّه يصل إلى محلّ عظيم دون مقاسات الشدائد ألقته أمانيّه في مهواة الهلاك ومن عرف قدر مطلوبه سهل عليه بذلك مجهوده قال الشاعر:

و مـا جـاد دهـر بلذّاتـه   على من يضيق بخلع العذار

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

قال ابن عبّاس: لمّا نزل النبيّ ﷺ بأحد أمر الرماة أن يلزموا أصل

الجبل وأن لا ينتقلوا عن ذلك سواء كان الأمر لهم أو عليهم، فلمّا وقفوا وحملوا على الكفّار وهزموهم وقتل عليّ عليه السلام طلحة بن أبي طلحة صاحب لوائهم والزبير والمقداد حملا على المشركين ثمّ حمل الرسول مع أصحابه فهزموا أبا سفيان، ثمّ إنّ بعض القوم لمّا أن رأوا انهزام الكفّار بادر قوم من الرماة إلى الغنيمة.

وكان خالد بن الوليد صاحب الميمنة من الكفّار فلمّا رأى تفرّق الرماة حمل على المسلمين فهزمهم وفرّق جمعهم وكثر القتل في المسلمين ورمى عبد الله بن قميئة الحارثيّ رسول الله بحجر فكسر رباعيّته وشجّ وجهه الشريف فذبّ عنه مصعب بن عمير فقتله ابن قميئة فظنّ أنّه قتل رسول الله فقال: قد قتلت محمّداً صلى الله عليه وآله.

وقيل: صرخ صارخ: ألا إنّ محمّداً قد قتل، وكان الصارخ الشيطان، ففشا في الناس خبر قتله صلى الله عليه وآله فهنالك قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أبيّ يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان[1] فقال أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك: يا قوم إن كان قد قتل محمّد صلى الله عليه وآله فإنّ ربّ محمّد حيّ لا يموت وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله؟ قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه، اللهم إنّي أعتذر إليك ممّا يقول هؤلاء ثمّ سلّ سيفه فقاتل حتّى قتل.

وبالجملة لمّا شجّ ذلك الكافر وجه رسول الله وكسر رباعيّته احتمله طلحة بن عبد الله ودافع عنه أمير المؤمنين ونفر آخرون معهم ثمّ إنّه صلى الله عليه وآله جعل ينادي ويقول: «عباد الله إليّ» حتّى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم فقالوا: يا رسول الله، فديناك بآبائنا أتانا خبر قتلك فاستولى الرعب علينا فولّينا مدبرين.

١ـ تفسير الرازي، ج ٩، ص ٢٠.

فمعنى الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فسيخلوا كما خلوا وكما أنّ أتباعهم بقوا متمسّكين بدينهم بعد خلوّهم فعليكم أن تمسّكوا بدينه بعد خلوّه. ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ إنكار لارتدادهم عن الدين بخلوّه بموت أو قتل، أي: تصيرون كفّارا بعد إيمانكم وترجعون القهقرى وراءكم وذلك أنّ المنافقين قالوا لبعض ضعفة المسلمين: إن كان محمّد قد قتل فالحقوا بدينكم. ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ بإدباره عمّا كان يقبل عليه رسول الله من أوامره من الجهاد أو غيره ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ﴾ بما فعل من الانقلاب ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر وإنّما يضرّ نفسه والله منزّه عن النفع والضرر ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمة الإسلام الثابتين عليه لأنّ الثبات عليه شكر له وإيفاء لحقّه.

روي عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**ألم تروا كيف صرف الله عني شتم قريش؟ وذلك أنّهم كانوا يقولون لي مذمّماً** ـ وكانت امّ جميل امرأة أبي لهب تقول: محمّداً، مذمّما أتانا ودينه قلانا ـ **وأنا محمّد**».[١]

وفي مسند عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**إذا سمّيتم الولد محمّدا فأكرموه وأوسعوا له في المجلس ولا تقبحوا له وجها، وما من قوم كان لهم من هو اسمه محمّد أو أحمد فأدخلوه في مشورتهم إلّا خير لهم، وما من مائدة وضعت فحضرها من اسمه محمّد أو أحمد إلّا قدّس في كلّ يوم ذلك المنزل مرّتين**».[٢]

واعلم أنّه ليس لقائل أن يقول: لمّا علم أنه لا يقتل لم قال: ﴿أَوْ قُتِلَ﴾ لأنّ صدق القضيّة الشرطيّة لا يقتضي صدق جزأيها فإنّك تقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فهذا حقّ مع أنّه ليس فيهما آلهة وليس فيهما فساد فكذا هاهنا.

١ـ التاريخ الصغير، النجاري، ج ١، ص ٣٧.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٠٧.

فإن قيل: إنّ قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ شكّ وهو على الله لا يجوز فالمراد أنّه سواء وقع هذا أو ذاك فلا تأثير له في ضعف الدين ووقوع الارتداد.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾

وجه تعلّق هذه الآية بما قبلها أنّ المنافقين أرجفوا أنّ محمّداً ﷺ قد قتل فالله تعالى يقول: إنّه لا يموت إلّا بإذن الله وقضائه وقدره، وتحريض المؤمنين على الجهاد بإعلامهم أنّ الحذر لا يدفع القدر وأنّ أحدا لا يموت قبل الأجل وإذا جاء الأجل لا يندفع الموت بشيء ولا فائدة في الحبس والخوف، ولأنّ المنافقين لمّا رجع أصحاب أُحد وقتل منهم من قتل قالوا: ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾[1] فأجابهم الله أنّ الموت والقتل لا يكونان إلّا بإذن الله.

والمراد من إذن الله في الآية أمر الله تعالى أنّه يأمر ملك الموت بقبض الأرواح. أو المراد من الإذن تكوين الله وتخليقه. وقيل: المراد من الإذن تخلية الله وترك المنع بالقهر والإجبار. فيكون المعنى يتخلّى الله بين القاتل والمقتول. وقيل: المراد من الإذن العلم فالمعنى أنّ نفسا لن تموت إلّا في الوقت الّذي علم الله موتها فيه. وقال ابن عبّاس: معنى إذن الله في الآية قضاؤه. قال الأخفش اللام في ﴿لِنَفْسٍ﴾ معناها النفي، والتقدير: وما كانت نفس لتموت إلّا بإذن الله.[2]

وحاصل المعنى: ما كان الموت حاصلاً لنفس من النفوس إلّا بمشيئته ﴿كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾ مسمّى في علمه أي: كتب الموت كتابا موقّتا بوقت معلوم ﴿وَمَن يُرِدْ﴾ بعلمه ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ أي: من ثواب الدنيا وفي

١ـ سورة آل عمران: ١٥٦.

٢ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٠٧.

الآية تعريض لمن شغلتهم الغنائم يوم أُحد. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ من ثواب الآخرة ما يشاء من الأصناف حسبما جرى به الوعد الكريم ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ نعمة الإسلام الثابتين عليه الّذين جاهدوا في سبيل الله تحقيقا لتكون كلمة الله هي العليا لا لذكر الجميل والغنائم.

قال رسول الله: «**من كانت نيّته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيّته طلب الدنيا جعل الله الفقر بين عينيه وشتّت عليه شمله ولا يأتيه منها إلّا ما كتب له**».[1]

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾

في الآية تنبيه للمنهزمين يوم أُحد بأنّ لكم بالأنبياء المتقدّمين وأتباعهم أسوة حسنة فكيف يليق بكم هذا الفرار والانهزام؟ قرأ ابن كثير «و كائن» على وزن «كاعن» مهموزاً مخفّفا والباقون قرءوا «كَأَيِّنْ» على وزن «كصيّب» وهي لفظة مركّبة من كاف التشبيه و«أي» حدث فيها بعد التركيب معنى التكثير كما حدث في «كذا وكذا» والنون فيها نون التنوين تثبت في الخطّ بغير قياس، وقرئ على خمس لغات اثنتين منها هي اللغتين المذكورتين والثالث مثل «كايِن» على وزن كعين، والرابعة «كيْئِن» بياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهي قلب ما قلبها، والخامسة «كأن» مثل «كعن» مخفّفة وقد قرئ بكلّ منها ومحلّها الرفع بالابتداء.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «قتل معه ربّيون» والباقون قرءوا «قاتَلَ مَعَهُ». فعلى القراءة الاولى معناه أنّ كثيرا من أصحاب الأنبياء قتلوا والّذين بقوا

١ـ تفسير البغوي، ج ١، ص ٣٥٩؛ وسنن الترمذي، ج ٤، ص ٥٧.

من بعدهم ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ في دينهم بل استمرّوا على جهاد أعدائهم ونصرة دينهم، ينبغي أن يكون حالكم يا امّة محمّد كحالهم.

أو أنّ المعنى: وكأيّن من نبيّ قتل ممّن كان معه وعلى دينه ربّيّون، أي: أخيار فقهاء منسوبون إلى الربّ موحّدون فما ضعف الباقون ولا استكانوا لقتل من قتل منهم بل مضوا على جهاد أعداء الدين فينبغي أن يكون حالكم كحالهم.

ومن قرأ ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ فالمعنى: وكم من نبيّ قاتل معه العدد الكثير من أصحابه فأصابهم من عدوّهم قرح فما وهنوا فكيف ينبغي لكم أن تفعلوا ذلك؟ والمراد ترغيب الأصحاب والمسلمين في الجهاد مع النبيّ صلّى الله عليه وآله. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على مقاساة الشدائد في سبيله.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

أي: إنّهم كانوا عند لقاء العدوّ واقتحام مضائق الحرب يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: صغائرنا ﴿وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا﴾ أي: تجاوزنا الحدّ في ركوب الكبائر. وأضافوا الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربّانيّين هضما لنفوسهم،وحاصل المعنى: ما كان قولهم إلّا طلب المغفرة وتثبيت الأقدام عند ملاقات للعدوّ، أو المراد التثبيت في الدين. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يزالوا مواظبين على هذا الاستغفار والدعاء من غير أن يصدر عنهم قول يوهم شائبة الجزع والتزلزل، وفيه تعريض بالمنهزمين ما لا يخفى.

تذييل: قال صاحب «الكشّاف»: الربّيّون الربّانيّون، وقرئ بالحركات الثلاث في الراء، والفتح على القياس، والفتح والكسر من تغييرات النسب.[1]

١ـ الكشاف، ج ١، شرح ص ٤٦٩.

وقال الزجّاج: هم الجماعات الكثيرة الواحد «ربّي» قال ابن قتيبة أصله من «الربّة» وهي الجماعة. وقال ابن زيد: الربّانيّون الأئمّة والولاة، والربّيّون الرعيّة وهم المنتسبون إلى الربّ.(١)

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

أي: أعطاهم النصر والغنيمة والعزّ والشرف والذكر الجميل، وثواب الآخرة الجنّة والنعيم المخلّد ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ومحبّة الله مبدأ لكلّ سعادة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

هذه الآية من تمام كلام الأوّل وذلك أنّ الكفّار لمّا ارجفوا أنّ النبيّ قد قتل، وقال المنافقون: إنّه قد ضعف حاله بسبب انكساره في أُحد ولو كان على الحقّ لم ينكسر.

ودعوا ضعفة المسلمين إلى الكفر، منع الله المسلمين بهذه الآية عن الالتفات بكلام الكفّار والمنافقون فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟...﴾ قيل: المراد من ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أبو سفيان لأنّه كان ذلك اليوم كبيرهم وشجرة الكفر. وقيل: المراد عبد الله بن أبيّ وأصحابه من المنافقين لأنّه كان يقول: إنّ محمّد رجل كسائر الناس يوماً له ويوما عليه فارجعوا إلى دينكم الّذي كنتم فيه. وقيل: المراد اليهود الّذين في المدينة وإنّهم كانوا يلقون الشبهة في قلوب المسلمين لا سيّما عند وقوع هذه الفتنة. والصحيح أنّه يتناول كلّ الكفّار لأنّ اللفظ عام وخصوص السبب لا يمنع من عموم اللفظ.

﴿إِن تُطِيعُوا۟﴾ الكفّار يدخلوكم في دينهم فيكون الجور بعد الكور

ـــــــــــــــ

١ـ تفسير الرازي، ج ٩، ص ٢٧.

فإذن ترجعون ﴿خَٰسِرِينَ﴾ كرامة الدنيا وسعادة الآخرة: أمّا الدنيا فبانقيادكم للعدوّ والتذلّل له وأمّا الآخرة العذاب الدائم والحرمان من الجنّة.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: هم ليسوا أنصاركم حتّى تطيعوهم، بل الله ناصركم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ فأطيعوه.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

واختلفوا في أنّ هذا الوعد هل هو مختصّ بيوم أُحد أو هو عامّ في جميع الأوقات؟ قال جماعة من المفسّرين: إنّه مختصّ بأُحد وذكروا كيفيّة إلقاء الرعب في هذا اليوم بأنّ المشركين لمّا استولوا على المسلمين وهزموهم أوقع الله الرعب في قلوب المشركين فتركوهم وفرّوا من غير سبب مع أنّ الغلبة كانت لهم حتّى روي أنّ أبا سفيان صعد الجبل وقال: أين ابن أبي كبشة وأين أصحابه؟ وما تجاسر على النزول من الجبل والذهاب إليهم، ورجع أبو سفيان وذهب هو وأصحابه إلى مكّة فلمّا كانوا في بعض الطريق قالوا: ما صنعنا شيئا قتلنا الأكثرين منهم ثمّ تركناهم ونحن قاهرون، ارجعوا حتّى نستأصلهم بالكلّيّة وعزموا على الرجوع فألقى الله الرعب في قلوبهم.

وقيل: إنّ هذا الوعد غير مختصّ بيوم أُحد وإنّه تعالى وعد أنّه سيلقي الرعب منكم في قلوب الكافرين بعد ذلك حتّى يظهر دينكم.[1]

﴿بِمَآ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: إلقاء الرعب بسبب إشراكهم به تعالى فإنّه من موجبات خذلانهم ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: أشركوا في عبادة الله ما لم ينزّل به سلطانا وقدرة وهم يوهمون أنّ فيه سلطانا والله ما أنزله وما أظهره

١ـ تفسير الرازي، ج ٩، ص ٣٢.

وليس لما يشركونه به تعالى سلطة وقدرة ولم يجعل لهم في ذلك برهانا وحجّة.

و«السلطان» هاهنا الحجّة والبرهان قال الزجّاج: اشتقاقه من «السليط» وهو الّذي يضاء به السراج. وقال الليث: أصل بناء السلطان من «التسليط» ويسمّى البرهان سلطانا لقوّته على دفع الباطل. قال ابن دريد: سلطان كلّ شيء حدّتهوهو مأخوذ من اللسان السليط، والسلاطة معناها الحدّة وأصل مادّة الرعب الملء فقال: سيل راعب إذا ملأ الوادي فسمّي الفزع رعبا لأنّه يملأ القلب خوفا.

وفي الآية إيذان بأنّ المتّبع في الأمور هو البرهان السماويّ دون الآراء والأهواء الباطلة.

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ لا ملجأ لهم غيرها وإليها يأوون ويسكنون ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ والمخصوص بالذمّ محذوف أي: النار مثواهم وفي قوله: «مثواهم» بعد ذكر «مأواهم» إشعار إلى الخلود لأنّ المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢)

نزلت الآية حين قال ناس من المؤمنين عند رجوعهم إلى المدينة بعد احد: من أين أصبنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر؟ وهو ما وعدهم على لسان نبيّه من النصر حيث قال ﷺ للرماة: «**لا تبرحوا مكانكم فإنّا لا نزال غالبين ما دمتم**

في هذا المكان»[١] وقد كان كذلك فإنّ المشركين لمّا أقبلوا جعل الرماة يرشقون نبلهموالباقون يضربون بالسيوف حتّى انهزموا والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلاً ذريعا وذلك قوله: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ أي: تقتلونهم وتبطلون حسّهم وحياتهم قال ابن قتيبة: «الحس» القتل الذريع يقال: جراد محسوس إذ قتله البرد. يقال: بطنه، إذا أصاب بطنه، ورأسه إذا أصاب رأسه. أو الوعد بالنصر وقع من كلامه تعالى حيث قال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ﴾ وكان الوعد مشروطا بالصبر والتقوى فإذا انتفى الشرط انتفى المشروط. ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: تقتلونهم بعلمه أو بأمره.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: جبنتم وضعف رأيكم أو ملتم إلى الغنيمة فإنّ الحرص من ضعف القلب ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في أمر الرسول فقال بعض الرماة حين انهزم المشركون والمسلمون على أعقابهم: فما موقفنا هذا؟ وقال رئيسهم عبد الله بن جبير: لا نخالف أمر الرسول فثبت مكانه في نفر دون العشرة من أصحابه ونفر الباقون للنهب والغنيمة وذلك قوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من الظفر والغنيمة وانهزام العدوّ صرتم فريقين ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الّذين تركوا المركز وأقبلوا على النهب ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الّذين ثبتوا مكانهم حتّى نالوا شرف الشهادة. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ قال أبو مسلم معناه أنّه تعالى أزال ما كان في قلوب الكفّار من الرعب من المسلمين عقوبة منه على عصيانهم وفشلهم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: ليجعل ذلك الصرف محنة عليكم لتتوبوا إلى الله بسبب عصيانكم وميلكم إلى الغنيمة ويعاملكم معاملة المختبر في الثواب والعقاب.

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٤١٦.

فإن قيل: لمّا كانت المعصية بمفارقة تلك المواضع خاصّة بالبعض دون الكلّ فلم جاء هذا العتاب باللفظ العام؟ فالجواب: هذا اللفظ وإن كان عامّا إلّا أنّه جاء المخصّص بعده وهو قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

قال الرازيّ في «المفاتيح»: وقد اختلف قول أصحابنا وقول المعتزلة في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وذلك لأنّ صرفهم عن الكفّار معصية فكيف أضافه إلى نفسه؟

أمّا عند أصحابنا فهذا الإشكال غير وارد عليهم لأنّ مذهبهم أنّ الخير والشرّ بإرادة الله وتخليقه فعلى هذا قالوا: معنى الآية أنّ الله ردّ المسلمين عن الكفّار وألقى الهزيمة عليهم وسلّط الكفّار عليهم.

وقالت المعتزلة: هذا المعنى غير جائز ويدلّ عليه القرآن والعقل: أمّا القرآن فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾[1] فأضاف ما كان منهم إلى الشيطان فكيف يضيفه إلى نفسه بعد هذا؟ وأمّا المعقول فهو أنّه تعالى عاتبهم على ذلك الانصراف ولو كان بفعل الله لم يجز معاتبة القوم عليه كما لا يجوز معاتبتهم على طولهم وقصرهم.[2]

قالوا: ولمّا كانت الآية مشتملة على فريقين: عاصية وهم الّذين خالفوا ابن جبير وأخلّوا الجبل، وغير عاصية وهم الّذين تثبّتوا معه ولم يفارقوه أدّب الله الطائفة وقال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ وأدبه تعالى ذلك الصرف ليتوبوا إلى اللهولا شكّ أنّهم أذنبوا لأنّهم خالفوا نصّ الرسول وصارت تلك المخالفة

١ـ سورة آل عمران: ١٥٥.

٢ـ تفسير الرازي، ج ٩، ص ٣٧.

سبباً لانهزام المسلمين وقتل جمع عظيم.

قال الرازيّ: ظاهر هذه الآية يدلّ على أنّه قد يعفو عن أصحاب الكبائر لأنّه تعالى عفا عنهم من غير توبة لأنّ التوبة غير مذكورة[1].

﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: شأنه أن يتفضّل عليهم بالعفو أديل لهم أو أديل عليهم إذ الابتلاء أيضا رحمة.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

ولمّا قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ لا بدّ وأن يتعلّق بأمر اقترفوه وذلك الأمر بيّنه بقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ والمراد به ما صدر عنهم من مفارقة ذلك المكان والأخذ في الوادي كالمنهزمين ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ ولا تلتفتون من شدّة الهرب وأصل «اللوى» العرج على الشيء يلوي إليه عنقه أو عنان دابّته، ويستعمل في ترك الالتفات إلى شيء ولا يعطف عليه ولا يبالي به.

ثمّ قال: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ كانﷺ يقول: «**يا عباد الله إليّ أنا رسول الله من كرّ فله الجنّة**»[2]، كان يدعوهمﷺ وهو واقف في آخرهم يقال: جاء فلان في أخريات الناس أي: آخرهم لأنّ القوم بسبب الهزيمة قد تقدّموه.

ثمّ قال: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ ولفظ الثواب يستعمل على الأغلب في الخير ويجوز أيضا استعماله في الشرّ، وأصل الثواب معناه الرجوع وما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيرا أو شرا؟ فإن حملناه على

١ـ المصدر السابق، ص ٣٩.

٢ـ المصدر السابق، ص ٤٠، والنص والاجتهاد، ص ٣٢٦.

استعمال الأغلب كان ذلك وارداً على سبيل التهكّم كما يقال: تحيّتك الضرب. وإن حملناه على أصل اللغة استقام الكلام أي: جزينا وعاوضنا غمّا لمّا آذقتم الرسول غمّا بسبب أن عصيتم أمره فالله أذاقكم هذا الغمّ وهو الغمّ الّذي حصل لكم من الهزيمة وقتل الأحباب فالمعنى: جازاكم من ذلك الغمّ بهذا الغمّ. قيل: المراد يريد غمّ اُحد للمسلمين بغمّ بدر للمشركين.

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: لتمترنوا على الصبر في الشدائد وتعتادوا بجرع الغموم فلا تحزنوا على نفع فات أو ضرّآت. وقيل: معناه فعل بكم هذا الغمّ لأن لا تحزنوا ما فاتكم من الغنيمة ولا تتركوا أمر النبيّ ولئلّا تحزنوا على ما أصابكم وليكون غمّكم بأن خالفتم النبيّ ﷺ فقط حتّى يشغلكم حزنكم على سوء صنعكم من الحزن على غيره.

وقيل: وجه آخر أي: (و لقد عفا عنكم لكي لا تحزنوا على ما فاتكم) فإنّ عفو الله يذهب كلّ حزن.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيه ترغيب في الطاعة وترهيب عن المعصية.

ثمّ ذكر ما أنعم عليهم بعد ذلك حتّى تراجعوا وأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله.

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

إنّ الّذين كانوا مع النبيّ ﷺ يوم اُحد فريقان: أحدهما: كانوا جازمين

بأنّه ﷺ نبيّ حقّا وأنّه ﷺ أخبرهم بأنّ الله ينصر هذا الدين فكانوا قاطعين بأنّ هذه الواقعة لا تؤدّي إلى الاستيصال وكانوا آمنين وبلغ ذلك الأمن إلى حيث غشيهم النعاس فإنّ النوم لا يكون مع الخوف. وأمّا الطائفة الثانية: وهم المنافقون الّذين كانوا شاكّين في نبوّته وما حضروا إلّا لطلب الغنيمة فهؤلاء اشتدّ جزعهم وعظم خوفهم فوصف سبحانه حال كلّ واحدة من هاتين الطائفتين فقال في صفة المؤمنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ و«الأمنة» مصدر «كالأمن» ومثله من المصادر: العظمة والغلبة يقال: أمن فلان يأمن أمنا وأمنة وأمانا.[1]

وقرأ صاحب «الكشّاف»، «أمنة» بسكون الميم لأنّها المرّة من الأمن، و«نُعاساً» إمّا يكون بدلا من «أَمَنَةً» أو مفعولا، و«أمنة» يجوز أن يكون حالا من المخاطبين بمعنى «ذوي أمنة»[2] والأوجه أن يكون «أَمَنَةً» منصوبة على المفعوليّة و«نُعاساً» بدلاً منه أي: أعطى ووهب لكم أيّها المؤمنون. «و أَنْزَلَ» مجاز من أعطى أمناً وسنّاً.

قال أبو طلحة: رفعت رأسي يوم أُحد فجعلت لا أرى أحداً من القوم إلّا وهو يميد تحت حجفته من النعاس[3] وكنت ممّن القي عليه النعاس يومئذ فكان السيف يسقط من يدي فآخذه ثمّ يسقط السوط فآخذه. وفيه دلالة على أنّ من المؤمنين من لم يلق عليه النعاس كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ وهم المهاجرون وعامّة الأنصار ولا يقدح ذلك في عموم الإنزال للكلّ، والجملة في محلّ النصب صفة لنعاسا.

١ـ تفسيرالرازي، ج ٩، ص ٤٤.

٢ـ الكشاف، ج ١، شرح ص ٤٧١.

٣ـ راجع: سنن الترمذي، ج ٤، ص ٢٩٧؛ وأيضاً جامع البيان، ج ٤، ص ١٨٧.

﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: أوقعتهم في الهموم والأحزان وما بهم إلّا همّ أنفسهم وقصد خلاصها وهم المنافقون ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ حال من ضمير ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾ غير الظنّ الحقّ الّذي يجب أن يظنّ به سبحانه ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بدل منه وهو الظنّ المختصّ بالملّة الجاهليّة وأهلها.

وقوله: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ هو أنّهم كانوا ينكرون الإله العالم بكلّ المعلومات القادر على جميع المقدورات وهم عبد الله بن ابيّ ومعتب بن قشير وأصحابهما وينكرون النبوّة والبعث فلا جرم ما وثقوا بقول الرسول وعظم الخوف فيهم. وهذا الأمن كان معجزة عظيمة لأنّ الأعداء كانوا في غاية الحرص على قتل المؤمنين فبقاؤهم في النعاس مع السلامة في مثل تلك الحالة من أدلّ الدلائل على أنّ حفظ الله معهم وكيف يكون الإنسان في مثل هذه الحالة المضطربة خصوصاً في أحد أن ينعس وينام؟ وفسّر بعض أنّ المراد من ذكر النعاس في هذه الموضع كناية عن غاية الأمن قال الرازيّ: وهذا ضعيف لأنّ صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز لا يجوز إلّا عند قيام الدليل المعارض.

وقرئ «تغشى» بالتاء ردّا إلى «الأمنة» والباقون بالياء ردّا إلى «النعاس»[1] محتجّا بأنّ النعاس بدل الأمنة والكناية إلى الأصل أحسن، ويمكن ظنّهم بغير الحقّ كانوا يقولون: لو كان محمّد محقّا في دعواه لما سلّط عليه، وهذا غلط فاسد لأنّ المصالح في أحكام الله جارية فلعلّ أن يكون لله تعالى في التخلية بين الكافر والمسلم حكم خفيّة، هذا عندنا وعند المعتزلة.

وأمّا عند أهل السنّة والجماعة «يَفعَلُ ما يَشاءُ ويَحْكُمُ ما يُريدُ» لا اعتراض لأحد عليه والمراد من قوله ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ظنّ أهل الجاهليّة.

١ـ تفسير الرازي، ج ٩، ص ٤٥.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍ﴾ قيل: في معناه وجوه: الأوّل: أنّ عبد الله بن ابيّ لمّا شاوره النبيﷺ في هذا الأمر أشار عليه أن لا يخرج من المدينة والصحابة ألحّوا عليه بالخروج فغضب عبد الله عن ذلك فقال: عصاني وأطاع الولدان ثمّ لمّا كثر القتل في الخزرج قيل لعبد الله: قتل بنو الخزرج. فقال عبد الله: هل لنا من الأمر من شيء.

يعنى أنّ محمّداﷺ لم يقبل قولي حين أمرته أن لا يخرج من المدينة، فحكاه الله عنهم أي: لو أطاعونا ما قتلوا، وهو استفهام على سبيل الإنكار.

الوجه الثاني: أنّ من عادة العرب أنّه إذا كانت الدولة لعدوّه قالوا: عليه الأمر فقوله: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: هل لنا من الشيء الّذي كان يعدنا به محمّدﷺ ـ وهو النصرة ـ شيء؟ وهذا استفهام على سبيل الإنكار وكان غرضهم أنّ ما يعدكم به محمّدﷺ كذب فأجاب الله بقوله: ﴿قُلۡ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.[1] ثمّ قال: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَ﴾ حال من ضمير «يَقُولُونَ» أي: مظهرين أنّهم مسترشدون طالبون للنصرة مبطنين الإنكار والتكذيب ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ كأنّه قيل: أي: شيء يخفون؟ فقيل: يحدّثون ويقولون بعضهم لبعض فيما بينهم خفية: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ﴾ كما وعد محمّدﷺ بالغلبة ﴿مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ في المعركة. ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ ولو لم تخرجوا إلى أحد وقعدتم بالمدينة كما زعمتم ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ﴾ في اللوح بسبب من الأسباب ﴿إِلَىٰ﴾ مصارعهم وقتلوا هناك البتّة ولم تنفع الإقامة بالمدينة قطعا.

وحاصل المعنى أنه إنّكم أيّها المنافقون لو كنتم في منازلكم لخرج الّذين كتب وقدّر عليهم الموت والقتل في اللوح المحفوظ في ذلك الوقت إلى مصارعهم.

١ـ المصدر السابق، ص ٤٧.

وقيل: معنى الآية أنّكم أيها المنافقون والمرتابون لو تخلّفتم عن القتال لخرج الّذين آمنوا بالله وفرض عليهم القتال صابرين محتسبين فيقتلون ويقتلون وما تخلّفوا. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: ليختبر الله ما في نيّاتكم وقد علمه سبحانه عينا لكن لتكون العلم مشاهدة لأنّ المجازاة لا بدّ وأن تقع على ما علم مشاهدة لا على ما هو معلوم منهم، وهذه فائدة الامتحان من الله.

﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ ويخلصه ويكشفه من مخفيّات الأمور ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: السرائر والضمائر الّتي لا تكاد تفارق الصدور وتلازمها.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ من المسلمين والمنهزمين والمنافقين ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وهم المنهزمون أي: إنّما كان سبب انهزامهم أنّ الشيطان طلب منهم الزلل ودعاهم إليه ببعض ما كسبوا من الذنوب والمعاصي الّتي هي مخالفة الرسول وترك المركز والحرص على الغنيمة والحياة فحرموا التأييد.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتوبتهم واعتذارهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بعقوبة المذنب ليتوب. والإنسان بالعمل يتمكّن أن يصل إلى مقام

يعجز الشيطان عن إغوائه ووسوسته. حكي أنّ بعض السالكين رأى إبليس في المنام يبثّ جنوده وأولاده لإغواء بني آدم وكان اللعين عريانا فقال السالك للشيطان حين رآه عريانا: ألا تستحيي من الناس؟ فقال الشيطان: ليس هؤلاء ناس، الناس أقوام في مسجد الشونسريّة أفنوا جسدي واحترقوا كبدي قال ذلك السالك ـ وأظنّه الجنيد ـ فلمّا انتهيت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة وضعوا رؤوسهم على ركبتهم متفكّرين فلمّا رأوني قالوا: لا يغرنّك حديث الخبيث.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم المنافقون القائلون: «لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا» ﴿وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ ومعنى «الأخوّة» اتّفاقهم نسباً أو عقيدة ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: سافروا فيها وأبعدوا للتجارة، والضرب في الأرض الإيغال في السير، فماتوا وإنّما خصّ الأرض بالذكر لأنّ أكثر أسفارهم في البرّ أو اكتفى بذكر «البرّ» عن البحر كقوله: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أو الأرض يشمل البرّ والبحر.

﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا﴾ أو كانوا غزاة و«غزّى» جمع غازي وهو على وزن طلّب في طالب، فقتلوا وكان مقول قولهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟﴾ مقيمين ﴿عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ اللام لام العاقبة أي: قالوا هذا القول ليمنعوا المؤمنين عن الجهاد فلم يمتنعوا ولم يقبلوا منهم وخرجوا للغزو فصار حسرة في قلوب المنافقين.

وقيل: المعنى ولا تكونوا أيّها المؤمنون كهؤلاء الكفّار والمنافقين في هذه المقالة والعقيدة لكي يجعل الله تلك المقالة سبباً لإلزام الحسرة والحزن في قلوبهم فيما أمّلوا منكم من الموافقة معهم لما فاتهم من عزّ الظفر والغنيمة. وعلى هذا المعنى فاللام ليست للعاقبة بل لام العلّة.

﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المحيي والمميت من غير أن يكون للإقامة أو السفر فإنّه قد يحيي المسافر والغازي مع اقتحامهما لموارد الحتوف ويميت القاعد والمقيم مع حيازتهما لأسباب السلامة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا تكونوا مثل هؤلاء المنافقين.

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: إن قتلتم أو متّم في دينه وسبيله وأنتم مؤمنين، واللام هي الموطّئة للقسم المحذوف وجوابه «لَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله» وحذف جواب الشرط لسدّ جواب القسم مسدّه للدلالة عليه. والمعني: وبالله أنّ الغزو والسفر ليس ممّا يوجب الموت وتقدّم الأجل، ولئن وقع ذلك بأمر الله لنفحة يسيرة من مغفرة ورحمة كائنتين من الله بمقابلة ذلك خير ممّا يجمعون الكفرة من منافع الدنيا وطيّباتها مدّة أعمارهم.

فإن قيل: كيف يكون المغفرة خير ممّا يجمعون ولا خير فيما يجمعون أصلا؟ فالجواب أنّه وارد بزعمهم ومعتقدهم وأنّهم يحسبون أنه خير.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ على أي: وجه اتّفق هلاككم ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى المعبود العظيم الشأن ﴿تُحْشَرُونَ﴾ لا إلى غيره فيوفّي اجوركم فبين الحشر مع المغفرة والحشر بدون المغفرة فرق كثير.

روي أنّ عيسى بن مريم عليه السلام مرّ بقوم نحفت أبدانهم واصفرّت وجوههم ورأى عليهم أثر العبادة فقال لهم: **«ماذا تطلبون»**؟ فقالوا: نخشى عذاب الله، فقال: **«هو أكرم من أن لا يخلصكم من عذابه»**. ثمّ مرّ بأقوام آخرين فرأى عليهم تلك الآثار فسألهم فقالوا: نطلب الجنّة والرحمة، فقال عليه السلام: **«هو أكرم من أن يمنعكم رحمته»**. ثمّ مرّ بقوم ثالث ورأى آثار العبوديّة عليهم أكثر فسألهم فقالوا: نعبده لأنّه إلهنا ونحن عبيده لا لرغبة ولا لرهبة، فقال: **«أنتم العبيد المخلصون»**[١].

١ـ تفسير الرازي، ج ٩، ص ٥٩.

وهذا المقام لا يمكن تحصيله إلّا بالتجريد والفناء حكي أنّ امرأة قالت لجماعة من الكرماء: ما السخاء عندكم؟ قالوا: بذل المال، قالت: هو سخاء أهل الدنيا والعوامّ فما سخاء الخواصّ؟ قالوا: بذل المجهود في الطاعة، قالت: ترجون الثواب؟ قالوا: نعم قالت: تأخذون العشرة بواحد لقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[1] فأين السخاء؟ قالوا: فما عندك؟ قالت: العمل لله لا للجنّة ولا للنار ولا للثواب وخوف العقاب.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

«ما» زائدة مؤكّدة للكلام ليتمكّن المعنى في النفس فجرى مجرى التكرير بيّن سبحانه أنّ مساهلة النبيّ إيّاهم ومجاوزته عنهم من رحمته تعالى أي: بسبب رحمة الله، رحمة عظيمة كائنة من الله وهي تخصيصه بمكارم الأخلاق. كنت ليّن الجوانب لهم وعاملتهم بالرفق والتلطّف بعد ما كان منهم من المخالفة.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: جافياً بين الخلق قاسي القلب غير رؤوف ﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ وتفرّق أصحابك ونفروا منك، فنفى سبحانه تعالى الفضاضة عن لسانه والقساوة عن قلبه ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ﴾ فيما يتعلّق بحقوقك ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فيما يتعلّق بحقوقه تعالى إكمالاً للبرّ بهم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي: استخرج آراءهم من قولهم: شرت العسل إذا استخرجته من مواضع النحل.

وفائدة الاستشارة الاستعلام عمّا عندهم والتطييب لنفوسهم وحصول

ــــــــــــــــــــ

١ـ سورة الأنعام: ١٦٠.

التأليف لهم أو ليمتحنهم بالمشاورة ليميّز الناصح من الغاشي، ولعلّ المراد إجلال أصحابه وليقتدي امّته في لقاء العدوّ والحرب، وليس المراد أنّك تجهل أمرا وستعلم من مشاورتهم وكيف يحتاج إلى رأيهم وهو مستغن بالوحي عن تعرّف الثواب والخطاء؟ والقلم الأعلى علمه ﷺ واللوح كتابه ودفتره فكيف يكون محتاجا إلى شورهم؟ هيهات أين الثرى والثريّا؟ ولو كان المراد مثل قولهم: «إيّاك أعني واسمعي يا جارة» ويريد اقتداء امّته بهذه السنّة فذلك أيضا في امور مجهولة معزوبة عن علم بعضهم مثل أنّ تاجر الثمار مثلاً لا يعرف أنّ تمر البصرة شراؤها أنفع أم تمر الهجر فيستشير منه أيّهما اشترى أنفع، وأمثال هذه الأمور، لا أن يتشاوروا بينهم أن يجعلوا حدّ الزاني ألف جلدة إذا كان فقيرا وواحدة إذا كان ذا شرف، ونعم ما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فيا لله وللشورى!**» قال الرازيّ: ثمّ إنّه اتّفق أهل الإسلام وأجمعوا على أنّ ما نزل فيه وحي من عند الله لم يجز للرسول أن يشاور فيه الأمّة لأنّه إذا جاء النصّ بطل الرأي والقياس فأمّا ما لا نصّ فيه فهل تجوز المشاورة فيه في جميع الأشياء أم لا؟

قال الكلبيّ وكثير من العلماء: هذا الأمر مخصوص بالمشاورة في الحروب وحجّتهم أنّ الألف واللام في «الْأَمْرِ» للاستغراق ولمّا بيّنّا أنّ الّذي ينزل فيه الوحي لا تجوز المشاورة فيه فوجب حمل الألف واللام هاهنا على المعهود السابقوالمعهود السابق في هذه الآية إنّما هو ما يتعلّق بالحرب ولقاء العدوّ فكأنّ قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ مختصّا بذلك.[1] وقال بعض: اللفظ عام خصّ عنه ما نزل فيه وحي فتبقى حجّيّته في الباقي.

وبالجملة فالقدر المتيقّن أنّ المشورة فيما نصّ عليه غير جائزة. قال

١ـ تفسيرالرازي، ج ٩، ص ٦٧.

العلّامة أبو السعود: إنّ الآية قرئت: وشاورهم في بعض الأمر.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إذا عقدت قلبك على الفعل وإمضائه، وعن جعفربن محمّد عليه السلام وعن جابر بن يزيد ﴿فَإِذَا عَزَمْتُ﴾ بضمّ التاء فعلى هذا يكون المعنى: فإذا عزمت لك وأرشدتك فاعتمد على الله وثق به وفوّض أمرك إليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ الواثقين به والمنقطعين إليه، والانقطاع إليه لا ينافي مع مراعاة الأسباب الظاهرة لكنّ الإنسان يكون يعلم أنّ المؤثّر هو الله لا الأسباب، والحكمة اقتضت أن يجري الأمور بالأسباب فحينئذ لا يجوز لك ترك الأسباب وإذا تركت الأسباب خالفت الحكمة وكأنّك أردت ما لم يرد الله، نعم لا يجوز أن يعول بقلبه على الأسباب وقد يكون التعطيل معصية.

إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

والنصر نوعان: معونة ومنع، أي: إن يعنكم الله ويمنعكم من عدوّكم ويكلؤكم كما فعل يوم بدر ذلك ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلا أحد يغلبكم ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ الخذلان القعود عن النصرة أي: إن يترككم ولم ينصركم كما فعل يوم احد ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: بعد خذلانه، وهذا تنبيه على أنّ الأمر كلّه له ولذا قال وأمر بالتوكّل عليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ومن التوكّل أن لا تعتقد لنفسك ناصراً غيره ولا لرزقك خازناً غيره قال صلى الله عليه وآله: **«لو أنّكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله ليرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»**. ومن نصرته تعالى أن ينصرك على نفسك فإنّها أعدى عدوك، وحقيقة خذلانه التخلية بينك وبين نفسك فحينئذ لا جابر لكسرك ولا آخذ ليدك.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

أسباب النزول: عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير أنّها نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر من المغانم فقال بعضهم: لعلّ النبيّ أخذها. قال الضحّاك: إنّ رجلا غلّ بمخيط من غنائم هوازن يوم حنين فنزلت الآية.

وقال مقاتل: إنّها نزلت في غنائم أُحد حين تركت الرماة المركز طلباً للغنيمة وقالوا: نخاف أن يقول رسول الله: من أخذ شيئاً فهو له ولا يقسّم كما لم يقسّم يوم بدر، ووقعوا في الغنائم فقال رسول الله ﷺ: **«أظننتم أنّا نغلّ أي: نخون ولا نقسّم لكم؟»** فأنزل الله الآية.[١]

وقيل: إنّه ﷺ يقرأ القرآن وفيه عيب آلهتهم وعيب دينهم ويؤدّي الوحي فسألوه أن يطوي ذلك فأنزل الله الآية.

وقيل: إنّ أشراف الناس من صحابته طمعوا أن يخصّهم النبيّ من الغنائم بشيء زائد، فنزلت الآية.

والغلول هو الخيانة وأصله أخذ الشيء في الخفية يقال: أغلّ الجازر والسالخ إذا أبقى في الجلد شيئاً من اللحم على طريق الخيانة قال ﷺ: **«من بعثناه على عمل فغلّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»**[٢]، وقال ﷺ: **«هدايا الولاة غلول»**[٣]، وقال ﷺ: **«لا إغلال ولا إسلال»**[٤] أي: لا خيانة ولا رشوة. المعنى في الآية: لمّا كانت الآيات السابقة بيان أمر الجهاد ذكر في هذه الآية

١ـ مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٣٢؛ وبحارالانوار، ج ٢٠، ص ٣٦.

٢ـ تفسير رازي، ج ٩، ص ٦٩؛ والكشاف، ج ١، شرح ص ٤٧٥.

٣ـ المصدر السابق نفسه.

٤ـ مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٧٥.

بيان ما يتعلّق به من أمر الغنائم والنهي عن الخيانة فيها. وقرئ «يغلّ» على البناء للمجهول فعلى هذا يوافق الآية في شأن نزولها قول الضحّاك.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ أي: لا تجتمع النبوّة والغلول كقوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ وعلى القراءة للبناء للمجهول أي: ما كان لنبيّ أن يخونه أصحابه ويكتمونه شيئاً من المغنم على ما مضى فيه القول. وعلى قراءة المعلوم خصّهﷺ بالذكر وإن كان لا يجوز أن يغلّ غيره من أحد لأنّ النبيّ قائم بأمر الغنائم فإذا حرّمت عليه وهو صاحب الأمر فحرمتها على غيره أولى.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يأتي حاملاً على ظهره كما روي في حديث طويل: «ألا لا يغلّنّ أحد بعيرا فيأتي به على ظهره يوم القيامة له رغاء، ألا لا يغلّنّ أحد فرساً فيأتي به على ظهره له حمحمة فيقول: يا محمّد يا محمّد فأقول: قد بلّغت لا أملك لك من الله شيئا» عن ابن عبّاس وأبي حميد أحمد الساعديّ وابن عمر وقتادة. قال الجبّائيّ: وذلك ليفضح به على رؤوس الأشهاد.وقد روي أنّ النبيّ كان يأمر منادياً ينادي في الناس ردّوا المخيط والخيط فإنّ الغلول عار وشنار يوم القيامة فجاء رجل بكبّه شعر فقال: إنّي أخذتها لأخيط بها برذعة بعيري فقال النبيﷺ: **«أمّا نصيبي منها فهو لك»**، فقال الرجل: أمّا إذا بلغ الأمر هذا المبلغ فلا حاجة لي فيها.[1] وحمل الغلول على عنقه أمارة يعرف وذلك حكم الله في كلّ من وافى يوم القيامة بمعصية لم يتب منها أو أراد الله تعالى أن يعامله بالعدل ليعلمه أهل القيامة كما أنّ من وافى يوم القيامة بطاعة فإنّه تعالى يظهر من طاعته علامة يعرف بها. ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: يعطى كلّ نفس جزاء ما عملت تامّا وافيا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ولا ينقص أحد عن مقدار ما يستحقّه من

١ـ مجمع البيان،ج ٢، ص ٤٣٣.

الثواب ولا يزاد ما يستحقّه من العذاب.

قال الطبرسيّ: وفي هذه الآية دلالة على فساد قول الجبريّة فإنّهم يقولون: إنّ الله لو عذّب أولياءه لم يكن ذلك منه ظلما لأنّه بيّن أنّه لو لم يوفّها ما كسبت لكان ظلما.[1]

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

لمّا أمر رسول الله بالخروج إلى اُحد قعد عنه جماعة من المنافقين واتّبعه المؤمنون فأنزل الله هذه الآية.

أي: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ في العمل بطاعته ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ﴾ منه في العمل بمعصيته، والهمزة للإنكار والفاء العطف على محذوف تقديره: أمن اتّقى فاتّبع رضوان الله مثل من احتمل ورجع بمعصية الله وغضبه، و«الرضوان» مصدر كالحسبان، وقرئ بضمّ الراء كالكفران.

وحاصل المعنى أنّ من أطاع النبيّ وخالفه ومن أتى بالغلول والأمانة لا يستوي بل مأوى من باء بسخط الله ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الضمير راجع إلى الموصولين باعتبار المعنى أي: طبقات متفاوتة والتقدير: ذوو درجات فوجب أن يكون بينهم تفاوتاً ذاتياً كالدرجات بسبب أعمالهم.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازيهم بحسبها، ودرجات أهل السعادة متفاوتة كما أنّ دركات أهل النار متفاوتة وأهل الجنّة أصناف: الرسل والأنبياء ثمّ الأولياء وهم أتباع الرسل على بصيرة من ربّهم، ثمّ المؤمنون وهم المصدّقون بها، ثمّ المؤمنون أيضا درجاتهم مختلفة وكلّ من هؤلاء المذكورة

١ـ المصدر السابق نفسه.

مراتبهم متفاوتة: منهم أصحاب منابر وهي الطبقة العليا، ومنهم أصحاب الأسرّة والعروش، ومنهم أصحاب الكرسيّ، ومنهم على كثبان النور. وكذلك أهل الدركات متفاوتون في العذاب قال النبي ﷺ: **«إنّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل يحذى له نعلان من نار يغلي من حرّهما دماغه ينادي:يا ربّ وهل أحد يعذّب عذابي»؟**[1]

هنا ينتهي الجزء الثاني من الكتاب مشتملاً على ١٢١ آية من سورة البقرة (١٦٥ ـ ٢٨٦) و١٦٣ آية من سورة آل عمران، ولله الحمد والمنّة.

١ـ تفسيرالرازي، ج ٩، ص ٧٦؛ وانظر: المصنف، ج ٨ ص ٩٤.

فهرس الأحاديث

(أ)

أبغضكم إليّ الثرثارون ٤٣
ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا ٢٧٦
أتاني آت من عند ربّي فخيّرني ١٤٥
أتاني ملك فبشّرني أنّ فاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة ونساء أمّتي ٢٧٦
اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله ٩٥
أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل ٣٠٤
ادفعوا العدوّ عنّا بالسهم حتّى لا يأتونا من ورائنا ٣٣٦
إذا أراد الله بأهل الأرض عذابا فنظر إليهم صرف العذاب ١٣٤
إذا أراد الله بقرية هلاكاً أظهر فيهم الرباء ١٨٣
إذا أوصى الرجل بوصيّة فلا يحلّ للوصيّ أن يغيّر وصيّته ٢٧
إذا سأل السائل فلا تقطعوا عليه مسألته ١٦٤
إذا سمّيتم الولد محمّداً فأكرموه وأوسعوا له في المجلس ٣٦٦
إذا ظهرت البدع فليظهر العالم علمه وإلّا فعليه لعنة الله ١٦
إذا كان يوم القيامة نادى مناد يسمع الجمع ١٦٧
إذا كان يوم القيامة وبعث من في القبور ٣٤
إذا كان يوم القيامة ويكون القضاء بينهم وكلّ امّة جاثية ١٦٧
إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث ٩٠

أربع نفقات لا يحاسب العبد بهنّ يوم القيامة ١٠٦
أربعة من الكبائر ٢٣٩
استحيوا من الله حقّ الحياء ٣٢٧
اسم الله الأعظم في ثلاث سور في سورة البقرة ٢٠٨
أضاءت لي قصور الحمر في أرض الشام ٢٣٤
أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى ٢٣٤
أعجز الناس من عجز من الدعاء وأبخل الناس من بخل بالسلام ٣٦
أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظنّ أنّ الله لا يغفر له ٥٨
أعوذ بك من الذنوب الّتي تهتك العصم ٤١
أفضل البقاع ما بين الركن والمقام ٣١٣
أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر ١٦
أفضل الصدقة جهد المقلّ إلى فقير في سرّ ١٧٧
أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح ١٨
ألا إنّ كلّ ربّي من رباء الجاهليّة موضوع ١٨٤
إلّا أن يكون الفعل الموجب للحدّ واقع في الحرم ٣١٢
ألا وإنّ دنياكم هذه عندي كعفطة عنز ١٦٥
الّذي تفوته صلاة العصر فكأنّما وتر أهله وماله ١١٤
الّذين يجورون في الحكم يحشرون يوم القيامة عمياً ٤٣
ألستم تعلمون أنّ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ٢٠٩
ألستم تعلمون أنّ ربّنا حيّ لا يموت وأنّ عيسى يأتي عليه الفناء ٢٠٩
ألستم تعلمون أنّ ربّنا قيّوم على كلّ شيء يحفظه ويرزقه ٢٠٩
ألستم تعلمون أنّ عيسى حملته امّه ٢٠٩
ألستم تعلمون أنّ عيسى غذا كما يتغذّى الصبيّ ٢٠٩
ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا ويشبه أباه ٢٠٩

ألم تروا كيف صرف الله عنّي شتم قريش ٣٦٦
إنّ أطيب ما أكله الرجل من كسبه ١٧٣
إنّ أعظم آية في القرآن آية الكرسيّ ١٤٩
إنّ أفضل الصلوات عند الله المغرب لم يحطّها الله عن مسافر ١١٣
إنّ التابوت كان الّذي أنزله الله على أمّ موسى فوضعت ابنها فيه ١٢٩
إنّ الزبانية إلى فسقة حملة القرآن أسرع منهم إلى عبدة الأوثان ١٦
إنّ السماوات والأرض وما فيهما من المخلوق في جوف الكرسيّ ١٤٧
أنّ الصدقة إذا خرجت من يد صاحبها قبل أن يدخل في يد السائل ١٧٠
إنّ العبد يعمل عملاً في السرّ فيكتبه الله سرّاً ١٧٧
إنّ العفو الوسط من غير إقتار ولا إسراف ٨٢
إنّ الله تعالى شكر لجعفر الطيّار أربع خصال ٨٠
إنّ الله طيّب ولا يقبل إلّا الطيّب ٩
إنّ الله قد قبل في قتل النفس شهادة شاهدين ١٩٥
إنّ الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت جيرانه البلاء ١٣٨
إنّ الله ما بعث آدم ومن بعده من الأنبياء إلّا أخذ عليهم العهد ٢٩٤
إنّ الله يحبّ الحييّ الحليم المتعفّف ويبغض البذيء السائل الملحف ١٧٩
إنّ الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها ٢٧٦
إنّ الله يهب لابن آدم ما لا بدّ منه ثوب يواري به عورته ٩
إنّ الملائكة الّذين نصروا يوم بدر ما صعدوا ٣٤٣
إنّ النّاس إذا رأوا منكراً فلم يغيّروه يوشك أن يعمّهم الله بعذابه ٣٢٢
إنّ الهلاك قد تدلّى على أهل نجران ٢٧٥
أنّ امّتي ظاهرة على الأمم كلّها فابشروا ٢٣٤
إنّ أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل يحذى له نعلان من نار ٣٨٩
إنّ آدم ما كان له أب ولا امّ ولم يلزم من ذلك ٢٧٤

أنّ عزيراً خرج من أهله وامرأته حامل وله خمسون سنة ١٦٠
إنّ عيسى لم يمت وإنّه راجع إليكم قبل يوم القيامة ٢٧١
إنّ فاطمة ضمنت لعليّ عليه السلام عمل البيت والعجن والخبز وقسم البيت ٢٥٠
إنّ في جهنّم رحى تطحن العلماء الفجرة ٤٣
أنّ متعة المطلّقة فريضة ١١١
إنّ من أحبّ الطعام إلى الله ما كثرت عليه الأيدي ٨٥
إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلّا الوقوف بعرفات ٥٨
أنا مدينة العلم وعليّ بابها ولا يؤتى المدينة إلّا من بابها ٤٥
أنا وكافل اليتيم كهاتين ٢٤٨
أنتم وفيتم سبعين امّة أنتم خيرها وأكرمها على الله ٣٢٥
إنّما سألتني عن الناس ولم تسألني عن نفسي ٢٧٧
أوّل من سوهم عليه مريم ابنة عمران ٢٥٧
إيّاكم ومحقّرات الذنوب ٩
أيها الناس إنّه قد أظلكم شهر فيه ليلة خير من ألف شهر ٣٣
أيها الناس إنّي تركت فيكم حبلين ٣١٩
أيها الناس لا تعجبوا بأنفسكم وبكثرة أعمالكم ٢٤١
آتاني الله القرآن وآتاني من الحكمة مثل القرآن ١٧٤
آل محمّد صلى الله عليه وآله أبواب الله وسبيله والدعاة إلى الجنّة ٤٥

(ب)

بخ بخ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة ٦٥
بعثت بالحنيفيّة السهلة السمحة ١٩٩
بكّروا بالصلاة في يوم الغيم فإنّه من فاتته صلاة العصر حبط عمله ١١٣

(ت)

تسوّموا فإنّ الملائكة تسوّمت ٣٤٢

تعلّموا العلم فإنّ تعلّمه لله حسنة ٢٢٦

(ث)

ثلاث من كنّ فيه فهو منافق ٢٨٨

ثلاث هنّ أصل الخطيئة فاتّقوهنّ ٢٨٥

ثلاثة في ظلّ عرش الله يوم القيامة ٨٤

ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ٢٨٩

(ج)

الجنان يشتقن إلى أربعة نفر ٣٤

الجنّة دار الأسخياء ٣٥٦

(ح)

حبّ الأولاد ستر من النار وكراماتهم جواز على الصراط ١٠٦

الحجّ والعمرة ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد ٣١٥

الحجون والبقيع يؤخذ بأطرافهما وينشران في الجنّة وهما مقبرتا مكّة والمدينة ٣١٤

(خ)

خيّروا أصحابكم فإن خيّروكم فهم منكم وإن اختاروهم فأجلوهم ١٥١

(د)

درهم رباء أعظم عند الله من سبعين زنية كلّها بذات محرم في بيت الله ١٨٣

(ر)

رأيت ليلة المعراج عند سدرة المنتهى ملكاً ٣٥
الرباء سبعون باباً أهونها عند الله كالّذي ينكح أمّه ١٨٣
رفع عن أمّتي الخسف والمسخ والغرق ١٩٩
رفع عن أمّتي الخطاء والنسيان وما استكرهوا عليه ١٩٧
ركب القوم طريقاً صعباً آثروا الجوع بعد ما أشبعهم الله ١٣٣
الركن اليماني بابنا الّذي ندخل منه الجنّة ٣١٣

(س)

ساعة من عالم يتّكئ على فراشه ينظر في علمه خير من عبادة العابد سبعين عاما ٢٢٦
الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ١٦٣
سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه ١٧٧
السخاء شجرة في الجنّة أغصانها في الدنيا ٣٥٦
السخاوة شجرة أصلها في الجنّة وأغصانها متدلّيات في دار الدنيا ١٦٣
السخيّ قريب من الله قريب من الجنّة ٣٥٦
سيأتي زمان على الناس لا يبقى أحد إلّا أكل الربا ١٨٣
سيأتي زمان لأمّتي يكون امراؤهم على الجور ٢٣٧
سيأتي على أمّتي زمان يظهر فيه أقوام يسمّون الخمر بغير اسمها ٨١
سيّد البشر آدم وسيّد العرب محمّد صلّى الله عليه وآله ١٤٩

(ص)

صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ ١٧٧
صدقة المؤمن تدفع عن صاحبها آفات الدنيا ١٦٣
الصوم لي وأنا أجزي به ٣٠

(ف)

فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله ٨٥
فعلى العاقل أن يقضي ما عليه من الديون ١٨٦
في آخر سورة البقرة آيات إنّهن قرآن وإنّهن دعاء وإنّهن يرضين الرحمن ٢٠٠

(ق)

قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بالحاسد قبل المحسود ٢٨٥
قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيًا ٢٣٠
قد فوّض إلى النساء ثلاثة أشياء ٩٤
القرآن غني لا غنى بعده ١٧٥
قوام الدنيا بأربعة أشياء ٣٨

(ك)

كان رسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم ٢١٤
كانت قريش يقامر الرجل في أهله وماله فنهاهم الله ٤٢
كانوا قبل نوح امّة واحدة على فطرة الله ٧١
كن في الدنيا كانك غريب أو عابر سبيل ولا تتخذها وطنا ٣٠١
كن وسطا وامش جانبا ٢٣٨

كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين ١٩٦

(ل)

لا تتمسّكوا بشيء ممّا نسخ ودعوا ما ألفتموه ٦٦
لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين ٩١
لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتّى يسأل عن أربع ٣٣١
لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا عليّ ٣٣٩
لا يبلغ العبد أن يكون من المتّقين حتّى يدع بعض ما لا بأس به ٣٢٧
لا ينقضي كلام شاهد زور من بين يدي الحاكم حتّى يتبوّأ مقعده من النار ١٩٣
لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه ٢٤٢
لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه والمحلّل ٣٥٣
لكلّ شيء ذروة وذروة القرآن آية الكرسيّ ١٥٠
للربى اثنان وسبعون حوباً أصغرها كمن أتى امّه في إسلام ٣٥٣
لن يلج ملكوت السماوات من لم يولد مرّتين ٣٠, ٢٤٤
لو أنكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله لبرزقكم ٣٨٥
ليردنّ عليّ الحوض ممّن صحبني أقوام إذا رأيتهم اختلجوا ٣٢٣

(م)

ما رأيت شيئا إلّا ورأيت الله معه ١٤٣
ما من عبد يذنب ذنبا فيحسن الطهور ثمّ يقوم ويصلّي ٣٥٨
ما من مولود يولد إلّا والشيطان يمسّه حين يولد ٢٤٧
ما ينبغي لنبيّ أن يلبس لابته فيضعها حتّى يقاتل ٣٣٦
معاذ الله أن نعبد غير الله ونأمر بعبادة غير الله ٢٩٠
المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة ٢٤٠

من ادّان ديناً وهو ينوي قضاءه وكّل به ملائكة ١٨٦
من أضاف مؤمناً فكأنّما أضاف آدم ٨٥
من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله ٣٢١
من أوتي قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على أمر ٥٩
من ائتمن على الأمانة فأدّاها ولو شاء لم يؤدّها ٢٨٨
من بعثناه على عمل فغلّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه ٣٨٦
من تصدّق بصدقة فله مثلاها في الجنّة ١٢٢
من حافظ على ثلاث فهو وليّ الله حقّاً ٣٤
من حجّ بيت الله من كسب الحلال ٦٢
من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها مال أخيه المسلم ٢٨٩
من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه ٣٢
من صبر على حرّ مكّة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنّم ٣١٤
من صلّى العشاء الآخرة في جماعة كان كقيام نصف ليلة ١١٤
من قرأ أربع آيات من أوّل البقرة وآية الكرسيّ ٢٠٤
من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة ٢٠٤
من قرأ آية الكرسيّ صرف عنه ألف مكروه من مكاره الدنيا ١٥٠
من قرأ آية الكرسيّ في دبر كلّ صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنّة ١٥٠
من قرأ سورة البقرة وآل عمران جاءتا يوم القيامة تظلّانه ٢٠٤
من قرأ سورة آل عمران أعطي بكلّ آية منها أماناً على حرّ جسر جهنم ٢٠٧
من قرأ سورة آل عمران يوم الجمعة صلّى الله عليه وملائكته ٢٠٧
من قطع رجاء من التجأ إليه قطع الله رجاءه ١٧١
من كانت نيّته طلب الآخرة جعل الله غناه في قلبه ٣٦٨
من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً ٣٥٥
من لم يحبسه حاجة ظاهرة من مرض حابس أو سلطان جائر ٣١٥

من لم يوص عند موته لذوي قرابته ممّن لا يورث فقد ختم عمله بالمعصية ٢٦

من مات في أحد الحرمين بعث يوم القيامة آمنا ٣١٣

من مات وهو سكران فإنّه يعاين ملك الموت سكراناً ٣٢٤

من وضع يده على رأس يتيم ترحّما عليه كانت له ٨٤

(ن)

نحن حبل الله الّذي قال سبحانه ٣١٩

نزلت صحف إبراهيم أوّل ليلة من رمضان ٣٢

نيّة المؤمن خير من عمله ١٦٣

(ي)

يا أبا ذر جدّد السفينة فإنّ البحر عميق ١٧٢

يا أبا هريرة كن بطريق أقوام إذا فزع الناس لم يفزعوا ١٣٣

يا بريدة لا تبغض عليّا فإنّه منّي وأنا منه ٢٧٧

يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلّا اسمه ٣١٨

يبعث امّتي يوم القيامة عن قبورهم غرّاً محجّلين من آثار الوضوء ١٨١

يبعث كلّ عبد على ما مات عليه ٣٢٤

يحشر أصناف من أمّتي أشتاتاً ٤٣

يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قطّ ٢٤٠

المصادر

١ـ القرآن الكريم، كتاب الله تبارك وتعالى الحي القيوم.

٢ـ الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين عليه السلام (السجاد) (ت ٩٤ هـ ق)

٣ـ الاحتجاج، الطبرسي أبو منصور أحمد بن علي بن أبي طالب (ت ٥٨٨ هـ ق).

٤ـ أحكام القرآن، الجصاص، أبي بكر أحمد بن علي الرازي.

٥ـ الاختصاص، الشيخ المفيد، أبو عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣ هـ ق).

٦ـ أسباب النزول، الواحدي، أبوالحسن علي بن أحمد بن محمّد النيسابوري (ت ٤٦٨ هـ ق).

٧ـ الإستبصار فيما اختلف من الأخبار، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

٨ـ الإستبصار في نسب الصحابة الأنصار، عبدالله بن أحمد بن موفق الدين ابن قدامة (ت:٦٢٠ هـ ق).

٩ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، إبن الأثير الجزري، عزالدين علي بن أبي الكرم محمّد بن محمّد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ ق).

١٠ـ إعانه الطالبين علي حل الفاظ فتح المعين، بكري المكي ابن السيد محمد شطا عمر الله الدمياطي.

١١ـ الألفية والنفلية، الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي.

١٢ـ الأمالي الشيخ الطوسي، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).

١٣ـ الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية.

١٤ـ بحار الأنوار، المجلسي، محمّد باقر محمّد تقي (ت ١١١٠ هـ ق).

١٥ـ البداية والنهاية، ابن كثير، ابو الفداء، عماد الدين اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).

١٦ـ بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد عليهم السلام، الصفار، محمد بن حسن (ت ٢٩٠ هـ ق).

١٧ـ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ ق).

١٨ـ تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ ق).

١٩ـ تاريخ (الرسل والأمم والملوك)، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ ق).
٢٠ـ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة اللّه الدمشقي (ت ٥٧١ هـ ق).
٢١ـ التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـق).
٢٢ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الامامية، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـق).
٢٣ـ التحصين في صفات العارفين، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق).
٢٤ـ تحف العقول، ابن شعبة، أبو محمّد الحسن بن علي بن الحسين الحراني الحلبي (ت ٣٨١ هـ ق).
٢٥ـ تحفة الأحوذي (شرح جامع الترمذي)، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري الهندي.
٢٦ـ تذكرة الفقهاء، العلامة الحلي، حسن بن يوسف، (ت ٧٢٦ هـق).
٢٧ـ تذكرة الموضوعات، أبو الفضل محمد بن طاهر بن أحمد المقدسي.
٢٨ـ تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، محمد بن محمد العمادي أبو السعود.
٢٩ـ تفسير البغوي (معالم التنزيل فى تفسير القرآن)، حسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٦ هـ ق).
٣٠ـ تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل و أسرار التأويل)، أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي (ت ٦٩١ هـ ق).
٣١ـ تفسير الثعلبي (الكشف و البيان عن تفسير القرآن)، ابو اسحاق احمد بن ابراهيم الثعلبى النيشابوري (ت ٤٣٧ هـ ق).
٣٢ـ تفسير الجلالين، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي.
٣٣ـ تفسير روح المعاني، ابو الفضل، شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ ق).
٣٤ـ تفسير الرازي (روض الجنان و روح الجنان فى تفسيرالقرآن)، ابوالفتوح حسين بن على الرازي.
٣٥ـ تفسير السمرقندي (بحر العلوم)، نصر بن محمد بن احمد السمرقندى.
٣٦ـ التفسير الصافي، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
٣٧ـ تفسير العياشي، ابن عياش، أبو النصر محمّد بن المسعود بن محمّد التميمي الكوفي السلمي السمرقندي (من أعلام القرن الثالث الهجري).
٣٨ـ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل بن عمر البصري الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ ق).
٣٩ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، القرطبي، أبو عبداللّه محمّد أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ ق).
٤٠ـ تفسير القمي، القمي، أبو الحسن علي بن ابراهيم بن هاشم (ت ٣٠٧ هـ ق).

٤١ـ تفسير الكشاف (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)، ابو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٢٨ هـ ق).
٤٢ـ التفسير المنسوب الي الإمام العسكري عليه السلام.
٤٣ـ تفسير جوامع الجامع، فضل بن حسن الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ ق).
٤٤ـ تفسير كنز الدقائق و بحر الغرائب، محمد بن محمد رضا القمي المشهدي.
٤٥ـ تفسير نور الثقلين، عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي (ت ١١١٢ هـ ق).
٤٦ـ تنبيه الخواطر و نزهة النواظر المعروف بمجموعة ورام، ورام بن أبي فراس (ت ٦٠٥ هـ ق).
٤٧ـ تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، شرف الاسلام بن سعيد المحسن بن كرامة (ت ٤٩٤ هـ ق).
٤٨ـ تنزية الأنبياء، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٤٩ـ تهذيب الأحكام، شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت ٤٦٠ هـ ق).
٥٠ـ ثمار القلوب في المضاف و المنسوب، ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩ هـ ق)
٥١ـ ثواب الأعمال و عقاب الأعمال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق)
٥٢ـ جامع أحاديث الشيعة، السيد حسين البروجردي، (ت ١٣٨٠ هـ ق)
٥٣ـ جامع الأخبار، محمد بن محمد الشعيري (من اعلام القرن السادس الهجري).
٥٤ـ جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ ق).
٥٥ـ جامع السعادات، العلامة النراقي، محمد مهدي بن أبي ذر (ت ١٢٠٩ هـ ق).
٥٦ـ جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي البصري الدوسي (ت ٣٢١ هـ ق).
٥٧ـ الجواهر السنية في الأحاديث القدسية، محمد بن حسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).
٥٨ـ جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام، محمد حسن بن باقر النجفي (ت ١٢٦٦ هـ ق).
٥٩ـ الحبل المتين في أحكام الدين، الشيخ البهائي، الشيخ محمد بن حسين العاملي (ت ١٠٣٠ هـ ق).
٦٠ـ الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الشيخ يوسف البحراني (ت ١١٨٦ هـ ق).
٦١ـ حلية الأبرار في أحوال محمّد و آله الأطهار عليهم السلام، السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ ق).
٦٢ـ الخصال، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
٦٣ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ ق).
٦٤ـ الدعوات (سلوة الحزين)، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٦٥ـ رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ ق).
٦٦ـ روضة الواعظين و بصيرة المتعظين، محمد بن احمد الفتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ ق).
٦٧ـ زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ ق).
٦٨ـ زبدة البيان في أحكام القرآن، المقدس الأردبيلي، احمد بن محمد (ت ٩٩٣ هـ ق).
٦٩ـ سعد السعود، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
٧٠ـ سنن ابن ماجة، ابن ماجة، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧١ـ سنن أبي داود، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن سداد الأزدي (ت ٢٧٥ هـ ق).
٧٢ـ السنن الكبرى، البيهقي، أبوبكر أحمد بن الحسين بن علي (ت ٤٥٨ هـ ق).
٧٣ـ سير أعلام النبلاء، الذهبي، أبو عبدالله شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ ق).
٧٤ـ السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون)، الحلبي، علي بن إبراهيم الحلبي الشافعي.
٧٥ـ شجرة طوبى، محمد مهدي الحائري.
٧٦ـ شرح احقاق الحق، السيد شهاب الدين المرعشي النجفي (ت ١٤١١ هـ ق).
٧٧ـ شرح أصول الكافي، المولى محمد صالح المازندراني (ت ١٠٨١ هـ ق).
٧٨ـ شرح الأزهار (المنتزع المختار من الغيث المدرار)، أحمد بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ ق).
٧٩ـ شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، عبدالحميد بن هبة الله بن محمّد بن الحسين المدائني المعتزلي (ت ٦٥٥ هـ ق).
٨٠ـ شواهد التنزيل لقواعد التفضيل، الحاكم الحسكاني، عبيدالله بن عبدالله بن أحمد الحذاء الحنفي النيسابوري (من أعلام القرن الخامس الهجري) (المتوفى بعد سنة ٤٧٠ هـ ق).
٨١ـ صحيح البخاري، البخاري، أبو عبدالله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن مغيرة بن بودزبه الجعفي (ت ٢٥٦ هـ ق).
٨٢ـ صحيح مسلم، القشيري النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١ هـ ق).
٨٣ـ الطبقات الكبرى، ابن سعد الواقدي، محمّد بن سعد بن منيع الزهري الكاتب (ت ٢٣٠ هـ ق).
٨٤ـ عدة الداعي ونجاح الساعي، جمال الدين احمد بن محمد بن فهد الحلّي (ت ٨٤١ هـ ق)
٨٥ـ علل الشرايع، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٦ـ عوالي اللآلي العزيزيّة، ابن أبي جمهور، محمّد بن علي بن ابراهيم الاحسائي (من أعلام القرن التاسع الهجري).

٨٧ـ عيون أخبار الرضاعليه السلام، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).

٨٨ـ عيون الحكم والمواعظ، علي بن محمد الليثي الواسطي (من اعلام القرن السادس الهجري).

٨٩ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، العسقلاني، أحمدبن علي بن حجر (ت ٨٥٢ هـ ق).

٩٠ـ الفتوحات المكية، محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي (ت ١٢٤٠ هـ ق).

٩١ـ فرج المهموم في تاريخ علماء النجوم، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٢ـ الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمةعليهم السلام، ابن الصباغ، علي بن محمّد بن أحمد المالكي المكّي (ت ٨٥٥ هـ ق).

٩٣ـ فقه القرآن، قطب الدين الراوندي (ت ٥٧٣ هـ ق).

٩٤ـ فلاح السائل و نجاح المسائل، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).

٩٥ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير)، المناوي، أبو زكريّا يحيى بن محمّد عبدالرؤوف (ت ١٠٣١ هـ ق).

٩٦ـ قواعد المرام في علم الكلام، ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت ٦٩٩ هـ ق).

٩٧ـ الكافي، الكليني أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن اسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ ق).

٩٨ـ كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، العجلوني، اسماعيل بن محمد (ت ١١١٩ هـ ق).

٩٩ـ كشف الغطاء عن مبهمات شريعة الغراء، كاشف الغطاء، جعفر بن خضر (ت ١٢٢٧ هـ ق).

١٠٠ـ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين (ت ٩٧٥ هـ ق).

١٠١ـ كنز الفوائد، محمد بن علي الكراجكي (ت ٤٤٩ هـ ق).

١٠٢ـ كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق، عبدالرؤف بن تاج العارفين المناوي الحدادي (ت ١٠٣١ هـ ق).

١٠٣ـ لسان العرب، ابو الفضل محمد بن مكرم، ابن منظور الافريقي المصري (ت ٧١١ هـ ق).

١٠٤ـ لسان الميزان، الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢ هـ ق).
١٠٥ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن بن الفضل (ت ٥٤٨ هـ ق).
١٠٦ـ المجموع في شرح المهذب، يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ ق).
١٠٧ـ المحاسن، ابو جعفر احمد بن محمد بن خالد البرقي، (ت ٢٨٠ هـ ق).
١٠٨ـ المحجة البيضاء في تهذيب الإحياء، المولى محسن الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ ق).
١٠٩ـ المحصول في علم الأصول، محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٦ هـ ق).
١١٠ـ المحلى في شرح المجلى بالحجج والآثار، ابو محمد علي بن احمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الظاهري (ت ٤٥٦ هـ ق).
١١١ـ مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل، حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ ق).
١١٢ـ مصباح المتهجد، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٣ـ المصنف في الأحاديث والآثار، ابن ابي شيبة، أبوبكر عبدالله بن محمّد بن ابراهيم بن عثمان العنبسي الكوفي (ت ٢٣٥ هـ ق).
١١٤ـ مكارم الأخلاق، ابو نصر رضي الدين حسن بن فضل الطبرسي (من اعلام القرن السادس الهجري).
١١٥ـ الملاحم والفتن، ابن طاووس، رضي الدين أبوالقاسم علي بن موسى بن جعفر الحسيني (ت ٦٦٤ هـ ق).
١١٦ـ من لايحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت ٣٨١ هـ ق).
١١٧ـ مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ابو جعفر رشيد الدين محمّد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ ق).
١١٨ـ الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطباطبائي (ت ١٤٠٢ هـ ق).
١١٩ـ النصائح الكافية، السيد محمد بن عقيل بن عبد الله بن عمر بن يحيى العلوي (ت ١٣٥٠ هـ ق).
١٢٠ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ ق).

المحتويات

تتمة سورة البقرة.. ٥

سورة آل عمران ٢٠٧

فهرس الأحاديث.. ٣٩١

المصادر ٤٠١

المحتويات.. ٤٠٧